أحمد الشرباصي

في عالم المكفوفين

الجزء الثاني



بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلي وأسلم على أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم محمد وآله وأصحابه وأتباعه ، وأستفتح بالذى هو خير : ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير .

الطبعة الأولى

١٣٧٨ هـ — ١٩٥٩ م

الإهداء

إلى كل مكفوف يريد أن يكون شيئا مذكورا فى هذه الحياة ، ويتلمس الطريق السَّوىّ إلى هذا الذى يريد أن يكون . . .

وإلى كل مكفوف كافح وناضل ، حتى بلغ ووصل ، وبقى عليه أن يؤدى واجبه نحو أشقائه المكفوفين ، تعليما لهم وتقويما ، وإرشادا وتوجيها . . .

* * *

إلى المبصرين الذين أهملوا النهوض بما عليهم من تبعة نحو هؤلاء الذين حرمتهم الأقدارُ نعمةَ الإبصار ، ومن واجب هؤلاء المبصرين ألا يصروا على هذا الإغفال لأشقائهم المكفوفين . . .

وإلى القلائل من المبصرين الذين شرعوا يؤدون واجبهم نحو هؤلاء المكفوفين ، معاهدين ربّهم أن يثابروا على تقديم مايستطيعون من مجهود كريم فى هذا الميدان . . .

* * *

إلى هؤلاء جميعا أهدى هذا الجزء الثانى من كتابى (فى عالم المكفوفين) ، راجيا أن يكون حافزا جديدا من حوافز النهضة النافعة الواسعة بالمكفوفين ، ليصيروا أندادا لإخوانهم فى النفع والانتفاع .

والله سبحانه خير مستعان ، وهو يهدى العاملين ؟

أحمد الشرباصى

تقديم

هذا هو الجزء الثانى من كتابى (فى عالم المكفوفين) ، أقدمه على استحياء كما قدمت أخاه من قبل إلى الذين يريدون — من المبصرين والمكفوفين — أن يقرأوا عن عالم المكفوفين الواسع الفسيح .

و إذا كنتُ قد قدمت الجزء الأول وأنا لا أجد ممن يعنون بشئون المكفوفين إلا النفر القليل ، فإنى أقدم هذا الجزء الثانى وأنا أحمد الله تبارك وتعالى على انبثاق وعى كريم فى المجتمع ، أشعره بواجبه نحو المكفوفين ، وأشعر المكفوفين أنفسهم بما يجب عليهم ؛ وإن كنت لا أزال أرى بيننا و بين بلوغنا ما ينبغى فى هذا المجال مراحل ومراحل ؛ وما زلت أدعو — وألح فى الدعوة — إلى أن يقدر المجتمع تبعته نحو هؤلاء المكفوفين ، وأن يهيىء الجو الصالح لتوجيههم وتدريبهم، والانتفاع بمواهبهم وطاقاتهم على أوسع نطاق ، و إشراكهم فى حياة المجتمع العامة بلا تعويق أو تضييق ! . . .

ولا أكتم القارىء أننى أقدمت على كتابة الجزء الأول من هذا الكتاب ونشره وأنا أعلم أن موضوعه جديد غريب ، فهو ليس موضوعاً شعبياً عاماً له قراؤه ونصراؤه ، و إنما هو مقصور على الخاصة ، أو الذين لهم صلة قائمة بشئون المكفوفين ؛ ومعنى هذا أننى كنت أقدر قلة الإقبال من جمهور القراء على هذا الكتاب ، و بخاصة فى مجتمع ينصرف أغلب قارئيه إلى خفيف الأدب لا إلى دسمه، وإلى زَبَد الكلام لا إلى زُبْدته ، ومع ذلك أقدمت ، و برغم أن الموضوع جديد أو غريب ، شاءت إرادة الله ألا تخذلنى ، بل جعلت من الضعف قوة ، ومن الخوف والخشية مجالا للعزيمة والإقدام ، فبجوار ما لاقاه الكتاب من تقدير الكاتبين والناقدين والمكرِّمين ، قررت جامعة الدول العربية استحقاقه جائزة

الكتاب العربى المختار ، وهى جائزة وصفتها الجامعة بأنها رمزية وقدرها مئة جنيه ، كما قررت توزيع نسخ من الكتاب على « المكتبات العامة ومكتبات المعاهد الدينية العليا و بعض المدارس الثانوية فى البلاد العربية تعميما للفائدة المتوخاة » .

وكذلك كتب الأمين العام المساعد للجامعة يتحدث عن المبادرة إلى طبع الكتاب بالحروف البارزة (بطريقة برايل) ليقرأه المكفوفون بأصابعهم ، ففيه كما قال « نور لبصائرهم ، وعلم لعقولهم ، وتعزية لقلوبهم » ! . . . وقرر المركز النموذجى لتوجيه المكفوفين تدريس الكتاب فيه ، وجعله مرجعاً دراسياً لمبعوثى الدول العربية الذين تختارهم دولهم ليتخصصوا فى شئون المكفوفين وتوجيههم ، حتى يكونوا رواداً فى بلادهم للنهوض بالمكفوفين ، كما قرر المركز طبع الكتاب بطريقة برايل ، واستمرار مؤلفه فى إلقاء محاضراته بالمركز على المبعوثين والمكفوفين فى مختلف شئون المكفوفين ، كما اقترح مديره ترجمة الكتاب إلى الإنجليزية ...

ونذكر فى مقام التقرير للحقائق أن سمو الشيخ عبد الله الجابر الصباح رئيس المعارف والمحاكم والأوقاف بالكويت كان — كما ذكرت فى الجزء الأول — سباقا إلى العطف على جمعيات المكفوفين ؛ و إظهار الحرص على نشر البحوث المتعلقة بشئونهم ؛ وما كاد الجزء الأول يُطبع ، حتى حرص سموه وهو الذى يرأس النهضة التعليمية فى بلده على أن يأخذ الكتاب طريقه إلى الإمارة المتوثبة ، ومن صنع الله الغالب على أمره أنه ما كادت صفحات الكتاب تقع تحت أنظار المسئولين هناك حتى أخذ (معهد النور للمكفوفين فى الكويت) يتبدى للأنظار دعامة قوية مستقلة لتنهض بالمكفوفين فى الإمارة الشقيقة ، وتلك بشرى طيبة ، وفأل حسن ، وتكريم لموضوع الكتاب .

ولذلك خصَصتُ المكفوفين فى الكويت ومعهد نورهم بحديث يمر علينا خلال هذا الكتاب ، وذكرت جانبا من الشعر الكويتى فى المكفوفين ، والمأمول أن تستمر عناية الكويت بموضوع المكفوفين الذى يتطلب الكثير

من التأييد والتعضيد ؛ وأرجو ألا تقتصر عناية الكويت على المكفوفين فيها ، بل تتسع حتى تشارك فى النهوض العلمى والاجتماعى بالمكفوفين فى بلاد العروبة والإسلام ، فقد هيأ الله للامارة من أسباب الاقتدار المالى ما يجعلها أهلا لتحمل هذا الواجب ، وظنى أنها لا تتخلى عنه . . .

وعرفان الصنيع الحميد يقتضى أن نذكر بالشكر والثناء الرجل النبيل ، معالى الشيخ محمد سرور الصبان ، فقد عرف لكتاب (فى عالم المكفوفين) قدره ، وفتح أمامه الباب لكى يعبر بحر العرب (البحر الأحمر) إلى الأرض الطيبة ، إلى منزل الوحى...وكان من وراء ذلك أن جرى للمكفوفين فى تلك الديار حديث ، و بدت بهم عناية ، وطالع الكتاب هناك مطالعون ، ودرسه دارسون ، وكتب عنه كاتبون ... وما أذكر ذلك تباهيا ، بل تحدثا بنعمة الله وفضله ، راجيا أن تتصل العناية الكريمة المؤازرة على نشر البحوث المختلفة المتعلقة بالمكفوفين ؛ وما دامت هذه العناية قد ظهرت أولا بدافع التقدير والاختيار فهى جديرة بأن تستمر وتدوم ...

والمملكة العربية السعودية — بما آتاها الله من قدرة وثروة — أهل لأن تُسهم بنصيب كبير فى النهضة بالمكفوفين الذين يوجَدون داخلها ، أو فى البلاد العربية والإسلامية ، ولدى القادرين من أبناء الأرض الذى تنزلت فيها رسالة الهدى والنور أمانة تستحق الصيانة والأداء ، وهى أن يزكوا نفوسهم ودنياهم بمناصرة الجهود التى تبذل فى هذا الميدان ... بل هذا واجب كل قادر — ماديا أو أدبيا — فى بلاد العروبة والإسلام .

وإذا كان الكتاب قد لاقى نصيبه من التأييد والتقدير على الوجه الذى ذكرت ، فقد سُدّت دونه منافذ ، وصمّت آذان ، فى بيئات وهيئات مرنت على الجحود ، ومردت على النكران ، مع أن من صميم رسالتها وواجبها أن تكون أسبق من غيرها إلى تأييد هذا المجهود وتشجيعه ماديا أو أدبيا ، وما بى من رغبة فى تحديد أماكن أو ذكر أسماء ، فالذين لا يستجيبون لداعى الواجب من تلقاء

أنفسهم ، لا يحرضهم على أدائه أن يقال إنهم تقاعسوا عنه !! ...

* * *

والمتعة الروحية الكبرى فى هذا المجال هى أن يتطلع الإنسان الآن فيرى عالم المكفوفين قد دنا من عالم المبصرين واقترب ، ويرى أنصاراً لقضايا المكفوفين يعطفون عليها ويعنون بها ، ويرى جهوداً تتبدى من هنا ومن هناك لوصل هؤلاء الأشقاء بموكب الحياة العريض ، ويرى منظمات تقوم لرعايتهم وتوجيههم وتدريبهم ، فيدعو لها بالنجاح والتوفيق ، واطراد السعى على سواء الطريق ....

ولعل سائلا يسأل : وما موقف الأزهر الشريف من قضايا المكفوفين وموضوعاتهم ؟... ولعله يسأل هذا السؤال لأن المؤلف أزهرى ويدرّس فى الأزهر ، ولأن الأزهر هو الجامعة التى تضم أكبر عدد من المكفوفين بالنسبة إلى سائر جامعات العالم ... ويظهر كأن الأزهر الشريف يحرص على أن يكون آخر من يحس بواجبه نحو المكفوفين أو ينهض به .

إن الأزهر يضم فى كلياته ومعاهده عددا ضخما هائلا من المكفوفين ، وقد نال المكفوفون هنا وهناك حظوظا مختلفة من التوجيه والرعاية ، وأقلهم حظا فى ذلك هم مكفوفو الأزهر ، وحسبك أن تعلم أن الأزهر حتى اليوم لا يدرّس لمكفوفيه مواد الإملاء والمطالعة والخط والرسم والجبر والحساب والهندسة والطبيعة والكيمياء وعلم النبات وعلم الحيوان ... مع أن هذه المواد كلها وغيرها — مما هو أدق منها وأشق — يدرسه المكفوفون فى البيئات التى تعنى بهم وتعرف واجبها نحوهم .

ومن مظاهر التخلف العجيب أن يقال مثلا حتى اليوم فى أوراق الامتحانات الأزهرية : « المكفوفون معفون من المطالعة ، ويكفى لنجاحهم فى المحفوظات أن يحصلوا على النهاية الصغرى وهى عشر درجات » ! ! .

ومن عواقب إهمال الأزهر للمكفوفين من أبنائه أنك تراجع نتائج الامتحانات فى الشهادات فتجد أن أسوأها هى نتيجة المكفوفين ، وكثيرا

ما تجد الطالب المكفوف راسباً فى جملة مواد ، لا فى مادة أو مادتين ، مع ما عند المكفوفين عادة من ذكاء وموهبة ، وذلك لأنهم مضيّعون فى الأزهر الشريف هداه الله وقواه ! .

ولقد بحت أصواتنا من كثرة مناداتنا منذ سنوات بإدخال طريقة (برايل) فى تعليم المكفوفين بالأزهر ، و بعد اللتيا والتى أدخلوا هذه الطريقة فى ضعف واستخذاء ، وما زال طلاب الأزهر المكفوفون حتى اليوم يتلقون علومهم مع قلتها بطريقة السماع فقط !! . . .

معاذ الله ومعاذ الوفاء للأزهر أن نرتضى هذا التقصير ، أو نسكت على هذا التخلف . و إنها لتبعة ثقيلة نتحملها أمام الله وأمام الناس وأمام التاريخ إن رضينا بهذا الإهمال وهذا الإغفال ... فيا أيها الناعمون فى أروقة الأزهر ، لقد جدت الدنيا فجدوا ، وتحرك العالم فتحركوا ، ونهض المجتمع الحديث بمكفوفيه ، فماذا صنعتم لمكفوفيكم يابنى الأزهر ؟! ...

* * *

إن الأزهر هو الجامعة الإسلامية العربية الكبرى التى طاولت الأحداث وغالبت الحوادث، وهى تضم عددا هائلا من المكفوفين، لأن كل مكفوف فى ديارنا يتجه أهلوه به أول مايتجهون إلى الأزهر ، وهذا شىء معروف ومألوف ، ومن وراء هذا تجمع جيش ضخم من المكفوفين فى الأزهر ، ومن الواجب أن يتعلم هؤلاء بأحدث الطرق التربوية والوسائل التدريبية التى يسير عليها تعليم المكفوفين فى العصر الحديث .

وأنا أقترح إنشاء معهد للمكفوفين فى الأزهر ، تزوده الدولة بكل مايحتاج إليه تدريبُ طلابه وتوجيههم وتعليمهم ، مع عدم قطع الصلات والروابط التى يجب أن تتوثق مع الأيام بين المكفوفين والمبصرين فى الأزهر ، حتى لا يحس المكفوفون يوما ما بأنهم طائفة منعزلة ، أو جماعة منفصلة عن كيان المجتمع.

وإنشاء هذا المعهد يحتاج بطبيعة الحال إلى خطة ومنهاج ومال وأساتذة وغاية ، ويتطلب القيام بدراسة واعية بصيرة لحال المكفوفين فى الأزهر ، فيكون هناك إحصاء دقيق شامل مفصل عنهم ، لنعرف عدد المكفوفين فى كل معهد أو كلية ، ويكتب بيان خاص بكل مكفوف ، نسجل فيه اسم المكفوف وسنه ومكان ميلاده ، وسبب كف البصر عنده ، وتأثير ذلك فى نفسه وحياته ، ومستوى الذكاء والثقافة عنده ، وحالته النفسية والصحية والاجتماعية والأخلاقية ، وما يمكن استغلاله فيه ، والمواهب التى يتيسر تفجيرها وإظهارها عنده ، والأشياء التى يميل إليها ... إلخ .

ثم نُرتب هذه البيانات وننسقها فى مجموعات متلائمة ، ونتخذها أساساً لوضع الخطوط الرئيسية التى نتبعها للنهوض بهؤلاء المكفوفين علمياً وأدبياً واجتماعياً وصحياً ؛ وذلك بعد الوقوف الواعى البصير على الوسائل والأساليب التى تتبعها البيئات المتحضرة المعاصرة فى تعليم المكفوفين وتدريبهم ، فى الشرق والغرب .

ومن الواجب على الأزهر أن تتفرغ طائفة من أبنائه للتخصص فى شئون المكفوفين وتثقيفهم وتخريجهم ، حتى يكونوا رواداً للنهوض بهؤلاء المكفوفين، ومن الواجب على الأزهر أن يرسل طائفة من أبنائه فى بعثات علمية قصيرة الأمد أو طويلة إلى أمريكا وأوربا لدراسة شئون المكفوفين هناك والوسائل المتبعة لدى القوم فى تعليمهم وتقويمهم ، فإن فى كل من أوربا وأمريكا معاهد ومدارس ومراكز اتسعت مناطق نشاطها وجهودها المبذولة لخدمة المكفوفين ، والأزهر أولى من هؤلاء جميعا لو أنصف نفسه وأنصف أبناءه ... إنه أولى من هؤلاء جميعاً برعاية المكفوفين ، لأن هذا واجب إسلامى أولا ، ولأنه واجب عربى ثانياً، ولأنه واجب إنسانى ثالثا ، ولا يستقيم الأزهر فى النهوض برسالته ما لم يعرف أنه للاسلام والعروبة والإنسانية...ولعل أهل الأزهر لايكونون آخر من يستمع إلى من يخطب فيه !!!...وإلا خشينا أن يأتى الاستماع والاستجابة يوما من الأيام بالقسر والإكراه !!...

وليذكر الأزهر مع الناس جيدا أن أكثر اللامعين من المكفوفين فى مجتمعنا كانوا طلابا فى الأزهر ، ثم كافحوا وناضلوا ، فبرزت مواهبهم ، وتجلت طاقاتهم العلمية والأدبية ، فكان لهم من الشأن والذكر ما كان ، وقد نبغ هؤلاء برغم مالاقوه من إهمال وإجحاف واعتساف وعنت ، فماذا يكون شأنهم ، وإلى أى مدى يصل ذكرهم ، لو أنهم استقاموا على الطريقة منذ فاتحة الطريق ؟. .

وكم يكون عدد اللامعين والنابغين من هؤلاء إذ هيأنا لمواهبهم وطاقاتهم أن تتجلى وتتفجر منذ البداية ؟ ! . . رحم الله (شوقى) يوم قال :

والله ما تدرى لعل كفيفهم يوماً يكون أبا العلاء المبصرا

يا قوم ، إن فى أعناقكم ذنب التضييع لهؤلاء ، والله من ورائكم محيط !!.

* * *

وأحب أن أهمس بعد هذا فى آذان : وزارة التربية والتعليم ، ووزارة الثقافة والإرشاد القومى ، ووزارة الشئون الاجتماعية والعمل ، مذكرًا بأنه لاينبغى بوجه من الوجوه أن تُغلَق هذه الآذان دون الاستجابة لدعوة التأييد والتعضيد لهذه الجهود الفردية الشاقة التى تُبذل فى مجتمعنا للتعريف بشئون المكفوفين ، والبحث لنواحيهم المختلفة ، فإن من صميم واجب هذه الوزارات أن تشد عضد هذه الجهود بما يكفل لها الدوام والاستمرار ، إذ لا تستطيع هذه الجهود مواصلة سيرها بدون المؤازرة من أمثال هذه الجهات ، وذلك لقلة النصير وضعف الإقبال ... وإذا كان أصحاب الألسنة الطويلة يتحدثون مسرِّين أو معلنين عن سوابغ من العون تفاض هنا أو هناك ، فأحق الناس بالمؤازرة أولئك الذين يجاهدون من أجل هدف اجتماعى رفيع ، يسيرون نحوه على طريق غير معروف ، أو مسلك غير مألوف ! ! . .

* * *

هذا ، وقد تلاحظ فى تتابع فصول الكتاب لونا من عدم الدقة فى الترتيب أو التبويب ، وهذا شىء يدركه المؤلف قبل أن يلاحظه القارئ ، ومن سببه عدم التزام خطة محدودة موضوعة من قبل ، لأن ميدان الكتابة فى هذا الموضوع

ليس فيه — كما قلت فى تقديم الجزء الأول — مراجع معلومة ، أو مناهج مرسومة ، أو مقررات مفهومة . وكأن لموضوع الكتابة عن المكفوفين نوعا من السحر أو الجاذبية ، فهو يشدنى إليه الحين بعد الحين ، فأضع فيه لبنة بجوار لبنة ، دون تدقيق فى تنسيق ، ومن هذه اللبنات الأساسية أو المواد الأولية يمكن أن تُرسم خطط ، وأن تحدد مناهج ، وما زلنا فى ارتياد وادٍ غير مطروق ! ! . .

* * *

أما بعد ، فقد قلت فى مقدمة الجزء الأول : « ولا يزال العزم معقودا على أن أعود إلى الكتابة عن المكفوفين ثم أعود » . ولقد كان من فضل الله أن عدت لأقدم هذا الجزء الثانى من الكتاب ، وما أظننى شفيت النفس ، أو اكتفيت من الكتابة فى هذا الموضوع ، فما تزال فى النفس أشياء ، وفى العقل أفكار ، وفى الصدر خواطر ، وإن كان المنهج غير مرسوم أو محدد ، لأننى أكتب فى موضوع يتخلق كيانه شيئاً فشيئاً ، ويجذبنى إلى عبابه مرة بعد مرة ؛ ومن يدرى فقد أعود بعد قليل من الزمن أو طويل ، فأكتب عن هذا الشأن أو ذاك من شئون المكفوفين ، وبالصبر الجميل والجهد الموصول يتكون عمل أرجو أن يكون له شأنه فى إيجاد بحوث كافية ووافية فى الشئون المختلفة للمكفوفين ، وعلى هذا الأساس يمكننى أن أقول إن الكتاب ما زال مفتوحا ، والله جل جلاله هو المسئول أن يهيئ من العزم والتوفيق ما يمضى بنا على الطريق .

« وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائر ، ولو شاء لهدا كم أجمعين » ! . . .

أبو حازم

أحمد الشربينى جمعة الشرباصى

لماذا أكتب عن المكفوفين ؟

عجب كثيرون من عكوفى على الكتابة فى شئون المكفوفين ، وسألونى : لماذا اخترتَ هذا المجال بالذات ؟ وما الذى أغراك بالتأليف فيه ؟ ... وكنت أجيبهم فى بادئ الأمر بأننى أكتب فيه لأنه موضوع يستحق الكتابة ، ولأن الواجب يقضى بأن يعكف عليه عاكفون ... وأحيانا كنت أجيب السائل إجابة مقتضبة ، أو أنصرف به عن جواب سؤاله إلى غيره من الشئون

ولعلنى بعد تكرير السؤال سألت نفسى ذات السؤال ، وكان من العسير عليها أن تجيبنى بصورة اليقين القاطع ... لماذا اتجهت هذا الاتجاه ؟ ... هذا سؤال يصعب أن أحدد له الإجابة الفاصلة ، فقد تكون هناك أسباب ظاهرة قريبة أراها دفعتنى إلى هذا المجال ، كالتى ذكرتها فى صدر الجزء الأول ؛ من محاضرات ألقيتها عن المكفوفين فى دار الشبان المسلمين وفى المركز النموذجى لتوجيه المكفوفين ، ومن رغبة الكثيرين فى طبع هذا الذى قيل مع الزيادة عليه والإضافة إليه ...

ولكن قد يكون من وراء هذه الأسباب أسباب أخرى مطوية ، أو رواسب غير منظورة كان لها تأثير فى التوجيه أكثر مما للظاهر القريب ... أفلا يمكن أن أنبش الذاكرة والمفكرة باحثا عن الدوافع المستترة أو الظاهرة التى دفعت بى إلى هذا اللون من التأليف؟... أيكون من المؤثرات البعيدة مثلا جلوسى فى (الكُتّاب) أول حداثتى إلى معلم القرآن فى قريتى البجلات (الشيخ دسوقى درة)، ذلك الشيخ المكفوف المقرئ المتفلسف صاحب الذكاء والذوق ، الذى كان يعامل الصبية الذين يحفّظهم القرآن برقة ولطف وكياسة ، حتى كنت أعجب به ، كما كنت أعجب من بعض آرائه وأفكاره البعيدة ؟... وانتقلت من (كتاب) الشيخ إلى (كتاب) آخر ، كان فيه فتاتان عمياوان تحفظان القرآن ، وكانت إحداهما جميلة

ولكنها شرسة ، والأخرى دميمة ولكنها دمثة الأخلاق ، وما زلت أذكر كيف كانت الدميمة تستحوذ على الإعجاب بخُلقها وشخصيتها ، وكيف كانت الأخرى تبوء بالكراهية والسخط على الرغم من وسامتها !!... أيكون من تلك المؤثرات البعيدة أننى صحبت وأنا أطلب العلم قريبا لى مكفوفا هو (الشيخ محمد عوض عبدالعاطى) ، ورأيت كيف ناصبه الدهر العداء حينا ، فقاوم واحتمل ، وكان شغوفا بالأدب والسماع ، فقرأت معه فيما قرأت قصص المنفلوطى وغيرها ، وكان يُعجب بقراءتى،ويستزيدنى منها ، وقد نعيد مانقرأ ،ويتأثر هو بما يسمع من تعبير أو تصوير فينخرط فى البكاء ،وكنت أشاركه ذلك التأثر فى كثير من الأحيان ، وما زلت حتى اليوم أتذكر هذه الأيام جيدا ، وقد مر عليها ربع قرن !! ...

* * *

ولعل من تلك المؤثرات البعيدة أنه قد أُجريت لى (عملية) فى عينىَّ وأنا صبى صغير ، فقد كنت كثير الشكوى من مرضهما ، وأجريت هذه العملية عند طبيب فى بلدة (دكرنس) التى تبعد عن قريتى بنحو سبعة أميال ، وخرجت من عيادة الطبيب يومها معصوب العينين ،وذهب بى والدى عليه الرحمة والرضوان إلى أسرة صديقة فى قرية (ميت الخلوج) المجاورة لدكرنس ، حيث قضيت هناك ثلاثة أيام وأنا معصوب العينين ، وذلك لأكون قريبا من الطبيب،وحتى لا أتعب فى الذهاب والمجىء ، وتركنى أبى وذهب...ولن أنسى ماحييت شدة تلك الأيام الثلاثة علىَّ ؛ ولن أنسى ما حييت كيف رغبت فى الذهاب إلى المرحاض ، فغالبت رغبتى ، ولكنها اشتدت ، فطلبتُ فى حياء وخجل أن أذهب إلى المرحاض .

فقادونى إليه وأنا لاأرى ، ولاأعرف هندسة المرحاض ، وناهيك بالمرحاض فى القرية يومذاك ! ... ولست أدرى الآن كيف جلست ، ولا كيف قضيت حاجتى ، ولا كيف خرجت من المرحاض ، ولكن الذى أذكره جيدا أننى

بكيت ثم بكيت وأنا معصوب العينين، وشعرت بغربة قاتلة، ووحشة كاظمة، وألم دفين، وظللت الأيام الثلاثة وأنا أفكر فى هؤلاء المكفوفين : كيف يعيشون، وكيف يتصرفون فى الحياة !... رحم الله أبى، لقد انهمرت دموعه حينما قصصت عليه هذه الحادثة فيما بعد !...

يا لَمَرِّ الأيام والليالى !... لقد كان ذلك منذ ثلاثين عاما أو يزيد !..

* * *

وانتهيت من معهد دمياط بعد أن عرفت فيه شيخا لنا كفيفا لا أتذكر اسمه الآن، وكان يطرفنا فى أغلب حصصه بقصص تثيرنا وتعجبنا، وكان يجيد إلقاءها وتمثيل مواقفها، حتى يسيطر على عواطفنا... وذهبت إلى معهد الزقازيق، وهناك عرفت جمعا من إخوانى المكفوفين لا شك أنه كان لهم تأثير فى نفسى، ومن أقربهم إلى منطقة التذكر والتأثر الأستاذان محمد العلائى وفتحى عبد المنعم، وقد كان لهما من الموهبة والذكاء ما يجعلهما أهلا لتقدير الزملاء وتنويههم، وقد صار لهما بعد ذلك فى الحياة العامة ذكر، وسيمر علينا حديث عنهما فى هذا الكتاب.

وأتممت أيامى فى معهد الزقازيق، وانتقلت إلى كلية اللغة العربية — حرسها الله معقلا للغة القرآن وأدب العرب — وفى رحاب القاهرة عرفت فوق السابقين من الأصدقاء المكفوفين اللامعين الأستاذ الصاوى شعلان، وسمعت شعره ونثره، وشاهدت كفاحه فى سبيل العلم والثقافة، كما عرفت الأستاذ أحمد الزين، وسمعت منه شعره المؤثر؛ وعرفت آخرين موهوبين من المكفوفين، قد تغيب أسماؤهم عن واعيتى الآن، ولكن تأثيرهم فى نفسى وفكرى لا أستطيع جحده، وإن كنت لا أستطيع تحديده !!...

أليست كل هذه الصلات والعلاقات والذكريات رواسب بادية أو خافية، مما يؤثر ويوجه ؟!...

* * *

وهناك حادثة أخرى وقعت فى أواخر سنة ١٩٤١ فيما أذكر ، وكنت بالقاهرة ، ومرضت بعينىّ ، فذهبت بهما إلى طبيب جهله بطب النفس أكثر من علمه بطب الحس ، فأرعبنى بكلامه ، وأفهمنى أن عينىّ فى خطر ، وخُيِّل إلىّ يومها أننى على خطوات من كف البصر ، وعجّلت بالعودة مع شقيقى (سعيد) إلى القرية ، وبلغنا منزلنا مع الليل ، وما كدت أتخطى عتبته حتى انخرطت فى البكاء ، وتلقانى صدر أمى حرسها الله ، وجعلت تخفف عنى ، ولكن هيهات ... فقد زاد بكائى واشتد ، إذ سيطرت علىّ يومها فكرة أننى لن أرى النور بعد قليل . . .

وفى اليوم التالى ذهب بى والدى إلى طبيب آخر ، فأعاد الطمأنينة إلى قلبى ، وبعد أيام جاء الشفاء ، ومرت الأيام ، ولكنها لم تستطع بمرورها أن تقلع من ذاكرتى تلك الجذور العميقة الباقية لذلك اليوم الذى حسبتنى فيه سأفقد بصرى ! ! . . .

* * *

ودارت الأيام ، وشرّقت بنا وغربت ، وتنقلنا من موضوع إلى موضوع ، ومن مجال إلى مجال ، وفى سنة ١٩٥٠ م كنت ألقى محاضرات أسبوعية فى المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين . وذات ليلة جاءنى وفد من المكفوفين يطلب إلىّ أن ألقى لهم وعنهم بعض المحاضرات ، وتأثرت كثيرا وهم يشكون أمرهم ويصفون حالتهم ، واستجبت فحاضرت ... ثم دعونى فى إلحاح إلى زيارة جمعياتهم فى الزيتون وغيرها ففعلت ، وهناك رأيت وشاهدت ... شاهدت ما يؤلم ويحزن ، ورأيت رأى العين أن هؤلاء المكفوفين وغيرهم من زملائهم فى حاجة إلى عناية بهم ، وحملة من أجلهم ، وغضبة على المضيعين لهم . . . وأثار ذلك ما كان يعتلج بنفسى مرات كثيرة من شجى وحزن بسبب الإهمال الشنيع الذى يلاقيه المكفوفون فى الأزهر ، برغم ما عليه كثرهم من ذكاء ونبوغ ، فتحدثت وكتبت وشكوت ! ! . . .

وقد يضاف إلى هذه المؤثرات أيضاً أننى أعجبت كثيراً منذ الصغر بقصة ابن أم مكتوم مع النبى صلوات الله عليه التى أشار إليها القرآن ، لأنها شاهد من شواهد التكريم الإلهى للإنسان، وبرهان من براهين الإعزاز الإسلامى للمكفوف !!..

كما أنه قد يكون من المؤثرات ما طالعته لأبى العلاء وعن أبى العلاء ، وعن غيره من مشهورى المكفوفين خلال التاريخ ! ! . . .

* * *

أتكون هذه هى المؤثرات التى وجهت ودفعت، أم تكون غيرها ؟... لست أدرى على وجه اليقين ، ومهما يكن من أمر، فإذا أراد الله شيئاً قضاه، وقد أراد الله ما كان ، فحاضرت عن المكفوفين هنا وهناك ، وطالبت بحقوقهم كاتباً وخاطباً ، وحاضرت فى جمعياتهم ، وألفت عنهم ، وما زلت فى الطريق ، والله الهادى إلى سواء السبيل ؟

أحمد الشرباصى

الرَّسُولُ وَالمكفوفونَ

حينما تحدثت عن « المكفوف فى نظر الإسلام » و « واجبنا الإسلامى نحو المكفوفين » و « مواقف فى السيرة للمكفوفين » وردت فى تضاعيف الحديث إشارات إلى مواقف نبوية ذات صلة بالمكفوفين ، ولكن قد يكون من الخير أن نعود فنخصص فصلا مستقلا عن الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والتسليم والمكفوفين ، نجمع فيه بين الإشارة إلى ما سبق ، والحديث عما جدّ ولحق ...

إن أول ما يخطر على البال فى هذا المجال هو أننا نجد رسول الله الذى جاء هاديا ومرشداً ورحمة للناس أجمعين ، ينوه كثيراً بقيمة العين ومكانتها ، وقد جاء فى (النهاية) لابن الأثير هذه العبارة : « ومنه الحديث : اللهم متّعنى بسمعى وبصرى ، واجعلهما الوارث منى . أى أبقهما صحيحين سليمين إلى أن أموت ؛ وقيل : أراد بقاءهما وقوتهما عند الكبر وانحلال القوى النفسية ، فيكون السمع والبصر وارثَىْ سائر القوى والباقيين بعدها ؛ وقيل : أراد بالسمع وعى ما يسمع والعمل به ، وبالبصر الاعتبار بما يرى»[1] .

ومن الواضح أن رسول الله صلوات الله عليه لا يسأل ربّه إلا ما يكون له مكانة ومنزلة ، فإن العظائم كفؤها العظماء ، وعلى قدر أهل العزم تأتى العزائم .

ومما يشير إلى مكانة العين فى الحديث النبوى تنويهه بشأن بكائها وسهرها وغضها وفقئها فى المجالات المحمودة ، فنجد الطبرانى والحاكم يرويان الحديث الصحيح عن أبى ريحانة وهو : « حُرِّمت النار على عين بكت من خشية الله ، وحرمت النار على عين سهرت فى سبيل الله ، وحرمت النار على عين غضت عن محارم الله ، أو عين فقئت فى سبيل الله»[2] . ويروى الترمذى والنسائى بسند

(١) النهاية لابن الأثير ، ج ٤ ص ٢٠٤ .
(٢) الجامع الصغير ، ج ١ ص ٥٠٣ .

حسن : « عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله . وعين باتت تحرس فى سبيل الله » . كما يروى الترمذى عن أبى أمامة عن النبى : « ليس شىء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين : قطرة من دموع فى خشية الله ، وقطرة دم تهراق فى سبيل الله ؛ وأما الأثران فأثر فى سبيل الله ، وأثر فى فريضة من فرائض الله » . والمراد بالأثر هنا : المشى . وفى حديث آخر : « لا يلج النارَ رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع ، ولا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم » . وروى الحاكم فى المستدرك ، والبيهقى فى شعب الإيمان الحديث الصحيح : « حَرُم على عينين أن تنالها النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس الإسلامَ وأهلَه من أهل الكفر » ! ! . . .

وكما وَجدنا الرسول صلوات الله عليه منوِّها بشأن العين صحيحةً موجودةً مستخدَمةً فى شريف الأغراض ونبيل المقاصد ، وجدناه منوِّها بعظيم الأجر الذى يناله المكفوف إذا فقد بصره فيما لا يعاب ولا يذم ، فهو الذى نقل عن ربه : « إذا أخذتُ كريمتى عبدى (أى عينيه) فى الدنيا لم يكن له جزاء عندى إلا الجنة » . وفى رواية : « ما ثواب عبدى إذا أخذت كريمتيه إلا النظر إلى وجهى ، والجوار فى دارى » ! . وأحب أن نقف متأملين أمام كلمتى « أخذت » و « عبدى » فكأن الكلمة الأولى منهما ترمز إلى أن الآخذ هنا للعينين هو الله ، أى فى مجال من مجالات الطاعة لله ، وليس العبد هو الذى أضاعهما فيما يسوء و يشين ، وكأن الكلمة الثانية ترمز إلى « العبودية » التى يتحلى فيها المرء بالطاعة والاستقامة ! . . .

* * *

وهناك مواقف كثيرة تدل على عناية الرسول بأمر المكفوفين ، أو تقديره لهم ، أو عطفه عليهم ؛ فعن رفاعة بن مالك رضى الله عنه قال : لما كان يوم بدر رُميت بسهم ففقئت عينى ، فبصق عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعا لى ، فما آذانى منها شىء[1] .

---

(١) السيرة الحلبية ، ج ١ ص ٥٦١ .

ولقد عُنى الرسول بأمر « فُويك » الصحابى الذى فقد بصره لأنه — كما روى — وقف على بيضة حيَّـة ، فنفث النبى فى عينه فأبصر ، فرؤى وهو ابن ثمانين سنة يُدخل الخيط فى الإبرة من سلامة عينه وقوة إبصاره .

وبعض المصادر تذكر هذه الحادثة عن « حبيب بن فُورك » ، فعن عمر ابن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه عمَّن حدَّثه : أن حبيب بن فورك خرج به أبوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعيناه مبيضتان ، لا يبصر بهما شيئا . فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أصابه ، فقال : إنى كنت أمون جملا لى ، فوضعت رجلى على بيض حية ، فابيضت عيناى ؛ فنفث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عينيه فأبصر ؛ فلقد رأيته يدخل الخيط فى الإبرة وهو ابن ثمانين [1] .

وذكر ابن كثير فى (البداية والنهاية) هذه الحادثة منسوبة إلى (حبيب بن قريط) ونقل عن البيهقى وغيره أنه (حبيب بن مدرك) ... وكأنما أراد ابن كثير أن يدلل على أن رد البصر إلى المكفوف أمر يسير سهل فى حق النبى ، لأنه وقع من الأولياء وهم دون الأنبياء ، فساق هذه العبارة :

«وقد وقع فى كرامات الأولياء إبراء الأعمى بعد الدعاء عليه بالعمى أيضا ، كما رواه الحافظ ابن عساكر من طريق أبى سعيد بن الأعرابى عن أبى داود : حدثنا عمر بن عثمان ، حدثنا بقية ، عن محمد بن زياد ، عن أبى مسلم ، أن امرأً خبثت عليه امرأته ، فدعا عليها فذهب بصرها ، فأتته فقالت : يا أبا مسلم ، إنى كنت فعلت وفعلت ، وإنى لا أعود لمثلها . فقال : اللهم إن كانت صادقة فاردد عليها بصرها ، فأبصرت .

ورواه أيضاً من طريق أبى بكر بن أبى الدنيا : حدثنا عبد الرحمن بن واقد ، حدثنا ضمرة ، حدثنا عاصم ، حدثنا عثمان بن عطاء ، قال : كان أبو مسلم الخولانى

---

(١) نكت الهميان ، ص ٣٧ .

إذا دخل منزله ، فإذا بلغ[1] وسط الدار كبر وكبرت امرأته ، فيدخل فينزع رداءه وحذاءه ، وتأتيه بطعام يأكل ، فجاء ذات ليلة فكبر فلم تجبه ، ثم جاء إلى باب البيت فكبر وسلم فلم تجبه ، وإذا البيت ليس فيه سراج ، وإذا هى جالسة بيدها عود تنكث فى الأرض به ، فقال لها : مالك ؟ فقالت : الناس بخير ، وأنت لو أتيت معاوية فيأمر لنا بخادم ، ويعطيك شيئا نعيش به ؟ . . .

فقال : اللهم من أفسد علىّ أهلى فأعم بصره .

قال : وكانت أتتها امرأة فقالت لامرأة أبى مسلم : لو كلمت زوجك ليكلم معاوية فيخدمكم[2] ويعطيكم ؟. قال : فبينما هذه المرأة فى منزلها والسراج مزهر[3] إذ أنكرت بصرها ، فقالت : سراجكم طفىء ؟ قالوا : لا . قالت : إن الله أذهب بصرى .

فأقبلت كما هى إلى أبى مسلم ، فلم تزل تناشده وتتلطف إليه ، فدعا الله فرد بصرها ، ورجعت امرأته على حالها التى كانت عليها»[4] .

وكذلك سالت عين قتادة بن النعمان فى غزوة أحد ، بعد أن دافع عن الرسول دفاعاً مجيداً ساعة الهول والبأس ، فاهتم النبى للأمر ، وردها له فى مكانها ، وقال يدعو ربه : « اللهم إن قتادة فدى وجه نبيك بوجهه ، فاجعلها أحسن عينيه » ، وكذلك كانت ! . . . كانت أحسن عينيه وأحدّهما نظراً ! . . . .

يقول قتادة : أُهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوسٌ ، فدفعها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىّ يومَ أحد ، فرميت بها بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اندقت عن سيتها (ما عطف من طرفيها ، والجمع سيات) ولم

---

(١) هكذا بالأصل .
(٢) يخدمكم : يعطيكم خادماً .
(٣) مزهر : مشتعل مضىء .
(٤) البداية والنهاية ، ج ٦ ص ٢٩٥ و ٢٩٦ .

أزُلْ عن مقامى نصبَ وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ألقى السهام ، وكلما مال سهم منها إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا رمى أرميه ، فكان آخرها سهما تدرت (أى سقطت) منه حدقتى على خدى ، وافترق الجمع فأخذتُ حدقتى بكفى ، فسعيت بها فى كفى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كفى دمعت عيناه ، فقال : اللهم إن قتادة فدى وجه نبيك بوجهه ، فاجعلها أحسنَ عينيه وأحدَّهما نظرا[1] .

وهناك حادثة تقابل حادثة قتادة... فإذا كان قتادة قد رغب فى عودة عينه إلى مكانها ، وإذا كان قد حرص على ذلك خوفا من كراهية نسائه له إذا بقى أعور — كما جاء فى بعض الروايات — فإن هناك صحابيا آثر العور على صحة البصر ، وهو أبو سفيان بن حرب ، فقد شهد غزوة الطائف مع النبى فسقطت عينه فحملها بيده ، ورآها النبى فقال له : أيما أحب إليك ، عين فى الجنة أو أدعو الله أن يردها عليك ؟ فقال أبو سفيان : بل عين فى الجنة ! . . .

وفقد أبو سفيان عينه الأخرى فى غزوة « اليرموك » ! . . .

* * *

ومن تكريم الرسول للمكفوفين ما يتجلى فى قصة عمير بن عدى بن خرشة الخطمى المكفوف ، الذى قتل المرأة المشركة اللعينة « عصماء بنت مروان » التى كانت تسب النبى ، وتدبر له المؤامرات ، وتحض على الفتك به ، فذهب إليها عمير فوجأها بسكين تحت ثديها فقتلها ، ثم أتى رسول الله فأخبره بما فعل ، وقال له : هل علىَّ فى ذلك ؟ . فقال له النبى : لا ينتطح فيها عنزان : فقال عمير : إنى لأتقى تبعة إخوتها . فقال له النبى : لا تخفهم ! . . . وكرَّمه الرسول فسماه عمير البصير ! . . .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٨ .

وكلمة « لا ينتطح فيها عنزان » سمعت أول مرة من النبي ، ومع ذلك ذكرها الميداني في (مجمع الأمثال) برواية : « لا ينتطح فيه عنزان » ، واكتفى في التعليق عليها بقوله : « أي لا يكون له تغيير ولا له نكير »[1] . . .

ومن الإشارات الرمزية التي توحي بأن المكفوف لا يضيع عنده الصنيع ذلك الحديث الذي يقص علينا قصة الثلاثة من بني إسرائيل : الأبرص والأقرع والأعمى الذين أراد الله ابتلاءهم بإعطائهم ما يريدون لينظر ماذا يفعلون . . .

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن ثلاثة من بني إسرائيل : أبرص وأقرع وأعمى، أراد الله أن يبتليهم ، فبعث إليهم ملَكا ، فأتى الأبرصَ قال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ، ويذهب عني هذا الذي قذرني الناس ! .

فمسحه فذهب عنه قذره ، وأُعطيَ لوناً حسناً وجلداً حسناً ، فقال : أي المال أحب إليك ؟ قال : الإبل . فأُعطي ناقة عشراء (التي حملت من عشرة شهور ، وهذه أنفس الإبل) ، وقال : بارك الله لك فيها ! .

ثم أتى الأقرع فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ، ويذهب عني هذا الذي قذرني الناس . . فمسحه فذهب عنه ، وأعطي شعراً حسناً . قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال : البقر . فأعطي بقرة حاملا وقال : بارك الله لك فيها .

ثم أتى الأعمى ، فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال: أن يرد الله عليَّ بصري، فمسحه فرد الله بصره . قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال :الغنم ؛فأُعطي شاة ولودا .

فكان للأبرص وادٍ من إبل ، وللأقرع واد من البقر ، وللأعمى واد من الغنم ؛ ثم إنه (أي المَلك) أتى الأبرص في صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين

---

(١) مجمع الأمثال الميداني ، ج ٢ ص ٢٢٥ — مطبعة السنة المحمدية .

قد انقطعت به الحبال فى سفره ، فلا بلاغ له اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالله الذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال ، بعيراً أتبلغ به فى سفرى . فقال : الحقوق كثيرة . فقال له : كأنى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس ، فقيراً فأعطاك الله ؟ . قال : إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر . قال : إن كنت كاذباً فصيّرك الله كما كنت ! . . .

وأتى الأقرع فى صورته . فقال له مثل ما قال ، ورد عليه مثل ما رد الأول ، فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله كما كنت ! . . .

ثم أتى الأعمى فى صورته وهيئته ، فقال له مثل ما قال ؛ فقال : كنت أعمى فرد الله علىَّ بصرى ؛ فخذ ما شئت ودع ما شئت ، فو الله لا أجهدك اليوم بشىء أخذته لله . فقال : أمسك مالك ، فإنما ابتليتم ؛ فقد رُضى عنك ، وسُخط على صاحبيك ! ! . . . وقد روى هذا الحديث البخارى ومسلم .

وإنما قلنا إن هذه القصة من الإشارات الرمزية التى توحى ، ولم نقرر فى ذلك أمراً ، لأن الرمز فى القصة هنا كورد الربيع ، يُشم ولا يدعك ، إذ ليس فى القصة تصريح بتفضيل جنس المكفوف على الجنسين الآخرين لأن فرداً من أفراد جنس المكفوف كان موفقاً للصواب فى هذه القصة ؛ ولقائل أن يقول مع صلاح الدين الصفدى وهو يعلق على القصة : « وأما كون الله تعالى نجّى الأعمى وأهلك الأقرع والأبرص ، فهذا أمرٌ لا يعلَّل ولا يعقَل ، وهو من أسرار القدر ، فسبحان الفاعل المختار ، لا يعلم أسرار القضاء والقدر إلا هو ، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون :

قد يُنعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلى الله بعضَ القوم بالنعم » ! !

* * *

ومن مواقف الرسول مع المكفوفين قصته مع ابن أم مكتوم الذى نزلت

فى شأنه سورة : « عبس وتولى » ، وقد سبق لنا أن تحدثنا عنها بتوسع[1] ، وكان من ثمرة هذه الحادثة أن الرسول صلوات الله عليه كان يقول لابن أم مكتوم كلما رآه : « مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى » ويقول له : « هل لك من حاجة » ؟ وكان إذا أقبل على النبى قال له : ما حاجتك ؟ هل تريد من شىء ؟ وإذا هم بالذهاب قال له : هل لك حاجة فى شىء ؟ . . .

وعن الشعبى قال : دخل رجل على عائشة رضى الله تعالى عنها ، وعندها ابن أم مكتوم ، وهى تقطع له الأُتْرُجّ[2] ، وتجعله فى العسل وتطعمه ؛ فقيل لها فى ذلك ، فقالت : «ما زال هذا له من آل محمد منذ عاتب الله عز وجل فيه نبيه صلى الله عليه وسلم»[3] ! .

فكان هذا تكريماً من النبى وبيته للمكفوفين فى شخص واحد منهم ، وقد استخلف الرسول ابن أم مكتوم على المدينة ثلاث عشرة مرة أثناء الغزوات ، فكان هذا تكريماً بعد تكريم . . .

* * *

ومن مظاهر العناية النبوية بشئون المكفوفين ما أخرجه البخارى فى تاريخه والبيهقى فى (الدلائل والدعوات) وصححه ، وأبو نعيم فى (المعرفة) عن عثمان بن حنيف أن رجلا مكفوفاً أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ادع الله تعالى لى أن يعافينى . قال : إن شئت أخَّرت ذلك وهو خير لك ، وإن شئت دعوت الله . قال : فادعه . فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ، ويصلى ركعتين ، ويدعو بهذا الدعاء :

---

(١) كتاب فى عالم المكفوفين ، المجلد الأول ، ص ٢٨ — ٣٤ .

(٢) الأترج : يقول عنه الفيروزبادى فى القاموس : إنه معروف ، ويظهر أنه نوع من الفاكهة أو النبت ، قيل إنه يجلو اللون والكلف ، وقشره فى الثياب يمنع السوس ، وقيل : إن الجن لا تدخل بيتاً فيه أترجة ! . انظر القاموس وهامشه ، ج ١ ص ١٨٠ .

(٣) السيرة الحلبية ، ج ١ ص ٢٩٠ .

اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم نبى الرحمة ، يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربى فى حاجتى هذه فيقضيها لى ، اللهم شفعه فىَّ .

ففعل الرجل ، فقام وقد أبصر ! . . .

وقد أورد السيوطى هذا الخبر فى (الخصائص الكبرى)، وأعقبه برواية أخرى أوسع ، ولكنها بالمعنى السابق[1] .

كما أورد هذه الحادثة ابن كثير فى (البداية والنهاية) ج ٦ ص ٢٩٥ وفى آخر روايته لها : « وقال عثمان : فوالله ما تفرقنا ولا طال الحديث بنا حتى دخل الرجل كأن لم يكن به ضر قط » . ! !

***

وموقف الرسول مع أبى قحافة والد أبى بكر الصديق ،وقد كان مكفوفا — فيه تكريم وتوقير . . .

لما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بذى طوى — وهو فى طريقه إلى فتح مكة — قال أبو قحافة لابنةله من أصغر ولده — هى أم فروة أو قريبة — : أى بنية ! اظهرى بى على أبى قبيس ! . . وقد كُفَّ بصره ؛ فأشرفت به عليه ، فقال : أى بنية ، ماذا ترين ؟ . قالت : أرى سواد مجتمعا . قال : تلك الخيل .

قالت : وأرى رجلا يسعى بين يدى ذلك السواد مقبلا ومدبراً . قال : أى بنية ! ذلك الوازع — يعنى الذى يأمر الخيل و يتقدم إليها .

ثم قالت : قد والله انتشر السواد .قال: قد والله إذن دفعت الخيل ، فأسرعى بى إلى بيتى . فانحطت به ، وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته . . .

فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، ودخل المسجد ، أتى أبو بكر بأبيه يقوده ، فلما رآه الرسول قال : هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا

---

(١) الخصائص الكبرى ، ج ص ٢٠١ .

آتيه فيه ؟. قال أبو بكر : يا رسول الله هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت ! ! . . .

فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم بين يديه ، ومسح على صدره ، ثم قال له : أسلم ؛ فأسلم . . . ورأى النبي شعر أبي قحافة ، فكأنه ثغامة[1] من شيبه و بياضه ، فقال: غيروا هذا من شعره . وفى رواية : غيروا شيبه ، وجنبوه السواد[2] !! ...

وهناك طائفة من الأحاديث تدل على عناية الرسول بالمكفوفين ، وتحبيبه فى إشعارهم بالتقدير والعطف ، فالرسول يندب إلى إلقاء السلام على الكفيف ، و يعد ترك ذلك من الخيانة ، ففى الحديث الذى رواه الديلمى فى الفردوس : « ترك السلام على الضرير خيانة » .

والرسول يجعل هداية المكفوف إلى طريقه أو أمر من أموره لونا من ألوان الإحسان فى الإسلام ، فقد خرج ابن حبان فى صحيحه حديثا ، ورواه الإمام أحمد برواية أخرى ، جاء فيه : « ليس من نفس ابن آدم إلا عليها صدقة فى كل يوم طلعت فيه الشمس ، قيل : يا رسول الله ، ومن أين لنا صدقة نتصدق بها ؟ قال : إن أبواب الخير لكثيرة : التسبيح ، والتحميد ، والتكبير ، والتهليل ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وتميط الأذى عن الطريق ، وتسمع الأصم ، وتهدى الأعمى ، وتدل المستدل على حاجته ، وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث ، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف ، فهذا كله صدقة منك على نفسك »[3] ! . . .

ويحسن أن نلاحظ هنا أن « إماطة الأذى عن الطريق » يستفيد منها المكفوف أكثر من البصير ، لأن البصير يبصر ما أمامه من أذى ، فيستطيع أن

(١) الثغامة : نبت جبلى أبيض يشبه به شيب الشعر .

(٢) روى عن عمر أنه قال : اخضبوا بالسواد ، فإنه أنكأ للعدو وأحب للنساء . والمسألة خلافية . وانظر الروض الأنف ، ج ٢ ص ٢٧٠ .

(٣) انظر جامع العلوم والحكم ، لابن رجب ، ص ١٧١ و ١٧٤ .

يتجنبه بسهولة ، بخلاف المكفوف... ثم تأتى هنا هداية المكفوف نفسها ، وهى فائدة صريحة مباشرة له ، ثم إن « دلالة المستدل على حاجته » تفيد أيضا المكفوف أكثر من سواه ، لأنه يحتاج فى كثير من الأحيان إلى هذه الدلالة أكثر من سواه .

وعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « من منح منيحة لبن ، أو ورق ، أو هدى زُقاقا ، كان له مثل عتق رقبة » . رواه أحمد والترمذى بسند صحيح [1] ؛ والهدى للزقاق هو إرشاد المكفوف وغيره إلى الطريق . . .

كما جاء فى الحديث الشريف : « من قاد أعمى أربعين خطوة وجبت له الجنة » [2] . . وفى رواية عن أنس رضى الله عنه يرفعه : « من قاد أعمى أربعين خطوة لم تمسه النار » [3] .

***

وإذا كان الرسول صلوات الله عليه قد عنى بالمكفوفين الأخيار أو المسالمين هذه العناية ، فإننا نرى له موقفا صارما مع من يستحق التأديب والعقاب ؛ فهذا هو الأسود بن عبد المطلب قد ذهب بصره بدعوة النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنه كان من المستهزئين بالنبى وأصحابه ، وكان إذا رآهم يقول ساخراً : قد جاءكم ملوك الأرض ، ومن يغلب على ملك كسرى وقيصر ! ! . . .

وكان يكلم النبى بما يشق عليه ، فدعا عليه الرسول بأن يعمى الله بصره ويثكل ولده ، فاستجاب الله له ، فسبق العمى إلى بصره أولا ، ثم أصيب يوم بدر بمن نعاه من ولده ، وهو زمعة وأخوه عقيل أو الحارث ، فإنهما قتلا كافرين ببدر ، فتمت إجابة الله لرسوله . . .

ويروى أن الأسود عقب غزوة بدر سمع صوت باكية ، وكانت قريش قد

---

(١) التاج الجامع للأصول ، ج ٥ ص ٧٠ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٦٥ .
(٣) نكت الهميان ، ص ٣٩ .

منعت البكاء على قتلى بدر ، حتى تثأر لهم من المسلمين ، فقال الأسود لغلامه الذى يقوده : انظر هل أحل النحيب (البكاء) ؟ وهل بكت قريش على قتلاهم لعلى أبكى ، فإن جوفى قد احترق ! ! . . .

فلما سأل الغلام ورجع قال : إنما هى امرأة تبكى على بعير أضلته ؛ فأنشد الأسود :

أتبكى أن يضل لها بعير ويمنعها من النوم السهودُ

فلا تبكى على بكر ولكن على بكر تقاصرت الجدود

ألا قد ساد بعدهم رجال ولولا يوم بدر لم يسودوا[1]

والسهود : عدم النوم . والبكر : الفتى من الإبل : والجدود : الحظوظ .

وكان من استهزاء الأسود بالمسلمين أنه كان هو ورفاقه يتغامزون بالنبى وأصحابه ، و يصفرون إذا رأوهم ، ولقد مر الأسود على النبى حين استهزائه ، فسئل النبى عنه : كيف تجد هذا ؟ فأجاب : عبد سوء . و يروى أن السائل هو جبريل ، فلما رد النبى أشار جبريل إلى عين الأسود قائلا لمحمد : كفيته . . وهذا كناية عن أنه سيصاب بالعمى ، وقد كان .

وجاء فى السيرة الحلبية عن الأسود هذه العبارة : «خرج ليستقبل ولده وقد قدم من الشام ، فلما كان ببعض الطريق جلس فى ظل شجرة ، فجعل جبريل يضرب فى وجهه وعينيه بورقة من ورقها حتى عمى ، فجعل يستغيث بغلامه ، فقال له غلامه : لا أحد يصنع بك شيئا . وقيل : ضربه بغصن فيه شوك ، فسالت حدقتاه وصار يقول : ها هو ذا الطعن بالشوك فى عينى . فيقال له : ما نرى شيئا .

وقيل : أتى شجرة فجعل ينطح رأسه بها ، حتى خرجت عيناه ؛ وفعلُ ذلك لا ينافى ما ورد : فأشار جبريل إلى وجهه فعمى بصره فى الحال ؛ لجواز أن يراد بالحال الزمن القريب : وفى رواية أنه كان يقول : دعا علىَّ محمد بالعمى فاستجيب له ، ودعوت عليه بأن يكون طريدا شريدا فاستجيب لى ، وسيأتى

---

(١) السيرة الحلبية ، ج ١ ص ٥٧١ .

عن بعضهم فى غزوة بدر أنه صلى الله عليه وسلم دعا على الأسود بن عبد المطلب بالعمى ، وفقد أولاده فى بدر » .

و بعد سطور جاءت هذه العبارة : « فأهلك الأسود بن عبد المطلب عمى عظيم ؛ الأحياء أموات بسببه ، وهو المناسب لكون جبريل آشار إلى عينيه »[١] .

ويذكر ابن كثير فى (البداية والنهاية) المستهزئين بالرسول صلوات الله عليه ، وما أصابهم من البلاء ، ثم يقول : « وأما الأسود بن عبد المطلب فعمى ، وكان سبب ذلك أنه نزل تحت سمرة ، فجعل يقول : يا بَنى ! ألا تدفعون عنى ؟ قد قُتلت. فجعلوا يقولون : ما نرى شيئا . وجعل يقول : يابنى ، ألا تمنعون عنى ؟ قد هلكت، ها هو ذا الطعن بالشوك فى عينى . فجعلوا يقولون : ما نرى شيئا. فلم يزل كذلك حتى عميت عيناه »[٢] .

وروى أن جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم يطوفون بالبيت، فقام وقام رسول الله إلى جنبه ، فمر به الأسود بن عبد المطلب فرمى فى وجهه بورقة خضراء فعمى[٣] .

وقال ابن سيد الناس : « قال أبو عمر : وكان المستهزئون الذين قال الله فيهم (إنا كفيناك المستهزئين) عمه أبا لهب ، وعقبة بن أبى معيط ، والحكم بن أبى العاص ، والأسود بن المطلب بن أسد أبازمعة ، والأسود بن عبد يغوث ، والعاص بن وائل ، والوليد بن المغيرة ، والحارث بن الغيطلة السهمى . فكان جبريل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمر بهما من المستهزئين الوليد بن المغيرة ، والأسود ابن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن الغيطلة ، والعاص بن وائل ، واحدا بعد واحد ، فشكاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جبريل ، فقال : كفيتكهم ! ... فهلكوا بضروب من البلاء والعمى قبل الهجرة » ...

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٠٥ .
(٢) البداية والنهاية ، ج ٣ ص ١٠٥ .
(٣) سيرة ابن هشام ، ج ٢ ص ٥٢ .
(٤) كتاب عيون الأثر، لابن سيد الناس ، ج ١ ص ١١٣ .

أحكام المكفوف

كنت قد دعوت فيما سبق إلى جمع الأحكام الفقهية المتعلقة بالمكفوف فى مختلف الأمور ، إذ لا يوجد بين أيدينا مرجع يلم شتات هذه الأحكام ، وكنت أتوقع أن ينهض إلى أداء هذا الواجب من يملك الوقت والجهد والقدرة ، ولما لم أجد ذلك بدأت هذه المحاولة معتمداً على ما كتبه الصفدى الشافعى المذهب من شذور ،وعلى ما لقيته أثناء مطالعاتى أو مراجعاتى فى كتب الفقه أو غيرها ، وأنا أرجو أن يتسع نطاق هذه المحاولة يوماً فنرى أحكام المكفوف مجتمعة مكتملة .

الوقت ١٤/١/٧٩ فى الصلاة

الأذان :

قال الشافعية : يكره أذان المكفوف إذا كان راتباً — أى مستديماً فيه كوظيفة — إلا أن يكون معه بصير . قال النووى : كما كان بلال مع ابن أم مكتوم، وفيه نظر ، لأن بلالا لم يكن أذانه مع ابن أم مكتوم فكل منهما كان له وقت مستقل دون غيره يؤذن فيه . واستدلوا على هذا بالحديث : «إن بلالا يؤذن بليل ، فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم» وكان ابن أم مكتوم يتأخر فى الأذان إلى آخر الوقت ، حتى يقال له : أصبحت أصبحت ! خوفا من انتهاء الوقت .

إلا أنهم قالوا إن قول النووى يؤيده الحديث الآخر : «إذا أذن بلال فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم . قالت عائشة : ولم يكن بينهما إلا أن ينزل هذا و يصعد هذا » . أى فيكون أذان بلال مقارناً لأذان ابن أم مكتوم فكأنه معه .

القبلة :

لا يطالب المكفوف بالاجتهاد فى تعيين القبلة ، بل يقلد فيها غيره ، فلو اجتهد ولم يتبين له شيء فالصحيح أنه يقلد ، لعدم قدرته على العلامات المقتضية

لذلك . وإذا قلنا : يقلد ، ولم يجد من يقلده ، فالأصح أنه يتيمم ويصلى ويعيد .
ويفهم مما سبق أن المكفوف لوقدر على تمييز العلامات الموضحة للجهات فإنه يجتهدفى تعيين القبلة .

وقال الأصحاب : لا يجوز له ذلك ، لأن أمارة القبلة البصر ، بخلاف أوقات الصلاة حيث يجوز له ، إذ التوصل إليها ممكن ، إما بورد أو ذكر أو خطاً يمشيها .

الإمامة :

البصير والمكفوف سواء فى الإمامة عند الجمهور ، وقال أبو إسحاق المروزى إن المكفوف أولى ، لأنه لا ينظر إلى ما يلهيه ويشغله ، فيكون أبعد عن تفرق القلب وأخشع . واختار أبو إسحاق الشيرازى أن البصير أولى ، وهو قول أبى حنيفة ، لأن البصير أحفظ لبدنه وثيابه من النجاسات ، ولأنه مستقل بنفسه فى استقبال القبلة .

وكره ابن سيرين إمامة المكفوف ، لقول عبد الله بن عباس بعد أن كف بصره : كيف أؤمهم وهم يعدلوننى إلى القبلة ؟... وعن أنس : وما حاجتهم إليه ؟ ...

وعن عامةالأصحاب : إنهماسواء لتعارض المعنيين ، وهو ما نص عليه الشافعى فى كتابه (الأم) .

هذا وقد جاء عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم استخلف ابن أم مكتوم يؤم الناس وهو أعمى . ويعلق صاحب (التاج الجامع للأصول) على هذا الحديث بقوله : « جعله خليفة على المدينة حين سافر للغزو ، فالأعمى والبصير سواء فىالإمامة لكثرة خشوع الأعمى،ولزيادة تحفظالبصير من النجاسة . قاله الشافعى وجماعة ، ولكن الظاهر أن البصير أفضل ، لكثرة إنابة النبى صلى

الله عليه وسلم للبصراء ، وعليه فإمامة الأعمى مكروهة كإمامة ولد الزنا ، إلا إذا كان أفقه القوم ، وعليه الحنفية والحنابلة »[(١)] .

أقول : ومع ما فى تشبيه المكفوف بولد الزنا من جفوة نذكر أن إنابة الرسول لابن أم مكتوم قد تعددت مرات كثيرة ، حتى بلغت ثلاث عشرة مرة ، ففى أغلب الغزوات كان النبى يستخلفه ، وكتب السيرة — وبخاصة كتاب السيرة الحلبية — ناطقة بذلك .

وهذا عبد الله بن عمير الأنصارى الخطمى الصحابى ، كان مكفوفا من أهل المدينة ، وكان يؤم قومه وهو مكفوف ، وجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مكفوف ! . . .

وقد وجدتُ فى كتاب (الدين الخالص) كلاما مبسوطاً عن إمامة المكفوف ألخصه فيما يلى :

يصح الاقتداء بالمكفوف لحديث أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم استخلف ابن أم مكتوم على المدينة مرتين يصلى بهم وهو مكفوف . قال الشعبى : غزا النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة غزوة ، كل ذلك يقدم ابن أم مكتوم يصلى بالناس . وعن عبد الله بن عمير الخَطْمى أنه كان يؤم قومه بنى خطمة وهو مكفوف على عهد الرسول .

وهذا متفق عليه ، بل قال أبو إسحاق المروزى والغزالى إن إمامة المكفوف أفضل من إمامة البصير ، لأنه أكثر خشوعا منه ، لما فى البصر من شغل القلب بالمبصرات . وقالت الشافعية إن المكفوف والبصير فى الإمامة سواء ، لأن فى المكفوف فضيلة أنه لا يرى ما يلهيه ، وفى البصير فضيلة تجنب النجاسة واستقبال القبلة بنفسه .

---

(١) التاج الجامع للأصول ، ج ١ ص ٢٧٤ . وفى كتاب شرح ابن عاشر فى فقه المالكية : « وتجوز إمامة الأعمى مع وجود غيره إن كان أفقه منه » ، ص ٤٦ .

وقالت المالكية والحنابلة والحنفية : البصير أولى بالإمامة ، لأنه أقدر على اجتناب النجاسة واستقبال القبلة باجتهاده ، وهذا هو الراجح . وقال النووى : وعندى أن البصير أولى ، لأنه يتجنب النجاسة التى تفسد الصلاة ، والمكفوف يترك النظر إلى ما يلهيه ولا تفسد الصلاة به .

ومحل الخلاف إن كان البصير أفضل منه أو مثله ، أما إن لم يوجد بصير يساوى المكفوف فإمامة المكفوف أولى اتفاقا ، وعلى هذا يحمل استنابة النبى صلى الله عليه وسلم ابن أم مكتوم ، لأنه لم يكن بالمدينة وقتئذ أفضل منه متفرغا للإمامة ، فلا يرد على ذلك وجود على رضى الله عنه فى المدينة حين استخلف النبى صلى الله عليه وسلم ابن أم مكتوم ، لأن عليا كان مشغولا بالقيام بحفظ من وكل إليه حفظهم من أهل البيت حذراً من أن ينالهم عدو بمكروه [1] .

سقوط الجماعة :

يظهر أن الجماعة تسقط عنه إذا كان لا يسمع النداء ولم يجد القائد . روى أن رجلا مكفوفا جاء إلى النبى وقال له . يا رسول الله ، إنه ليس لى قائد يقودنى إلى المسجد . وسأل النبى أن يرخص له ، فرخص له ، فلما ولى الرجل دعاه النبى وقال : هل تسمع النداء ؟ . قال : نعم . قال النبى : فأجب ! .

وجوب الجمعة :

يرى جمهور الأصحاب أنها تجب عليه إن وجد قائداً متبرعا ، أو بأجرة يقدر عليها ، وإذا لم يجد القائد ، أو لم يجد أجرته ، لم تلزمه الجمعة . . . وقيل : إن كان يحسن المشى بالعصا من غير قائد لزمه ذلك . وعن أبى حنيفة : لا تجب الجمعة على المكفوف بحال . ولو حضر المكفوف المسجد حين الجمعة : هل يجوز له

---

(١) الدين الخالص ، ج ٣ ص ١٣١ .

الانصراف عنها إذا أراد ، أولا بد له من أدائها ؟. . . هنا قولان ، والذى يتضح أنها تلزمه .

وقرأت فى مجلة « لواء الإسلام » هذه العبارة عن المكفوف وصلاة الجمعة :
« أما الأعمى فيقول أبو حنيفة : إنها تسقط عنه ولو وجد قائدا متبرعا ، أو بأجر يقدر عليه ، وخالفه فى ذلك صاحباه ، إذ يقولان : إن قدر الأعمى على الذهاب ولو بقائد متبرع ، أو بأجر يقدر عليه ، لزمته الجمعة » .[1]

ترك الصلاة :

إذا قال للمكفوف طبيب موثوق بدينه وعلمه : اترك الصلاة أياما فإنك تبصر مع العلاج . أو قال له : صل مستلقيا — وهو قادر على القيام — أو قال له : إن صليت قاعدا أمكنت مداوتك ... جاز له أن يفعل ما أمره به الطبيب .

صورة في صلاة المكفوف :

جاء فى (بدائع الفوائد) لابن القيم : « قال أحمد — فى رواية إسحاق بن إبراهيم — فى رجل مكفوف دخل فى الصف، فلما أراد أن يركع التزق الذى كانوا معه فى الصف بصف آخر ، و بقى هو وحده : يعيد » [2].

الاجتهاد فى الأوانى :

إذا كانت هناك أوانٍ فيها مياه منها الطاهر ومنها غير الطاهر ، وتحتاج إلى اجتهاد لتمييز بعضها عن بعض،فهل يلزم المكفوف الاجتهاد فيها ؟ . أصح القولين وجوبه عليه ، لأنه يعرف باللمس اعوجاج الإناء ، واضطراب الغطاء ، وسائر العلامات ؛ والقول الآخر : لا يجب .

---

(١) عدد جمادى الآخرة ١٣٧٧ هـ .
(٢) بدائع الفوائد ، ج ٣ ص ٨٦ .

وهذا الخلاف الوارد فى الأوانى بشأن اجتهاد المكفوف جارٍ أيضا فى الثياب الطاهرة وغير الطاهرة .

الحـــج

لا يجب الحج على المكفوف إذا لم يجد قائدا متبرعا ، أو وجد القائد بأجر ولكنه لا يستطيع أجرته ، والقاعدة أن الحج يجب على المستطيع ؛ ولا يجوز له الاستنابة عنه ؛ وبذلك قال أحمد وأبو يوسف ومحمد ، وقال أبو حنيفة فى أصح القولين عنه : تجوز له الاستنابة فيه . وقال الرافعى . إذا وجد مع الزاد والراحلة قائداً يلزمه الحج بنفسه لأنه مستطيع ، والقائد فى حقه كالمحرَم مع المرأة .

البيع والشراء

يجوز بيع المكفوف وشراؤه بنفسه ، ، ويقوم وصف غيره له مقام رؤيته ، كما تقوم الإشارة مقام النطق للأخرس ، وبهذا قال مالك وأبو حنيفة وأحمد . وقيل : لا يجوز بيع المكفوف ولا شراؤه ، كما لا يجوز بيع الغائب ولا شراؤه ، وإن جاز ذلك للغائب جاز للمكفوف ، ولكن الفرق بينهما أن المكفوف ليس له شرط الخيار ، بخلاف الغائب فله شرط الخيار .

وإذا لم يصح بيع المكفوف ولا شراؤه — على الرأى الثانى — لم تجز منه إذن الإجارة ولا الرهن ولا الهبة ، فهى مقيسة على البيع والشراء .

قبض الشىء المشترى :

إذا اشترى البصير شيئا ثم كف بصره قبل قبضه : فهل ينفسخ بيعه عندمن يقول إنه لا يصح قبض المكفوف ؟ ... فى المسألة وجهان ، وصحح النووىَ أنه لا ينفسخ العقد ، لأنه وقع صحيحا ، وله التوكيل فى قبضه .

السلم :

السلم هو بيع شيء موصوف فى الذمة بثمن يدفع فى المجلس ، وسمى سلما لتسليم رأس المال فيه ؛ ويسمى سلفاً لتقديم رأس المال فيه ، وهو جائز للحاجة إليه ، بشرط عدم اتحاد البدلين فى العلة ، وصورته كقولك : أسلمتك هذا الدينار لتبيعنى به كذا وتسلمه لى فى وقت كذا فى مكان كذا [1].

قالوا : ويجوز السلم للمكفوف إذا كان قد طرأ عليه كف البصر بعد بلوغ سن التمييز ، لأن السلم يعتمد الأوصاف ، وهو فى هذه الحالة يميز بين الألوان ، ثم هو يوكل من يقبض بدلا عنه على الوصف المشروط .

وروى أن السلم يصح منه مطلقا ، لأنه يعرف الصفات والألوان بالسماع ، ويتخيل فرق بينهما ، فيصح قبض المكفوف للسلم إذا كان رأس المال موصوفا فعين فى المجلس ؛ وروى أنه لا يصح ، لأنه لا تمييز عنده بين المستحق وغيره .

قالوا : وكل ما نصححه من المكفوف فى التصرفات فسبيله أن يوكل ، ويحتمل ذلك للضرورة .

جواز كونه وصيا :

روى أنه يجوز له ذلك ، وبه قال أبو حنيفة ، ووجه الجواز أنه يوكل فى كل ما يتعذر عليه مباشرته بنفسه ؛ وروى المنع ، بعلة أنه لا يقدر على التصرف فى البيع والشراء لنفسه ، فلا يجوز أن يفوض إليه أمر غيره .

مكاتبته لعبده :

وهى أن يعلق المالك عتق عبده على مال يؤديه . والمذهب عند الشافعية أنه تجوز مكاتبته تغليبا للعتق ، وصححه النووى ، وقيل لا يجوز .

---

(١) التاج الجامع للأصول ، ج ٢ ص ٢٤٢ .

ويجوز له أن يؤجر نفسه ، وأن يشتريها إذا كان عبداً يريد الخلاص ، وأن يقبل المكاتبة على نفسه .

الزواج

هل كف البصر عيب ؟

مذهب الشافعى أن كف البصر ليس عيبا فى الزواج ولا فى الكفاءة ، فهو لا يعد عيباً فى الزوج ، ولا يعد عيباً فى الزوجة . وإذا اشترط أحد الزوجين أن يكون الآخر مبصرا فظهر خلافه : هل يصح النكاح أو يبطل ؟ . . . هناك قولان ، وأظهرهما أن الزواج يصح .

خلوته بالزوجة :

إذا اجتمع المكفوف بالمرأة : هل يعد ذلك خلوة ، ويكمل بها الصداق (وهو المهر) ؟ . مذهب الشافعى أنه لا فرق عنده فى ذلك بين البصير والمكفوف؛ وعند أصحاب الإمام أحمد : « فإن كانت الزوجة صغيرة لا يمكن وطؤها ؛ أو الزوج صغيرا ، أو أعمى ولم يعلم دخولها عليه ، لم يكمل الصداق ، لأنه لم يحصل التمكن » .

الخلوة مع وجوده :

عند الحنفية : لا تنعقد الخلوة الصحيحة بين الزوج والزوجة إذا كان هناك معهما رجل مكفوف البصر[١] .

جواز ولايته فى الزواج :

أصح الوجهين أنه يجوز كون المكفوف وليا فى الزواج ، لأن المقصود من

---

(١) انظر الاختيار شرح المختار فى فقه الحنفية ، ج ٣ ص ١٦٥ .

الولاية يحصل هنا بالبحث عن الغير والسماع ؛ وقيل إن شعيباً عليه السلام زوّج ابنته وهو مكفوف .

والذين قالوا بعدم الجواز احتجوا بأن كف البصر نقص يؤثر فى الشهادة ، فأشبه الصغير الذى لا يكون ولياً فى الزواج .

شهادته فى الزواج :

قال الحنفية إن الشهادة تنعقد بشهادة المكفوفين ، لأنهم من أهل الشهادة، حتى لو حكم بها حاكم جاز ، لأنه مجتهد فيه ، فإن مالكا يجوّز شهادته ، وأبا يوسف يجيزها إذا تحملها بصيرا ، وإذا كان من أهل الشهادة صار كالبصير لأنه يملك القبول بنفسه(١) .

والظاهر أنه لا يشترط فى الشاهد الذى يشهد فى عقد الزواج أن يكون بصيراً ، لأن شهادة المكفوف هنا صحيحة ، إذ أنه يمكنه التميز بين المشهود عليه والمشهود له ، وهو يلى ولاية الزواج ، فكان أهلا للشهادة(٢) .

خلعه الزوجة :

والخلع هو تطليق الزوجة على مال . ويصح للمكفوف خلع زوجته باتفاق ، ولكن إن خالعها على عين معينة بطل الخلع عند الشافعية — كما قالوا ببطلان بيعه وشرائه — وفى حالة الخلع على هذه الصورة يجب مهر المثل .

الحضانة

الحاضنة المكفوفة :

فى مذهب الإمام الشافعى ما يستنبط منه أن كف البصر مانع من الحضانة ، وقال الشافعى : « إن حفظ الأم للولد الذى لا يستقل ليس مما يقبل الفترات ،

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٤٦ .

(٢) انظر كتاب الزواج والطلاق فى الإسلام ، ص ٥٧ .

فإن المولود فى حركاته وسكناته لو لم يكن ملحوظاً من مراقب لا يسهو ولا يغفل لأوشك أن يهلك » . ومقتضى هذا أن كف البصر يكون مانعا من الحضانة ، فإن الملاحظة الموصولة معه لا تتأتى .

قيل : وفى فتاوى المقدسى : « إنه لا حضانة للعمياء » قيل : وهو نقل غريب جدا لم ينقله أحد(١) .

ولكن سئلت لجنة الفتوى هذا السؤال : « إن الحاضنة عمياء ، ولا ترى سوى أشباح ، وهى من أجل هذا لا تصلح لحضانة الصغير ، فهل يُسقط العمى حق الحاضنة فى حضانة الصغير » ؟ .

وكان الجواب ما يلى : « الفقهاء لم يشترطوا لأهلية الحضانة سوى قدرة الحاضنة عليها لرعاية الصغير والإشراف عليه ، ولم يشترطوا الإبصار ، بل أوجبوا توافر صفات ترجع إلى المحافظة على الصغير وتوافر راحته من نحو عقل الحاضنة ، وأمانتها ، وقدرتها على التربية ، وعدم زواجها بأجنبى ، والبعد بالصغير عن مبغضيه ، والعمى لا يمنع من رعاية الطفل والإشراف على تربيته والمحافظة عليه »(٢) .

ضم مكفوفة البصر :

وسئلت اللجنة هذا السؤال : « إن عمها شقيق والدها ، ويريد أن يضمها إليه لأنها بلغت مبلغ النساء ، وقد استغنت عن خدمة النساء ، وهو آمن عليها لأنها تقيم منفردة فى مسكن خاص ، فردت عليه بأنها كفيفة البصر ، ولا تستغنى عن خدمة النساء ، وهى تقيم مع والدتها لترعى شئونها الخاصة ؛ فهل للبنت العمياء إذا بلغت سن الحضانة وتجاوزته أن تُنزع من حاضنتها مع حاجتها إلى عناية خاصة » ؟ .

---

(١) نسكت الهميان ، ص ٥٤ .

(٢) جريدة الأهرام — ٩ فبراير سنة ١٩٥٥ .

وكان الجواب ما يلى : « فقد البصر لا يخرج الحاضنة عن أهليتها للحضانة ما دامت قادرة على حفظ المحضون ، ومتى كانت المكفوفة أهلا لحضانة أولادها تكون مستغنية عن خدمة غيرها بالأولى ، لأن الولاية المتعدية فرع عن الولاية القاصرة ؛ على أن البنت قد تجاوزت السن التى يمكن أن يقال عليها فيها إنها تستغنى أولا تستغنى عن خدمة النساء ، وأصبحت فى سن جعلت مناط الحكم بالضم قصد المحافظة عليها فقط .

والمنصوص عليه شرعا أن الجارية متى بلغت مبلغ النساء ولم تدخل فى السن ، وكانت بكرا ، فلكل عاصب ذى رحم محرم منها أن يضمها إليه ما لم يكن مفسداً ، فإن لم يكن لها عاصب ذو رحم محرم ، أو كان لها عاصب مفسد ، فالنظر للحاكم ، فإن كانت مأمونة تركها تنفرد بالسكنى ، و إلا وضعها عند امرأة أمينة قادرة على الحفظ ، وحكمة التشريع فى تخويل حق ضم الكبيرة للعاصب دون غيره من ذوى الأرحام هى أن العاصب يتعير بها ، ولا يتعير بها ذوو الأرحام ، وترى أن أم البنت أقدر على المحافظة عليها من أية امرأة أجنبية عنها »[1] .

الجهاد

لا يجب الجهاد على المكفوف :

يقول الصفدى : « لا جهاد على الأعمى ، وذلك بنص القرآن العظيم ، فيسقط الجهاد بالصبا (الصغر) والأنوثة والمرض والعرج والعمى والفقر » . والله تعالى يقول فى سورة الفتح : « ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج » . ويقول الله تعالى أيضاً فى سورة التوبة : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم » .

---

(١) المصدر السابق — ١٢ نوفمبر سنة ١٩٥٥ .

ولما نزل قوله تعالى فى سورة النساء : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » . . . أملى النبىُّ صلى الله عليه وسلم ذلك على زيد بن ثابت، وجاء حينئذ ابن أم مكتوم المكفوف فقال للنبى : يا رسول الله ، لو أستطيع الجهاد لجاهدت ؛ فأبان له الرسول أن الله تعالى يقول : « غير أولى الضرر » .

عدم قتل المكفوف :

لا يجوز قتل المكفوف من الأعداء . يقول ابن تيمية : « وإذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد ، ومقصوده هو أن يكون الدين كله لله ، وأن تكون كلمة الله هى العليا ، فمن منع ذلك قوتل باتفاق المسلمين ، وأما من لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة ، كالنساء والصبيان والراهب والشيخ الكبير ، والأعمى ، والزَّمن (ذى العاهة) ونحوهم ، فلا يقتل عند جمهور العلماء ، إلا أن يقاتل بقوله أو فعله ، وإن كان بعضهم يرى إباحة قتل الجميع لمجرد الكفر ، إلا النساء والصبيان لكونهم مالا للمسلمين ، والأول هو الصواب »[1] .

ولقد مشى النبى صلى الله عليه وسلم مع الجيش الخارج إلى غزوة (مؤتة) حتى ظاهر المدينة ، يوصيهم ألا يقتلوا النساء ولا الأطفال ولا المكفوفين[2] .

وذكر الإمام الشوكانى الذين أوصى الرسول بعدم قتلهم فى الحروب ، كالشيوخ والصبيان والنساء ، وبعد أن تحدث عن الأحاديث المتعلقة بذلك قال: « ويقاس على المنصوص عليهم بذلك الجامع — وهو عدم النفع والضرر — من كان مقعداً أو أعمى أو نحوهما ، ممن كان لا يرجى نفعه ولا ضرره على الدوام »[3] .

---

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية ، ص ١٣٢ طبعة ١٩٥١ — دار الكتاب العربى .

(٢) حياة محمد لهيكل ، ص ٣٧٤ .

(٣) نيل الأوطار ، ج ٧ ص ٢٤٨ .

القضـــاء

تولى المكفوف القضاء :

قيل يجوز المكفوف أن يتولى القضاء ، وقد ألف شرف الدين بن أبى عصرون رسالة فى ذلك ، وقد استمر فى القضاء لما كف بصره . وقال الجمهور : لا يجوز له القضاء ، لأنه لا يعرف الخصوم ولا الشهود ، ولو كف بصر القاضى بعد سماع البينة وتعديلها : هل ينفذ قضاؤه فى تلك الواقعة ؟ ... قيل بالجواز ، وقيل لا لأنه انعزل بكف البصر .

وفى السيرة الحلبية : « ولما قدم رسول الله صلى عليه وسلم المدينة من بدر لم يقم إلا سبع ليال حتى غزا بنفسه ، يريد بنى سليم ، واستعمل على المدينة سباع ابن عرفطة الغفارى ، أو ابن أم مكتوم ، أى وفى رواية أبى داود أن استخلاف ابن مكتوم إنما كان على الصلاة بالمدينة دون القضايا والأحكام ، فإن الضرير لا يجوز له أن يحكم بين الناس ، لأنه لا يدرك الأشخاص ، ولا يثبت الأعيان ، ولا يدرى لمن يحكم ولا على من يحكم ، فأمر القضايا والأحكام يجوز أن يكون فرضه صلى الله عليه وسلم لسباع ، فلا مخالفة »[١] .

تولى المكفوف الإفتاء :

فى المجموع للنووى : « شرط المفتى كونه مسلما ثقة مأمونا متنزها عن أسباب الفسق وخوارم المروءة ، فقيه النفس سليم الذهن رصين الفكر ، صحيح التصرف والاستنباط متيقظا ، سواء فيه الحر ، والعبد ، والمرأة ، والأعمى ، والأخرس إذا كتب أو فهمت إشارته »[٢] .

ولقد قال حماد بن زيد : سمعت الجريرى يقول : « أصبح فقهاء البصرة عمياناً ثلاثة : قتادة ، وعلى بن زيد ، وأشعث الحدانى »[٣] .

---

(١) السيرة الحلبية ، ج ٢ ص ٢ .
(٢) المجموع شرح المهذب للنووى ، ج ١ ص ٤١ .
(٣) نكت الهميان ، ص ٢١٢ .

الخليفة (الإمام)

لا يجوز أن يكون إمام المسلمين أى (خليفتهم) مكفوف البصر ، فقد شرطوا فى الإمام أن يكون مبصراً . قالوا : ولذلك كان (بنو بويه) وغيرهم إذا خلعوا الخليفة اعتدوا عليه فسملوا عينيه (والسمل فقء العين) حتى يصير المسمول مكفوفا ، فلا يصلح بعد ذلك للإمامة .

القصاص

بين العين المبصرة والعين المكفوفة :

قالوا : لا يجرى القصاص من العين الصحيحة بالعين المكفوفة ، لعدم التكافؤ والتساوى ، فإن كل عضو له منفعة ، ومنفعة العين إدراك المرئيات ، والعين المكفوفة لا تدركها ، فانعدم التكافؤ ، فلا قصاص ؛ وهذا لا يمنع الانتقال من القصاص إلى عقوبة أخرى رادعة ومجزية .

ولكن القصاص يجرى فى جفن البصير بجفن المكفوف ، لأنهما متساويان .

القصاص بسبب الكف :

إذا جنى شخص على آخر فأفقده بصره فإنه يقتص منه ، وإذا تعذر القصاص لسبب من الأسباب وجبت الدية .

ضمان البصير للكفيف :

إذا جرى بصير وراء مكفوف ليضربه بسيف ، فوقع المكفوف فى بئر ضمن نتيجة ذلك ، إذا كان الكفيف لم يعلم أن هناك بئراً .

صورة ضمان :

يقول ابن تيمية : « فصل: ومما يظن أنه يخالف القياس مارواه على بن رباح اللخمى أن رجلا كان يقود أعمى ، فوقعا فى بئر ، فخر البصير ، ووقع الأعمى فوقه

فقتله ، فقضى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعقل البصير على الأعمى ، فكان الأعمى يدور فى الموسم و ينشد :

يا أيها الناس ، لقيت منكرا هل يعقل الأعمى الصحيحَ المبصرا ؟
خرّا معا ، كلاهما تكسرا

وقد اختلف الناس فى هذه المسألة ، فذهب إلى قضاء عمر هذا عبد الله بن الزبير وشريح و إبراهيم النخعى والشافعى و إسحاق وأحمد . وقال بعض الفقهاء : القياس أنه ليس على الأعمى ضمان البصير ، لأنه الذى قاده إلى المكان الذى وقعا فيه ، وكان سبب وقوعه عليه ، وكذلك لو فعله قصدا منه لم يضمنه بغير خلاف ، وكان عليه ضمان الأعمى ، ولو لم يكن سبباً لم يلزمه ضمان بقصده .

قال أبو محمد المقدسى فى المغنى : لو قيل هذا لكان له وجه ، إلا أن يكون مجمعا عليه فلا يجوز مخالفة الإجماع . والقياس حكم عمر لوجوه : أحدها أن قوده له مأذون فيه من جهة الأعمى ، وما تولد من مأذون فيه لم يضمن كنظائره . الثانى : قد يكون قوده له مستحبا أو واجبا ، ومن فعل ما وجب عليه أو ندب إليه ، لم يلزمه ضمان ما تولد منه . الثالث : أنه قد اجتمع على ذلك الإذنان : إذن الشارع و إذن الأعمى ، فهو محسن بامتثال أمر الشارع ، محسن إلى الأعمى بقوده له ، وما على المحسنين من سبيل ؛ وأما الأعمى فإنه سقط على البصير فقتله ، فوجب عليه ضمانه، كما لو سقط إنسان من سطح على آخر فقتله ، فهذا هو القياس.

وقولهم : (هو الذى قاده إلى المكان الذى وقعا فيه) فهذا لا يوجب الضمان لأن قوده مأذون فيه من جهته ومن جهة الشارع ؛ وقولهم : (وكذلك لو فعله قصدا لم يضمنه) فصحيح لأنه مسىء وغير مأذون له فى ذلك ، لا من جهة الأعمى ولا من جهة الشارع ، فالقياس المحض قول عمر ، و بالله التوفيق »[1] .

---

(١) إعلام الموقعين مع حادى الأرواح لابن القيم ، المجلد الثانى ، ص ١٥٤ مطبعة الكردى .

الشهادة

قالوا : تقبل شهادة المكفوف في موضعين : الأول يقول له إنسان فى أذنه شيئاً ، فيعلقه ، ويحمله إلى القاضى : فيشهد بما قاله ؛ وقيل : لا تقبل شهادته فى هذه الحالة . والثانى : فيما يشهد فيه بالاستفاضة ، كالموت والنسب ، لأن كف البصر لا يؤثر هنا .

السماع على المكفوف

قال ابن كثير : « فرع : قال الخطيب البغدادى : والسماع على الضرير ، أو البصير الأمى (يقصد سماع الحديث للرواية) مثبتاً بخط غيره أو قوله : فيه خلاف بين الناس ، فمن العلماء من منع الرواية عنهم ، ومنهم من أجازها »[1] .

الذبح

يكره ذبح المكفوف فى مذهب الشافعى ، لاحتمال أنه يخطئ الذبح ، فإن ذبح حلت ذبيحته ، ويحل صيده بالكلب والرمى ، وذلك لأنه — كما قالوا — يفعل هذا بدلالة بصير عادة .

الحجاب

هل للمرأة ألا تحتجب مع المكفوف؟

روى التاريخ أن السيدة أم الصالح إسماعيل بن العادل اشترطت أن يكون القارئ فى « الخانقاه » الذى بنته مكفوفا ، ليتيسر لها الحضور وقت القراءة بنفسها بغير حجاب[2] .

---

(١) كتاب اختصار علوم الحديث لابن كثير ، ص ١٦٤ .

(٢) التذكرة التيمورية ص٣٩٧ نقلا عن كنوز الذهب فى تاريخ حلب ، جزء الخطط ، ص ١٤٠ .

ولكن الغزالى يروى أن أم سلمة قالت : استأذن ابن أم مكتوم الأعمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا وميمونة جالستان ، فقال عليه السلام : احتجبا . فقلنا : أو ليس بأعمى لا يبصرنا ؟ فقال : وأنتما لا تبصرانه؟ قال الغزالى: « وهذا يدل على أنه لا يجوز للنساء مجالسة العميان كما جرت به العادة فى المآتم والولائم ،فيحرم على الأعمى الخلوة بالنساء ، ويحرم على المرأة مجالسة الأعمى ، وتحديق النظر إليه لغيرحاجة ، وإنما جوز للنساء محادثة الرجال والنظر إليهم لأجل عموم الحاجة »[1] .

ولكن قد جاء فى فصل (الرسول والمكفوفون) السابق أن السيدة عائشة رضى الله عنها كان تقطع لابن أم مكتوم الأترج ، وتجعله فى العسل وتطعمه ! ..

وقال سعيد بن المسيب — وهو ابن أربع وثمانين سنة ، وقد ذهبت إحدى عينيه ، وهو يعشو بالأخرى[2] — : « ما شيء أخوف عندى من النساء»[3] .

التكريم والمعاونة

رأينا كيف كرم الرسول وزوجته عائشة ابن أم مكتوم المكفوف ، ورأينا كيف حرض النبى على قيادة المكفوف وهدايته ، ورأينا كيف قال النبى لأبى بكر حينما جاء بأبيه المكفوف عقب فتح مكة : « هلا تركت الشيخ فى بيته ، حتى أكون أنا آتيه » ؟ وفى لفظ : « لو أقررت الشيخ فى بيته لأتيناه » .

وقد توارثت الأمة الإسلامية تكريم المكفوف ومعاونته بين الكرام من أبنائها ، وقد روى أن هارون الرشيد دعا (أبا معاوية الضرير) إلى قصره ، فصب الرشيد على يده الماء فى الطست دون أن يشعره ، فلما فرغ قيل له : يا أبا معاوية ، تدرى من صب على يدك ؟ قال : لا . قيل: صبه أمير المؤمنين .

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى ، ج ٣ ص٨٨ — طبعة دار الكتب العربية .

(٢) أكثر من شبه كفيف .

(٣) المصدر السابق ، ص ٨٩ .

فقال أبو معاوية للرشيد : يا أمير المؤمنين ، إنما أكرمت العلم وأجللته ، فأجلك الله وأكرمك ، كما أجللت العلم وأهله .

وهذا شيث بن إبراهيم القفطي القناوي المكفوف ، قد جاء بترجمته في (أنباء الرواة) : « وكان ملوك البلاد يجلون قدره ، ويرفعون ذكره ، وكان القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني يعرف قدره ، ويعظم ذكره ، ويقبل إشارته » . ويقول عنه ياقوت في (معجم الأدباء) : « وكان ذا هيبة ووقار ، وله مقامات معروفة ، ومواقف بين يدي السلاطين والأمراء ، وكانوا يحترمونه ويوقرونه » . فنحن نرى خلال التاريخ تكريما وإجلالا لكبار المكفوفين ، كما نرى مساعدة وعطفا على فقرائهم وضعفائهم .

وقد روي عن الصوفي المشهور السيد أحمد بن أبي الحسين الرفاعي أنه كان يخرج إلى الطريق ينتظر العميان ، حتى إذا جاءوا يأخذ بأيديهم ويقودهم[(١)] . كما روي عنه أنه كان إذا قرب من بلدة (أبو عبيدة) جمع الحطب مع إخوانه ، وأخذ يوزعه على فقراء المكفوفين والمحتاجين من الناس كالمرضى والأرامل لينتفعوا به[(٢)] .

وكان عمر بن الخطاب يتعهد امرأة مكفوفة بالمدينة ، ويقوم بأمرها ، فكان إذا جاءها ألفاها قد قُضيت حاجاتها ! وترصد عمر يوما ، فإذا أبو بكر هو الذي يكفيها مئونتها ، لم تصرفه عن ذلك الخلافةُ وجسامة تبعاتها ، فلما رآه عمر قال : « أنت هو لعمري »[(٣)] !! ..

وكما ندب الشرع الإسلامي إلى تكريم المكفوف ومعاونته ، حذَّر من الإساءة إليه أو إضلاله ، فعن أبي هريرة مرفوعا أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن

---

(١) الطبقات الكبرى ، للشعراني ، ج ١ س ١٢٣ .
(٢) المصدر السابق ، س ١٢٤ .
(٣) كتاب أبو بكر ، فيكل ، س ٢٥٦ .

من أضل الأعمى عن الطريق[1]. كما جاء: «أربعة لعنوا فى الدنيا والآخرة وأمنت الملائكة: رجل جعله الله ذكرا فأنث نفسه وتشبه بالنساء، وامرأة جعلها الله أنثى فتذكرت وتشبهت بالرجال، والذى يضل الأعمى، ورجل حصور[2]، ولم يجعل الله حصورا إلا يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام»[3].

معاونة الكفيف غير المسلم

مر عمر بن الخطاب بباب قوم وعليه سائل يسأل، وكان شيخا مكفوفا، فضرب عمر يده، وقال له: من أى أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودى. قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: الجزية والحاجة والسن. فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله، وأعطاه مما وجده ما يكفيه ساعتها، ثم أرسل به إلى خازن بيت المال وقال له: انظروا هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته، ثم نخذله عند الهرم، إنما الصدقات للفقراء والمساكين، والفقراء هم الفقراء المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب ... ثم وضع عنه الجزية[4].

قائد لكل مكفوف

جاء صاحب الرقيق إلى عمر بن عبد العزيز يسأله أرزاقهم وكسوتهم وما يصلحهم، فقال عمر: كم هم؟ قال: هم كذا وكذا ألفا. فكتب إلى أمصار الشام أن ارفعوا إلىّ كل أعمى فى الديوان، أو مقعد، أو من به فالج، أو من به زمانة تحول بينه و بين القيام إلى الصلاة. فرفعوا إليه، فأمر لكل أعمى بقائد، وأمر لكل اثنين من الزمنى بخادم؛ وفضل من الرقيق، فكتب أن ارفعوا

---

(١) مجموعة الحديث النجدية، ص ٢٣٠.

(٢) الذى يمتنع عن الزواج مع قدرته عليه.

(٣) السيرة الحلبية، ج ٢ ص ٩٠.

(٤) انظر كتاب التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، ص ٣٧ و ٣٨، وكتاب عبقرية عمر، ص ١٨١ الطبعة الأولى، وكتاب السلام العالمى والإسلام، ص ١٣٧.

كل يتيم ، ومن لا أحد له ممن قد جرى على والده الديوان ، فأمر لكل خمسة بخادم يتوزعونه بينهم بالسوية[1] .

ويقول ابن عبد الحكم : « وكان عمر بن عبد العزيز إذا كثر عنده أرقاء الخمس فرقه بين كل مقعدين ، وبين كل زمنين غلاما يخدمهما ، ولكل أعمى غلاما يقوده »[2] .

ويقول ابن تغرى بردى : « وكان الوليد — بن عبد الملك — عند أهل الشام من أفضل خلفائهم ، بنى المساجد : مسجد دمشق ، ومسجد المدينة ، ووضع المنابر ، وأعطى المجذومين أموالا ومنعهم من سؤال الناس ، وأعطى كل مقعد وكل ضرير قائداً ، وفتح فى ولايته فتوحا عظاماً »[3] .

ثواب كف البصر

ذكرنا فى فصل (الرسول والمكفوفون) حديث النبى صلى الله عليه وسلم عن ربه تبارك وتعالى : « إذا أخذت كريمتى عبدى (أى عينيه) فى الدنيا لم يكن له جزاء عندى إلا الجنة » .

ولقد حدث أبو مسعود الدارمى قال : حدثنى جدى عن أنس بن مالك قال : جاء فتى من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إن أمى تكثر البكاء ، وأخاف على بصرها أن يذهب ، فلو أتيتها فوعظتها !. فذهب معه ، فدخل فقال لها فى ذلك ، فقالت : يارسول الله ، أرأيت إن ذهب بصرى فى الدنيا ، ثم صرت إلى الجنة ، أيبدلنى الله خيرا منه ؟ . قال : نعم . قالت : فإن ذهب بصرى فى الدنيا ثم صرت إلى النار ، أفيعيد الله بصرى ؟ ..

---

(١) سيرة عمر بن عبدالعزيز ، لابن الجوزى ، ص ١٥٥ .
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص ٥٥ .
(٣) النجوم الزاهرة ، لابن تغرى بردى ، ج ١ ص ٢٢٠ .

فقال النبي عليه السلام : إن أمك صديقة[١] ؟ .

وقيل لغالب بن عبد الله الجهضمي : إنا نخاف على عينيك العمى من طول البكاء . فقال : هو لهما شهادة[٢] !!

ودخل أبو عتاب على عمرو بن هداب وقد كف بصره والناس يعزونه ، فمثل بين يديه ، وكان كالجمل المحجوم[٣] ، وله صوت جهير ، فقال : يا أبا أسيد ، لا يسوءنك ذهابهما فلو رأيت ثوابهما في ميزانك تمنيت أن الله تعالى قد قطع يديك ورجليك ، ودق ظهرك ، وأدمى صلعك[٤] !!.

وذهب بصر عبد العزيز بن أبي رواد عشرين سنة ، فلم يعلم به أهله ولا ولده ، فتأمله ابنه ذات يوم فقال له : يا أبت ، ذهبت عيناك !. قال : نعم ، يا بني ، الرضا عن الله أذهب عين أبيك منذ عشرين سنة[٥] !! .

ترك السلام على المكفوف

من المنسوب إلى الرسول : « ترك السلام على الضرير خيانة » . ومن ظريف ما يروى في باب ترك السلام على المكفوف أن عراك بن مالك وأبا بكر ابن حزم وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة كانوا يتجالسون بالمدينة زمناً ، ثم إن ابن حزم ولي إمرتها ، وولي عراك القضاء ، وكانا يمران بعبيد الله فلا يسلمان عليه ولا يقفان ، وكان عبيد الله مكفوفاً ، فأخبر بذلك ، فأنشأ يقول :

ألا أبلغا عني عراكَ بن مالك ... ولا تدعا أن تثنيا بأبي بكر
فقد جعلتْ تبدو شوا كلُ منكما ... كأنكما بي موقَران من الصخر

---

(١) عيون الأخبار ، لابن قتيبة ، ج ٢ ص ٢٩٣ .
(٢) البيان والتبيين ، للجاحظ ، ج ٣ ص ١٥٩ ، وعيون الأخبار ، ج ٢ ص ٢٩٦ .
(٣) المحجوم : الذي وضع على فمه الحجام — ككتاب — لئلا يعض ، فصوته أقوى صوت .
(٤) الحيوان ، للجاحظ ، ج ٣ ص ٣٥ .
(٥) حلية الأولياء ، لأبي نعيم ، ج ٨ ص ١٩١ .

وطاوعتما بى داعكا ذا معاكة لعمرى لقد أزرى ، وما مثله يُزرى

ولولا اتقائى ثم بقياى فيكما للمتكما لوماً أحر من الجمر

ولا تأنفا أن تسألا وتسلما فما خشى الإنسان شرا من الكبر

فمسّا تراب الأرض ، منهما خُلقتما ومنها المعاد والمصير إلى الحشر

فلو شئت أن ألفى عدواً وطاعناً لألفيته ، أو قال عندى فى السر

فإن أنا لم آمر ولم أنه عنكما ضحكت له حتى يلج و يستشرى(١)

نقل العين للمكفوف

يجوز نقل عين البصير المتوفى إلى المكفوف ليبصر بها ، وقد تلقت لجنة الفتوى استفتاء عن حكم « الانتفاع بجزء من عين شخص متوفى لرد بصر شخص آخر حى » فأجابت اللجنة برياسة الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ عبد المجيد سليم بالجواب التالى :

« أجاز كثير من متأخرى علماء الشافعية جبر المنكسر من عظم إنسان حى بعظم إنسان ميت إذا لم يمكن جبره بغيره ، (تراجع حواشى تحفة ابن حجر ، وتقرير الشيخ الشربينى على ابن قاسم على البهجة) وقياساً على هذا ترى اللجنة جواز نقل جزء من عين الميت لإصلاح عين الحى إذا توقف على ذلك إصلاحها وقيامها بما خلقها الله له ، هذا هو ما تفتى به اللجنة ، والله الهادى إلى سواء السبيل »(٢) .

وجاء فى (حقيبة المفتى)(٣) هذا السؤال :

خطا الطب الرمدى خطوة موفقة فى إجراء هذه الجراحة الخطيرة التى تقوم على نزع عيون الموتى ، فى حوادث مفاجئة عقب وفاتهم مباشرة ، للاستفادة بها ،

---

(١) الأغانى ، ج ٩ ص ١٤٤ ، طبعة دار الكتب المصرية .

(٢) مجلة الأزهر ، المجلد العشرون ، عدد شعبان سنة ١٣٦٨ هـ

(٣) ص ٢١٢ .

بعد التأكد من صلاحيتها من الناحية الفنية — فى إعادة البصر لمن فقدوا بصرهم ولترقيع (قرنية) العين لمن تحتاج عيونهم إلى إجراء هذه الجراحة الخطيرة . . . فهل يمضي الطب مؤيداً بروح الدين ؟ وهل يمضى الطبيب المسلم فى بحوثه الفنية حول هذا الفتح الطبى الجديد ، مؤيداً بالمثوبة الروحية من الله القدير ، فلا تقف أمامه حرمة من الدين ، ولا خشية من العقوبة ؟ ! .

وكان الجواب ما يلى :

واضح مما ذكر أن الباعث على طلب الحصول على عيون بعض الموتى إنما هو التوصل بها إلى دفع الضرر الفادح عن الأحياء المصابين فى أبصارهم ، وذلك مقصد عظيم تقره الشريعة الإسلامية ، بل تحث عليه ، فإن المحافظة على النفس من المقاصد الكلية للشريعة الغراء ، فإذا ثبت علمياً أن ترقيع القرنية بهذه العيون هو الوسيلة الفنية لدرء خطر العمى أو ضعف البصر عن الإنسان ، يجوز شرعاً نزع عيون بعض الموتى بقدر ما تستدعيه الضرورة ، لما تقرر من مشروعية التداوى من الأمراض محافظة على النفس من الآفات

وقد تداوى رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ألم به من الأمراض ، وأمر الناس بالتداوى لإزالة العلل والآلام فيما هو أقل شأناً مما نحن بصدده ، وذلك يستلزم مشروعية وسائله ، وجواز استعمال ما تقتضيه ضرورة التداوى والعلاج . .

على أن الواجب شرعا على الأمة أن يختص طائفة بالطب والعلاج بقدر ما تستدعيه حاجتها ، وبحسب تنوع أمراضها ، فيجب أن يكون فيها أطباء فى كل فروع الطب — ومنهم أطباء العيون — سدا لحاجة الأمة فى هذا الفرع ، بحيث إذا قصرت الأمة كلها فى ذلك كانت آثمة شرعا .

ويجب عليهم أن يحذقوا الفن حتى يؤدوا وظائفهم أكمل أداء ، فإذا اهتدوا إلى علاج نافع لأمراض العيون يحفظ حاسة البصر أو يعيدها بعد الفقدان ،

وجب عليهم أن ينفعوا الناس به ، ووجب تمكينهم من وسائله ، بقدر ماتقتضيه الضرورة والحاجة .

وللوسائل فى الشرع حكم المقاصد ، ولذلك جاز أن يباشر طلاب الطب وأساتذته تشريح بعض جثث الموتى ، مادام ذلك هو السبيل الوحيد لتعلم فن الطب وتعليمه والعمل به ، وبدونه لا يكون طب صحيح ولا علاج مثمر ، بل لا يعد طبيباً من لا يعرف فن التشريح علما وعملا ، كما قرر ذلك جميع الأطباء ، فيجب أن يمكن الأطباء من القيام بهذه المهمة الجليلة وعلاج عيون الأحياء بعيون الموتى الصالحة لذلك .

ولا يمنع من ذلك مايرى فيه من انتهاك حرمة الموتى ، فإن علاج الأحياء من الضروريات التى يباح معها شرعا ارتكاب هذا المحظور ، ومن القواعد الشرعية (أن الضرورات تبيح المحظورات) . ولذا أبيح عند المخمصة أكل الميتة المحرمة ، وعند الغصة إساغة اللقمة بجرعة من الخمر المحرمة إحياء للنفس ، إذا لم يوجد سواهما ؛ وجاز دفع الصائل ولو أدى إلى قتله ، وجاز شق بطن الميتة لإخراج الولد منها ، إذا كانت حياته ترجى ؛ بل قيل بجواز شق بطن الميت إذا ابتلع لؤلؤة ثمينة أو دنانير لغيره .

وإباحة المحظورات تقديرا للضرورات قاعدة يقتضيها العقل والشرع ، وفى الحديث (لاضرر ولا ضرار) . وقد بُنى عليها كثير من الأحكام ، ولذا قال الفقهاء : (الضرر يزال) . فعملا بهذه القاعدة يجوز نزع عيون بعض الموتى مع ما فيه من انتهاك حرمتهم لإنقاذ عيون الأحياء من العمى والمرض الشديد ...

ومن القواعد العامة أن الحاجة تنزل منزلة الضرورة عامة كانت أو خاصة ؛ ولذا أجاز الفقهاء بيع السلم مع كونه بيع المعدوم ، دفعا لحاجة المفلسين ، وأجازوا بيع الوفاء درءاً لحاجة المدينين ؛ ولا شك أن حاجة الأحياء إلى العلاج بمنزلة الضرورة التى يباح من أجلها ما هو محظور شرعاً .

على أننا إذا قارنا بين مضرة ترك العيون تفقد حاسة الإبصار ومضرة انتهاك حرمة الموتى نجد الثانية أخفهما ضررا ، ومن المبادئ الشرعية أنه (إذا تعارضت مفسدتان دُرِئ أعظمهما ضرراً بأخفهما ضررا) ولا شك أن الإضرار بالميت أخف من الإضرار بالحى .

ويجب أن يعلم أن إباحة نزع عيون بعض الموتى لهذا الغرض مقيدة بقدر ما تستدعيه الضرورة ، لما تقرر شرعاً من أن (ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها فقط) . ولذلك لا يجوز المضطر لأكل الميتة إلا قدر ما يسد الرمق ، وللمضطر لإزالة الغصة بالخمر إلا الجرعة المزيلة لها فقط ، ولا يجوز أن تستر الجبيرة فى الأعضاء الصحيحة إلا القدر الضرورى لوضعها ، ولا يجوز للطبيب أن ينظر فى العورة إلا بقدر الحاجة الضرورية .

وغير خاف أن ابتناء الأحكام على المبادئ العامة والقواعد الكلية مسلك أصولى فى استنباط الأحكام الجزئية فى الحوادث والوقائع النازلة التى لم يرد فيها بعينها نص من الشارع ، وكذلك نجد الشريعة لا تضيق ذرعا بحادث جديد ، بل تفسح له صدرها ، وتشمله قواعدها الكلية ومبادئها العامة القيمة .

طرفة فى أحكام المكفوف

من فروع صلاة المكفوف

كتب صلاح الدين الصفدى إلى الشيخ الإمام بهاء الدين أبى حامد أحمد ابن العلامة شيخ الإسلام قاضى القضاة تقى الدين أبى الحسن على السبكى الأنصارى الشافعي هذه الأبيات ملغزا :

أبا حامد ، إنى بشكرك مطربٌ كأن ثنائى فى المسامع سيزُ(1)
لقد حزتَ فضلَ الفقه والأدب الذى يفوت الغنى مَنْ لا بذاك يفوز

(1) السيز : كلمة فارسية ، بمعنى الصوت المرخم .

وفتَّ المدى مهلاً إلى الغاية التى ... لهـا عن لحاق السابقين بروز
فأصبحت فى حلِّ الغوامض آيةً ... تميل إلى طرق الهـدى وتميز
كأن حروف المشكلات إذا أتت ... لديك على حلِّ العويص رموز
ملكت فأخرجْ للمساكين فضلةً ... فعندك من در البيان كنوز
تجيد القوافى والقُـوَى فى بيانها ... فبيتـك للمعنى الشرود حريز
سألتُ فخبِّرْ عن صلاة امرئٍ غدت ... بحار بسيط عندها ووجـيز
تجوز إذا صـلى إماما ومفردا ... وإن كان مأموما فليس تجـوز
فأوفِ لنـا كيلَ الهدى متصدقا ... فأنت بمصر والشـآم عزيز
فمن ذا الذى يُرْجى وأنت كما نرى ... مجيدٌ ، مجيبٌ للسؤال ، مجـيز؟

فأجابه الإمام بهاء الدين عن سؤاله بهذه الأبيات :

أيا مَنْ لشأو العلم بات يحـوز ... ومن لسواه المدحُ ليس يجـوزُ
ومن حاز فى الآداب ما اقتسم الورى ... فليس لشىء منه عنـه نشوز
ومن ضاع عَرْفُ الفضل منه ، ولم يضع ... بجدواه عُرْفُ الجود ، فهو حريز(١)
سألتَ ، وما المسئولُ أعلم بالذى ... أردتَ ، ولا منـه عليك بروز
وقلتَ : امرؤ لا يقتدِى ، غير أنه ... إماما وفـرداً بالجواز يفـوز
وذاك امرؤ أعمى نأى عنه سمعُه ... وليس لأفعـال الإمام يمـيز
فهاك جوابا واضحا قد أبنتـه ... ومثلى عن حلِّ الرموز ضموز(٢)
فإن كان هـذا ما أردت فإنمـا ... بفضلك فى الدنيـا تفكُّ رموز
وإن لم يكنه فالذى هو لازم ... جوابٌ لمضمون السؤال يحـوز
فلا زلتَ تُبدى من فضائلك التى ... تزيد مع الإنفاق وهى كـنوز
فأنت (صلاح الدين) والناسِ والدُّنا ... وأنت خليل ، والخليل عزيز ! !

---

(١) ضاع : فاح . ولم يضع : من الضياع وهو الفقدان .
(٢) ضموز : من ضمز إذا سكت ولم يتكلم .

أما بعد ، فهذه طائفة من الأحكام الفقهية والشرعية التى تتعلق بالمكفوف ، ومن الظاهر أن هذه الطائفة — وإن كانت محاولة أولى فى هذا الباب — لا تكفى . لأن كتب الفقه والشريعة الواسعة يتناثر فيها هنا وهناك أحكام وآراء فقهية تتعلق بالمكفوفين ، ولو أن مواطن هذه الأحكام والآراء كانت معلومة أو محددة لسهل الرجوع إليها لالتقاطها وتجميعها ؛ ولكنها — كما ذكرت — متناثرة بلا رابط و بلا قاعدة ؛ ولذلك يطول الزمن إذا أريد لها التلاقى على صعيد واحد ، وأرجو من الذين يعنون بشئون المكفوفين أن يبذلوا جهودهم لمواصلة تجميع هذا الأحكام ، حتى يتكون منها مصدر فقهى يسعفنا بأحكام المكفوف فى مختلف الشئون . . .

أمثال المكفوفين

هذه مجموعة من الأمثال التى تتعلق بالمكفوفين ، ولم يسبق لنا أن رأينا مثل هذه الأمثال مجتمعة ، ولذلك أخذت أتتبع الأمثال المتعلقة بالمكفوفين وأقيدها : عن طريق السماع ، أو عن طريق المطالعة ، أو عن طريق المراجعة ؛ وقد رجعت فيما رجعت إلى مجمع الأمثال للميدانى ، والأغانى للأصبهانى ، ونكت الهميان للصفدى ، والحيوان للجاحظ ، والبيان والتبين له أيضاً ، والسيرة الحلبية لابن برهان الدين الحلبى ، و بدائع الفوائد لابن القيم ، وأدب الدنيا والدين للماوردى .

وقد أضفت إلى أمثال المكفوفين الأمثال المتعلقة بالعور ، للصلة الموجودة بين المكفوفين والعور ، ولأن (الأعور) قد يطلق على المكفوف فى العربية ؛ كما ذيلت هذه المجموعة ببعض الأمثال المتعلقة بالبصر ، لأن الأشياء تتميز بأضدادها، ولأن الشىء يكون أقرب خطوراً بالبال عند ذكر ضده :

١ — ما الناس إلا أكمه و بصير :

يضرب فى التفاوت بين الخلق كما ذكر الميدانى .

٢ — ربما أصاب الأعمى رشدَه :

وربما قيل فيه كما ذكر الصفدى : بما أصاب الأعمى رشده ؛ فحذفوا الراء من ربما ، كقول حسان :

إن يكن غثَّ من رقاش حديثٌ فبما تأكل الحديث سمينا

قالوا : أراد فربما . وقد يجوز أن تكون الباء للبدل ، كما يقال : هذا بذاك .

والمثل واضح المعنى .

٣ — بالقلب لا بالعين يبصر ذو اللب :

أى أن المكفوف الذكى يرى بقلبه ما يغنيه عن الرؤية بعينه ، وهذا مأخوذ من قول بشار بن برد :

يزهدنى فى حب (عبدة) معشر قلوبهم فيها مخالفة قلبى
فقلت : دعوا قلبى وما اختار وارتضى فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللب

وهذا قريب من قول بشار أيضا :

عميتُ جنينا ، والذكاءَ من العمى فجئت عجيبَ الظن للعلم موئلا
وغاض ضياء العين للعلم رافدا لقلب إذا ما ضيّع الناسُ حُصَّلا

وهو أيضاً قريب من قول الإربلى :

وكاعبٍ قالت لأترابها : يا قومُ ، ما أعجب هذا الضرير
هل تعشق العينان ما لا ترى ؟ فقلت والدمع بعينى غزير :
إن كان طرفى لا يرى شخصها فإنها قد صُوِّرتْ فى الضمير !

وهو أيضاً قريب من قول عز الدين بن أحمد بن عبد الدائم :

إن يُذهب الله من عينىّ نورَهما فإن قلبى بصير ما به ضررُ
أرى بقلبىَ دنيايَ وآخرتى والقلب يدرك ما لا يدرك البصر

٤ — أهوى بجارحة السما ع ، ولا أرى ذاتَ المسمىَّ

يضرب للشىء يعشقه الإنسان بالسماع عنه دون أن يراه .

وهو مأخوذ من قول أبى العز مظفر بن إبراهيم المكفوف :

قالوا : عشقتَ وأنت أعمى ظبيا كحيلَ الطرف ألمىَ
وحُلاه ما عاينتها فنقول : قد شغلتك وهما
وخياله بك فى المنا م ، فما أطاف ولا ألمَّا

من أين أرسل للفؤا د ـ وأنت لم تنظره ـ سهما ؟
فأجبت : إنى موسو ىٌ العشق إنصاتا وفهما
أهوى بجارحة السما ع ، ولا أرى ذات المسمىّ !

٥ — المكفوف يعشق بأذنه :

هذا المثل قريب فى المعنى من المثل السابق ، وهو ينظر إلى قول بشار :

يا قوم ، أذنى لبعض الحى عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا : بمالا ترى تهذى؟ فقلت لهم: الأذن كالعين تُوفى القلب ما كانا

٦ — عمى القلب عن الله أشد من عمى العين عن الدنيا :

هذا من كلام عفيرة بنت الوليد البصرية العابدة ، قالته حينما قال لها رجل : ما أشد العمى على من كان بصيرا . وعفيرة هى التى دخل عليها العابدون يوما يزورونها كما يروى الشعرانى فى (طبقات الصوفية) فقالت لهم : ماشأنكم ؟ . قالوا : نسألك الدعاء . قالت : لو أن الخاطئين خرسوا ما تكلمت عجوزكم من البكم ، ولكن الدعاء سنة . ثم قالت : جعل الله قراكم من نبق الجنة ، وجعل ذكر الموت منى ومنكم على بال ، وحفظ علينا الإيمان إلى الممات ، وهو أرحم الراحمين .

٧ — أعمى يقود شَجَعَة :

والشجعة : (بفتح الشين والجيم والعين) : الزَّمنى . وقيل . الشجْعة (بسكون الجيم) : الضعيف . كذا روى الصفدى . ورواها الميدانى : الشُّجْعة (بضم فسكون ففتح) : الزَّمْنى ، أى : ضعيف يقود ضعيفا و يعينه . قال أبو زيد : وإذا رأيت أحمق ينقاد له العاقلُ قلت هذا للعاقل أيضاً .

٨ — لقيته صَكَّةَ عُمَىٍّ :

هذا المثل رُوى بعدة روايات نسوقها :

قال الميدانى : « قال اللحيانى : هى (يعنى صكة عمى) أشد مايكون من الحر، أى حين كاد الحر يُعْمى من شدته . وقال الفراء : حين يقوم قائم الظهيرة ، وزعم بعضهم أن عُمَيًّا الحر بعينه ، وأنشد :

وردت عميا والغزالةُ برنس بفتيان صدق فوق خُوصٍ عباهم

وقال غير هؤلاء : عُمَىٌّ رجل من عَدْوان كان يفتى فى الحج ، فأقبل معتمرا ومعه ركب ، حتى نزلوا بعض المنازل فى يوم شديد الحر ، فقال عمى : من جاءت عليه هذه الساعة من غد وهو حرام لم يقض عمرته فهو حرام إلى قابل ، فوثب الناس فى الظهيرة يضربون حتى وافوا البيت ، وبينهم وبينه من ذلك الموضع ليلتان ، فضرب مثلا فقيل : أتانا صكة عمى ، إذا جاء فى الهاجرة الحارة . قال فى ذلك كرب بن جبلة العدوانى :

صكَّ بها نحر الظهيرة غائرا عمى ، ولم ينْعلْن إلا ظلالَها

وجئن على ذات الصفاح كأنها نعام تُبغِّىٌ بالشظىِّ رئالها

فطوَّفن بالبيت الحرام وقُضِّيت مناسكها ولم تحلْ عقالها

وقال الصفدى : « ويقال : أتيته صكة عمى (بضم العين وفتح الميم وتشديد الياء) أى وقت الهاجرة ، وهو تصغير أعمى مرخما ، وقيل : هو اسم رجل من العمالقة ، أغار على قوم ظهرا فاستأصلهم ، فنُسب الوقتُ إليه ؛ وقيل : المراد به الظبى ؛ لأنه يسدر[1] فى الهواجر ، فيصطك بما يستقبله كاصطكاك الأعمى ، ثم إنه صُغِّر تصغير الترخيم » .

ثم عاد الصفدى فذكره بلفظ « صكة عمى » وذكر أنه هو أشد ما يكون من الحر ، أى حين كاد الحر يعمى . وقيل : حين يقوم قائم الظهيرة . . . ثم مضى فى حديث يشبه حديث الميدانى السابق عن المثل .

---

(١) سدر بصره : إذا تحير فلم يحسن الإدراك . (الأساس) .

وقال ابن برهان الحلبى : « قال ابن عباس رضى الله عنهما : مجانا الرواح للمسجد صكةَ الأعمى . فقيل : وما صكة الأعمى ؟ قال : إنه لا يبالى أية ساعة خرج » ! .

٩ — ليت حظى من أبى كَرِبٍ أن يسد عنى خيرُه خَبْلَه :

قيل : نزلت بقوم شدة فقالوا لعجوز مكفوفة البصر : أبشرى ، فهذا أبو كرب قد قرب منا . فقالت هذا القول ، وأبو كرب تُبَّع من تبابعة اليمن .

١٠ — يطرق أعمى والبصير جاهل :

الطرق هو الضرب بالحصى ، وهو نوع من الكهانة . يضرب لمن يتصرف فى أمر ولا يعلم مصالحه ، فيخبره بالمصلحة غيره من خارج .

١١ — أضبط من الأعمى :

ذكر الميدانى أن هذا من أمثال العرب .

١٢ — أحفظ من العميان ، ومن الشعبى .

أورده الميدانى فى أمثاله ، واقتصر الصفدى على قوله : أحفظ من العميان .

١٣ — أنكح من أعمى :

أورده الميدانى فى مجمع الأمثال ، وحكى ابن المرزبان فى تاريخه — كما ينقل الصفدى — عن الأصمعى أنه قال : هما طرفان ماذهب من أحدهما زاد فى الآخر . قال الصفدى : ولهذا نرى الخُدّام (وهم الخصيان) يُعَمَّر الإنسان منهم و بصره قوى ، وكذا الإنسان إذا حصل له صداع فى رأسه تحك رجلاه فيسكن الألم .

١٤ — لو كنتَ عوفيا عميت :

يقال هذا لمن يدعى شيئا ليس له عليه دليل ؛ وقد قيل: إن العمى كان شائعا فى بنى عوف ، إذا أسن الرجل منهم كف بصره ، وقل من يفلت عن ذلك ؛

وقال أرطاة بن سُهية (وهو من بنى عوف) يهجو شبيب بن البرصاء الذى كان يلصق نفسه ببنى عوف :

فلو كنت عوفيا عميت وأسهلت كذاك ، ولكن المريب مريبُ

ولما قال هذا كان كل شخص فى بنى عوف يتمنى أن يصاب بكف البصر ليثبت صحة نسبه فى بنى عوف ، ولكن العجيب أن أرطأة الذى قال هذا البيت شاخ ولم يكف بصره ، وكان شبيب يعيره بذلك ، ثم إن شبيباً مات ، وعمى أرطاة بعد موته ، فكان يقول : ليت شبيباً عاش فرآنى أعمى ! ! . . .

١٥ — العصا تنوب للأعمى عن قائده :

ذكره الجاحظ خلال حديثه عن العصا .

١٦ — قد ضل من كانت العميان تهديه :

ذكره الميدانى فى مجمع الأمثال ، ويروى أن رجلا مبصراً جاء إلى بشار فسأله عن منزل رجل ذكره له ، فجعل بشار يصف له موقع البيت ، والرجل لا يفهم ، فأخذ بشار بيده وقام يقوده إلى المنزل وهو يقول :

أعمى يقود بصيراً — لا أبالكم — قد ضل من كانت العميانُ تهديهِ !

١٧ — وما يستوى الأعمى والبصير :

من أمثال القرآن . يقول الصفدى : فقوله : الأعمى والبصير ، أى العالم والجاهل ، والمؤمن والكافر .

١٨ — اذكر الموت يهن عليك ذهاب بصرك :

من كلام سفيان الثورى لأخيه حينما شكا إليه أخوه ذهاب بصره .

١٩ — رب شظية حقيرة فقأت عينا خطيرة :

وهذا كقولهم : معظم النار من مستصغر الشرر .

٢٠ — صاحب الحاجة أعمى :

وقد ورد فى شعر أبى سليمان إدريس بن أحمد الكوفى المكفوف :

صاحب الحاجة أعمى وهو ذو مال بصيرُ
فمتى يبصر فيها رشدَه أعمى فقير ؟

٢١ — هل يعقل الأعمى الصحيح المبصرا ؟ :

روى على بن رباح اللخمى أن رجلا كان يقود مكفوفا ، فوقعا فى بئر ، ووقع المكفوف فوق البصير فقتله ، فقضى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعقل البصير على المكفوف ، فكان المكفوف ينشد فى الموسم :

يا أيها الناس لقيتُ منكرا هل يعقل الأعمى الصحيحَ المبصرا ؟
خرّا معاً ، كلاهما تكسرا

وقد تكلمنا عن هذه الحادثة فى (أحكام المكفوف)[1] .

٢٢ — الأعمى يجرى على السطح ويقول : ما رآنى أحد :

ذكر الصفدى أن هذا من « أمثال العوام » .

٢٣ — الأعمى يخرأ فوق السطح ، ويحسب الناس لا يرونه :

ذكر الميدانى أن هذا من « أمثال المولدين » .

٢٤ — منعناه من راحة البصر ، فلا نمنعه من راحة اللسان :

روى أن الخليفة الطائع لله عبد الكريم تولى الخلافة سنة ٣٦٣ هـ ، وخلعوه فى شعبان سنة ٣٨١ ، وسملوا عينيه ، ولما جلس القادر للخلافة أسكنه معه فى زاوية من قصره ، وكان فى الطائع حدة ، فكان القادر يتحمل غلظة كلامه .

وطلب الطائع منه يوما حاجة فلم يقدر عليها ، واعتذر إليه بأن الديلم غالبون على الأمر ، فلما توسط النهار وقدم الطعام أتوه بعدس مطبوخ ، فلمسه وقال : ما هذا ؟ . قالوا : عدسية : قال : أمن هذا أكل أمير المؤمنين ؟ . قالوا : نعم . قال :

---

(١) انظر صفحة ٤٥ من هذا الكتاب .

إذا كان هذا أكله وجاهه ما رأيناه أول النهار ، فقد كان الأولى به أن يقعد في البطيحة ولا يتكلف مشقة الخلافة ! ! . . .

فضحك القادر وقال : منعناه من راحة البصر ، فلا نمنعه راحة اللسان ! .

٢٥ — ارعَىْ واحذري :

خرج أعرابى مكفوف البصر ، ومعه ابنة عم له لرعى غنم لهما ، فقال الشيخ : أجد ريح النسيم قد دنا ، فارفعى رأسك فانظرى . قالت : أراها كأنها ربرب (قطيع) معزى هَزْلى . قال : ارعَىْ واحذرى .

ثم قال لها بعد ساعة : إنى أجد ريح النسيم قد دنا ، فارفعى رأسك وانظرى . قالت : أراها كأنها بغالٌ دهم ، تجر جلاجلها . قال : ارعَىْ واحذرى !.

ثم مكث ، ثم قال : إنى لأجد ريح النسيم قد دنا فانظرى . قالت : أراها كأنها بطنُ حمار أصحر (الصحرة حمرة فى غبرة) فقال : ارعى واحذرى ! .

ثم مكث ساعة فقال : إنى لأجد ريح النسيم ، فما ترين ؟ . قالت : أراها كما قال الشاعر (عبيد بن الأبرص) :

دانٍ مسفٍ[1] فوق الأرض هيدبُه[2] ... يكاد يدفعه من قام بالراح

كأنما بين أعلاه وأسفله ... ريطٌ منشَّرة[3] أو ضوء مصباح

فمن بنجوته كمن بعقوته ... والمستكن كمن يمشى بقرواح[4]

فقال : انجى لا أبالك ! ... فما انقضى كلامه حتى هطلت السماء عليهما !...

٢٦ — الهدية تفقأ عين الحكم :

قال ابن القيم : يذكر عن كعب قال : قرأت فى بعض كتب الله : الهدية

(١) دان من الأرض .

(٢) السحاب يقرب من الأرض .

(٣) ملاءات .

(٤) النجوة : المكان المرتفع الذى تظن أنه نجاؤك . والعقوة : ساحة الدار . وأرض قرواح : واسعة ، والقرواح أيضا البارز الذى لا يستره من السماء شيء .

تفقأ عن الحكم . قال ابن عقيل: معناه أن المحبة الحاصلة للمهدى إليه ، وفرحته بالظفر بها ، وميله إلى المهدى ، يمنعه من تحديق النظر إلى معرفة باطل المهدى وأفعاله الدالة على أنه مبطل ، فلا ينظر فى أفعاله بعين ينظر بها إلى من لم يهد إليه . هذا معنى كلامه . قلت : وشاهده الحديث المرفوع الذى رواه أحمد فى مسنده : « حبك الشىء يعمى ويصم »، فالهدية إذا أوجبت له محبة المهدى فقأت عين الحق، وأصمت أذنه [(1)]!.

٢٧ — حبك الشىء يعمى و يصم :

قاله النبى صلى الله عليه وسلم كما سبق ، ذكر ذلك الماوردى فى (أدب الدنيا والدين)، وقال : أى يعمى عن الرشد ، ويصم عن الموعظة ..

يقول الجاحظ فى كتابه (الحيوان) : « فقد قال الله عز وجل : (أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) ولو عنى أن عماهم كعمى العميان ، وصممهم كصمم الصُمَّان ، لما قال : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها). و إنما ذلك كقوله : (إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصُمَّ الدعاء إذا ولوا مدبرين) و كيف تُسمع المدبرَ عنك ؟. ولذلك يقال : (إن الحب يعمى ويصم) » [(2)].

٣٨ — الهوى عمى :

نسبه الماوردى فى (أدب الدنيا والدين) إلى على رضى الله عنه .

٣٩ — الحب أعمى :

من الأمثال السائرة بين العامة .

---

(١) بدائع الفوائد ، لابن القيم ، ج ٢ ص ١٤٥ .

(٢) كتاب الحيوان ، ج ٤ ص ٣٨٦ .

٣٠ — فلان فى عمياء :

يقال : فلان فى عمياء ، إذا لم يدر وجه الحق [١].

٣١ — تركناهم فى عُمَّى :

(بضم العين وتشديد الميم المفتوحة ، وبعدها ألف مقصورة) إذا أشرفوا على الموت .

٣٢ — احذروا الأعميين :

وهما الجمل الهائج والسيل .

٣٣ — الأعمى مكابر ، والأعور ظلوم ، والأحول تياه .

٣٤ — الأعمى من يرى بغير عينيه ، والأصم من يسمع بغير أذنيه :

من كلام أحمد شوقى فى كتابه (أسواق الذهب) .

٣٥ — من العجائب أعمش كحال :

ذكر الميدانى أنه من أمثال المولدين .

٣٦ — ليست بَرْيشاء ولا عَمْشاء :

الرَّيْشاء : الطويلة هدب العين ، والعمشاء : السيئة البصر . يضرب للشىء الوسط بين الجيد والردىء .

٣٧ — الليل أعور :

قالوا : وإنما قيل ذلك لأنه لا يُبْصَرُ فيه ، كما قالوا : نهار مبصر ، أى يبصر فيه .

٣٨ — كُسَيْرٌ وعُوَيْرٌ ، وكلٌّ غيرُ خير :

قال المفضل : أول من قال ذلك أمامة بنت نشبة بن غيظ بن مرة ، كان

---

(١) معجم مقاييس اللغة ، لابن زكريا ، ج ٤ ص ١٣٤ .

تزوجها رجل من غطفان أعور ، يقال له خلف بن رواحة ، فمكثت عنده زمانا حتى ولدت له خمسة ، ثم نشزت عليه ولم تصبر معه ، فطلقها ، ثم إن أباها وأخاها خرجا فى سفر لهما ، فلقيهما رجل من بنى سليم يقال له حارثة بن مرة ، فخطب أمامة وأحسن العطية ، فزوجاها منه ، وكان أعور مكسور الفخذ ، فلما دخلت عليه رأته محطوم الفخذ ، فقالت : « كسير وعوير ، وكل غير خير » ؛ فأرسلتها مثلا ....

يضرب فى الشىء يُكره ويُذم من وجهين ، لاخير فيه البتة ، قال الشاعر :

أيدخل من يشاء بغير إذن ... وكلهم كسير أو عوير

وأبقى من وراء البيت حتى ... كأنى خصية وسواى أير ؟!

أراد أن أحد زوجيها مكسور الفخذ : حارثة بن مرة ، والآخر أعور : خلف بن رواحة ، وكسير مرفوع على تقدير : زوجاى كسير وعوير .

٣٩ — أعورُ ! عينَكَ والحجرَ :

يريد : يا أعور ، احفظ عينك واحذر الحجر ، أو ارقب الحجر ؛ وأصله أن الأعور إذا أصيبت عينه الصحيحة بقى لا يبصر ، كما قال إسماعيل بن جرير البجلى الشاعر ، لطاهر بن الحسين ، وكان طاهر أعور ، وكان إسماعيل مداحاله ، فقيل لطاهر : إن إسماعيل ينتحل ما يمدحك به من الشعر ؛ فأحب طاهر أن يمتحنه ، فأمره أن يهجوه ، فأبى إسماعيل ؛ فقال طاهر : إنما هو هجاؤك لى أو ضرب عنقك !. فكتب إسماعيل فى كاغد هذه الأبيات :

رأيتك لا ترى إلا بعين ... وعينك لا ترى إلا قليلا

فأما إذ أصبت بفرد عين ... فخذ من عينك الأخرى كفيلا

فقد أيقنت أنك عن قليل ... بظهر الكف تلتمس السبيلا !

ثم عرض هذه الأبيات على طاهر فقال له: لا أرينك تنشدها أحدا ، ومزق القرطاس ، وأحسن صلته .

ويقال إن غرابا وقع على دبرة ناقة ، فكره صاحبها أن يرميه فتثور الناقة ، فجعل يشير إليه بالحجر ويقول : أعورُ ، عينك والحجر ! . ويسمى الغراب أعور لحدة بصره ، أو على القلب، كالبصير للضرير ، وكأبى البيضاء للحبشى .

٤٠ — عنده من المال عائرة عين :

يقال : « عرتُ عينَه » أى عوَّرتها . ومعنى المثل أنه من كثرته يملأ العين ، حتى يكاد يعورها ، وقال أبو حاتم ، عارت عينُه أى ذهبت . وقال : معنى المثل : عنده من المال ما تعيرُ فيه العين ، أى تجىء وتذهب وتحير . وقال الفراء : عنده من المال عائرة عين ، وعائرة عينين ، وعيرة عينين .

وأصل هذا أنهم كانوا إذا كثر عندهم المال فقئوا عين بعير دفعا لعين الكمال ؛ وجعل العور لها لأنها سببه ، وكانوا يفعلون ذلك إذا بلغت الإبل ألفا . والتقدير : عنده من المال إبل عائرةُ عين ، أى مقدار ما يوجب عَوَرَ عين ، أى ألف ! .

٤١ — عجلت الكلبة أن تلد ذا عينين :

وذلك أن الكلبة تسرع فى الولادة حتى تأتى بولد لا يبصر ، ولو تأخر ولادها لخرج الولد وقد فتح . يضرب للمستعجل عن أن يستتم حاجته .

٤٢ — أبصر من زرقاء اليمامة :

وزرقاء اليمامة هى عنز من بنات لقمان بن عاديا، كانت أبصر خلق الله على بعد، ونظرت إلى حمام مسرع إلى الماء فقالت: «ليت الحمام ليه، إلى حمامتيه، ونصفه قديه ، تمَّ الحمام ميه » ! .

فوقع الحمام فى شبكة صياد ، فوجدوه ستا وستين حمامة ، ونصفه ثلاث وثلاثون ، فإذا ضُم ذلك إلى حمامتها صار الجميع مئة .

ويقول النابغة الذبيانى يخاطب النعمان بن المنذر :

واحكم كحكم فتاة الحى إذ نظرت   إلى حمام سِراع واردِ الثمد[١]

قالت : ألا ليتما هذا الحمام لنا   إلى حمامتنا أو نصفه فَقَدِى[٢]

فحسَّبوه فألفوه كما وجدت   ستا وستين لم تنقص ولم تزد[٣]

وكانت الزرقاء ترى الجيش من مسيرة ثلاثين ميلا ، فغزا قوم من العرب اليمامةَ ، فلما قربوا من مسافة نظرها قالوا : كيف لكم بالوصول مع وجود الزرقاء؟ فاجتمع رأيهم على أن يقتلعوا شجرا ، تستر كلُّ شجرة منها الفارسَ إذا حملها . فقطع كل واحد منهم بمقدار طاقته ، وساروا بها ، فأشرفت الزرقاء كما كانت تفعل ، فقال لها قومها: ما ترين يا زرقاء ؟ — وذلك فى آخر النهار — قالت : أرى شجرا يسير . فقالوا : كذبتِ أو كذبتْك عينُك !. . . واستهانوا بقولها .

فلما أصبحوا صبَّحهم الأعداء ، فاكتسحوا أموالهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأخذوا الزرقاء فقلعوا عينيها . قيل : فوجدوا فيهما عروقا سوداء،فسئلت عنها فقالت : إنى كنت أديم الاكتحال بالإثمد ،فلعل هذا منه .

وماتت بعد ذلك بأيام .

وقال الميدانى فى مجمع الأمثال : « واليمامة اسمها ، وبها سمى البلد ، وذكر

---

(١) سراع : جمع سريع، وصف به الحمام لأنه جمع فى المعنى . وارد : وصف هنا بالمفرد لمراعاة اللفظ . الثمد : الماء القليل .

(٢) قد : اسم بمعنى حسب ، أضيف إلى ياء المتكلم بلا نون وقاية ، والفاء زائدة لتحسين الكلام ،مثل فاء (فقط) .

(٣) مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف ،للمرزوقى ، ص ٣٣ ملحق بالجزء الرابع من تفسير الكشاف .

الجاحظ أنها كانت من بنات لقمان بن عاد ، وأن اسمها عنز ، وكانت زرقاء . وكانت الزباء زرقاء ، وكانت البسوس زرقاء .

قال محمد بن حبيب : هى امرأة من جديس — يعنى زرقاء — كانت تبصر الشيء من مسيرة ثلاثة أيام ، فلما قتلتْ جديس طَسماً خرج رجل من طسم إلى حسّان بن تُبَّع ، فاستجاشه (أثاره) ورغبه فى الغنائم ، فجهز إليهم جيشاً ، فلما صاروا من جو على مسيرة ثلاث ليال صعدت الزرقاء فنظرت إلى الجيش ، وقد أمروا أن يحمل كل رجل منهم شجرة يستتروا بها ، ليلبِّسوا عليها ، فقالت : يا قوم ، قد أتتكم الشجر ، أو أتتكم حمير . فلم يصدقوها ، فقالت على مثال رجز :

أقسم بالله لقد دبَّ الشجرْ أو حمير قد أخذت شيئا يُجَر

فلم يصدقوها ، فقالت : أحلف بالله لقد أرى رجلا ينهس كتفا أو يخصف النعل ؛ فلم يصدقوها ، ولم يستعدوا حتى صبَّحهم حسان فاجتاحهم ، فأخذ الزرقاءَ فشق عينيها ، فإذا فيهما عروق سود من الإثمد ، وكانت أول من اكتحل بالإثمد من العرب ، وهى التى ذكرها النابغة فى قوله :

واحكم كحكم فتاة الحى إذ نظرت إلى حمام سراع وارد الثمد

٤٣ — أبصر من فرسٍ بَهْماء فى غَلَس .

٤٤ — أبصر من عُقاب مَلاَع :

قال محمد بن حبيب : ملاع اسم هضبة . وقال غيره : ملاع اسم للصحراء ، قال : وإنما قالوا ذلك لأن عقاب الصحراء أبصر وأسرع من عقاب الجبال ، ويقال للأرض المستوية الواسعة : مَليع ومَيْلع أيضا . قال امرؤ القيس يصف إبلا أغير عليها فذهبت :

كأن دثارا حلَّقت بلبونه عقاب ملاع لا عقاب القواعل

ودثار : اسم راع ، والقواعل : الجبال الصغار . وقال أبو زيد : عقاب ملاع هى السريعة ، لأن الملع السرعة ، ومنه يقال : ناقة مَلُوع ومليع ، أى سريعة . وقال أبو عمرو بن العلاء : العرب تقول : أنت أخفُّ يدا من عُقَيِّب ملاع ، وهى عقاب تصطاد العصافير والجرزان .

٤٥ — أبصر من غراب :

يقول الميدانى : زعم ابن الأعرابى أن العرب تسمى الغراب أعور، لأنه مغمض أبدا إحدى عينيه ، مقتصرا على إحداهما من قوة بصره .

وقال غيره : إنما سمَّوه أعور لحدة بصره ، على طريق التفاؤل ، وقال بشار ابن برد :

وقد ظلموه حين سمَّوه سيدا ‌ ‌ ‌ ‌ كما ظلم الناسُ الغرابَ بأعورا

قال أبو الهيثم : يقال إن الغراب يبصر من تحت الأرض بقدر منقاره .

٤٦ — أبصر من الوطواط بالليل :

أى أعرف منه، والوطواط : الخفاش . ويقولون أيضاً : أبصر ليلا من الوطواط، ويقال أيضا للخطاف الوطواط ، ويسمون الجبان : الوطواط .

٤٧ — أبصر من كلب :

هذا المثل رواه بعض المحدثين ، ذاهبا إلى قول الشاعر مرة بن مَحْكان :

فى ليلة من جمادى ذات أندية ‌ ‌ ‌ ‌ لا يبصر الكلبُ من ظلمائها الطُّنُبا

٤٨ — أبصر من فرس :

٤٩ — أبصر من هدهد :

هذان المثلان ذكرهما الجاحظ فى كتابه (الحيوان) .

٥٠ — إذا جاء الحَيْن حارت العين :

قال أبو عبيد : وقد روى نحو هذا عن ابن عباس ، وذلك أن نجدة الحرورى

— أو نافعاً الأزرق — قال له: إنك تقول إن الهدهد إذا نقر الأرض عرف مسافة ما بينه و بين الماء ، وهو لا يبصر شعيرة الفخ . فقال : إذا جاء القدر عمى البصر !!..

٥١ — قيل للمكفوف : إن الشمع قد غلا ثمنه . قال : هذا لا يعنيني :

هذا مثل تركى .

٥٢ — مكفوف يقود مكفوفا ، فالاثنان يقعان فى الحفرة :

هذا مثل إنجليزى .

٥٣ — حتى المكفوف يحصل بالمصادفة على قطعة لحم فى ملعقة :

هذا مثل قديم .

٥٤ — إذا قال لك اثنان : إنك مكفوف ، فأغلق عينيك .

هذا مثل فرنسى .

* * *

ثم نذكر بعد ذلك الأمثلة العامية

٥٥ — بيقلِّد تقليد الأعمى .

٥٦ — كل ذى عاهة جبار :

تقوله العامة أحيانا عند رؤية المكفوف المؤذى .

٥٧ — الغريب أعمى ولو كان بصير .

٥٨ — العمى الحيسى .

يقصدون كف البصر التام .

٥٩ — العتب ع النظر :

يضرب لمن لا يتبين ما أمامه فيعثر .

٦٠ — فين ما لاقيت الأعمى طُبُّه ، انت مش ارحم من ربه :

وطبه : أى اضربه . مثل يردده بعض العامة من الرعاع .

٦١ — لزقة أعمى بقُرْنة :

والقرنة : الزاوية .

٦٢ — ضربه كِفّ أعمى :

أى ضربة شديدة .

٦٣ — ضرْب العميان صايب :

أى لا يخطىء هدفه .

٦٤ — شنو نودلك يا أعمى غير قفة من العيون ؟ .

٦٥ — مين داريان بخطوطك يا مراة الأعمى ؟ .

والمراد بالخطوط هنا الزينة ، أى أنها تتزين ولا يرى زوجها زينتها .

٦٦ — زىّ اللى بياكل بين عميان :

يضرب لمن يسرف فى الطعام .

٦٧ — أنت بتاكل مع عُمْى .

هذا شبيه فى المعنى بالمثل السابق .

٦٨ — ضربوا الأعور على عينه قال : تلفانه تلفانه ! .

٦٩ — حط إيدك على عينك ، زىّ ما توجعك توجع غيرك .

٧٠ — النهار له عينين .

٧١ — العين عليها حارس .

معجم العين

(معجم العين) أو (معجم المكفوف) هو محاولة أولى قصدت منها أن أضع بين أيدى المكفوفين والمتحدثين عنهم والمتحدثين إليهم والباحثين فى شئونهم مجموعةَ الألفاظ العربية المتعلقة بالعين وأجزائها ومحاسنها وعيوبها ، وما يعرض لها من أمراض وعلل ، وما يصيبها من كف بصرها ، إلى غير ذلك من النواحى .

وقد لاحظت أن أغلب المتحدثين عن المكفوفين فى بيئتنا العربية لا يعرفون هذه الألفاظ ، وحينما يسمعون أكثرها لا يفهمون المراد منها ، ومنهم من يخلط بين كلمات عربية فصيحة قليلة ، وكلمات أعجمية أو عامية كثيرة ، فكان من الخير أن نضع بين أيدى هؤلاء هذا المعجم ، لكى يشيعوا كلماته فى محيط المكفوفين عن طريق استعمالهم لها فى كتاباتهم وأحاديثهم ، وعن طريق التعريف بها فى محيط المكفوفين ، لكى يوجد الاستئناس بها ، فيكون ذلك عاملا من العوامل الميسرة لإشاعة الثقافة المتعلقة بالمكفوفين عن طريق بيان عربى سليم ، فيه الإيضاح والتحديد والتخصيص .

وقد تتبعتُ الألفاظ العربية الكثيرة المتعلقة بالعين و بالمكفوفين فى معجمات اللغة العربية المختلفة ، مثل لسان العرب لابن منظور ، والمخصص لابن سيده ، وفقه اللغة للثعالبى ، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس ، وأساس البلاغة للزمخشرى ، ومفردات القرآن للأصفهانى ، والنهاية فى غريب الحديث لابن الأثير ، والقاموس المحيط للفيروزابادى ، وغير ذلك .

وعلى الرغم من الجهد الذى بذلته فى تتبع هذه الألفاظ أكرر ما قلته من أن (معجم العين) هذا هو محاولة مبدئية ، يمكن أن تزيد وتتسع وتتسق أكثر مما جاءت عليه فى صورتها البكر الأولى .

ولا شك أن وضع معجم كهذا له قيمته التى يعرفها من يعانى الكتابة أو المحاضرة أو الترجمة فى هذا المجال . وهناك كتب كثيرة وُضعت عن شئون المكفوفين المختلفة بلغات غير عربية ، ومن واجبنا أن ننقل هذه الكتب إلى لغتنا ، ولن يتيسر هذا للمترجمين إلا إذا عرفوا المصطلحات اللغوية العربية المتعلقة بالعين والمكفوفين ليضعوها فى مقابل هذه المصطلحات فى اللغات الأخرى ، كما أن هناك كثيرين ممن يخطبون أو يكتبون عن المكفوفين وهم فى أشد الاحتياج إلى الوقوف على هذه المفردات والمصطلحات لكى يستخدموها فى تحديد المعانى التى يقصدونها فى كلامهم أو كتابتهم ، ولعلنا نجد من حرص هؤلاء على استعمال هذه المصطلحات ما هو جدير باحترامهم للغتهم وقوميتهم وشخصيتهم الأدبيـــة :

حاجب العـــين

الحاجبان : العَظْمان اللذان على العين ، بلحمهما وشعرهما . وقيل : هما الشعر الذى على الحاجبين . سمى الحاجب بذلك لأنه يحجب العين عن شعاع الشمس .

الحِجاجان : العَظْمان المشرفان على غارى العينين ، وقد تفتح الحاء . والجمع : أحجَّة .

الأُحْج : غار العين الذى تنبت عليه حروف الحاجب .

القَرَن:هو اتصال الحاجبين ، وهو أن يطول الحاجبان حتى يلتقى طرفاهما .. رجل أقرن وامرأة قرناء ، وقد قَرِن قَرَنا فهو مقرون الحاجبين . والأبلد : الذى ليس بمقرون .

الزَّجَج : من محاسن الحاجب ، وهو طول الحاجبين ودقتهما وسبوغهما إلى مؤخر العين ، حتى كأنهما خُطَّا بقلم . رجل أزَجّ وامرأة زجّاء ؛ وقد زجَّجت المرأةُ حاجبيها أى أطالتهما بالإثمد (كقلم الحواجب) .والأزجُّ : الذى حسن مَخَطُّ حاجبيه ورقّ شعره فى منابته .

البَلَج : من محاسن الحاجبين ، وهو أن تكون بينهما فُرجة ، والعرب تستحب ذلك، وتكره القَرَن وهو اتصالهما .والبلج أن ينقطع الحاجبان ويكون ما بينهما نقياً من الشعر . رجل أبلج ، والمرأة بلجاء ، وقد بَلِجَ بَلَجاً ، وهى البُلْجَة . قال أبو طالب يمدح النبى :

وأبلج يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

الوَطَف : كثرة شعر الحاجبين ، وهو أيضاً كثرة شعر العينين مع استرخاء وطول . رجل أوْطَف وامرأة وَطْفاء .

حاجب مهلَّل : شبيه بالهلال .

حاجب مقوَّس : على التشبيه بالقوس فى انعطافه ، وكذلك : مستقوس .

الطَّرَط : فى الحاجبين رقتهما وقلة الشعر فيهما . وكذلك : الثَّطَط .

الأدمص : الذى رق شعر حاجبيه من الآخر ، وكثف من قدام .

الأنمص : قليل شعر الحاجبين ، وكذلك الأغطف .

اللاجفن : مقابل (ABLÊPHARIE) وهو فقد الأجفان ، إما خِلقياً وإما مرضياً . ذكر ذلك الأمير مصطفى الشهابي فى كتابه (المصطلحات العلمية) .

العين وأجزاؤها

العين : حاسة البصر ، أو الناظرة لكل ذى بصر ، والجمع أعين وعيون . وتسمى العين : البصّاصة ، وهى صفة غالبة .

والعين : الجارية التى تنبع بالماء . والعين : الجاسوس والذى تبعثه ليتحسس الخبر . والعين : السحاب الذى جاء من ناحية القبلة .

والعين من القوم : شريفهم ، والجمع أعيان . والعين من الشىء : أجوده . والعين : حر المتاع . والعين : المال العتيد الحاضر .

وعين الشىء : نفسه ، يقال خذ درهمك بعينه ، والعين: الذهب . والعين : المطر الدائم . والعين : حقيقه القِبْلة .

المعاينة : النظر بالعين . عاينته معاينة وعيانا ، ومنه : لقيته عياناً ، ورأيته عيانا .

المُقْلة : شحمة العين التى تجمع البياض والسواد ، جمعها مُقَل . وقد مَقَلْتُه أمقُله مَقْلا : نظرت إليه .

الحَدَقة : هى السواد الذى فى وسط بياض العين . وفى الحدقة الناظر والإنسان . وقد تسمى الحدقة بالَحنْدقة والِحنْديقة والِحنْديرة والِحنْدَوْرَة .

فصُّ العين : حدقتها ، والجمع فصوص وأفُصٌّ .

ناظر العين : موضع البصر منها الذى تراه كأنه صورة ليس بخَلْق مخلوق ، وإنما العين كالمرآة إذا استقبلها شىء رأت شخصه فيها لشدة صفاء الناظر ، ويقال له . ذباب العين ، وعَيْر العين ، وإنسانها كذلك .

الذُّبابة : النكتة الصغيرة التى فى إنسان العين ، فيها البصر .

الِجحاظان : حدقتا العينين إذا كانتا خارجتين .

الجفنان : غطاء المقلة من أعلاها وأسفلها ، الواحد جفن ، ولكل عين جفنان .

الِحمْلاق : باطن الأجفان المحمر ، إذا قُلبت للكحل بدت حمرتها . حملاق العين : باطن أجفانها الذى يسود بالكحل . وحملق الرجل : فتح عينيه ونظر نظراً شديداً .

مُخُّ العين : شحمها .

الهانَّة ، والهُنَانة : شحمة فى باطن العين تحت المقلة .

الجَلْسِيُّ : ما حول الحدقة ، وقيل ظاهر العين .

أشفار العين : حروف الأجفان ، وأصول منابت الشعر فى الجفن التى تلتقى عند التغميض ، الواحد شُفْر .

هُدْب العين : الشعر الذى ينبت على الجفون ، الواحد هُدْبة . ورجل أهدب وامرأة هَدْباء ، أى طويلا أهداب العين .

محجِر العين : (كمجلس ومنبر) هو فجوة العين ، وهو ما بدا من البرقع . وقيل : المحجر مادار بالعين من أسفلها من العظم الذى فى أسفل الجفن .

مُوق العين : طرف العين الذى يلى الأنف ، وهو مخرج الدمع ، ويسمى المُقْدِم .

لحاظ العين : طرفها الذى يلى الصدغ ، ويسمى المُؤْخِر . ومؤخر العين يسمى أيضا : ذِنابة العين .

غَرْبا العين : مُقْدمها ومُؤْخرها .

الصَّادُ : عِرْق بين العين والأنف .

الأصْدران : عرقان فى العين .

الأسْهران : عرقان فى العين .

حَجْمة الإنسان : عينه . وحجمتا الأسد : عيناه .

صفات العين الحسنة

الدَّعج : أن تكون العين شديدة السواد مع سعة المقلة . رجل أدعج ، وامرأة دعجاء .

عينٌ مُلْتَجَّة : شديدة السواد .

عين طَمْياء : رقيقة الجفن . عين سَبْلاء : طويلة الهُدبِ ، أى الشعر الذى ينبت على الجفون .

النَّجَل : سعة العين وحسنها . رجل أنجل وامرأة نجلاء . وقد نجِلت العين .

البَرَج : أن يكون بياض العين محيطا بالسواد كله ، أوسعتها وكثرة بياضها ، أو نقاء بياضها وصفاء سوادها ، وقد برِج بَرَجاً فهو أبرج ، وعين برجاء .

الحَوَر فى العين : أن تسوَدّ العين كلها مثل الظباء والبقر . وليس فى بنى آدم حَوَر ، وعين حوراء : اشتد بياضها وسواد سوادها ، واستدارت حدقتها ، ورقت أجفانها ، وابيضّ ما حواليها ، وقد حَوِر حوَراً واحورّ .

الكَحَل : سواد جفون العين من غير كُحل ، أو سواد يعلو منابت أشفار العين خِلْقةً من غير كحل ، وقيل : هو أن يسود مواضع الكُحْل .

العَيَن فى العَيْن : ضخم المقلة وحسنها . رجل أعين وامرأة عيناء ، وقد عَيِن عَيَناً ، أو هو عظم سواد العين فى سعتها .

عَيْن حَدْرة : كبيرة ، وقيل : الحادّة النظر . وقد يقال : عين حَدْرة بَدْرة — على الاتباع . وعين حَدْراء : حسنة .

ألوان الحدقة

الشَّهَل فى العين : أن تشرب الحدقة حمرة ليست خطوطا ، ولكنها قلة سواد الحدقة ، حتى كأن سوادها يضرب إلى الحمرة ، وقد شَهِل الرجل شَهَلاً فهو أشهل ، وهى شهلاء .

الزَّرَق فى العين : خضرة الحدقة . رجل أزرق وامرأة زرقاء ، وقد زَرِقت عينه ، فإذا اشتد الزرق وضرب إلى البياض فهو المَلَح والمُلْحة .

عين مُغْرَبة : زرقاء قد ابيضت أشفارها .

المرْهة : بياض حماليق العين . مَرِه مَرَهاً فهو أمره ، وهى مرهاء .
الخَيَف فى العينين : أن تكون إحداهما كحلاء والأخرى زرقاء .

عيوب العين

القَبَل : أن يكون كأنه ينظر إلى أنفه ، وهو أهون من الحَوَل .
قال الشاعر :

أشتهى فى الطِّفلة القَبَلا　　　لا كثيرا يشبه الحولا !

الحَوَل : أن تميل العين إلى اللحاظ ، وقد حولت حولا ، والرجل أحول ، والأنثى حولاء . يقول الشاعر مشيراً إلى حوله :

حمدتُ إلهى إذ بليت بحبه　　　على حَوَل أغنى عن النظر الشزر
نظرتُ إليه والرقيب يخالنى　　　نظرت إليه فاسترحت من العذر!

الخُزْرة : انقلاب الحدقة نحو اللحاظ ، وهو أقبح الحول . والأخزر : الأحول إحدى العينين .

والخَزَر : أن ينظر بمؤخر عينه . الأخزر : الذى يفتح عينيه ثم يغمضهما . وقد خَزِر خزراً .

الجحاظ : هو فى العين خروج المقلة وظهورها ، رجل جاحظ العين ، والجحوظ خروج المقلة وظهورها من الحجاج .

الشَّوَص : هو فى العين شدة الجحاظ حتى لا يتلاقى عليه الجفنان . شَوِصت شوصا ، و إنه لأشوص . الشوص : أن ينظر بإحدى عينيه ، و يميل وجهه فى شق العين التى يريد أن ينظر بها .

اللَّخَص : هو فى العين كثرة اللحم وغلظ الأجفان . رجل ألخص وامرأة لخصاء . وقد لَخِص لخصا .

اللخص : التصاق الجفون .

الحوَص : ضيق العينين . قيل هو فى العين ضيق بالمؤخر ، وانضمام الجفنين كأنهما محيطان . رجل أحوص وامرأة حوصاء . وقيل هو أن تضيق إحدى العينين دون الأخرى .

الخوَص : غؤورها مع الضيق . أوضيق العين وصغرها خلقةً أو داء . وقد خَوِص فهو أخوص .

والأنثى خوصاء . وقيل : الخوص أن تكون إحدى العينين أصغر من الأخرى . أو الخوص :غئور العين من تعب أو مرض خِلقة أو داء .

الغَمَص : ألا تزال العين ترمص . غمِصت عينه: ألقت شيئا كهيئة الزبد. أو الغمص ما سال ، والرمص ما جمد .

اللَّحَح : أسوأ الغمص .

الخدَر : ثقل العين من قذى يصيبها ، والخدراء من العيون : الفاترة .

الخيف : أن تكون إحدى العينين كحلاء والأخرى زرقاء .

الخيَص : هو فى العين أن تكون إحدى العينين أعظم من الأخرى . رجل أخيص وامرأة خيصاء .

البَخَص : سقوط باطن الحجاج على العين . أو لحم ناتىء فوق العينين أو تحتهما كهيئة النفخة . بخص كفرح ،فهو أبخص .

الشَّتَر : انقلاب الجفن ، أو انشقاق الجفن الأعلى والأسفل أيهما كان ، أو انقلاب شفر العين من أعلى وأسفل وتشنجه . رجل أشتر وامرأة شتراء . وقد شتِرت عينه ، وشتَرتُها .

العائر : الرّمد الشديد ، وكذلك الساهك . العائر : بثر فى الجفن الأسفل . وقيل كالظُّفر أو القذى يجده الإنسان فى عينه من شدة الوجع .

الغـرْب :ورم فى المآقى ، وعند الأطباء : أن ترشح مآقى العين ، ويسيل منها إذا غمزت صديد ، وهو الناسور أيضا .

السَّبَل : أن يـكون على بياض العين وسوادها شبه غشاء ينتسج بعروق حُمْرة .

الجُسَأة : أن يعسر على الإنسان فتح عينيه إذا انتبه من النوم .

العَمَش : ألا تزال العين تسيل وترمَص . أوالعمش :سيلان الدمع وضعف العين حتى لا تـكاد تبصر . عمِش عمشا ، فهو أعمش والأنثى عمشاء . أو العمش : ضعف رؤية العين مع سيلان الدمعة منها ، كأن المرئيات تستتر عنها بستور الدموع . والتعامش ، والتعميش : التغافل عن الشيء .

الغَطَش : الأغطش هو السيىء البصر بالليل والنهار جميعا ،وقيل إن الغطش شبه العمش وهو سوء البصر .

الـكَمَش : ألا يكاد يبصر ، والأكمش : الذى لا يكاد يبصر .

الإطراق : استرخاء الجفون .

العشا : ألا يبصر ليلا . العشاء :هو فى العين عدم الإبصار فى الظلام . رجل أعشى وامرأة عشواء ، وقد عـشى عشىً . والعشواء من النوق : التى كأنها لا تبصر ما أمامها فتخبط كل شىء بيديها .

الجَهَر : ألا يبصر نهارا . قال الجاحظ : إذا كانت المرأة مُغْرَبَةَ العين فـكانت ردية البصر قيل لها : جهراء . وأنشد الأصمعى فى الشاء :

جهراء لا تألو إذا هى أظهرت بصراً ، ولا من عيلة تغنينى[1] !

وذكروا أن الأجهر الذى لا يبصر فى الشمس .

والخفاش لا يبصر فى ضوء النهار ، قال أبو الشمقمق مروان بن محمد :

---

(١) لاتألو : لاتستطيع . وأظهرت : سارت فى الظهيرة . والعيلة : الفقر . إنظر كتاب الحيوان ، ج ٣ ص ٥٣٦ .

أنا بالأهواز محزون ، وبالبصرة داري
في بني سعد ، وسعد حيثُ أهلي وقراري
صرت كالخفاش لا أبصر في ضوء النهار !

وقيل : الأجهر : سيء البصر نهاراً ، جهِر : كفرح .

الغَضَن : أن يكسر عينه حتى تتغضن جفونه .

الدَّوَش : ضيق العين وفساد البصر . أو ضيق العين وضعف في البصر حتى كأنما يبصر ببعضها . رجل أدوش وامرأة دوشاء ، وقد دَوِشت العين .

الخَفَش : ضعف البصر وصغر العينين ، أو هو فساد في جفن العين واحمرار من غير وجع ولا قرْح . خَفِشَ خفشا فهو أخفش .

الغَمَش : إظلام البصر من جوع أو عطش . غمِش غمشاً فهو غمِش .

البَخَق : أن يذهب البصر والعين مفتحة . وقيل البخق : العور .

التهجيج : غئور العين من عطش أو إعياء ، لا خلقة .

المَدَش : مدشت العين مدشا : أظلمت من جوع أو من حر شمس . والرجل مدش .

الشُّطور : أن تراه ينظر إليك ، وهو ينظر إلى غيرك ، وهو قريب من صفة الأحول . شطر بصره يشطره : كأنه يقسم بصره شطراً هنا وشطرا هناك .

العمى : ذهاب البصر عن العينين معا ، ولا يكون في واحدة ، وقد عَمِيَ عَمىً ، والتعامي : إظهار العمى تصنعاً . العمى : ذهاب البصر وعدم الرؤية واستتار المرئيات عن الناظر ، وتقول : رجل أعمى ، ورجلان أعميان ، ورجال أعمَوْن وعُمْون . وتقول : عَمِيَ يعمى فهو أعمى (من عمى البصر) وتقول : عمى يعمى فهو عَمٍ (من عمى القلب) . وجمع أعمى : عميان وعُمْيٌ . والنسبة إلى أعمى : أعْمَويٌّ (بفتح فسكون ففتح فكسر) . والنسبة إلى عمٍ : عموى (بفتح العين

والميم) . ويقولون فى عمى القلب : ما أعماه ، ولا يقولون فى عمى البصر : ما أعماه ، لأن ذلك نعت ظاهر يدركه البصر ، وهم يقولون فيما خفى من النعوت : ما أفعله .

الكَمَه : أن يولد الإنسان أعمى : والأكمه : الذى يولد أعمى . وقد كمِه كمها.

الضرير : ذاهب البصر .

العَمَه : عمِه الرجلُ يعمه عمهاً ، وذلك إذا تردد لا يدرى أين يتوجه .

العَوَر : هو فى العين ذهاب بصرها . وقد عوِرت عوراً واعورّت ، وأعورْتُ عينَه وعوّرْتها . العور : خلو إحدى العينين من النظر ، ولا يكون إلا فى إحدى العينين ، ولا يقال لإحدى العينين عمياء .

القَدَع : قدِعت عينه قدعاً : ضعفت من طول النظر إلى الشىء .

الظَّفَر : ظهور الظَّفَرة ، وهى جليدة تغشى العين من تلقاء المآقى ، وربما قطعت وإن تركت غشيت العين حتى تكل ، والأطباء يقولون لها : الظفرة ، كأنها عربية باحتة .

الطَّرْفة : أن يحدث فى العين نقطة حمراء من الدم تحدث فى العين من ضربة أو غيرها.

الحثر : خشونة فى العين ، أو حب أحمر فيها ، وقد حَثِرت عينُه . أو الحثر : أن يخرج فى العين حب أحمر ، وأظنه الذى يقوله الأطباء : الجرب .

القَمَر : أن تعرض للعين فَتْرة وفساد من كثرة النظر إلى الثلج . يقال : قمِرت عينه .

القَضَأ : هو فى العين فساد فيها تحمر منه ، ويسترخى لحم موقها . قضِئت قضأ ، وأقضأها الوجعُ .

شَخَزَ عينَه ، يَشخَزُها شخزاً : فقأها .

عين مُغْرَبة : زرقاء قد أبيضت أشفارها .

عين قائمة : ذهب بصرها وحدقتها قائمة أو سالمة . وفى أساس البلاغة : « وعين قائمة : ذهب بصرها والحدقة صحيحة » .

عين شافعة : تنظر نظرين .

الهُدَبِد : هو الذى لا يبصر بالليل بعينه ، ويسمون الداء نفسه أيضاً (هُدَبِد) ، وكانوا إذا أصاب أحدهم ذلك عمد إلى سنام فقطع منه قطعة ، ومن الكبد قطعة ، وقلاهما ، وقال عند كل لقمة يأكلها بعد أن يمسح جفنه الأعلى بسبابته :

فياسناما وكبِدْ ألا اذهبا بالهدبِدْ
ليس شفاء الهدبد إلا السنام والكبد !

ويزعمون أن ذلك يذهب بعشاء العين أيضا . والفُرس تسمى الهدبد (شَبْ كور) وهى كلمة مكونة من مقطعين ، أولهما (شب) بفتح الشين ومعناه الليل ، والآخر كور بضم الكاف ومعناه الأعمى . وقد اشتق العرب من المقطعين مصدرا فقالوا : الشبكرة ، أرادوا بها العشاء يكون فى العين .

بَرِق البصر : تحير فلم يطرِف .

السُّدُ د : العيون المفتحة لا تبصر بصراً قويا ، وهى عين سادَّة .

رجل مسيح العين : إذا لم يكن على أحد شقى وجهه عين ولا حاجب إلا استوى . وممسوح كذلك .

السَّدَر : سَدَر بصرُه : تحير فلم يُحسن الإدراك . وفى بصره سدر . سدِرت عينه : إذا لم تكد تبصر .

السمادير : الشىء يتراءى للانسان من ضعف بصره عند السُّكْر . وقد اسْمَدَرَّتْ العين : إذا لاحت لها السمادير ، وهى ما يتراءى لها من أشباه الذباب وغيره عند خلل يتخللها .

حَسِرَت عينُه : إذا اعتراها كلال من طول النظر إلى الشىء . (مثل القَدَع) .

زَرَّت عينه : إذا توقدت من خوف أو غيره .

قَدِعت عينه : إذا ضعفت من الإكباب على النظر .

حرِجَتْ عينه : إذا حارت أو غارت فضاقت عليها منافذ البصر . قال ذو الرمة : «وتحرج العينُ فيها حين تنتقب» .

هجمت عينه : إذا غارت .

نقنقت : إذا زاد غئورها . وكذلك حجلت وهجَّجت .

ذهبت عينه : إذا رأت ذهبا كثيرا فحارت فيه . ذَهِبَ الرجل ذَهَباً : إذا رأى ذَهباً من المعدن ، فبرق من عظمه فى عينيه .

شخصت عينه : إذا لم تكد تَطرِف من الحيرة .

الانسلاق : حمرة تعترى العين فتَقَشَّر منها ، فإذا كان الانسلاق من حر أو بكاء فهو الحَذَل . والعين حَذْلاء .

الحذَل : هو فى العين انسلاق فيها من حر أو بكاء . حَذِلت حَذَلا ، وهى عين حذلاء .

الغَرَب : غَرِبت العين غَرَبا إذا كان بها ورم فى المأْق .

القَمَعَ : هو فى العين كمدُ لون لحم الموق وورم فيه . أو هو بثر يخرج فى أصول الأشفار .

الأَمْقَهُ . المحمرُّ المآقى والجفون من قلة الأهداب . مَقِهَ مَقَهاً .

الرَّسَع : فساد الأجفان .

القَمِع : الأرمص الذى لا تراه إلا مبتل العين . قَمِعَ كفرح .

الرَّمَش . تفتُّل فى الشُّفْر ، وحمرة فى الجفون مع ماء يسيل ، وصاحبه أرمش ، والعين رمشاء .

الغَضْبة . يقال غضبت عينه : ورم ما حولها . الغضبة : بخصة تكون فى الجفن الأعلى خِلقة .

اللخيخ : لخت العين تلخُ لخيخا : كثرت دموعها وغلظت أجفانها .

السَّجَر ، والسُّجْرة ، أن يكون سواد العين مشربا بحمرة . رجل أسجر وامرأة سجراء .

الأحجم : الشديد حمرة العينين مع سعتهما . والأنثى حجماء .

الأَغْضن: الذى يكسر عينه خِلقة ، أو عظمة ، أو عداوة ، أو للريبة .

الغطمَّش : الرجل الكليل البصر .

اليَرمُوق : الضعيف البصر

الوَغْف : ضعف البصر

المُرْهة : بياضُ حماليق العين .

الرَّمَد : وجع العين وانتفاخها . رمِد رَمَداً فهو أرمد ، وهى رمداء ، وعين رمداء ورَمِدة .

الكُمْنة : ورم فى الأجفان وغِلَظ وأُكال يأخذ فيها فتحمر له ، وقد كمِنَت كُمنةً .

الجُدْجُد والظَّبْظاب : البثرة تخرج فى الجفن .

الحَدْرة : قرحة تخرج بجفن العين .

الجربَ : وهو كالصدأ يركب الجفن ، فربما ألبسه أجمع ، وربما كان فى بعضه ، ويقال : صَدِئت العين صَدأً ، إذا أصابها ذلك .

العُوَّار . اللحم يُنزع من العين بعد ما يُذَر عليه الذَّرور .

الوَكْتة : هى فى العين مثل النقطة تكون فيها ، وربما كانت حمراء فى البياض ، أو بيضاء فى السواد . عين موكوتة .

الوَقْرة : هى فى العين أعظم من الوكتة ، فإذا غُفل عن الوقرة صارت ودْقة .

الشامَة : هى فى العين نكتة سوداء فى بياض العين .

القَـذَى : هو فى العين ما ترمى به . الواحدة . قذاة ، وقذَت عينه قَذْياً: ألقت قذاها، وقذِيت :صارفيها القَـذَى ، وأقذيتُها وقذَّيتها :ألقيتُ فيها القذى .

السَّجَمان : سيلان الدمع كله قليله وكثيره .

ريح السَّبَـل : داء فى العين .

الحَـثْرفـة : خشونة وحمرة تـكون فى العين . وقد تسمى الحَـثَر (سبق ذكره) .

الرؤية والنظر

البصر : حسن العين ، باصَرْتُه مباصرة : إذا نظرت معه إلى شىء أيكما يبصره قبل صاحبه . وجمع البصر : أبصار .

شَطر بصرَه : كأنه ينظر إليك وإلى آخر .

شَـصَرَ بصرُه : أن تنقلب العين عند نزول الموت .

التحديج : النظر بعد روعة وفزع . حَدَجه ببصره حدْجا : رماه به رميا يرتاب به وينكره . إن رماه ببصره مع حـدة نظره قيل : حدجه بطرفه . وفى حديث ابن مسعود : حدِّث القوم ما حدجوك بأبصارهم .

أرشقه : نظر إليه بشدة وحدة ورشق ببصره : أحد نظره .

وَرْوَرَ وأرغف : نظر نظرا حادا متتابعا .

أزلقه ببصره : أحدَّ إليه النظر نظرَ متسخطٍ .

رمقه : إذا نظر الإنسان إلى الشىء بمجامع عينه .

لحظه : نظر إليه من جانب أذنه . لحظ يلحظ : نظر بمؤخر عينه من أى جانبيه كان ،يمينا أو شمالا .المصدر لَحْـظٌ ولحظان .

لمحه : نظر إليه بعجلة .

أسفَّ النظرَ إليه : إذا نظر إليه بشدة وحدة .

توضَّحَ الشيء : نظر إليه نظر المستثبت .

نظرةُ ذى عَلَق . يقال: نظر إليه نظرة ذى علق إن نظر إليه بعين المحبة.

تبصَّرَه : نظر إلى أفق الهلال ليراه لليلته .

أَثْأَره بصرَه : أتبع الشيء بصره .

زرَّ عينيه : ضيَّقهما .

شفَنَه ، وشَفَن إليه : نظر إليه نظر المتعجب منه ، أو الكاره له ، أو المبغض إياه ، يقال : شفنه ، وشفن إليه شُفُونا وشَفْنا .

التخاوُص والتحاوُص : غضُّ شىء من البصر مع تحديق النظر ، كأنه يقوِّم سهما ؛ أو التخاوص : النظر إلى عين الشمس كأنه يُغمِّض عينيه .

غَضَّ الطرف وأغضَّه : دانى بين جفونه ونظر . يقول الشاعر :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغتَ ولا كلابا

التحديق والتحميج : شدة النظر وفتح العينين . حمَّج : فتح عينَ مُفزَّع أو مهدَّد . حدَّق : فتح جميع عينيه لشدة النظر .

التجحيم : الاستثبات فى النظر لا تطرف عينه . وجحَّم : فَتح عينَه كالشاخص .

شَخَص : إذا فتح عينه وجعل لا يطرف . وفى القرآن الكريم : «شاخصة أبصارهم» .

أسْجَد : أدام النظر مع سكون . ومثله : رنا ، والرُّنُو : إدامة النظر مع سكون .

البَرْشمة . إدامة النظر مع سكون .

النظر الشَّزْر : يقال : نظر إليه شزرا : إذا أعاره لحظ العداوة ،والنظر الشزر : الذى يكون عن اليمين أو الشمال ، ولا يكون إلا لذى عداوة .

استَشَفَّه : نشر الثوب ورفعه لينظر إلى صفاقته أو سخافته ، أو يرى عَوَاراً إن كان به .

استشرفه : نظر إليه واضعا يده على حاجبه مستظلا بها من الشمس، ليستبين المنظور إليه . يقال : استشرفه ، واستوضحه ، واستكفّه .

لاحه لوحةً : إن نظر إلى الشيء كاللمحة ، ثم خفى عنه . قال الشاعر :

وهل تنفعَنّى لوحةٌ لو ألُوحها ؟

نفضه نفضاً : نظر إلى جميع ما فى المكان حتى يعرفه .

تصفّحه : نظر فى كتاب أو حساب ليهذبه ، أو ليستكشف صحته وسقمه .

برّق عينيه : لألأهما .

حَمْلَقَ : قلب حملاق عينيه (باطن أجفانهما الذى يسود بالكحل) .

دَنْقَسَ : كسر عينه فى النظر ، وكذلك : طرْفَشَ . يقال طرفش : نظر وكسر عينه .

برِقَ بصرُه : غاب سواد عينيه من الفزع . وفى القرآن : «فإذا بَرِق البصر» .

رأرأت العين : إذا كانت لا تستقر من الإدارة . يقال : الرجل رَأراَّ ، والمرأة رأرأةٌ .

التدويم : أن يُدوّم الحدقةَ كأنها فى فلكة ، وقد دوّمت عينُه .

طُرِفت العينُ : إذا أصابها طرْفُ شىء فاغرورقت ، وإذا كانت كذلك لم تكد تبصر .

طَرِفَ يطرفُ طَرْفاً : أطبق أحد جفنيه على الآخر .

الأغْضَنْ : الذى يكسر عينَه عظَمةً ، وقيل : هو الذى يكسرها عداوةً .

أومضَ بعينه : سارَقَ النظر .

الدَّحْقَلة : إدارة العين فى النظر .

اشتاف : تطاول ونظر .

آنستُ الشيء : أبصرته من بعد .

خَشع بصرُه : انكسر ، وتخشع : إذا رمى ببصره نحو الأرض .

الشوَس : أن ينظر الرجل بإحدى عينيه ويميل وجهه فى شِقّ العين التى ينظر بها .

لُصْتُه : لصته بعينى ولاوصته : طالعته من خلل باب أو ستر .

هَطع يهطَع : أقبل على الشيء ببصره لا يرفعه عنه .

الإقناع . رفع الرأس وإشخاص البصر نحو الشيء لا يرفعه عنه .

رجل تليعٌ : كثير التلفت .

الشَّقِذُ والأشوه : السريع الإصابة بالعين . رجل شَقِذ : إذا كان شديد البصر سريع الإصابة بالعين .

رجل عَيون ومِعيان : شديد العين ، أو خبيث العين .

عِنتُ الرجلَ : أصبته بعينى ، فهو مَعين ومعيون . والعائن : الذى يَعين أى يصيب الغير بعينه .

اللاَّمة : العين التى تصيب الإنسان .

القدْح : قدح القدَّاح العين : أخرج ماءها الفاسد وقدَحت عينُه وقدَّحت : غارت فصارت كالقدح ، قال زهير :

وعزتها كواهلها ، وكلت سنابكها وقدَّحت العيونُ

وقال آخر :

فالعين قادحة ، واليد سابحة والرجل ضارحة ، والبطن مقبوب

السمل : سمل أعينَهم : أى فقأها بحديدة محماة أو غيرها . وقيل : هو فقؤها

بالشوك ، وهو بمعنى السَّمْر ، وسمر أعينهم : أى أحمى لهم مسامير الحديد ثم كحلهم بها . وفى القاموس : سمل عينه : فقأها ، كاستملها .

السُّمْلة ، بضم العين : دمع يهراق عند الجوع الشديد ، كأنه يفقأ العين.

الدمــــع

الدمع : كل ما يسيل من العين قلَّ أو كثر . دمعت العين تدمَع دمعا . وعين دَمُوع : كثيرة الدمع أو سريعته . . وامرأة دَمِعة : سريعة البكا كثيرةُ دمع العين .

المدمع : مُجتمع الدمع فى نواحى العين .

أجهش : إذا تهيأ الرجل للبكاء .

ترقرقت عينه : تردد الدمعُ فيها ولم يفض .

اغرورقت : امتلأت ماءً فوارت السواد . وإن امتلأت عينه دموعاً . قيل : اغرورقت عينه وترقرقت .

ذَرَفت العين : قَطَرت قَطْرا ضعيفا ، أو هو دمع بلا بكاء . ذَرَفت تذْرِف . والذَّرَفان والذَّريف والذَّرْف : أن تقطر العين قطراً ضعيفا ؛ والذُّرُوف : دمع بلا بكاء .

العَبْرة : الدمعة قبل أن تفيض . وقيل : هى أن ينهمل الدمع ولا يُسْمَع البكاء . وقد عَبِر عَبَراً واستعبر ، وامرأة عابر وعَبِرَة ، وعين عَبْرى . ورجل عَبْرانُ وعَبِرٌ .

هَمَعت العين : إذا سالت . وكذلك دَمَعت .

هَمَتْ العين : إذا حاكت دموعُها المطر .

نَحَبَ ونَشَجَ : إذا كان لبكائه صوت .

أَعْوَلَ : إذا صاح مع بكائه .

هَيْدَبُ الدمع : ما انصب منه كأنه خيوط متصلة .

ارفضاضُ الدمع : سيلانه سيلاناً متقطعاً . وقد ارفضّ الدمع أى سال.

هَمَلان الدمع: سيلانه من نواحى العين كلها . هَمَلت تَهْمُل هَمْلاً ـ ومثله : الهمر .

سَفْحُ الدمع : شدة سيلانه . سَفَحت العين تَسْفَح .

انهلال الدمع : واستهلاله ، أن يقطُر قطْراً شديداً يُسمع وقْرُه .

تحاتَنَ الدمعُ : وقع دمعتين دمعتين .

النَّلَفُ : تنحيتك الدمع عن خديك بإصبعك .

رُقوء العين : رَقَأت العينُ ترقأ رُقوءًا : جفّ دمعها .

العَسْقَفَة : جمود العين عن الدمع إذا أرادته .

الصَّرَى : ما اجتمع من الدمع ، واحدته صَرَاة .

الجحْظم : العظيم العينين .

رجل مُلوَّز العينين : إذا كانتا فى شكل اللوزتين .

رجل مكوكب العين : إذا كان فى سوادها نُكتة بياض .

الأعميان : السيل والجمل الهائج .

شدة الجفن : يقال . رجل شديد جفن العين ، إذا كان صبوراً على السهر ـ

الغُمَّيْصاء : لعبة للأولاد ، يعصبون عينى أحدهم ، و يتخبأون كل واحد فى زاوية ، ويدور هو والعصابة على عينيه . فيبحث عنهم بيده ، و يتلمس من هنا ومن هناك حتى يعثر على أحدهم[1] .

---

(١) ذكر ذلك الأمير شكيب أرسلان ، مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ١١ ص ٤٥٤ ـ

أبو أعمى : نوع من الُخلد (بضم فسكون) وهو ضرب من الفيران . يسمى بالإنجليزية BLIND RAT أو MOLE RAT . وهو ليس له أذنان ولا عينان في الظاهر ، ويوجد في مصر .

الرؤيـــة

جاء في (مفردات القرآن) للأصفهاني :

« والرؤية : إدراك المرئي ، وذلك أضرب بحسب قوى النفس . الأول : بالحاسة وما يجرى مجراها ، نحو : (لترون الجحيم ، ثم لترونها عين اليقين) (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله) . وقوله : (فسيرى الله عملكم) فإنه مما أُجرى مجرى الرؤية بالحاسة ، فإن الحاسة لا تصح على الله تعالى عن ذلك ، وقوله : (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) . والثاني : بالوهم والتخيل . نحو : أرى أن زيداً منطلق . ونحو قوله : (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا) . والثالث : بالتفكر ، نحو :(إني أرى ما لا ترون) . والرابع : بالعقل ، وعلى ذلك قوله: (ما كذب الفؤاد ما رأى) وعلى ذلك حُمل قوله :(ولقد رآه نزلة أخرى)»[1] .

البصر : إدراك العين للمرئيات بوساطة النور .

مجال البصر : الدائرة المتسعة التي يرى فيها الإنسان الأشباح المنيرة .

خط البصر : الخط الممتد باستقامة إلى الجهة الأمامية من كل عين .

الشبكية : جوهر العين العصبي الحساس .

العدسية البلورية : جسم شفاف مزدوج التحديب ، شديد الكثافة ، واقع رأسا وراء الحدقة ، وأمام الشبكية على مسافة منها .

البصريات : علم يبحث عن طبيعة النور ونواميسه ، والبصر وأحكامه optique optics .

---

(١) مفردات القرآن ، ص ٢٠٨ .

عين في سبيل الله (١)

في الحديث النبوي الصحيح — كما يذكر السيوطي في الجامع الصغير — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « حُرِّمت النارُ على عين بكت من خشية الله ، وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله ، وحرمت النار على عين غضت عن محارم الله ، أو عين فقئت في سبيل الله » .

والمطالع لسيرة الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم ينفحه عبيرٌ عاطر لسيرة صحابي فاضل ، من سادات الأوائل في الإسلام ، الذين توزعت أنباؤهم ، وتفرقت أخبارهم هنا وهناك في مصادر التاريخ ومراجع السيرة ، ولكنهم ظلوا برغم هذا كواكب تضيء وشموساً تنير ؛ وهذا الصحابي الجليل فقد عينه في سبيل الله ، فرضي بذلك ، بل وفرح به واغتبط له ، فكانت سيرته باهرةً ، وكانت خاتمته زاهرة ، ولقي ربه عظيماً كريماً مرضياً عنه .

ذلك هو أبو السائب عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة الجمحي الصحابي رضي الله عنه . كان من السباقين إلى الإسلام ، فتروي السيرة أنه وعبيدة ابن الحارث وعبد الرحمن بن عوف وأبا عبيدة بن الجراح وأبا سلمة أتوا رسول الله فأسلموا في ساعة واحدة ، وكان ذلك في أول الإسلام ، قبل دخول الرسول دارَ الأرقم بن أبي الأرقم ، ولا عجب في سبق عثمان بن مظعون إلى الإسلام بهذه الصورة فقد كان من القلائل أصحاب القلوبِ النيرة والعقول المفكرة ، حتى قبل الإسلام ، فقد حرّم الخمر على نفسه في الجاهلية ، وقال : « لا أشرب شيئاً يُذهب عقلي ، ويُضحك بي من هو أدنى مني ، ويحملني على أن أنكح كريمتي » ! . . .

أسلم عثمان مبكراً ، وتحمل مع إخوانه المسلمين الأوائل ما تحملوا من مشقة وعذاب في سبيل الله ، وهاجر الهجرتين إلى الحبشة ، وكان أميراً للمهاجرين إليها ،

---

(١) نشرتها مجلة الأزهر ، ربيع الآخر ١٣٧٨ هـ .

كما هاجر إلى المدينة مع ابنه السائب ، ومع أخويه قدامة وعبد الله ابنى مظعون ، وآخى الرسول بينه و بين أبى الهيثم بن التيهان الأنصارى ؛ وشهد غزوة بدر .

وكان لعثمان مكانته فى التقوى والتجمل بمكارم الأخلاق ؛ ولقد روى أن الرسول صلوات الله عليه قال فيه : « إن عثمان بن مظعون لحيى ستير » . و يصفه الحافظ أبو نعيم الأصبهانى فى (الحلية) على طريقته فيقول : « المتقشف المحزون ، الممتحَن فى عينه المطعون ، ذو الهجرتين عثمان بن مظعون . كان إلى الاستجابة لله سابقا ، و بمعالى الأمور لاحقـا ، وفى العبادة ناسكا ، وفى المحاربة فاتـكا ، لم تنقصه الدنيا ، ولم تحطه عن العليا، تعجل إلى المحبوب، فتسلى عن المـكروب» !!..

وكان عثمان من أشد الناس اجتهاداً فى العبادة ، فهو يصوم النهار ، ويقوم الليل ، و يتجنب الشهوات ، و يعتزل النساء ، ولا يبالى ماذا يلبس أو ماذا يأكل ؛ وأورثه ذلك لوناً واضحاً من الزهد والتقشف ، ولقد دخل المسجد يوما وعليه نمرة (وهى شملة مخططة من مآزر الأعراب ، كأنها أخذت من لون النمر ، لما فيها من السواد والبياض) قد تقطعت ، فرقعها بقطعة من فروة ، فرق النبى وأصحابه لشأنه ، ثم قال النبى — كما يروى أبو نعيم — : « كيف أنتم يوم يغدو أحدكم فى حلة ، و يروح فى أخرى ، وتوضع بين يديه قصعة ، وترفع أخرى، وسترتم البيوت كما تستر الـكعبة » ؟ . قالوا : وددنا أن ذلك قد كان يارسول الله ، فأصبنا الرخاء والعيش . فقال النبى : « فإن ذلك لـكائن ، وأنتم اليوم خير من أولئك » !..

و يظهر أن اعتزال عثمان لامرأته ترك فى نفسها شيئاً ، فأعرضت عن الزينة والتطيب ، ولقد دخلت على نساء النبى فى هيئة سيئة وملابس ممزقة ، فقلن لها : مالك؟ فقالت — تشير إلى حال زوجها وزهده — : أما الليل فقائم، وأما النهار فصائم!. فبلغ الخبر الرسولَ ، فلقى عثمان فلامه قائلا : أما لك بى أسوة ؟ فقال عثمان : بلى ، جعلنى الله فداك ، بأبى أنت وأمى ، فما ذاك ؟ قال النبى له : تصوم النهار ، وتقوم

الليل ؟ . قال : إنى أفعل ذلك . فقال النبى : « إن لعينك عليك حقاً ، وإن لجسدك عليك حقاً ، وإن لأهلك عليك حقاً ، فصل ونم ، وصم وأفطر »!.

واستجاب عثمان بن مظعون لهدى الرسول ، فخفف من شدته على نفسه ، فيُروى أن امرأته جاءت بعد ذلك حسنة الهيئة طيبة الريح !!...

* * *

وأما قصة عينه التى فقدها فى سبيل الله فهى أنه لما هاجر مع من هاجر من المسلمين إلى الحبشة بقى هناك حتى نزلت سورة (النجم) ، فرجع أكثر المسلمين ، وكان عثمان وأصحابه ممن رجع ، ولكنه لم يستطع دخول مكة إلا بجوار من أحد أهلها ، فأجاره الوليد بن المغيرة من مشركى قريش ، فكان يذهب ويجىء فى مكة ، لا يناله أحد بسوء ، بينما غيره من المسلمين يسامون العذاب والاضطهاد ، ولما رأى عثمان ما يعانيه الصحابة من البلاء ، وهو يغدو ويروح فى أمان ، قال لنفسه : والله إن غدوى ورواحى آمنا بجوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابى وأهل دينى يلقون من الأذى والبلاء مالا يصيبنى ، لنقصٌ كبير فى نفسى !...

وذهب إلى الوليد وقال له : ياأبا عبد شمس ، وفت ذمتك ، قد رددت إليك جوارك . فقال الوليد : لم يا ابن أخى ؟ لعله آذاك أحد من قومى ؟. قال عثمان : لا ، ولكنى أرضى بجوار الله عز وجل ، ولا أريد أن أستجير بغيره !! ...

فقال الوليد لعثمان : فانطلق معى إلى المسجد فاردد على جوارى علانية كما أجرتك علانية ! .. ووافق عثمان ، وصحبه الى المسجد ، وهناك قال الوليد للناس : هذا عثمان بن مظعون ، قد جاء يرد على جوارى . فقال عثمان : قد صدق الوليد ، قد وجدته وفيا كريم الجوار ، ولكنى قد أحببت أن لا أستجير بغير الله ، فقد رددت عليه جواره ..

وجلس عثمان عقب ذلك مع جماعة من المشركين ينشدهم أحدهم — وهو لبيد —

شعراله ، فقال فيه : « ألا كل شيء ما خلا الله باطل ». فقال له عثمان : صدقت ،
ثم أنشد الشاعر عقب ذلك : « وكل نعيم لا محالة زائل » ، فقال له عثمان :
كذبت ، نعيم أهل الجنة لا يزول ! .

فتألم لبيد وقال لمن حوله : يامعشر قريش ، والله ما كان يؤذى جليسكم ،
فمتى حدث هذا فيكم ؟ . فقال له أحدهم : إن هذا سفيه فى سفهاء معه ، قد فارقوا
ديننا ، فلا تجد فى نفسك من قوله . فرد عثمان عليه بما يناسبه ، فقام هذا الرجل ولطم
عثمان على عينه فأطفأها ! ... وصارت مكفوفة لا تبصر ..

وكان الوليد بن المغيرة قريبا منهما ، ورأى ماحدث لعثمان ، فقال له شامتا
فيه : أما والله يابن أخى إن كانت عينك عما أصابها لغنية ، ولقد كنت فى ذمة
منيعة ! .. فقال عثمان : بل والله إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى ما أصاب أختها فى
الله ، وإنى لفى جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس !!...

ثم قال عثمان بن مظعون فى عينه :

فإن تك عينى فى رضا الرب نالها — يدا ملحد فى الدين ليس بمهتدِ
فقد عوّض الرحمن منها ثوابَه — ومن يُرضه الرحمنُ يا قوم يسعد
فإنى ــ وإن قلتم : غوىٌّ مضلّل — سفيه ــ على دين الرسول محمد
أريد بذاك الله والحق ديننا — على رغم من يبغى علينا ويعتدى !

ويُروى أن الإمام على بن أبى طالب قال فى ذلك أيضاً هذه الأبيات :

أمن تذكر دهر غير مأمون — أصبحت مكتئباً تبكى كمحزونِ
أمن تذكر أقوام ذوى سفه — يغشون بالظلم من يدعو إلى الدين
لا ينتهون عن الفحشاء ما سلموا — والغدر فيهم سبيل غير مأمون
ألا ترون ــ أقل الله خيرهم ــ — أنّا غضبنا لعثمان بن مظعون

إذ يلطمون –ولا يخشون– مقلته ... طعناً دِرَاكاً ، وضرباً غير مأفون[1]

فسوف يجزيهم –إن لم يمت عجلاً– ... كيلاً بكيل ، جزاء غير مغبون !

وختم الله حياة عثمان بن مظعون خاتمة محفوفة بما يدل على الخير والبركة ، فقد تُوفى بعد أن شهد بدراً ، وأهل بدر هم الذين قال لهم ربهم على لسان نبيهم : « اعملوا ما شئتم فإنى قد غفرت لكم » ، وتوفى وهو محافظ على دينه ويقينه وعبادته ، وكانت وفاته فى شعبان بعد سنتين ونصف من الهجرة ، ودخل عليه الرسول حين مات ، فانكب عليه ورفع رأسه ، ثم حنى الثانية ، ثم رفع رأسه ، ثم حنى الثالثة ، ثم رفع رأسه وله شهيق ، فعرف القوم أن النبى يبكى فبكوا ، فقال النبى : « أستغفر الله ، أستغفر الله ، اذهب عنها أبا السائب ، فقد خرجت منها ولم تلبس منها بشىء » !! ..

ويروى أنه أكب عليه يقبله وهو ميت ، وقال : « رحمك الله يا عثمان ، ما أصبت من الدنيا ، ولا أصابت منك » . وقالت امرأة عثمان للنبى مشيرةً إلى زوجها : « يا رسول الله ، فارسك وصاحبك » !! .

وصلى النبى عليه الصلاة والسلام على عثمان ، ودُفن بالبقيع ، وهو أول من دفن فيه ، وأول من توفى بالمدينة من المهاجرين ، وقال عنه النبى : هذا فرطنا . ووقف على شفير قبره ، ووضع عند رأسه حجرا ... وقالت زوجة عثمان : هنيئاً لك يا أبا السائب الجنة ! . فقال لها النبى : وما علمك بذلك ؟ ! . قالت : كان — يا رسول الله — يصوم النهار ، ويصلى الليل . فقال النبى : « بحسبك لو قلت : كان يحب الله ورسوله » ! .

وقالت زوجة عثمان فى رثائه :

---

(١) طعنا دراكا : أى متتابعا . وغير مأفون : غير قليل .

يا عين جودى بدمع غير ممنون[١] على رزية عثمان بن مظعون

على امرئ بات فى رضوان خالقه طوبى له من فقيد الشخص مدفون

طاب البقيع له سكنى وغرقده وأشرقت أرضه من بعد تفتين[٢]

وأورث القلب حزنا لا انقطاع له حتى الممات فما ترقى له شونى[٣]

وفى الحديث الشريف أن النبى صلوات الله عليه وسلامه لما توفيت بنته رقية قال : « الحقى سلفنا الصالح عثمان بن مظعون » . وفى رواية: «الحقى بسلفنا الخير عثمان بن مظعون » .

وفى صحيح البخارى أن أم العلاء الأنصارية قالت بعد موت عثمان ـ وكان قد توفى فى دارها ـ : رأيت فى النوم لعثمان بن مظعون عينا تجرى ، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكرت له ذلك ، فقال النبى : ذاك عمله !! ..

رضوان الله تبارك وتعالى على ابن مظعون ، وجزاه خيرا بقدر ماضحى فى سبيله ، وفقد من أجله ، وسلام عليه فى الخالدين !..

---

(١) غير ممنون : غير مقطوع .
(٢) غرقده : أسبل الستر عليه . تفتين : سواد ، كأن الأرض محرقة .
(٣) شونى : مخففة من : شئونى وهى مجارى دمع العين .

عمر بن عبد العزيز والمكفوفون [1]

المكفوفون هم أولئك الأشقاء الذين حرمتهم الأقدار نعمة الإبصار ، فامتحنتهم بذلك النقص الحسى ، لحكمة قد تخفى حينا ، وقد تستعلن أحيانا ؛ وقد جرينا فى عصور الظلمات على إهمال أولئك المكفوفين والتغافل عنهم ، بل ودرج كثير منا على السخرية بهم ، والتندر عليهم ، والقسوة فى معاملتهم...

وتنبه الغربيون منذ زمن بعيد إلى الواجبات الكثيرة المفروضة على المجتمع المتمدن المتحضر نحو المكفوفين ، فأخذ هؤلاء الغربيون يقومون بأداء هذه الواجبات فى صبر ومثابرة ، حتى رأينا المكفوفين فى البيئات الغربية المتحضرة ينالون حظوظهم الوفيرة من التنشئة الكريمة ، والتعليم النافع ، والإنتاج المثمر ، والاشتراك فى الحياة العامة العاملة بكل ما استطاعوا من وسائل . . .

ومر علينا وقت طويل ونحن نسمع عن جهود الغربيين التى بذلوها فى سبيل النهوض بالمكفوفين ورعايتهم ، وكان الواجب علينا أن نساير هذه النهضة ، وأن نعنى بالمكفوفين بيننا ، كما عنوا بالمكفوفين بينهم ، بل كان لزاما علينا أن نسبقهم ونبزهم فى هذا المضمار ، لأن بلادنا هى بلاد المكفوفين ، إذ أن نسبة المكفوفين فى الشرق أضخم بكثير من نسبتهم فى الغرب ، ولكننا مع الأسف تأخرنا كثيرا فى الالتفات إلى واجباتنا نحو هؤلاء الأشقاء ، ولعل هذا الإهمال كان أحد الأسباب التى دفعتنى إلى البحث فى شئون المكفوفين ، وإلى الاشتغال بأمورهم منذ سنوات ، وإلى إصدار كتابى (فى عالم المكفوفين) الذى تفضل كثير ممن كتبوا عنه أو نوهوا به فذكروا أنه أول كتاب يصدر فى موضوعه ، بينما كان الواجب فيما أعتقد أن تصدر كتب وكتب فى هذا الموضوع منذ عهد بعيد . . .

وإذا كنا قد قصرنا فى الماضى فطال منا التقصير وقبح ، فمن الممكن لنا أن نمحو عن أنفسنا عيب هذا التقصير الفاضح ، بمضاعفة العناية بشئون المكفوفين ،

---

(١) نشرتها بمجلة الرابطة الإسلامية ، ١٦ مايو ١٩٥٧ .

حتى نتدارك ما فاتنا ، وندرك سوانا ، بل ونسبقهم كما يوجب علينا ذلك ديننا ووطننا وكثرة المكفوفين بيننا كثرة مؤلمة ! . . .

ونحن نحمد الله كثيرا على أن العناية بالمكفوفين بيننا قد بدأت وظهرت وسارت ، وأخذت تزيد وتنمو مع الأيام ، وقد أنشئت بيننا جمعيات ومعاهد ومراكز ومصانع لتدريب المكفوفين وتعليمهم ورعايتهم ، وتعويدهم ما يمكن من الحرف والصناعات والأعمال الإنتاجية ، ولا زلنا نرجو المزيد من هذه الجهود . . .

والواقع أننا حينما نطالب قومنا بالعناية بالمكفوفين والالتفات إلى تدريبهم وتعليمهم ومعاونتهم ، لا نريد أن نكون مقلدين للغربيين فقط ، بل نحن نستجيب فى ذلك لدعاء المواريث الكريمة التى ورثناها عن آبائنا العظام وعن أجدادنا فى عصور الإسلام المزهرة ، وإذا كان الغربيون يحاولون أن يفخروا علينا بأنهم كانوا أسبق منا فى العناية بشئون المكفوفين ، وبأنهم – فيما يوهمون – المبتكرون الأوائل لتلك العناية ، فإنه من الممكن لنا أن نرد عليهم فخرهم وازدهاءهم ، وأن نذكرهم بأن الإسلام الحنيف قد عرف للمكفوفين منذ أكثر من ألف عام مكانتهم وحقوقهم ، وندب إلى مساعدتهم ومعاونتهم ، واحترام أشخاصهم وحقوقهم . . . وهناك فى تاريخ الإسلام العاطر أبطال وأعلام ضربوا المثل الكريم الصالح فى حسن الرعاية لهؤلاء المكفوفين ، ولنذكر من بينهم على سبيل المثال الخليفة الخامس الراشد والحاكم العادل عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه .

لقد كان لعمر بن عبد العزيز أرض فى (السويداء) ، استخصبها من حر ماله وخالص جهده ، وكانت هذه الأرض تدر عليه غلة تقدر بمئة وخمسين دينارا ، أو بمئتى دينار ، وجاءته هذه الغلة وأسرته فى حاجة إليها للانفاق منها على مطالب

لهم ، فلما وُضعت بين يديه جاء إليه مولاه مزاحم ، وذكَّره بحاجة أسرته إلى المال ، ولكن عمر لم يستجب له بل قال لمن حوله : « انظروا الشيخ الجزرى المكفوف الذى كان يغدو بالأسحار ، فخذوا له ثمن قائد : لا كبير فيقهره ، ولا صغير يضعف عنه » ففعلوا ذلك ، ثم قال عمر لمزاحم مولاه : أنفق ما بقى فى مطالب أهلى . .

وفى رواية ابن عبد الحكم أن عمر لما جاءه المال قال : دلونى على رجل مكفوف ليس له قائد ؛ و بينما القوم يتذاكرون إذ قال عمر : لقد وقعت عليه ، وقد ذكرته ، وهو الشيخ الجزرى المكفوف ، يأتى فى الليلة المظلمة الماطرة يتكمّه (أى يتصرف تصرف الأكمه الذى ولد مكفوفا ، فلا يدرى أين يتوجه) ليس له قائد ، أخرجوا له ثمن قائد: لا كبير يقهره ، ولا صغير يضعف عنه . .. فأخرجوا له من غلة (السويداء) خمسة وثلاثين دينارا ، وأمر بإنفاق الباقى على عياله حتى يخرج لهم العطاء مع المسلمين .

ومعنى هذا أن أمر المكفوفين كان يشغل بال عمر بن عبد العزيز و يقض مضجعه ، وأنه قدَّم معاونة واحد منهم ومساعدته بقائد على قضاء حاجات أسرته وأولاده ، وكان هذا أيضا منذ أكثر من ألف عام ، إذ تولى عمر الخلافة سنة تسع وتسعين ، وتُوفى سنة إحدى ومئة ؛ ولو أن كل قادر من المسلمين — منذ كان عمر — اقتدى بعمر ، وفعل مثلما فعل ، لما وجدنا اليوم بيننا مكفوفا يشكو الحيرة والاضطراب !...

***

ولم يكتف عمر بن عبد العزيز بهذه العناية الفردية الكريمة بشئون المكفوفين ، بل نقل هذه العناية من المحيط الفردى الشخصى إلى المحيط العام ؛ إلى محيط الأمة والدولة والحكومة المسلمة ، فقد أصدر أمرا بأن يوزَّع على كل مكفوف فى الرعية غلام يقوده من غلمان الأسرى الرقيق الذين غنمتهم الدولة فى حروبها . و يقول

ابن عبد الحكم : « وكان عمر بن عبد العزيز إذا كثر عنده أرقاء الخمس فرقه : بين كل مقعدين وبين كل زمنين غلاما يخدمهما ، ولكل أعمى غلاما يقوده » .

* * *

وهناك لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه موقف رائع لا ينساه المكفوفون ولا أصدقاء المكفوفين .. فقد حدثت فى حياة عمر حروب بين المسلمين والروم ، وحدث أن أرسل عمر إلى ملك الروم رسولا فى بعض المفاوضات ، ولما أنهى الرسول مهمته هم بالعودة إلى عمر ، فمر بموضع ، فسمع فيه رجلا يقرأ القرآن الكريم ، ويدير طاحونة يطحن عليها حبًّا ، فتعجب الرسول ، ودنا من الرجل ، وألقى عليه السلام مرة ومرتين ، فلم يرد عليه السلام ، فألقى عليه السلام مرة أخرى ، فإذا بالرجل القارئ يجيبه قائلا :

وأنى بالسلام فى هذا البلد ؟ ! . . . وتطلع الرسول فرأى الرجلَ القارىءَ مكفوفَ البصر ، فأعلمه بأنه رسول عمر بن عبد العزيز إلى ملك الروم ، وسأله عن شأنه وقصته ، فقال له الرجل :

إنى فلان ابن فلان ، وقد أسرت فى موضع كذا ، وأتوا بى إلى ملك الروم ، فعرض علىَّ الدخولَ فى النصرانية ، فأبيت ، فقال لى مهددا : إن لم تفعل سملت عينيك (أى فقأتهما بحديدة محماة) ؛ ففضّلت دينى على بصرى ، فسمل عينىَّ ، وصيّرنى إلى هذا الموضع ، وهو يرسل إلىَّ كلَّ يوم بحنطة فأطحنها وخبزة فآكلها ! . . .

فحزن الرسول من ذلك ، وأخبره أنه سيبلغ أمره إلى الخليفة عمر . . .

وعجل الرسول بالعودة ، ولما انتهى إلى عمر قص عليه قصة المسلم المكفوف ، وهنا يروى الرسول قائلا : فما فرغتُ من الخبر حتى رأيت دموع عمر قد بلت ما بين يديه !! . . . .

وسارع عمر فكتب إلى ملك الروم يقول : أما بعد فقد بلغنى خبر فلان ابن فلان ... وقص عليه قصته كما بلغته من الرسول ، ثم قال : « وأنا أقسم بالله لئن لم ترسله إلىّ لأبعثن إليك من الجنود جنوداً يكون أولها عندك وآخرها عندى »!! ...

وحمل الرسول الكتاب إلى ملك الروم مسرعا متعجلا ، فلما بلغه قال له الملك : ما أسرع ما رجعت . فدفع إليه كتاب عمر بن عبدالعزيز فلما قرأه قال : « ما كنا لنحمل الرجلَ الصالح — يعنى عمر — على هذا ، بل نبعث إليه به » . وبقى الرسول ينتظر تنفيذ ذلك ، وذات يوم ذهب الرسول إلى الملك يستنجزه وعده ليعود ، فوجده قاعدا على الأرض ، قد نزل عن سريره ، وعلى وجهه كآبة ، وحينما رأى الرسولَ قال له : أتدرى لم فعلتُ هذا ؟ . قال : لا ، وقد أنكرتُ ما رأيت ! . فقال الملك : إنه قد أتانى من بعض أطرافى أن الرجل الصالح قد مات ، (يعنى عمر) فلذلك فعلتُ ما رأيت !! ..

وكان عهد عمر بن عبد العزيز عهدَ سلام وأمان ومصافاة شملت القريب والبعيد ... ثم قال الملك : « إن الرجل الصالح إذا كان بين القوم السوء لم يُترك بينهم إلا قليلا حتى يخرج من بين أظهرهم » . فقال له الرسول : أتأذن لى أن أنصرف ؟ . . . وكان قد يئس من أخذ الرجل المكفوف ، فقال له الملك : « ما كنا لنجيبه إلى أمر فى حياته ، ثم نرجع فيه بعد مماته » .

وأرسل معه المسلم المكفوف !...

إن هذه الحادثة حين يؤيدها التحقيق التاريخى تعد شاهدا ذهبيا رائعا على عناية عمر بن عبد العزيز بشأن المكفوفين فى ذلك العهد القديم بالنسبة إلينا ، كما تعد من أقوى الدوافع التى تحرضنا على حسن الاقتداء والاهتداء ، فياليت قومى يعلمون . . .

وأتى عمر بن عبد العزيز رجل من الأنصار، فقال : يا أمير المومنين احفظ فيّ بلاءَ أبي .قال عمر : وما كان بلاؤه ؟ . قال : يا أمير المؤمنين ، إن أبي كان أعمى من الأنصار ،و إن امرأة من المشركين كانت تؤذى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال أبي : أما لهذه المرأة أحد يكفيها النبي صلى الله عليه وسلم؟ أقعدوني على طريقها ، فإذا مرت فآذنوني . فأقعدوه على طريقها ، فلما مرت آذنوه بها ، فوثب عليها يضربها حتى قتلها .

فقال عمر:

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعدُ أبوالا !

وأكرم عمر الرجل ، وقضى له حاجته !!...

مكفوفة تتحدى العجز

(هيلين كيلر) هى الفتاة الأمريكية المكفوفة البصر ، الصماء البكماء ، التى فقدت بصرها وهى فى السنة الثانية من عمرها ، ومع ذلك لم تيأس ولم تقنط ، بل قاومت هذه الوجوه الثلاثة من النقص الحسى ، فتعلمت وتكلمت وقرأت وفهمت ، وأفهمت غيرها ما تريد ... بالصبر والمصابرة ، والدأب والمثابرة . ولقد كتبتْ تاريخ حياتها فى كتاب بالإنجليزية أسمته (قصة حياتى) ، وهو أول كتاب ألفته من كتبها ، وفى ربيع سنة ١٩٥٢ زارت هيلين كيلر مصر ، لدراسة شئون المكفوفين فيها ، واستأذنها الأستاذ أمين مرسى قنديل فى أن يجعل تحيته لها ترجمةَ كتابها هذا إلى العربية ، فأذنت له بذلك ، وأتم ترجمة الكتاب ، ونشرته مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة فى يونيه عام ١٩٥٢ فى مائتين وسبع وأربعين صفحة من الحجم المتوسط .

وعلى الرغم من أنه قد سبق لى الحديث فى مواضع متفرقة عن هيلين كيلر كإحدى النساء العبقريات فى عالم المكفوفين ، رأيت من الخير أن أقدم هنا هذه الخلاصة المركزة لقصة حياتها ، ناصحاً لكل مكفوف ، ولكل مشتغل بشئون المكفوفين ، ألا يكتفى إذا استطاع بقراءة هذه الخلاصة ، بل يرجع إلى القصة ذاتها ، ليزيد نفسه بها استمتاعا ، ولعل ما فى هذه الخلاصة يكون حافزاً له على القيام بذلك ... وهذه هى خلاصة القصة :

بنوع من الخوف تبدأ (هيلين كيلر) الترجمة لحياتها ، فإن ذلك أمر عسير شاق ، لأن المرأة لاتتصور مامرَّ بها من خبرة فى طفولتها على وجه واقعى مستقيم ، وإذا كان قد بقى فى ذاكرتها بعض الذكريات واضحاً بارزاً ، فإن كثيراً منها

قد زال تأثيره ، أو شمله النسيان ، ولكن هيلين تكتفى برسم صور تخطيطية لأهم الأحداث فى حياتها ...

ولدت هيلين فى السابع والعشرين من يونيه ١٨٨٠ م فى بلدة (تسكامبيا) فى ولاية (ألاباما) الشمالية من الولايات المتحدة الأمريكية ، وتحدرت أسرتها من جهة الأب من (كسبار كيلر) السويسرى الأصل ، الذى هاجر إلى أمريكا ، وكان أحد أجدادها أول مدرس يعنى بتعليم الصُّم فى مدينة (زوريخ) .

وجدة هيلين ابنة ألكسندر مور ، ووالدها هو (آرثر كيلر) وأمها هى (كيت آدمز) وكانت الزوجة الثانية لوالد هيلين ، وكانت هيلين إلى اليوم الذى مرضت فيه مرضها الذى سلبها بصرها وسمعها تسكن بيتاً صغيراً لايحتوى إلا حجرة فسيحة مربعة ، وأخرى صغيرة ينام فيها الخادم ، وكان هذا البيت على مقربة من بيت والدها الكبير ، ونشأت مغرمة بالأزهار كالبنفسج والسوسن ، ولما كُفَّ بصرها لم تكف عن جمع الأزهار مهتدية إلى أنواعها بحاسة الشم ، وكانت مغرمة بالورد كثيراً .

وكانت بداية حياتها غير غريبة، ولكن كان يظهر عليها فى طفولتها صبغة الطبع الجاد المسيطر ، وأخذت تمشى قبل أن تتم العام الأول من حياتها ، وكانت تصر على التقليد والمحاولة ... ولم يمض غير ثلاثة فصول من العام ، ثم جاء شهر فبراير ، فأصابها المرض الذى أغلق عينيها وأصم أذنها ، وهو احتقان فى المعدة والمخ ، وكانت صدمة قاسية ، ولكن الطفلة بدأت تتعود الظلام والصمت شيئاً فشيئاً .

وجاءتها المعلمة وهى على رأس التسعة عشر شهراً من أول حياتها ، وصارت هيلين لاتدع شيئاً حولها إلا لمسته ، وحاولت التفاهم مع غيرها بالإشارات واللمسات ، وتعلمت فى الخامسة من عمرها أن تطوى (الغسيل) ، وأن تميز مختلف الثياب ، وتستخرج من بينها ملابسها .

وهى لاتذكر متى أدركت أنها مختلفة عن الناس ، وكانت أسرتها تدعوها لتجالس الضيوف ، ولكنها كانت تغضب إذا لم تفهم ما يقولون ، وتقوم بحركات تدل على الغيظ والحنق ، وتصف هيلين نفسها فى طفولتها بأنها كانت (شقية) متعبة متهورة ،وكان لها حينئذ رفيقان : هما (مارتا) و (بل)، أما مارتا فهى ابنة الطاهية ، وأما بل فكلبة عجوز ، وكانت مارتا تجيد الفهم عن هيلين .

وكانت هيلين تحب البحث عن بيض الطيور ، كما كانت صوامع القمح واصطبلات الخيل وحظائر البقر تثير اهتمامها ؛ وحينما احتفلت الأسرة بعيد الميلاد فرحت هيلين جدا ، وحاولت الاشتراك فى أعمال كثيرة من أعمال الإعداد لعيد الميلاد ، وكانت تصنع الدمى من الورق مع مارتا ، ولكنها كانت تسبب بعض المتاعب لأسرتها ، كأن تغلق الحجرة على شخص بالمفتاح وتخبىء المفتاح فى مكان ، وقد فعلت هذا مرة مع معلمتها .

وفى الخامسة من عمر هيلين انتقلت إلى بيت أكبر ، وكان أبوها يحبها حباً جماً ، وكان صياداً ماهراً ، وكريماً إلى حد الإسراف ، وقد مات فى أواخر الصيف من سنة ١٨٩٦ بعد مرض قصير ، فكان موته صدمة عنيفة لهيلين .

وكانت هيلين تضيق بأختها الصغيرة (ميلدرد) ، وتغار منها لأنها كانت تقاسمها حنان أمها ، ولكن هيلين بعد أن تعلمت رجعت تحب أختها وتتعلق بها .

وأحست هيلين فى صدر حياتها بحاجتها الشديدة إلى وسيلة تعبر بها عن نفسها ، وتتصل بالناس عن طريقها ، ولكنها بعيدة عن مدارس المكفوفين ، والذين حولها يشكون فى قدرتها على تعلم شىء ، ولكن والدة هيلين طالعت كتاباً للكاتب الإنجليزى تشارلس ديكنز يسمى (مذكرات أمريكية) وفيه يتحدث عن (لورا بريدجمن) المكفوفة الصماء البكماء التى علمها الدكتور (هاو) فى معهد (بركنز) للمكفوفين بمدينة بوسطن ، ففتح هذا الكتاب باب الأمل .

وفي السادسة من عمر هيلين أخذها والدها إلى طبيب عيون مشهور فى مدينة (بلتيمور) ، وكانت الرحلة مفرحة لهيلين ، وصنعت لها عمتها أثناء الرحلة عروساً من قطع القماش ، ولكنها نسيت أن تضع لها عينين ، فثارت هيلين لذلك ، وكلفت عمتها بوضع خرزتين مكان العينين من العروس ، وفرحت هيلين بذلك كثيرا .

ولم يفدها الطبيب بشيء فى إعادة بصرها ، ولكنه دلهم على الدكتور (جراهام بل) الذى يعنى بتعليم الصم والمكفوفين ، وذهب بها والدها إليه ، واستراحت للقائه كثيراً ، ونصح (بل) أن يتصل والدها بمدير معهد بركنز (مستر انجانوس) ، ليسأله معلمة خاصة لهيلين ، وفى صيف سنة ١٨٨٦ وجد المعهد لهيلين معلمة خاصة ، حضرت إليها فى مارس سنة ١٨٨٧ ؛ وهنا تقول هيلين كيلر :

« وهكذا خرجتُ من مصر ، ووقفت على أبواب سيناء ، وتجلت قوة ربانية على روحى فوهبتنى البصر ، وأدركت الكثير من العجائب ، ومن أعلى الجبل المقدس استمعت إلى صوت ينادينى : إن المعرفة محبة ، ونور ، وهدى » !!..

وكان يوم ٣ مارس سنة ١٨٨٧م يوما لا ينسى فى حياتها ، لأن معلمتها (آن صاليفان) قد حضرت فيه ، بينما كانت هيلين أشبه براكب فوق سفينة ضلت طريقها ، وتراكم حولها الضباب ، وهو يرقب المصير ، وكانت نفسها تنادى : النور! على بالنور !! .. وفجأة سطع عليها النور بحضور المعلمة التى ستكشف لها عن كل شيء . . . وأهم من ذلك أنها أحبتها !...

وحملت المعلمة لهيلين دمية هدية من أطفال معهد بركنز ، فلعبت بها وقتاً ، ثم تهجت المعلمة لهيلين كلمة (دمية) على يدها ، فاهتمت هيلين بهذه اللمسات ، ولم تكن تعلم شيئا عن الكلمات ، واستمرت المعلمة فى تهجيها ، والطفلة تضيق بعملها شيئاً فشيئاً ، وحطمت دميتها إذ « ليس فى عالم الصمت والظلام الذى أعيش فيه عاطفة قوية ، ولا حب ، ولا رقة » !!.

ولم تغضب المعلمة ، بل صحبت الطفلة إلى الحقل ، حيث الضوء والشجر ، ووضعت يدها تحت صنبور الماء وتهجت لها كلمة (ماء) . وهنا أدركت هيلين شيئا ، وانكشف لها سر اللغة بشكل ما ، وأيقظت كلمة (الماء) الحية نفسها ، وبدأت تدرك أن لكل شيء اسماً ، ويبدو لها أن كل شيء تمسه بيدها قد امتلأ بالحياة ؛ وفى هذا اليوم تعلمت هيلين ألفاظا كثيرة ، ولم يكن هناك أسعد منها فى تقديرها وهى نائمة فى مساء ذلك اليوم تستعيد ذكرياته ! .

وازدادت معرفتها بالأشياء وبالأسماء ، وجاء الربيع ، وجعلت المعلمة تذهب بتلميذتها إلى الحقول والزهر والنهر والعشب الدافئ والشمس الضاحية ، وتعلمها ما تستطيع عن هذه الأشياء ، وعلمتها أن تشعر بما فى الغابات من جمال ، وبما فى الطبيعة من روعة ، كما علمتها أن الطيور والأزهار أشقاء سعداء ..

وذات يوم عادا من رحلة فى يوم جاف حار ، فاستراحا فى الطريق تحت ظل شجرة كبيرة ، واقترحت المعلمة أن يتناولا غذاءهما فوق الشجرة ، وصعدت هيلين بمعاونة المعلمة ، ووعدتها التلميذة بأن تظل فوق الشجرة هادئة حتى تذهب المعلمة وتعود بغذائهما من البيت ... وفجأة تغير الجو ، وزالت الحرارة التى تقوم مقام النور والضوء لهيلين ، وانتشرت الرائحة الغريبة التى تسبق العاصفة ، وشعرت هيلين الوحيدة بالخوف والوحشة والفزع ، وأصابت الشجرة رعدة قوية اهتزت لها ، وهبت الريح نكباء ، وجعلت الأغصان تتقصف وتسقط على الفتاة ، وطال بها الهول ، وهمت بأن تسقط نفسها من فوق الشجرة ، وإذا . . . وإذا بيد المعلمة تنقذها وتعاونها على النزول ... وهنا أدركت هيلين أن الطبيعة قد تشن على أبنائها حرباً صريحة ، وأن وراء ملمسها اللين مخالب حادة خداعة !!...

وظلت هيلين تخاف تسلق الأشجار ، ولكن شجرة (المستحية) بأغصانها المتهدلة وزهرها الفواح جذبت هيلين بعد حين ، فتسلقتها وهى تشعر بإحساس لذيذ ، ولما جلست فوقها أحست كأنها حورية جاست على سحابة وردية اللون .

وتيقظت روح هيلين ، فقد حصلت على مفتاح اللغة ، وأصبحت تتوق إلى الاستفادة منه ، وعلى الرغم من بطء الطريقة التى تتعلم بها حصلت على طائفة من الألفاظ ، وأخذ تساؤلها يزداد ، فسألت معلمتها عن كلمة (الحب) ، بمناسبة أنها جمعت لمعلمتها طاقة من البنفسج فقبلتها المعلمة بعد تمنع ، وطوقتها بذراعها وتهجت لها جملة : « أحب هيلين » . وقربتها المعلمة منها ، وأشارت بيدها إلى قلب التلميذة ، وهنا فطنت التلميذة لخفقات القلب وضرباته ، ولكن أين الحب ؟! . . إنها لا تلمسه وهى لا تدرك إلا باللمس !! .

أيكون الحب حلاوة الأزهار ، أم حرارة الشمس ، أم ماذا ؟ . . وحارت الطفلة ، وعجزت المعلمة عن أن تريها الحب ! ! . . وبينما كانت المعلمة تصحح لتلميذتها أخطاءها فى تنظيم الخرز ، ويتكرر الخطأ منها ، وضعت يدها على جبين التلميذة ، وتهجت لها كلمة (فـكّـرى) وكررتها . . وهنا أدركت هيلين أن هذه الكلمة تدل على تلك العملية التى تجرى فى الرأس ، وهنا أخذت الطفلة تحاول إدراك معنى (الحب) على ضوء الفكرة المعنوية المجردة . . .

وعادت التلميذة تسأل عن الحب فقالت لها معلمتها : « لا تستطيعين أن تلمسى الحب ، ولكن فى مقدورك أن تشعرى بالحلاوة يضفيها على كل شىء ، فبدون الحب لا تكونين سعيدة ، ولا ترغبين فى اللعب » .

وهنا أدركت هيلين أن أسبابا تربط بين روحها وأرواح الناس .

وكان تعليم هيلين بطيئاً يحتاج إلى زمن ممتد ، لأنها صماء ، والأصم محروم من التبادل الطبيعى للأفكار بسهولة ، وكل من الأصم والمكفوف يجد مشقة كبيرة فى الاستمتاع بنعمة الكلام مع الناس على وجه يرضى ، فكيف بالطفل الأصم الأبكم المكفوف ! ؟ .

وكانت الخطوة الثانية لهيلين أن تتعلم القراءة بطريق الورق المقوى الذى طبعت عليه الكلمات طبعاً بارزاً ، وكانت تصنع الكلمات على الأشياء التى

تدل عليها ، لتربط بين الأسماء ومسمياتها ، وكان يسرها ذلك ، واعتمدت فى تصيد الكلمات على كتاب (المطالعة للمبتدئين) ، وكان الدرس عندها كاللعب ، لأن مدرستها تعلمها إياه بقصة أو قصيدة ، وتختار الموضوعات السارة والهامة ، وتعطف على تلميذتها بقوة وإخلاص ، فقد طالت صحبتها للمكفوفين ، ولها مقدرة عجيبة على الوصف ، وإذا شرحت شيئاً معقداً تدرجت فيه بلطف ، وكانت تفضل التدريس فى الهواء الطلق ، حيث الغابات ، وأشجار الصنوبر ، وأرج العنب البرى ، وشجرات الخزامى ، وحيث الأزهار ، والفواكه ، والنباتات ، والحشرات المسالمة ، فكانت هيلين تحس ، وتلمس ، وتتعلم .

وهنا تقول هيلين : « لا يعرف إلا القليلون من الناس السرور الذى يجده الإنسان فى نفسه عند ما يضغط الورد على يديه فى أناة ورفق » .

وكانت تدرس الجغرافيا بطريق اللعب ، فهى تبنى السدود والجزائر ، وتحفر الأنهار والبحيرات ، وتستعين بالخرائط البارزة من الصلصال .

وكان الحساب هو المادة الوحيدة التى لا تميل إليها ولا تحبها ، وتعلمت علمى الحيوان والنبات على مهل ، وأهديت إليها مجموعة من (الحفريات) ، فيها أصداف وأحجار عليها آثار أقدام لطيور وغير ذلك ، فعرفت بها أشياء عن العالم القديم ، وعن حيوانات البحر . تقول هيلين : « وهكذا ترى أنى كنت أتعلم من الحياة نفسها » ؛ واستطاعت معلمتها بعطفها وكياستها وحبها أن تجعل حياة هيلين جميلة سارة ، وأعطتها الحرية ، لأن الطفل لا يعمل فى مرح وحبور إلا إذا شعر بأنه حر طليق ؛ وكانت هيلين تشعر بأن معلمتها جزء منها لا تنفصل عنها ، وأنها هى التى أيقظت فيها كل شىء .

وجاء عيد الميلاد ، وأعدوا الهدايا ، وفاجئوها بها فى كل مكان ، ولما أهدت معلمتها إليها عصفورا من عصافير الكنار فاضت كأس سعادتها ، وجعلت تعنى بالعصفور مدة ، ثم جاءت قطة ففجعتها فى هذا العصفور العزيز !!.

وسافرت هيلين إلى (بوسطن) فى مايو سنة ١٨٨٨ م ، وفى الطريق جعلت تستمع بانتباه لوصف المشاهدات من معلمتها ، ووصلت (معهد بركنز للمكفوفين) وتصادقت مع الأطفال المكفوفين ، وتخاطبت معهم بلغتها اليدوية ، حتى فقدت كل شعور بالألم بعد سرورها بمعاشرتهم ، وكأنها فى بيتها بين أهلها وذويها ، وتلقت أول درس فى التاريخ عند تل (بنكرهيل) الذى حدثت عنده موقعة هامة فى حرب الاستقلال الأمريكى ، وذهبت إلى مدينة (بليموث) وهناك قامت بأول رحلة لها فى البحر على ظهر سفينة بخارية ، وتعرفت هيلين إلى أصدقاء أحبوها وأحبتهم ، حتى سمت (بوسطن) مدينة (القلوب الشفيقة) ...

واشتركت فى رحلة بحرية إلى مدينة (بروستر) فى الصيف ، حيث عرفت الكثير عن البحر والمحيط ، ولبست ثوب البحر ، ولعبت على الرمال ، وألقت بنفسها فى الماء ، وشعرت بالأمواج ؛ وفى الخريف عادت إلى دارها وهى لا تتوانى عن تحصيل المعلومات ، فحياتها كانت حركة موصولة ، والنواحى التى تفصل عقلها عن عقول الناس أصبحت خصيبة ممرعة ، وازدهرت كما تزدهر الورود .

وشهدت هيلين رحلة صيد ، وأكلت من الشواء ، وأحضروا لها مهرا كانت تركبه وتتنزه مع معلمتها فى الغابات ، وكانت فى كثير من الأحيان لا تأكل الثمار التى تجمعها ، بل تكتفى بشم رائحتها .

وفى ربيع سنة ١٨٩٠ بدأت هيلين تتعلم الكلام ، وكانت فى نفسها نزعة عارمة للنطق ، وقبل أن تفقد بصرها كانت بسبيل أن تتعلم الكلام بسرعة ، وكانت بعد فقد بصرها تصدر أصواتا مضطربة ؛ وأخذت معلمتها تعلمها الكلام ، وأقبلت هيلين بشغف على الدرس ، فقد سمعت من السيدة (لامسون) التى علمت (لورا بريدجمن) أن فتاة صماء مكفوفة تعلمت الكلام ...

وبدأت هيلين دروسها فى التكلم من ٢٦ مارس سنة ١٨٩٠ .

وبدأت طريقة التعلم بأن تمرر المعلمة يد هيلين فى رفق ولين على وجه المعلمة ، وتجعلها تشعر بموقع لسانها وشفتيها وهى تلفظ صوتا ، ومن هنا حفظت الحروف عن طريق اللمس ، وأحست بنشوة لتوصلها إلى النطق بالكلمات الأولى ، وصارت تعتمد على حاسة اللمس وحدها فى تصيد الذبذبات التى تصدر من الحلق وحركات الفم وتعبيرات الوجه ، وواصلت التمرين حتى تقدمت فى الكلام .

وعرضت لهيلين حادثة عكرت صفوحياتها . تقول : « كانت سماء طفولتى صحواً كلها إلا من سحابة واحدة عكرت علىّ صفوها شتاء عام ١٨٩٢ » . وذلك أنها كتبت قصة سمتها (ملك الصقيع) ، و بعثت بها إلى المستر انجانوس مدير معهد بركنز للمكفوفين الذى اغتبط بالقصة ، ونشرها فى تقرير له عن معهده ، ولكن يظهر أن هيلين تأثرت فى كتابة قصتها بقصة كتبتها الآنسة (مارجريت كانبى) قبل أن تولد هيلين ، وكانت بعنوان (جنيات الصقيع) .

ولما أخبروا المستر انجانوس بهذا التشابه اعتقد أن هيلين ومعلمتها قد خدعتاه ، ودعيت هيلين إلى مجلس تحقيق شددوا عليها الأسئلة فيه ، وأثناء الليل بكت هيلين بكاء مرا ، لأنها لم تنقل شيئا عن غيرها ، و إن كانت قد تأثرت دون أن تشعر بمطالعات سابقة لها ، وهى فى الوقت نفسه تؤكد أن قصة الآنسة (كانبى) قد قرئت عليها .

وتعلق هيلين على هذه الحادثة بقولها : « كانت عادة تمثيل كل ما يروقنى وهضمه ، ثم إعادته ثانية على أنه من بنات أفكارى ، تتجلى فى مكاتياتى الأولى ، وفى أوائل محاولاتى الكتابة والتحرير » . وتقول أيضا : « فكنت أعى فى ذاكرتى — قصدا أو من غير قصد — كل ما يروق لى فى الكتب ، ثم أحوله إلى ما يلائمنى » .

و بعد كتابة هيلين لقصة (ملك الصقيع) بسنة بدأت تكتب قصة حياتها بدقة وحرص ، وكانت تخشى أن تعود فتكتب أفكاراً لسواها ، ولذلك كانت

تردد : « إنى لست واثقة من أن هذه الفكرة فكرتى » ، وكانت كتابتها لقصة حياتها بناء على نصيحة من معلمتها ، لتقدمها إلى مجلة (رفيق الشباب) ، وكانت هيلين فى الثانية عشرة من عمرها . فأخذت تكتب فى تهيب وخوف .

وفى سنة ١٨٦٣ رحلت هيلين إلى (واشنجطن) ، وزارت شلالات نياجرا ، وتأثرت بجمالها ، وهى تقول عن الأشياء التى تؤثر فيها بجمالها : « إنها تعنى كل شىء لى بأوضح معنى ممكن وأجلاه ، ولو أنى لست أستطيع أن أسبر معناها ولا أحدده بأكثر مما أستطيع أن أسبر معنى الحب أو الدين أو الخير ، وأحددها » .

وزارت فى صيف السنة المذكورة المعرض العالمى ، فشاهدت عجائب من المخترعات وكنوزا من الصناعات ، وسمح لها مدير المعرض بأن تلمس المعروضات لتتعرف إليها ، ففعلت ذلك فى نهم وشوق ، وأثر فيها قسم الآثار القديمة تأثيرا عميقا ، وقالت : « إن ما تعلمته من هذه الآثار الباقية ، عن تقدم الإنسان فى سبيل الحضارة ، ليفوق ما سمعته فيما بعد عن ذلك التقدم ، أو قرأته عنه فى الكتب » .

وقبل أن يأتى أكتوبر سنة ١٨٩٣ كانت هيلين قد درست وحدها عدة علوم ، وعرفت اللغة الفرنسية ، وقرأت قصص (لافونتين) الشاعر الفرنسى ، وبعض كتب (راسين) الفرنسى ، وتعلمت اللغة اللاتينية ، وراقها ما فيها من جمال ، وتعمقت فى دراسة النحو واهتمت به .

وفى صيف سنة ١٨٩٤ حضرت هيلين اجتماع الاتحاد الأمريكى لترقية تعليم البكم الكلام ، وتم الاتفاق فى هذا الاجتماع على أن تلتحق هيلين بمدرسة (رايط هوماسون) فى نيويورك لتعليم الصم ، وفى أكتوبر ذهبت هيلين إليها ، لتتسع فى الثقافة الصوتية وقراءة الشفاه والحساب والجغرافيا الطبيعية واللغتين

الألمانية والفرنسية ، وتقدمت فى الألمانية أكثر من غيرها ، ولم تتقدم فى قراءة الشفاه وتعلم الكلام بالقدر الذى أملته ؛ ومع أنها كانت تحس بخيبة الأمل أحيانا واصلت دراستها بصبر ودأب ، وكانت أثناء ذلك تقوم برحلات ونزهات تسرها كثيراً .

وفى فبراير سنة ١٨٩٦ توفى والد هيلين ، وقالت عنه : «ولا يتسنى لغير الذين عرفوه وأحبوه أن يدركوا معنى صداقته لى ، فإنه جعل كل شخص حوله سعيداً ، وذلك بطريقة جميلة لا يجد فيها أحد أية مضايقة ، وكان شفيقاً رقيقاً جداً على الآنسة صاليفان وعلىّ ، فما دمنا شاعرين بوجوده الحبيب إلينا وعارفين بمدى اهتمامه بعملنا الحافل بكثير من الصعاب والمتاعب ، لم تكن تثبط لنا همة ولا يفل لنا عزم ، فلا غرو أن أحدثت وفاته فى حياتنا فراغا لا يستطيع أحد أن يملأه» !! .

وفى أكتوبر سنة ١٨٩٦ التحقت هيلين بمدرسة (كمبردج) للفتيات استعدادا لدخول كلية (رادكليف) بعد أن أصرت هيلين فى نفسها على أن تنافس الفتيات المبصرات فى الدرجات الجامعية ، وكان الأساتذة فيها ليست عندهم خبرة بتعليم غير التلميذات العاديات ، ولم يكن فى طاقة معلمتها أن تهجى لها فى يدها كل دروسها ، واستطاعت بصعوبة أن تنسخ مقرر اللغة اللاتينية بطريقة (برايل) ، ثم أخذ الأساتذة يتعرفون إليها ويتعاونون معها ، وقرأت كثيراً من المواد والكتب ، وتمتعت بصحبة لداتها من المبصرات ، وعاشت معهن فى بيت من البيوت البهجة التابعة للمدرسة ، ثم جاءت أختها (ميلدرد) ، فدرست معها فى المدرسة ، وساعدت كل منهما الأخرى .

كان امتحان هيلين فى صيف ١٨٩٧ ، وفازت فى امتحانها ، وحصلت على درجة الشرف فى اللغتين الألمانية والإنجليزية ، وكانت تستعمل فى إجابتها الآلة الكاتبة ، وتجلس فى حجرة خاصة .

وفى السنة الثانية درست هيلين فى مدرسة (جليمان) الفيزيقا والجبر والهندسة والفلك واليونانية واللاتينية ، ولم تكن الكتب كلها بالطريقة البارزة ، فساعدتها

معلمتها ، و بتوالى الأيام توافرت عندها الـكتب البارزة ، فانهمكت فى دراستها، وإن ظلت لاتفهم الهندسة والجبر كما ينبغى ، ولاحظ مدير المدرسة أن هيلين ترهق نفسها ، فطلب أن تتريث وتتمهل، و إلا أصيبت بالانهيار ، وثار خلاف حول ذلك حسمته أم هيلين بأن منعتها وأختها من الذهاب إلى المدرسة .

وجاء لهيلين مدرس خاص هو المستر (كايث) وظل يتردد عليها إلى يوليه سنة ١٨٩٨، وفى أكتوبر سنة ١٨٩٨ عادت هيلين إلى (بوسطن) وهناك درس لها (كايث) ثمانية شهور ، وهكذا واصلت الاستعداد للحاق بالـكلية ، وكان مدرسها يحتملها بصبر عميق ، مع أنها — كما تقول — كانت غبية أحيانا ، وتضيف : « وأؤكد للقارئ أن غباوتى كانت تبلغ حدا يستنفد صبر أيوب نفسه » !!...

وفى آخر يوليه ١٨٩٩ تقدمت للامتحان النهائى للتقدم لـكلية (رادكليف)، و برغم صعوبة الامتحان ، وبرغم العقبات التى وُضعت فى طريقها، نجحت هيلين، وقهرت ما أمامها من عقبات !! . .

والتحقت هيلين بكلية رادكليف فى خريف سنة ١٩٠٠ ، وكان أول يوم لها فى الـكلية حافلا بما يهمها وتتوق إليه ، وأقبلت على الدراسة بجد وتلهف ، وكان يخيل إليها أن الـكلية ليست إلا روضة مفروشة بالورود والرياحين ، وليس فيها من المتاعب شىء ،ولـكنها أدركت بعد حين أن الالتحاق بالجامعة ليس خيرا كله ، فهو لا يخلو من متاعب ومن عيوب .

فهناك ضيق الوقت أمامها. وهناك إحساسها بأنها تتعلم ولا تفكر .ودرست فى السنة الأولى الفرنسية والألمانية والتاريخ والأدب الإنجليزى والإنشاء الإنجليزى، وقرأت بالفرنسية بعض مؤلفات كورنى وراسين وموسيه وبيف، و بالألمانية مؤلفات لجوته وشيلر، و بالإنجليزية أشعار ملتون .

وكانت تحس بالوحدة فى الفصل ، وكانت تعانى صعوبة فى متابعة المحاضرة عن طريق التهجى اليدوى ، فهى فى حيرة بين واجب الإصغاء وواجب الفهم،

ولكن على من يريد أن يحصل المعارف الحقيقية أن يرقى جبل الصعاب وحده ، وكانت تثور أحيانا ثم تهدأ .

وفى السنة الثانية درست الإنشاء الإنجليزى والإنجيل من الناحية الأدبية ، وكانت هذه السنة أسعد سنواتها ، فقد درست الاقتصاد والأدب وتاريخ الفلسفة ، وكانت تضيق أحيانا بشروح الأساتذة وفروضهم وتعليقاتهم الطويلة ؛ وكانت تخاف من الامتحانات كأنها (غول) مزعج ، لأنها مضطرة لحشو عقلها بمعلومات خفية ، ولكنها كانت مشوقة إلى المعرفة بشكل عجيب ، وهى تقول :

« إنهم يقولون : إن العلم قوة ، والأولى بهم أن يقولوا : إن العلم سعادة ، لأنا بحصولنا على المعرفة — المعرفة العميقة الواسعة — ندرك الحق من الباطل ، ونميز السامى من الوضيع المسف ، فالوقوف على الأفكار والأفعال التى كانت معالم لترقى الإنسان وتقدمه فى سبيل الحضارة ، يجعلك تشعر بنبضات قلب الإنسانية القوية العنيفة عبر الأجيال التى مرت بها ، فإن كان الإنسان منا لا يستطيع أن يشعر بما فى هذه النبضات من مجاهدة ومحاولات فى سبيل العلا ، فهو لاشك أصم ، لا يسمع ما فى الحياة من توافق وانسجام » .

وكان للكتب شأن أى شأن فى تربية هيلين ، وقرأت أول قصة موصولة فى مايو سنة ١٨٨٧م وهى فى السابعة من عمرها ، ثم صارت تلتهم كل شىء يقع تحت أصابعها فى شكل صحيفة مطبوعة ، وكانت تفضل أن تقرأ بنفسها ، و بلا نظام ، وفى (بوسطن) بدأت قراءتها الجدية : فهى تقضى فترة كل يوم فى مكتبة المعهد ، فقرأت قصصا وأشعارا ، وكانت معلمتها تشرح لها ما يستعصى عليها . . قرأت قصة (اللورد فنتليروى الصغير) و (الخطاب القرمزى) وقصص لا فونتين وقصصا لشكسبير وألف ليلة وكتاب (الأبطال اليونانيين) وكتاب العجائب وكتاب (تقدم الحجاج) ، وغير ذلك .

وقرأت هيلين فيما قرأت قصة الملك لير لشكسبير ، تقول : « ولن أنسى الفزع الذى استشعرته عندما بلغت المنظر الذى فيه تُسمل عينا (جاوستر) فاستولى علىَّ الغضب ، ووقفت أصابعى وأبت أن تتحرك ، ولبثت جامدة برهة طويلة والدم ينبض فى أصداغى ، وتجمعت فى قلبى كل كراهية يتسنى لطفل أن يحس بها ويستشعرها » .

وأحبت هيلين بعد الشعر قراءة التاريخ، فقرأت كل كتاب من كتب التاريخ وقع فى يدها ، وهى تحب الكتب حبا جما وتقول : « فلا حاجز من الحواس يمنع عنى أحاديث أصدقائى الكتب الحلوة الرشيقة ، فهى تخاطبنى فى غير حيرة أو اضطراب ، فما تعلمته وما علمنى إياه غيرى ، يبدو لى على جانب كبير من التفاهة والسخف إذا قيس بما للكتب من محبة كبرى وصداقة سماوية » .

ولكن هيلين لها مسرات أخرى ، فهى مغرمة بالريف والألعاب الرياضية فى الهواء الطلق والتجديف وركوب البحر ودراسة الأشجار ومشاهد الطبيعة ، وقد علمها المستر تشمبرلين أسرار الأشجار والأزهار البرية ، حتى صارت تسمع بأذن الحب جريان العصارة فى أشجار البلوط ، وتسمع ضوء الشمس يتألق على أوراق الشجر متنقلا باستمرار من شجرة إلى أخرى ، وكما تشارك الجذور المحبوسة فى جوف الأرض المظلم رءوسَ الشجرة فى أفراحها ، وتستفيد من ضوء الشمس والهواء الطلق والطيور ؛ كانت هيلين كذلك تشارك الطبيعة وتتعاطف معها . تقول :

« ويخيل إلى أنَّ فى كل واحد منا قدرة على إدراك الآثار النفسية والانفعالات التى سبق أن خبرها الجنسُ البشرى منذ بداية الخليقة حتى الآن ، فلكل إنسان ذاكرة لاشعورية عن الأرض المكسوة بالخضرة ، وعن المياه ذات الخرير ، وليس فى مقدور كف البصر أو الصمم أن يسلبه هذه الهبة التى أنعمت بها عليه العصور الخوالى ، فهذه القدرة المعروفة أشبه ما تكون بحاسة سادسة، هى حاسة روحية تسمع ، وترى ، وتحس ؛ إنها حواس ثلاث فى حاسة واحدة » .

واتخذت هيلين من الأشجار أصدقاء . . . فهذه شجرة بلوط رائعة ، وهذه شجرة زيزفون نامية . ولذلك هى تفضل الريف على المدن ، و تقول : «ألا ليت الناس يغادرون هذه المدينة بما فيها من بهاء وضوضاء ، وما تفهق به من ذهب ، ويرجعون إلى الغابات والحقول ، و إلى الحياة الساذجة الكريمة . فعندئذ ينمو أطفالهم أقوياء ، عليهم سيماء النبل والجلال كما تنمو الأشجار ، وتصبح أفكارهم حلوة حلاوة الأزهار التى تنمو على جوانب الأنهار ، إنه ليستحيل على أن أمنع نفسى عن التفكير فى مثل هذه الأمور كلها عندما أعود إلى الريف بعد سنة أقضيها فى الشغل فى المدينة .

ما أشد سرورى عندما أشعر بالأرض المرنة تحت قدمى مرة أخرى ! وأن أتابع السير فى الطريق المكتسية بالعشب التى تؤدى بى إلى مجارى الأنهار التى ينمو على ضفافها نبات السرخس، حيث أستطيع أن أغمر أصابعى فى شلال من النغمات المتموجة ، أو أتسلق جدارا من الحجر ، حيث الحقول الخضراء المترامية الأطراف ، التى ترتفع رباها وتنخفض وهادها بشكل يثير فيك فوضى من السرور والفرح » .

وكانت هيلين تتخذ من الكلاب أيضاً أصدقاء ، وكانت تتسلى بأشغال الإبرة ، أو تلعب الشطرنج أو (الداما) أو الورق ، وهى تحب الأطفال وترتاح لملاعبتهم ، وتهوى المعارض والمتاحف ، وتقول :

« المتاحف ومعارض الصور مصادر من مصادر مسراتى و إلهامى ، وليس من شك فى أنه يبدو غريبا لكثير من الناس أن تستطيع اليد ، من غير معاونة من البصر ، أن تحس بما فى الرخام الجاف البارد من الجمال والعواطف والحركة ، ومع ذلك فإنى أجد حقا لذة عظيمة وسرورا كبيرا فى لمس آيات الفن وروائعه ، فأناملى تستشكف — وهى تمر على الخطوط والأقواس — الأفكار والانفعالات التى أراد المثال أن يصورها » !!...

وفى حجرة مكتب هيلين شارة معدنية عليها صورة بارزة للشاعر المكفوف (هوميروس) ، وهى تلمس جبين الصورة وتتحسس وجه الشاعر فى توقير و إجلال وتقول : « ما أحسن أن أعرف كل خط فى أسارير ذلك الجبين الجليل . . . إنها خطوط هى آثار تركتها فيه الحياة أدلة مريرة على الحزن وعلى الصراع ؛ تلكما العينان اللتان خلتا من الإبصار ، واللتان تبحثان — حتى وهما فى صلصالها الجامد — عن الضوء والسموات الزرق التى فى (هلاّس) — بلاد اليونان الحبيبة إلى نفسه — ولكنهما يبحثان عبثا عن ذلك الفم الثابت الرقيق ؛ إنه لوجه شاعر ، وجه رجل عرف الحزن والأسى ، فما أشد ما أفهم حرمانه : إنى لأعرف حق المعرفة ذلك الليل الدائم الذى يعيش فيه . . . ذلك الظلام ! . . الظلام ! . . الظلام المخيم حتى فى وهج الظهيرة ، ذلك الظلام الذى لا رجاء فى انقشاعه . . . إنه كسوف كلى من غير أمل فى أن يخلفه نهار » !!...

وكانت هيلين تذهب إلى المسرح قليلا ، وتحب أن توصف لها المسرحية المعروضة ، وقابلت كثيرا من كبار الممثلين والممثلات ، ولمست وجوه بعضهم كما لمست بعض ملابسهم ، و بعد أن تعدِّد هيلين وجوهَ المسرات التى تتمتع بها فى حياتها تقول : « إنه لصحيح إذن أن حياتى على ما بها من قيود ، ومالها من حدود، متصلة بعالم الجمال من نواح كثيرة ، فكل ناحية حافلة بالعجائب والغرائب، حتى الكلام والصمت ، و إنى لأتعلم أن أكون فى هذه الحياة قانعة راضية أيا كانت الحالة التى أكون فيها .

نعم قد يطغى علىَّ فى بعض الأحيان إحساس غامر بالعزلة يشملنى كلى كأنه ضباب بارد ، وذلك عندما أجلس منفردة بنفسى ، أنتظر فى ترقب أمام باب الحياة الموصد فى وجهى ، فوراءه النور والموسيقى والرفقة الحلوة ، ولكن دخول هذا الباب محرّم علىّ » !!...

وتختم هيلين كيلر قصة حياتها بالفصل الثالث والعشرين عن فضل أصدقائها عليها ، وتتمنى فى مطلعه لو أنها استطاعت أن تجعل هذا الفصل حافلا بأسماء جميع الذين عاونوا على إسعادها ، فمنها أسماء معروفة مشهورة ، ومنها أسماء لا تعرفها غالبية القراء ، وهذه الأسماء المجهولة لها أفضال خالدة تعترف بها هيلين ، وهى تشعر بأن كل شىء بخير وعلى ما يرام مادام مثل هؤلاء الأصدقاء على قرب منها ، ولو كان القرب قربا بالروح دون التقاء ، وهيلين تستطيع أن تدرك مدى صداقتها أو عداوتها للشخص المصافح لها حين مصافحته ، وهى تقول فى ذلك :

« إن أيدى الذين أقابلهم تفصح لى عما فى نفوسهم ، ولكنها فصاحة خرساء ، على أن لمس أيدى بعض الناس يعد وقاحة ، فقد قابلت أناسا قلوبهم خلو من كل فرح ، فعندما أقبض بيدى على أطراف أصابعهم المقرورة يخيل إلى أنى أصافح عاصفة وافدة من الشمال الشرقى ؛ ولكن ثَمَّ آخرون غيرهم كأن فى أيديهم أشعة من الشمس ، فمصافحتهم تدفئ قلبى » !! ..

ولهيلين أصدقاء كثيرون بعيدون عنها ، ولم ترهم مطلقا ، وهم يكاتبونها ، ولا تستطيع أحيانا أن تواصل الرد عليهم من كثرتهم ، وهى تحبهم وتقدرهم وتشكر لهم ، ومن كبار أصدقائها الذين تعرفت بهم الأسقف (فيلبس بروكس) الذى أوجد فى نفسها شعوراً حقيقيا بالسرور بالحياة وجمالها...ولقد حيرتها مشكلة تعدد الأديان ، ولكن الأسقف قال لها : « لا يوجد يا هيلين غير دين عالمى واحد ، وذلك هو دين الحب ، فأحبى خالقك من كل قلبك ، وبكل روحك ، وأحبى كل طفل من أطفال الله بقدر ما يسعك أن تحبيه ، ولا تنسى أن احتمالات الخير أكثر من احتمالات الشر ، وعندئذ تحصلين على مفتاح السماء » .

وعرفت المستر (هنرى درمند) الذى أحبها وعطف عليها كثيراً ، كما عرفت الطبيب الكاتب الأمريكى (أوليفر وندل هلمز) وأحبت فيه الشعر وروح

الإنسان ، كما عرفت الشاعر الأمريكى (هويتيار) الذى أعجب بذكاء هيلين وأعجب بجهود معلمتها ، وكتب للمعلمة يقول : « إن إعجابى لشديد بعملك النبيل الذى أطلق عقل تلميذتك العزيزة من إساره ، وإنى لصديقك حقا » .

وكان من أقدم أصدقائها الدكتور القسيس الكاتب الأمريكى (إدوارد إفريت هيل) والذى عاونها كثيراً ، وكان يبشر بين الناس بأن يؤمنوا ويعيشوا ويصبحوا أحراراً ، كما كان يدعو إلى حب الوطن ، ومحبة الإخوان جميعا ، وعرفت هيلين فضل الدكتور (ألكسندر جراهم بل) ولذلك أهدت هيلين كتابها (قصة حياتى) إليه بقولها : « إلى ألكسندر جراهم بل الذى علم الصم الكلام ومكن للآذان المصغية أن تسمع من المحيط الأطلسى إلى جبال الروكيز ، أهدى قصة حياتى » ! ...

وقضت هيلين أوقاتا سعيدة فى داره وفى معمله ، وكان شديد الحب للأطفال . وعرفت المستر (لورانس هاطون) الأديب الرحالة الناقد المسرحى ، فكان أكرم من عرفته طبعا وأحلاهم خلقا ، فهو صديق فى الشدة وفى الرخاء ، يتبع آثار الحب فى كل ما يتعلق بالحيوان كما يتبعها فيما يتصل بحياة الإنسان !!.

وعرفت هيلين زوجة هاطون كما عرفتها بكثيرين من أصدقائه ، مثل الصحفى الأمريكى الأديب (وليام دين هاولز) والكاتب الأمريكى الفكه (مارك توين) الذى قرأت هيلين مرة من شفتيه قصة أو اثنتين من قصصه وتقول عنه : « وإنى لأشعر بوميض عينيه فى يده عندما يصافحنى » !!.. وعرفت الصحفى الأمريكى الشاعر (ريتشارد واطش جلدز) ، والكاتب الناقد (كلارنس ستدمان) والكاتب القصصى (تشارلس دولى وارنر) .

وعرفت هيلين غير هؤلاء ، وهى تقول : « هذا وثمة أشياء مجموعة خلف أجنحة الملائكة . وهى أمور مقدسة أسمى من أن أذكرها ، وأجل من أفصح عنها بالحروف الجافة » !! .

ولا شك أن معلمة هيلين (الآنسة آن منسفيلد صاليفان) تأتى فى طليعة هؤلاء الأصدقاء الأوفياء !! .

وتختتم (هيلين كيلر) قصة حياتها بهذه العبارة :

« وهكذا ترون أن أصدقائى هم الذين صنعوا قصة حياتى وجعلوها ممكنة ». فقد استطاعوا بطرق شتى لا حصر لها أن يخلقوا من قدراتى المحدودة مزايا جميلة رائعة ، و يسّروا لى أن أمشى سعيدة وقورا ، وسط ذلك الظلام الذى سدله على ما منيت به من حرمان » !!...

* * *

هذه خلاصة موجزة لقصة حياة هيلين كيلر المكفوفة البصر الصماء البكماء التى استطاعت أن تتكلم وتتعلم ، وأن تقرأ وتفهم ، وأن تتخاطب وتتجاوب ، وأن تصنع فى حياتها العجائب ؛ وهى خلاصة لا تغنى عن مطالعة القصة نفسها . ومن الواجب أن توضع هذه القصة كاملة بين أيدى المكفوفين والذين أصيبوا بنقص حسى فى بدنهم ، ليروا كيف تستطيع الإرادة القوية ، والعزيمة الصادقة ، والهمة المستمرة أن تصنع الكثير ...

مع المكفوفين المعاصرين

رأيت من الخير ، ومن المناسب للموضوع الذى شُغلت به فيما شُغلت ، وهو موضوع الكتابة عن شئون المكفوفين ، أن أضع تراجم كافية لطائفة من المكفوفين المعاصرين الذين كان لهم ذكر بين الناس ، أو تألق ما فى الحياة الاجتماعية ، وهى محاولة أولى فى هذا الباب، يمكن أن يتسع مجالها و ينفسح مداها مع الأيام .

ولا شك أن هؤلاء المكفوفين اللامعين الذين أترجم لهم يوجد فى حياتهم وكفاحهم ما يُعدُّ من باب القدوة وضرب الأمثال لإخوانهم الذين أصيبوا مثلهم بكف البصر ، وهؤلاء الآلاف من المكفوفين المنبثين فى بلادنا هنا وهناك فى شديد الحاجة إلى الإكثار من تحديثهم عن المكفوفين الذين ناضلوا وكافحوا واستطاعوا أن يكون لهم فى الحياة تاريخ ، وذلك لأنهم محتاجون أكثر من غيرهم — و بخاصة فى مجتمعنا — إلى حوافز تحرضهم على أن يأخذوا مكانهم بين الأحياء العاملين المناضلين .

ولقد ذكرت أثناء هذه التراجم كيف حدث كفُّ البصر لهؤلاء المكفوفين المعاصرين ، بالقدر الذى استطعت الحصول عليه ، وأبنت كيف حاول هؤلاء أن يتغلبوا على هذا النقص الحسى قدر طاقتهم ، فلم يخنعوا له ولم ييأسوا معه ، بل حاولوا وكرروا المحاولة ،حتى كان لهم فى الحياة ذكر ، و بين الناس قدر، وحتى استطاعوا أن يشقوا طريقهم فى مسالك الدنيا ، فساووا غيرهم ، أو سبقوهم وفاقوهم .

وقد يلاحظ المطالع أننى ذكرت خلال التراجم أموراً ذاتية ، أو أشياء تتعلق بالحياة العائلية أو الاجتماعية للشخص الذى أترجم له ، وقد أردت من وراء هذا أن يدرك القارئ — وبخاصة المكفوف — مدى الاستجابة من الشخص المترجم للحياة الاجتماعية أو نفوره منها .

وهذه المعلومات التى جاءت فى التراجم التالية قد أخذتها من أفواه أصحابها، إلا قليلا منها ومنهم ، فقد تحدثت مع هؤلاء المكفوفين ، واستقيت المعلومات المتعلقة بحياتهم من ألسنتهم ، ولذلك أعتقد أنها أقرب ما تكون إلى الصحة والدقة . . . ولقد كنت أريد الاستقصاء فى هذا الباب ، واستكمال التراجم لكل مكفوف تألق اسمه أو سار ذكره فى وطننا الكبير ، ولكن ذلك لم يتيسر برغم سعيي ومحاولتى ، ومنهم من قصّر فى الاستجابة أو تقاصر . . .

ولكننا — بمشيئة الله — نستطيع أن نستكمل مع الزمن . . . فليتنا نستقصى تراجم كل المكفوفين المعاصرين ؛ ممن كان لهم ذكر أو قدر . . . بل ليتنا نضع تراجم كافية لكل اللامعين من المكفوفين خلال عصور التاريخ المتعاقبة ، فنصدر فى ذلك موسوعة نسميها (تراجم المكفوفين) أو (أعلام المكفوفين) أو (طبقات المكفوفين) ، ثم نضع هذه الموسوعة بين أيدى الأجيال تزيد فيها من التراجم ما يجد ! ! . .

إن بين أيدينا كتاباً وحيداً فى تراجم طائفة من المكفوفين ، هو كتاب (نكت الهميان فى نكت العميان) لمؤلفه صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدى الشافعى المولود بصفد (فى فلسطين) سنة ٦٩٦هـ — ١٢٩٦م ، والمتوفى بدمشق سنة ٧٦٤هـ — ١٣٦٣م وقد ذكر فيه الصفدى قرابة ثلاثمائة ترجمة لمكفوفين انتهوا فى القرن الثامن الذى مات فيه الصفدى ؛ وقد تألقت أسماء كثيرين من المكفوفين بعد الصفدى إلى اليوم . . . بل لقد ترك الصفدى كثيرين من المكفوفين الذى عاشوا قبله ولم يترجم لهم . . .

وكتاب الصفدى برغم قيمته وسبقه لا يكفى ولا يشفى ؛ فلا بد أن يكون معه كتب أوسع وأجمع ، فلعل القائمين على شئون المكفوفين العلمية والأدبية والقادرين على التنفيذ ، لا يتقاعسون عن الاستجابة لهذا الرجاء . . .

وفيما يلى مجموعة التراجم التى أعددتها :

الدكتور طه حسين

ترجمة الحياة ومراحل التعليم :

لقد كتب الكثيرون عن الدكتور طه حسين هنا وهناك ، ونال من الشهرة حظاً كبيراً ، ولذلك نكتفي هنا بترجمة مختصرة لحياته ، ومن أراد الاستزادة فى هذا الباب فأمامه كتب الدكتور طه والفصول المختلفة التى صيغت فى أدبه أو شخصيته .

ولد طه حسين سنة ١٨٩١ م — وقيل سنة ١٨٨٩ م — فى ضاحية على أطراف مدينة (مغاغة) فى أدنى الصعيد الأعلى من جهة الفيوم ،على الجهة اليسرى من النيل ، وكان طه سابع ثلاثة عشر من أبناء أبيه ، وخامس أحد عشر من أشقائه ، ومعنى هذا أن والده تزوج بأكثر من زوجة واحدة ، وكان والده شيخاً رقيق الحال فقيراً ، ولكنه على الرغم من ذلك حرص على تعليم أولاده قدر استطاعته . وقد فقد طه حسين البصر وهو طفل فى الرابعة من عمره عقب علة أصابته ، ودخل (الكُتّاب).وحفظ القرآن الكريم بسرعة ، وأتم حفظه وهو فى التاسعة من عمره ، كما حفظ الكثير من الأوراد والأدعية والأشعار والقصص ، وحفظ ألفية ابن مالك فى النحو والصرف ، ومجموع المتون فى العلوم العربية والإسلامية ، وذلك تمهيداً ليصحب أخاه الأكبر إلى القاهرة ، حتى يتعلم معه فى الأزهر ؛ وقد ساعده فى خطوات تعلمه الأولى بالقرية مفتش الطرق الزراعية الذى كان هناك حينئذ .

وقد شهد طه حسين وهو فتى وفاة جده وجدته وشقيقه وأخته ، فكان لهذه المصارع المتوالية أثر بليغ فى نفسه ، طبعه بطابع حزين وهو فى صباه ، وجعله

يحب العزلة والانفراد والاستغراق فى التأمل والتفكير ، وقد أشار طه إلى ذلك بإسهاب فى الجزء الأول من كتابه (الأيام) .

وفى سنة ١٩٠٢ غادر طه قريته مع أخيه إلى القاهرة ودخل الأزهر ، وكان الأزهر وقتذاك فى حالة من الإهمال والضياع يرثى لها ، وبدأ الفتى الأزهرى يدرس الفقه والنحو والسيرة وغير ذلك من العلوم الدينية ، وكان قوى الحافظة عميق الذاكرة ، وتلقى دروس الأدب على الشيخ سيد بن على المرصفى الذى كان يدرّس الأدب والنقد على طريقة القدماء ، وتلقى الفقه على الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية ، وتلقى المنطق والأصول والتوحيد على الشيخ راضى ، وحضر للشيخ محمد عبده درسيه الأخيرين فقط .

ولم تقنع نفس طه حسين بما كان يدرسه فى الأزهر ، وكان يسمع بألوان من الثقافة خارج الأزهر ،وفى اللغات الأجنبية أيضاً ، فتحركت همته لكى يبلغ هذه الألوان فينال منها ، و بدأ بتعلم اللغة الفرنسية وهو ما زال طالباً فى الأزهر ؛ تعلمها فى مدرسة ليلية تعطى دروساً فى الفرنسية ، وتأخذ من الطالب قروشاً قليلة كل شهر فى مقابل ذلك ، وفى خلال خمسة أشهر استطاع طه أن يلم بالفرنسية ، و بعد شهور أخرى كان فى استطاعته أن يستمع إلى محاضرات بالفرنسية .

وفى سنة ١٩٠٨ فتحت الجامعة المصرية القديمة أبوابها ، فكان طه من أوائل المتطلعين إلى دخولها والاستفادة منها ، وفزع إليها ،وقضى نحو ثلاثة أعوام يتردد بينها و بين الأزهر ، فيأخذ فى الأزهر علوم الدين واللغة وثقافة القدماء ، و يأخذ فى الجامعة علوم الأدب والنقد وثقافة المعاصرين ، وتلقى فى الجامعة محاضرات على الأساتذة : جويدى ، ونلينو ، وفييت ، وغيرهم ...

وحدث وهو فى درس من دروس الأزهر أن عارض أحد أساتذته ، فحدث بينهما خلاف عنيف كان من نتيجته أن طرده الأستاذ من دروسه بالأزهر شهرين،

ثم احتدم الخلاف بينه و بين بعض الشيوخ ، وكانت نتيجة ذلك أن ترك الأزهر نهائياً ، وولى وجهه شطر الجامعة ، وكان ذلك فى سنة ١٩١٢ م .

واجتهد طه فى دروسه بالجامعة ، وكأنه أراد أن يثبت كيانه ، و يدافع عن شخصيته ، ولا يجعل نفسه موضع شماتة لغيره ، وفى سنة ١٩١٤ وضع رسالة عن (أبى العلاء المعرى) وتقدم بها لنيل درجة الدكتوراه من الجامعة ، ونوقش فى هذه الرسالة مناقشة علنية يوم ٥ مايو سنة ١٩١٤ ؛ وكان أعضاء اللجنة هم الأساتذة: محمد الخضرى ، ومحمد المهدى ، ومحمود فهمى ، وإسماعيل رأفت ، وعلام سلامة ؛ وناقشته اللجنة قرابة الساعتين ؛ وكان قد اختار بجوار الرسالة موضوعين آخرين حسبما يقتضى النظام حينئذ ، وهما (الجغرافية عند العرب) و (الروح الدينية عند الخوارج) . وكانت النتيجة أن نال درجة (جيد جداً) فى الرسالة ، ودرجة (فائق) فى الموضوعين ، ورجت الجامعة من الخديوى الحاكم أن يستقبل الشيخ الكفيف الدكتور طه حسين ليشجعه و يكرمه ، فاستجاب الخديوى لذلك .

ومما هو جدير بالبحث فى مجال المكفوفين مسألة اختيار طه حسين — وهو مكفوف — لأبى العلاء المعرى — وهو مكفوف مثله — موضوعاً لرسالته فى الدكتوراه ! .

وكان الدكتور أول من ظفر بشهادة الدكتوراه من الجامعة ، ولذلك يصفه بعضهم بأنه (ابن الجامعة البكر) . وفى سنة ١٩١٤ أيضاً سافر الدكتور على نفقة الجامعة ليدرس فى فرنسا ، فى (مونبلييه) . ومن الطريف هنا أنه قدّم إلى الجامعة قبل سفره التماساً كى تقرضه خمسة عشر جنيهاً ، يشترى بجزء منها ملابس إفرنجية بدلا من زيه الأزهرى الذى سيتركه بعد ذلك ، ويسدد بالباقى أجرة الغرفة التى كان يسكنها ، وتحقق له ما رجا ، كما صُرفت له المعونة من وقف (علوى باشا) ، وقدرها عشرة جنيهات للنابغين من الطلاب .

وفى فرنسا تعرف طه حسين على فتاة فرنسية تسمى (سوزان) كانت تدرس بمدرسة المعلمات بسيفر ، وعاونته هذه الفتاة فى دروسه معاونة كبيرة ، ثم نشأ الحب بينهما ، وتزوجها فيما بعد ، وكانت له — كما يقول — « نورا بعد ظلمة ، وأنساً بعد وحشة ، ونعمة بعد بؤس » . ولما اتفق معها على الزواج كتب إلى إدارة الجامعة يرجوها أن توافق على هذا الزواج بطريق الاستثناء ، لأن القانون حينئذ يمنع زواج الطالب المبعوث أثناء دراسته ؛ وكان مما كتب به إلى الجامعة قوله : « إنه بالنسبة إلى حالته الطبيعية الخاصة التى تقتضى اشتراك شخص آخر معه ليساعده على الدراسة ، و بالنسبة إلى كونه مدة إقامته فى فرنسا وجد فى أسرة منها فتاة كانت قارئته وكاتبته ، وقد أخلصت له الإخلاص كله ، بحيث أصبح لا يرى بدا من مرافقتها ، فهو يلتمس من الجامعة التجاوز له عن الشرط القاضى بعدم زواج الطلبة مدة دراستهم ، والإذن له بصفة استثنائية فى الزواج » ! . . .

واختلف مجلس الجامعة فى ذلك ، فوافق على رجاء الطالب أربعة ، وعارض ثلاثة ، فصدر الإذن له بالزواج ، وتم ذلك فى أغسطس سنة ١٩١٧ م . وسوزان فرنسية منحدرة من عائلة كاثوليكية فى مدينة (بورغون) ، و يروى أنها ظلت مترددة فى زواجه فترة طويلة بسبب اختلاف الدين ، ولكن عمها القسيس قال لها : «مع هذا الرجل يمكن أن تثقى بأنه سيظل معك دائماً » ! . فخرجت من ترددها إلى الإقدام . . . وصارت سوزان الحاسة السادسة لزوجها ، وأخرجته من عزلته ، وساعدته فى إجادته الفرنسية وتعلم اللاتينية والإغريقية ، كما ذاكرت له دروسه ، واستطاع بمعونتها أن يحصل على الليسانس من السوربون سنة ١٩١٧ ، بعد أن كان قد انتقل من (مونبلييه) إلى باريس ، وأصبح يدرس فى السوربون ، كما درس فى الكوليج دى فرانس ، وتردد كثيراً على مكتبة القديس جنيفياف ليطالع ويدرس ، كما كانت سوزان تجعل له من البيت كلية رابعة فيها قراءة ودراسة ومباحثة ! وقد صور طه حسين أثر زوجته فيه وفضلها عليه وتقديره لها فى بعض ما كتب !! .

وكان له منها أولاد ذكور وإناث ، تعلموا ونالوا شهادات جامعية .

ثم جعل الدكتور رسالة الدكتوراه من السوربون عن (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) ونال درجتها العلمية سنة ١٩١٨ ، ومنحته الكوليج دى فرانس على هذه الرسالة جائزة (سنتور) المعروفة ، كما نال دبلوم الدراسات العليا فى التاريخ القديم ودراسة اللاتينية والإغريقية سنة ١٩١٩ .

الوظائف :

وعاد طه حسين إلى مصر ، فعين أستاذاً للتاريخ القديم بالجامعة المصرية القديمة ، ولما ألحقت هذه الجامعة بالدولة المصرية سنة ١٩٢٥ عين أستاذا للأدب العربى بكلية الآداب .

وحدث فى فبراير سنة ١٩٢٤ أن كتب سلامة موسى مقالا وصف فيه طه حسين بأنه زعيم المذهب الجديد فى الأدب ، ووصف مصطفى صادق الرافعى بأنه زعيم المذهب القديم ، وكان هذا مثار خصومة بين طه والرافعى ، واستمرت هذه الخصومة إلى موت الرافعى .

ولما أصدر طه حسين كتابه (فى الشعر الجاهلى) وكان فيه ما فيه من أمور أثارت الشعور الدينى حدثت بسببه ضجة كبيرة بلغت البرلمان المصرى ، واضطر طه حينئذ أن يكتب معلنا ومؤكدا أنه مسلم يشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وأنه يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ؛ ولكن فى سنة ١٩٣٢ أخرج الدكتور طه حسين من الجامعة بعد حملة عليه فى مجلس النواب تزعمها المرحوم الدكتور عبد الحميد سعيد ، بسبب أمور دينية ، ولكنه عاد فرجع إلى الجامعة سنة ١٩٣٤ ، وعين عميدا لكلية الآداب ، وأكثر من الكتابة فى الصحف والمجلات ، واتسعت شهرته ، وأصبح المعجبون به يلقبونه (عميد الأدب العربى) و (معرى القرن العشرين) وغيرهما من الألقاب .

واشترك الدكتور طه حسين فى عشرات من اللجان الحكومية والأهلية، واشترك فى عشرات من المؤتمرات فى مصر وخارجها، ورحل كثيرا من الرحلات إلى العالم العربي وإلى أوربا؛ وعين عضوا فى مجمع اللغة العربية، كما عين مديرا للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، وكذلك عين وزيرا للمعارف فى أواخر سنة ١٩٤٩ فى حكومة الوفد، وأخذ رتبة الباشوية سنة ١٩٥٠.

وعند خروج الوفد من الحكم خرج طه حسين من الوزارة، واعتزل خدمة الحكومة، وواصل الكتابة فى الصحف والمجلات، كما واصل تأليف كتبه، وطبع مجموعات من مقالاته فى كتب له، واستمر فى نشاطه بالمجمع وجامعة الدول العربية، كما يقوم بالمحاضرة فى الجامعة أستاذاً غير متفرغ.

مؤلفاته :

للدكتور طه حسين مؤلفات كثيرة لاقت الكثير من الرواج، وطبع كثير منها أكثر من مرة، ونذكر منها :

كتاب ذكرى أبى العلاء، وهو موضوع رسالته فى الدكتوراه من الجامعة المصرية، نشره سنة ١٩١٥، وفى سنة ١٩٢٠ ظهر كتابه آلهة اليونان، وكتاب صحف مختارة من الشعر التمثيلى عند اليونان، وترجمته لكتاب الواجب لجول سيمون بالاشتراك مع الأستاذ محمد رمضان، وترجم كتاب نظام الأثينيين سنة ١٩٢١، وترجم روح التربية لغوستاف لوبون سنة ١٩٢٤، وظهر له قصص تمثيلية نقلها عن الفرنسية سنة ١٩٢٤، وقادة الفكر، وحديث الأربعاء (الجزء الأول) سنة ١٩٢٥، وفى سنة ١٩٢٦ ظهر (الجزء الثانى) كما ظهر كتابه (فى الشعر الجاهلى) الذى أثار الضجة الواسعة المشهورة، ورد عليه كثيرون نذكر منهم الأساتذة: محمد الخضر حسين، ومصطفى صادق الرافعى، ومحمد لطفى جمعة، ومحمد أحمد الغمراوى، ومحمد فريد وجدى، ومحمد أحمد عرفة، وعاد الدكتور بعد هذه الضجة

فحذف من الكتاب أجزاء ، وأضاف إليه أجزاء ، وأعاد نشره بعنوان (فى الأدب الجاهلى) .

وفى سنة ١٩٢٩ نشر كتابه الأيام الذى ترجم إلى عدة لغات ونال شهرة واسعة ، وفى سنة ١٩٣٣ نشر كتبه : على هامش السيرة ، فى الصيف ، حافظ وشوقى ، وفى سنة ١٩٣٤ كتب قصة دعاء الكروان . وفى سنة ١٩٣٦ نشر من حديث الشعر والنثر ، ومن بعيد . وفى سنة ١٩٣٧ نشر : مع المتنبى ، الحب الضائع ، القصر المسحور بالاشتراك مع توفيق الحكيم ، تجديد ذكرى أبى العلاء (وهو تعديل لكتاب ذكرى أبى العلاء) وفى سنة ١٩٣٨ نشر كتابه : مستقبل الصحافة فى مصر . .

كما ألف الدكتور الكتب التالية : مع أبى العلاء فى سجنه ، أحلام شهر زاد ، صوت أبى العلاء ، الوعد الحق ، لحظات ، صوت باريس ، شجرة البؤس ، المعذبون فى الأرض ، جنة الشوك ، فصول فى الأدب والنقد ، الفتنة الكبرى ، على و بنوه ؛ وترجم كتاب النفس والرقص لبول فاليرى ، وقد ترجم الأستاذ محمد عبد الله عنان كتاب الدكتور طه (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) من الفرنسية إلى العربية وطبع سنة ١٩٢٥ . وللدكتور كتب أخرى .

كما أنه أكثر من الكتابة فى الصحف والمجلات مثل : السياسة اليومية والسياسة الأسبوعية والجريدة والهلال والحديث وكوكب الشرق والوادى والرسالة والمقتبس والسفور والجامعة المصرية والثقافة والأهرام والجمهورية وغيرها . .

وقد كان كتابه (الوعد الحق) موضوعاً لفيلم سينمائى إسلامى ، هو فيلم (ظهور الإسلام) ، وقد ظهر الدكتور طه فى أول الفيلم وهو يقدم موضوعه إلى مشاهديه ...

ومن ظواهر أدب الدكتور طه أنه يميل إلى الإسهاب والتكرار ، مما يجعله

يتسم في كتابته — كما يقول بعض الباحثين — بالروح الخطابية ، وبعضهم يعلل ذلك بكف بصره ، لأن مثله يستطيب التحديث والإسماع .

ومما أفادنا بمعلومات عن حياة الدكتور طه حسين كتاب (مع طه حسين) للأستاذ سامي الكيالي نشره سنة ١٩٥٢ ، وكتاب (طه حسين : دراسة وتحليل) للدكتور إسماعيل أحمد أدهم نشره سنة ١٩٣٨ ، ويقول الدكتور أدهم عن أدب طه حسين هذه العبارة التي تحتاج إلى التأمل :

« الدكتور طه حسين فنان وأديب بطبعه ، قائم على الإغراق والتهويل ، فيأتيك بصور من الحياة ، يضفي عليها من خياله العميق صوراً فتخرج غارقة في تهويل وإسراف ، تهز نفس القارئ ، وتجعله يؤخذ بما فيها من تهويل ، وتصوير للأشياء قائم على هذا الفن الذي يستند على خيال حر ، ومن هنا كان فن الدكتور طه حسين نوعا من الفن القانع — إذا صح مثل هذا التعبير — فهو يرضي نفسه ، ولا يهتم بأي انتقاد يوجه له ، فسواء أرضى فنه الناس أو لم يرضهم ، فطه لا يجهد نفسه بهذا ، بل ولا يعرف لنقد النقاد مكانا عنده ، لأن نفسه في كفة ، والناس في كفة أخرى ، وهذه نتيجة لتضخم ذاتيته .

وفن طه القائم على التهويل والإغراق يرجع لروحه اللاعب ، ومعالجته بهذه الروح الأشياء ، وأنت ترى أن الدكتور طه في كتابه (مع المتنبي) يظهر لك بروح الطفل الذي يلعب ، فهو يلعب ودائما يلعب ، ولعبته كانت في كتابه مع المتنبي حياة المتنبي نفسها ، وقد يبدو هذا غريبا ، ولكنه الواقع ، فأنت ترى طه يثير مواضيع خطيرة تؤلب الرأي العام عليه ، فتظنه جادا في بحثه ، ولكنك سرعان ما تكشف من وراء هذا روحَ الطفل الذي يعمل الأمر ويقعد يتفرج »!!...

* * *

ونلاحظ هنا ملاحظة تهم المشتغلين بشئون المكفوفين ، وهي أن الدكتور طه لا يتحرج من ذكر كف البصر في كتاباته ، ونذكر على سبيل المثال أنه

حينما قدم رسالته عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية إلى السوربون لنيل درجة الدكتوراه، أراد أن يعتذر عن الأخطاء التعبيرية والمطبعية الموجودة فى رسالته، وفى آخر اعتذاره قال: «وما كنتُ إلا غريبا وأعمى». وهذه عبارة تصلح أن تكون مثلا يضاف إلى أمثال المكفوفين[١]، ويمكن أن يضرب هذا المثل فيمن يجتمع عليه أكثر من سبب يعوقه عما يريد !!...

ومن كتب الدكتور طائفة تستحق البحث من المكفوفين والمشتغلين بشئون المكفوفين، لأنها ذات صلة بهذا المجال، ومن هذه الكتب: ذكرى أبى العلاء، تجديد ذكرى أبى العلاء، صوت أبى العلاء، مع أبى العلاء فى سجنه، الأيام، أديب.

---

(١) راجع فصل (أمثال المكفوفين) ص ٥٩ وما بعدها من هذا الكتاب.

الدكتور محمد غلاب

ترجمة الحياة :

الدكتور محمد غلاب أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين بالأزهر الشريف هو محمد على حسن غلاب الخالدى ، ينتسب إلى أسرة غلاب العريقة القديمة التى يقال إنها ترجع إلى ما قبل الإسلام ، وإن غلابا هذا هو الجد الأربعون لهذه الأسرة التى كانت تقيم أولا فى المشرق ، ثم ارتحلت إلى المغرب ، وأقامت هناك فى بلدة تسمى (زوية) أو (زواوه) تابعه للجزائر ، ولهذه الأسرة بقايا وأثار موجودة الآن هناك .

ولقد هبط الجد الحادى عشر للدكتور غلاب أرض مصر حوالى سنة ١٥٧٥م وأقام فى قرية (بنى خالد) من مديرية الشرقية ، وهى واقعة على (بحر يوسف) الذى يحيطها من ثلاث جهات ، فكأنها شبه جزيرة ، وأقوى الأسر فيهاهما أسرة غلاب وأسرة عيسى ، وأسرة غلاب معروفة بالكرم والشجاعة والصراحة وحب الفضيلة وسلامة النية .

وكان والد الدكتور غلاب (على حسن غلاب) رئيسا لأسرته إلى سنة ١٩٠٥ حيث لحق بربه ، فتولى رياسة الأسرة أكبر أولاده (حسين على غلاب) .

وقد ولد الدكتور فى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٠٠ فسبق القرن العشرين بلحظة قصيرة ، وفى الدقائق الأولى من أول يناير سنة ١٩٠١ تلقى أهله التهنئة والتبريك بالقادم الجديد ؛ وفى سنة ١٩٠٢ مرضت إحدى عينيه بالرمد ، وهو فى الثانية من عمره ، واشتد به الداء ، وطال عليه العلاج ، وفى النهاية أضعف الرمد نظر تلك العين ، ثم أثرت الأولى فى الثانية فأضعفتها ، ولكن بقى له من البصر ما يقرأ

يه و يكتب و يسعى فى أودية الحياة .

ولكن الدهر عاد فصدمه بوفاة أبيه وهو فى الخامسة من عمره .

مراحل الدراسة :

وحاول الدكتور غلاب أن يدخل المدارس المدنية ، ولكنه لم ينجح فى الكشف الطبى ، بسبب المرض فى عينيه ، فأخذ يستعد لدخول الأزهر كى يتعلم فيه ، فحفظ القرآن الكريم ، وكثيرا من الأحاديث النبوية ، والأشعار والخطب العربية ، ثم مال بعد ذلك إلى قراءة القصص المختلفة كقصص عنترة ، وسيف بن ذى يزن ، وحرب البسوس ، وألف ليلة وليلة ، وحروب على بن أبى طالب وعمرو بن العاص ، وما يرويه القصاص من أساطير .

وأحضر الفتى طلب الدخول فى الأزهر ليملأ بياناته و يتقدم به ، ولكن ولى أمره لم يسمح له بذلك ، وظل عامين ينتظر ، وفى سنة ١٩١٧ م سافر إلى القاهرة ليلتحق بالأزهر ، وكان العام الدراسى قد فات منه جانب كبير ، ولكن الاجتهاد عوض عليه مافاته ، حتى أدرك زملاءه و بدأ ينافسهم ؛ وانقضى عليه عامان فى الأزهر ، ثم نشبت الثورة المصرية سنة ١٩١٩ ، وأضرب طلاب المعاهد والمدارس عن الدراسة ، فرجع إلى قريته فى ١٥ مارس سنة ١٩١٩ ، حيث مكث بها عشرين شهرا .

ولم يشأ الفتى الأزهرى أن يضيع هذه الأيام لهوا أو عبثا ، بل جلس إلى شيخ من شيوخ الأزهر حميد الأخلاق طيب النفس ؛ لا بأس بعلمه وعقله ، فتلقى عنه علوم البيان والمنطق والنحو والعروض ، وعاد إلى الأزهر فنال الشهادة الأولية الأزهرية من الخارج سنة ١٩٢١ م ؛ و بعد قليل نشبت الثورة مرة أخرى ، وعطلت الدراسة فعاد الفتى إلى قريته ، ومكث بها ثمانية أشهر ، وفى يوم ٥ أكتوبر سنة ١٩٢٢ بدأ يتلقى دروساً فى اللغة الفرنسية مع صديقه الأستاذ الشيخ عبدالعزيز

صقر شاهين على الدكتور زكى مبارك ، ووجد فيهما من الإخلاص والمعونة مالا يستطيع جحده ؛ ثم نال الشهادة الثانوية الأزهرية سنة ١٩٢٤ م.

وكان محمد غلاب قد أحس بميل شديد إلى دراسة المواد التى تدرس حينئذ بالجامعة المصرية ، إلى جوار دراسته فى الأزهر ، فأخذ يذهب إليها و يستفيد منها ، وقسم وقته إلى أربعة أقسام : قسم للغة الفرنسية ، وقسم للأدب العربى القديم ، وقسم للروايات والكتب العصرية والجرائد والمجلات ، وقسم لدراسة مواد الشهادة الثانوية ، لأنه لا يستطيع الانتساب إلى الجامعة والانتظام فى سلك طلابها إلا إذا نال هذه الشهادة .

وفى الثانى من يونيه سنة ١٩٢٤ تقدم لامتحان الشهادة الثانوية من الخارج فنالها ، وفى الثانى من نوفمبر من هذه السنة التحق بالجامعة ، وقضى بها عاما دراسيا ، وتقدم للامتحان ونجح فى جميع المواد ، ونقل إلى السنة الثانية ، ولكن الوزارة الزيورية جاءت فأصابت الجامعة بما أصابتها به ، وكان من جراء ذلك أن حيل بينه و بين الاستمرار فى الدراسة بها ، وكانت قوة إبصاره قد ذهبت .

والتحق غلاب بمدرسة (الحقوق الفرنسية) ، كما استطاع أن يحصل على شهادة (الدبلوم العالى) من الجامعة المصرية سنة ١٩٢٦ ، وسافر إلى فرنسا للتعلم فى سنة ١٩٢٧ ، وهناك اعتبروا هذا (الدبلوم) كشهادة (الليسانس) ، فنال بمقتضاه شهادة (المعادلة) من جامعة (ليون) بفرنسا سنة ١٩٢٨ .

وظل فى فرنسا يدرس و يجاهد فى ميدان العلم حتى نال شهادة (الدكتوراه) من جامعة ليون بدرجة الشرف الممتازة ، مع تقدير التهنئة ، وتبادل الرسالة فى جميع الجامعات الفرنسية ، وكان ذلك فى ٣ يونيه سنة ١٦٢٩ م .

أعماله الأدبية :

وعاد الدكتور غلاب من فرنسا فأصدر مجلته العلمية الأدبية التى سماها (النهضة الفكرية) ، وبدأ فى إصدارها سنة ١٩٣٠ ، وتوقفت عن الصدور

سنة ١٩٣٤ م ، وكانت فى أول الأمر نصف شهرية ، ثم صارت شهرية .

ولقد سألت الدكتور فقلت :

— ما الدوافع التى دفعتكم إلى إصدار مجلة النهضة الفكرية ؟ وما آثارها فى الأدب والأدباء ؟ ولم توقفت ؟ ... فأجابنى بما يلى :

« أحسست منذ زمن بعيد أن المجلات والجرائد الأدبية التى تصدر فى مصر تسير كلها على نسق واحد لا تحيد عنه قيد أنملة ، وهو إرضاء الأغلبية الساحقة من القراء ، ومسايرة الجماهير فيما هى فيه من النقص والقصور ، ولا تحاول الصعود بهم إلى المثل الأعلى الذى ينشده كل محب لبلاده ، غيور على تقدمها ورفعتها كما تفعل الصحف الأدبية فى البلاد المتمدينة .

وليس هذا لأن الصحف الأدبية فى مصر تكره للأمة هذا النهوض ، أو يرضيها أن تراها جامدة متأخرة ، أو هازلة تسخر منها الأمم وتهزأ بها الشعوب . كلا أنا لا أتهم صحفنا الأدبية بهذه التهمة الشنعاء ، لأننى لا أستطيع أن أتصور أن شخصاً ينتسب إلى أمة أيا كان شأنها ، ويستمتع بغذائها ومائها وهوائها ، ثم يراها أضحوكة الضاحكين أو أهزوءة الهازئين . وإنما كل ما أستطيع أن أقوله عن هذه الصحافة الأدبية فى مصر أو عن أكثرها هو أنها لا تريد أن تضحى فى سبيل إنهاض هذه البلاد بشىء من مالها ووقتها وراحتها ، وأذكر أننى تحادثت مع أديب كبير وصحفى شهير فى هذا الشأن ، فأجابنى فى لهجة الحكيم المجرب المتبصر قائلا : « إن الصحيفة التى تخرج عما ألفه الجمهور تسير وحدها فى صحراء مجدبة ، لا ترى لها أنيساً ، ولا يرافقها صديق فى هذه الرحلة الشاقة المتعبة » فغيرت معه مجرى الحديث لأننى أيقنت أنه غير مستعد بفطرته لتنفيذ ما أريد .

ثم افترقنا والأسف يملأ نفسى لهذه الحالة التى آمنت تمام الإيمان بسوء نتيجتها ، ووخامة عاقبتها ، وقلت فى نفسى : إذا دامت هذه الحال ولم تحاول

الصحافة وضع حد لأنانيتها البغيضة ، فإن المتمسكين بالقديم منا سيظلون عا كفين على ما فى بطون الكتب العتيقة من فكر رجعية بالية لا يختلف بعضها عن بعض إلا بمقدار اختلاف درجاتها فى البعد عن الحقيقة ، وفوق ذلك فهى خلو من كل بحث وتحليل ، وإذا ظل هذا القسم لا يغادر القديم ولا يتزحزح عن خطة التقليد والمحاكاة الناجمين عن تقديس الموروث ، ساد الجهل ، وحكم الجمود ، ووقفنا حين يسير الناس إلى الأمام بخطوات واسعة مثابرة .

أما المحدثون فقد انكبوا على مطالعة الصحف والكتب الأوربية التى يجدون بين سطورها ما يرضى نفوسهم المتعطشة إلى الجديد ،ويغذى عقولهم الباحثة عن الحقيقة أينما كانت وحيثما وجدت . وبهذه الخطة يصبح المثقفون من المصريين أوربيين فى عقليتهم وإحساسهم وعواطفهم ، وهكذا تندثر قوميتهم شيئاً فشيئاً حتى تنعدم صلتهم الأدبية بأبناء جلدتهم انعداماً تاماً ، وفى هذا ما فيه من خطر داهم وخراب مهدد .

بقى قسم ثالث وهو صغار الشبان الذين لم تكتمل عقولهم ، ولم تنضج أفكارهم بعد ، وهؤلاء المساكين هم أولى الناس بالألم عليهم والرثاء لهم ، لأنهم بدل أن تقدم إليهم صحف فاضلة تعودهم على الصدق والأمانة والتضحية والمروءة والإخلاص فى العمل ،وترسم لهم المثل العليا فى قصص وروايات نموذجية ، نرى الحالة عندنا على النقيض من ذلك ، ونلقى بين أيدى أبنائنا الأعزاء مجلات تحتوى على سخافات لا يحصيها عد ، ولا تندرج تحت حصر ، ولا ريب أن فى هذه الخطة ما فيها من الخطر على عقول النشء ومن إفساد أذواقهم ؛ وإضاعة أوقاتهم بدون فائدة ولا جدوى .

أحسست بهذا النقص عندنا منذ زمن بعيد حين بدأت أتصفح المجلات الأدبية والعلمية فى فرنسا ، وأيقنت أنه لا سبيل إلى تكميل هذا النقص ، وتقويم

ذلك الاعوجاج إلا إذا سلكت الصحافة خطة الغيرية والتضحية ، وحاربت قبل كل شيء ما في نفسها من أثرة وأنانية ، وهجرت خطة إرضاء الجماهير واستهوائها إلى طريق نصحهم والأخذ بأيديهم إلى المثل الأعلى الذي يجب أن يسعى إليه كل موجود وشاعر بالحياة ، وإذا شعرت الجماهير اليوم بأن في سلوك الصحافة معها هذا السبيل شيئا من القسوة والجفاف ، فإنها ستؤمن في الغد — حين تنضج وتستكمل ثقافتها — بأن الصحافة كانت هي صاحبة اليد الطولى عليها في هذا التقدم وذلك الارتقاء .

فأحببت أن أتقدم إلى وطني العزيز بهذه الخدمة التي أراها في مقدمة الواجبات علي ، عن طريق إحدى الصحف الراقية في مصر ، فاتصلت بالسياسة الأسبوعية اتصالا حرا بريئا ، وأخذت أكتب فيها كتابة متتابعة نحو ثمانية شهور ، لم أصادف أثناءها مقاومة ذات شأن ، إذا استثنيت بعض ملاحظات بسيطة كان يبديها على مقالاتي في أول الأمر صديقنا الفاضل الأستاذ محمد عبد الله عنان قائلا لي في رقة وأدب : « ألا ترى معي أن هذه النقطة تغضب الجماهير أو لا ترضى القراء » ؟ . ثم كنا نتفق دائما بعد مناقشة قصيرة ، وينشر المقال برمته .

لبثت هذه الفكرة تكبر في رأسي شيئا بعد شيء ، حتى بلغت دور النضوج فأحسست بأنه ينقذف إلى نفسي إيمان مؤداه أن الجرائد الأخرى مهما بلغت من التسامح والرقة ، فإنها لن تمكنني من أن أكتب كل ما يختلج في نفسي من أفكار وآراء أعتقد أنها واجبة على لبلادي التي تجتاز عصر التطور والانتقال . وإذن فلن أستطيع أن أؤدي ما تفرضه على الوطنية الصحيحة إلا على يدي صحيفة أنشئها لنفسي ، وأنزل لها عن شيء من وقتي وراحتي ، فاستقر رأيي على أن أنشئ تلك المجلة ، وأن أسميها (النهضة الفكرية) .

أما الأثر الأدبى الذى أحدثته هذه المجلة ، فهو واضح المعالم ، بارز القسمات ، فهى مثلا أولى المجلات العصرية التى كانت تنشر ما عليها قبل ما لها ، وتؤمن بمبدأ أن الفكرة لاتقتلها إلا الفكرة ، وأن الاستبداد بالرأى أو الحجر على الحرية من الجنايات التى لها على الثقافة أثر سيىء العاقبة ، ردىء المصير ، وكان من مميزاتها الأساسية ، بل من خصائصها الذاتية : الصراحة والشجاعة فى مجابهة الحقائق ، دون أن تخشى فى ذلك هيبة أو سلطانا .

ومن آثارها الأدبية البارزة أنها قد خرجت عددا كبيرا من العلماء الباحثين والأدباء النابهين ، والكتاب المتفوقين ، والشعراء النابغين ، الذين أصبحوا الآن يشار إليهم بالبنان ، كالدكتور عبد الحميد يونس ، والدكتور مختار الوكيل ، والدكتور توفيق الطويل ، والأساتذة : محمود حسن إسماعيل ، ومحمد زكى إبراهيم ، وسلامة خاطر ، ومحمد حسن ظاظا ، وأحمد كامل عبد السلام ، والعوضى الوكيل ، وسيد أحمد صقر ، وطاهر أبو فاشا ، وإبراهيم أبو الخشب ، ومن إليهم من أرباب الأقلام فى الحقبة الراهنة .

أما لماذا أوقفناها ، فإن عددا من أصحاب المجلات الخادعة الهازلة ، بل الماجنة الآثمة ، حين رأوا أن مجلة النهضة الفكرية لاتخشى فى الحق لومة لائم ، ولا تبالى أن تصادم المبطل فى باطله ، وأن تجابه المفسد بفساده ، دون مواربة ولا مجاملة ، قد أجمعوا أمرهم على الكيد لها ، والتآمر بها ، فقدموا رشوة إلى القائمين بأمر توزيع الصحف والمجلات ، وكانوا إذ ذاك من عامة القوم وأمييهم ، فجعلوا يحبسونها بأربطة المطبعة ، حتى لايظهر لها فى السوق عين ولا أثر . وهكذا نجح الشر فى إطفاء نور الخير والجمال ، ولكن إلى حين ، فإننا معتزمون بعون الله إعادة كوكبها إلى التلألؤ فى سماء العالم العربى ، فى العاجل القريب إن شاء الله » .

الوظائف :

فى ديسمبر سنة ١٩٣٢ ندبه الأزهر للتدريس فى كلية أصول الدين ، ثم صدر قرار بضم مدة خدمته وتعيينه أستاذاً للأخلاق والفلسفة بالكلية حيث لايزال بها حتى الآن .

ولقد اشترك الدكتور فى لجنة وضع المناهج الأزهرية سنة ١٩٣٦ ، وهى اللجنة التى كان فيها الأساتذة المشايخ : محمود شلتوت ، وأمين الخولى ، ومصطفى عبد الرازق ، وعاشور الصدفى .

كما أن الدكتور قد أكثر من الكتابة فى مجلات : السياسة الأسبوعية ، والرسالة ، والكتاب ، والحديث الحلبية ، والمشرق اللبنانية ، والشئون الاجتماعية ، ومصر الفتاة ، والأزهر ، ومنبر الشرق ، والإسلام والتصوف ؛ وظل ردحا من الزمن يحرر الصفحة الأدبية فى جريدة (الشعب) القديمة .

المؤلفات :

وقد ألف الدكتور غلاب ما يزيد عن الخمسين كتابا ، ونصفها تقريباً تحت الطبع : وقد صدر منها الكتب التالية : الفلسفة الشرقية ، الفلسفة الإغريقية (جزءان) ، الفلسفة العامة ، مشكلة الألوهية ، الفلسفة الإسلامية فى المغرب ، المذاهب الفلسفية العظمى فى العصور الحديثة ، الأخلاق النظرية ، حياتنا الاجتماعية ومشكلاتها العظمى ، الأدب الهلينى (ثلاثة أجزاء) ، نفثات ولمحات ، أدب الثورة ، الفلاحون ، كولومبيا ، الضحية ، المشكلة الأخلاقية والفكر المعاصر ، الفكر الأوربى فى القرن الثامن عشر (مجلدان) ، أدباء الرومانتيكية الفرنسية ، الأدب المقارن ، من كنوز الإسلام ، أفلاطون ، حنين وعواصف ، ورد وأشواك ، الراحلتان (مترجم) .

وفى سنة ١٩٥٤ أصدر الدكتور غلاب كتابه (كيف أعددنا النفوس للثورة). وذكر فى صدره أنه « صور من مفاسد العهد البائد رسمت فى سنة ١٩٤٥ وما بعدها » وقد نشر أغلب هذه الصور فى جريدة (منبر الشرق) ، وأهدى الدكتور كتابه إلى « أولئك الذين كنا — منذ سنة ١٩٤٥ — نهتف فى فصوله بأسمائهم قبل أن نعرفها ، ونتمثل نهضتهم قبل أن تحل فى إطار الواقع ، ونترقب ثورتهم قبل أن تبرز إلى عالم النور ... وإذن فإلى أولئك الذين تركزت فيهم مقاومة الماضى وهدى الحاضر وآمال المستقبل ؛ إلى من بعثوا حركة التحرير ، وأعلنوا مبدأ التطهير ؛ إلى أبطال الثورة الأجلاء ، أعيد اليوم هذا الإهداء » ! .

وقد طبعت إدارة الشئون العامة للقوات المسلحة هذا الكتاب على نفقتها ضمن الرسائل الثقافية الحربية ، و بعث الرئيس جمال عبد الناصر (رئيس مجلس الوزراء حينئذ) إلى المؤلف كتاب تقدير يقول له فيه : « طالعت كتابكم (كيف أعددنا النفوس للثورة) فألفيته مجموعة مقالات غنية بمادتها ، رفيعة بأهدافها ، فقد تناولتم بالنقد النزيه مثالب الحياة السياسية فى مصر ، ومصادر الاختلال بالمجتمع ، وأسباب التدهور فيه ، فكشفتم بذلك النقابَ عن بعض مواطن الداء ، ثم أبنتم مسئوليات القادة والرؤساء ، وفضل الصراحة فى نجاح الإصلاح ، فوضعتم بهذا خير الدواء ، وثرتم على ما كان يعمله الطغاة المفسدون فى عهد الفوضى والمجون ، و بينتم كيف يصغرون بقدر ماهم فى الإثم يمعنون ، و يتضاءلون بقدر ماهم فى الرذيلة يوغلون ، فتنصب عليهم اللعنة من حيث يعلمون أو لا يعلمون .

و إنى إزاء إنتاجكم الذى بلغ حداً لا زيادة فيه لمستزيد أشكركم على ما قمتم وتقومون به من عمل مجيد » .

كما أن الحكومة اليونانية أهدت إلى الدكتور غلاب فى أكتوبر سنة ١٩٥٥ (نيشان الكوماندور فينيكس) تقديراً لكتابه (الفلسفة الإغريقية) .

***

أعمال أخرى :

والدكتور غلاب — الآن — عضو فى مجلس الإدارة للمركز الثقافى للمكفوفين بالقاهرة ، وهو رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر فيه ، ويكتب باستمرار فى مجلة (الكفيف العربى يتحدث) ، ولكن ليست بينه و بين جمعيات المكفوفين الأخرى صلة ، كما أن الدكتور لم يتعلم طريقة (برايل) فى الكتابة الخاصة بالمكفوفين .

وحينما كان الدكتور غلاب فى فرنسا تعرف فى الجامعة إلى طائفة من زميلاته الفرنسيات ، وأعجب بواحدة منهن واسعة العلم والثقافة ، ولها عنايتها بالدراسات الإسلامية والآداب المختلفة ، وقد تناقش معها فى الإسلام والمسيحية ، فأسلمت إسلاما عمليا صحيحاً على إثر هذه المناقشات ، واتفقا على الزواج ، وكانت تذاكر له ، وهى مفتونة بالمطالعة ، لا تكاد تكف عن القراءة ، وهى تعرف العربية قراءة وكتابة .

و بعد عودة الدكتور غلاب إلى مصر جاءت هذه الآنسة إليها مع أختها و بعض أهلها ، وأعلنت إسلامها ، وتم زواجهما فى ١٨ أكتوبر سنة ١٩٣٧ ، وهما إلى اليوم فى وفاق وسعادة ، و إن لم يرزقا بشىء من الذرية ! .

سر النجاح :

ولقد سئل الدكتور غلاب عن سر نجاحه فى حياته ، فكان جوابه ما يأتى :

إذا نظر المرء فى طفولته الأولى نظرة عميقة ، عثر فيها على أهم مقومات شبابه ، بل على أدق خصائص نضوجه ، و بعبارة أخرى إذا تأمل فى كتاب حياته الراهنة ، ألفى أن أساليبه وعباراته مؤلفة من كلمات طفولته ومفردات عهد سذاجته ، ومن ثم يجب على الإنسان أن ينقب عن أسرار نجاحه فى ذلك الماضى البعيد من حياته الأولى .

وسر نجاحى ، فيما أعتقد ، مؤلف من ثلاثة عناصر جوهرية ترجع أوردتها الأولى إلى أبعد أغوار طفولتى : أولها سطوع أشعة الضمير على كل ما يصدر عنى من أفعال وأقوال ، وثانيها إيمانى بأن التعب عرض حائل لا بقاء له ، و بالتالى هو لا يقوى على أن يكون عائقاً عن العمل ، وثالثها أن العلم باعث من بواعث الاحترام ، لا يتطاول الثراء إلى عليائه فى هذا الميدان . ومأتى العنصرين الأول والثانى هو تلك القصة الساذجة التى سأرويها لك كما وقعت لى ، دون تعمل ولا اصطناع ، ومجملها : أنه بينما كنت فى الرابعة من عمرى اشترى أخى الأكبر (منبهاً) جميلا وضعه على مكتبه ، فأعجبت به أيما إعجاب ، واحتلت دقاته الموسيقية من رأسى الصغير مكاناً ممتازاً ، ولما كنت أشاهد أن الخادمات فى منزلنا لا يقمن بمهمتهن إلا إذا راقبتهن ربة البيت فى دقة وحزم ، وأنهن لا يكدن يشرعن فى عمل حتى يشكون التعب — إن صدقاً وإن كذباً — فقد خيل إلى أن (المنبه) مثلهن سيقف عن الدق عندما يزول عنه كابوس الرقابة ، وأنه سيخلد إلى الراحة عما قريب ، فأسررت فى نفسى أننى سأباغته ليلا لأرى ما عساه يفعل ، ولما استسلم جميع أهل المنزل للنوم ، انسللت من فراشى ، ومشيت على أطراف أصابعى ، حتى وصلت إلى حجرة المكتب ، ووضعت أذنى على ثقب القفل مصغياً إلى دقات (المنبه) ، فسمعتها تتتابع فى نظام وانسجام ، ثم كررت هذا التجسس عدة مرات ، فكانت النتيجة هى عينها ، فامتلأت نفسى الناشئة إعجاباً بهذا (المنبه) ، وخرجت من تلك الواقعة بثمرتين عظيمتين ، أولاهما أن هنالك كائنات (كالمنبه) تحسن العمل و إن لم يراقبها أحد ، وثانيتهما أن هناك كائنات (كالمنبه) أيضا ، لا ينال منها التعب ، وأنها متى أرادت شيئا وصلت إليه لا محالة ، وأن هذه الكائنات أسمى من طراز الخادمات ، فصممت على أن أكون فى حياتى كالمنبه ، لا كالخادمات ! ...

ولقد لبث هذا الشعور يحتل نفسى ، ويدير قيادتها حتى عهد الشباب ، بل

النضوج ، وإن كان قد تمثل فى صورة أخرى تختلف عن تلك الصورة البدائية الساذجة ، وليس فى هذا شىء من المغالاة ، فأنا لا أزال أطبق هذين المبدأين فى حياتى العملية تطبيقا دقيقا ، بل قاسيا أحيانا ، إذ وطنت نفسى منذ نعومة أظفارى على ألا أحتاج فى عملى إلى رقابة ، وألا أسمح لأية عقبة أن تقف فى طريق إرادتى. وإنى لا أكاد أومن بمبدأ أن التعب عائق دائم عن العمل ، وإنما هو عرض زائل كسحابة الصيف لا تلبث أن تنقشع .

وأما مأتى العنصر الثالث من العناصر التى تألف منها سر نجاحى، فموجزه أنى لاحظت أن أخى الأكبر — وهو لم يكن يعبأ بأثرياء الإقليم — كان يحتفل بأسرة فقيرة ، كانت تقدم من القاهرة إلى إقليمنا فى صيف كل عام ، فسألت من حولى عن السبب فى هذا الاهتمام بتلك الأسرة إلى هذا الحد ، فأجابونى بأن أفرادها متعلمون ، فوقعت هذه الكلمة من نفسى موقعا هائلا ، وصممت أن أعض بالنواجذ على ذلك الكائن الفاتن المسمى بالعلم ، والذى لا يتطاول الثراء إلى عليائه ، ثم طفقت أستخدم سلاح الإرادة الحديدية وجحود مبدأ التعب للوصول إلى الظفر بهذه البغية العالية ، فقذفت بنفسى — رغم ضعف بصرى — بلا رحمة ولا إشفاق ، فوق صفحة البحر الأبيض المتوسط، وكنت أنا الوحيد الذى ليس له مودعون على مرفأ الإسكندرية ، وما زلت أكافح فى ربوع فرنسا كمثال من مثل المجالدة والمثابرة ، حتى ظفرت ببغيتى التى أعددتها منذ طفولتى، فكانت كأنها نوع من الإيحاء ، تحقق بحذافيره جملة وتفصيلا ، وهو شهادة الدكتوراه بدرجة الشرف الممتازة ، وتقدير تقديم التهنئة ، وتبادل الرسالة بين الجامعات ، مما لا يحدث إلا فى حالات التفوق والامتياز .

ولما عدت إلى مصر ظللت أكافح فى سبيل تحقيق رسالتى الاجتماعية بلا هوادة ولا لين ، وقد ألفت لنيل هذا الهدف إلى الآن أربعة وخمسين مؤلفا ،

طُبع منها خمسة وعشرون ، والباقى معد للنشر . وإذا سألتم عن وقائع سرورى الأساسى فى حياتى أجبتكم بأن أولاها يوم نجاحى فى الدكتوراه ، وثانيتها يوم منحتنى الحكومة الهيلينية وسام (فينيكس) من طبقة الكوماندور ، وهو من أرقى أوسمتها ، تقديراً لبحوثى فى الفلسفة ، وثالثتها يوم علمى بترجمة كتابى (الفلسفة الشرقية) إلى اللغة الإندونيسية ، وتقريره فى جامعة الإسلام بميدان ، ورابعتها يوم تسلمت كتاب الرئيس جمال عبد الناصر الذى يسجل فيه أننى — فى كتاب كيف أعددنا النفوس للثورة — قد وضعت يدى على مواطن الداء ، ووصفت له خير الدواء ، مما لا زيادة فيه لمستزيد » .

الدكتور محمد مصطفى حلمى

ترجمة الحياة ومراحل التعليم :

الدكتور محمد مصطفى حلمى أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة هو محمد ابن الحاج مصطفى مصطفى حلمى ، وقد ولد فى حارة مصطفى حلمى بأرض الطويل بحى شبرا بالقاهرة ، فى ١٤ أكتوبر سنة ١٩٠٤ م . ووالده — فى الأصل — من مدينة المنصورة ، وكان موظفا بمصلحة السكك الحديدية ، وتوفى فى يونيه سنة ١٩٥١ ، ووالدته من القاهرة ، وقد توفيت فى أغسطس سنة ١٩٤١ .

وكان محمد مبصرا ، وظل كذلك إلى أن حصل على شهادة الدراسة الثانوية سنة ١٩٢٣ . وقد دخل (كتاب الشيخ خليل) بشبرا ، ومكث فيه قرابة سنة ، فعرف مبادئ القراءة والكتابة ، وحفظ جانبا من القرآن الكريم ، ثم دخل المدرسة الأولية ، وكان اسمها أولا (مدرسة الدهيشة الأولية) ثم سميت (مدرسة أوده باشا الأولية)، وقضى فيها أربع سنوات يتعلم القرآن والكتابة والقراءة ، ثم دخل مدرسة (خليل أغا الابتدائية) سنة ١٩١٤ ، وكانت مكان إدارة الجامع الأزهر الآن ؛ وفى سنة ١٩١٨ حصل على الشهادة الابتدائية ، ودخل (المدرسة الثانوية السلطانية) فى شارع الدواوين ، وهى التى سميت بعد ذلك (مدرسة الخديوى إسماعيل) وكانت تابعة للأوقاف الملكية حينئذ .

وفى سنة ١٩١٩ شبت الثورة المصرية ، فأغلقت المدارس ، واشترك الفتى فى المظاهرات ، فكان نصيبه الفصل من المدرسة مع مائتين وسبعين تلميذا ؛ وفى أكتوبر سنة ١٩١٩ التحق بالمدرسة العبيدية الثانوية اليونانية بشارع فؤاد بالقاهرة (شارع ٢٦ يوليو الآن) ، وكان بالمدرسة قسمان : يونانى وعربى ، فالتحق بالسنة الأولى الثانوية من القسم العربى . وكان يقوم على المدرسة أديب فلسطينى

هو الأستاذ سليم قبعين ، وفى السنة التالية حضر أستاذ فلسطينى آخر ، يعد من زعماء الحركة الأدبية ، وهو الأستاذ خليل سكاكينى ، وإلى هذين الأستاذين يرجع الفضل فى توجيه صاحبنا إلى الدراسة الأدبية، فقد شجعاه على أن يكتب فى المجلات التى كانت تظهر فى ذلك الحين،فظهرت له أول مقالة فى مجلة (النيل) وكان عنوانها (رجال المستقبل) .

وأخذ يوالى الكتابة فى هذه المجلة وغيرها مثل مجلة (الروايات المصورة) و (النديم الروائى) و (العالم المصور) (والعفاف) التى كان يصدرها الأستاذ محمد عبد العزيز الصدر ؛ و (مجمع الدرر) التى كان يصدرها الأستاذ نجيب كنعان سكرتير تحرير جريدة الأهرام الآن ؛ وكان محور مقالاته فى الغالب اجتماعيا أخلاقيا ، وكان يميل إلى نقد الأوضاع التى تخرج على قواعد السلوك المرعية .

نال التلميذ محمد مصطفى حلمى شهادة الكفاءة من المدرسة المذكورة سنة ١٩٢١ ، و بعد ذلك عاد مرة أخرى إلى (المدرسة الثانوية السلطانية) ، ودخل فى السنة الثالثة الثانوية ، لأن المدرسة العبيدية لم يكن بها سوى السنتين الأولى والثانية من الدراسة الثانوية ، وتحول اسم المدرسة الثانوية السلطانية إلى اسم (المدرسة الثانوية الملكية) لأن السلطان صار ملكا فى ذلك الوقت ، وفى سنة ١٩٢٣ حصل على شهادة الدراسة الثانوية (البكالوريا) من القسم الأدبى .

وكان محمد أثناء دراسته الثانوية يتردد على الجامعة المصرية القديمة — وهو مازال مبصراً — و يستمع إلى محاضرات الدكتور طه حسين فى تاريخ الشرق القديم ، ومحاضرات الدكتور منصور فهمى فى الأخلاق والاجتماع ، ومحاضرات الدكتور أحمد ضيف فى كتاب نهج البلاغة ، ومحاضرات الدكتور على العنانى فى مقارنة اللغات السامية ، ومحاضرات الأستاذ حسين رمزى فى علم النفس .

وفى فبراير سنة ١٩٢٣ حصل له تضخم فى الغدة الدرقية ، وعولج منه لدى

الدكتور عبد العزيز إسماعيل وغيره من الأطباء الذين كانوا فى ذلك الوقت ، ولكن هذا التضخم أثر فى العينين ، وظل تأثيره يشتد شيئاً فشيئاً ، حتى كان يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٢٣ ، وإذا هو يصبح فلا يبصر بعينه اليسرى شيئا ، ثم مضت أربع وعشرون ساعة فقط ، وحيل بين العين اليمنى وبين الإبصار أيضاً . . .

وحينما زاد التضخم فى الإجازة الصيفية نصح له الأطباء بعدم الذهاب إلى المدرسة فى العام التالى ، وكان قد تقدم إلى مدرسة المعلمين العليا يريد دخولها ، فخضع لنصيحة الأطباء وانقطع عن الدراسة ؛ ولكنه كان يذهب إلى محاضرات الجامعة ، واستمر يكتب فى المجلات أثناء مرضه ، وحدث أن كان يكتب مقالا ورآه والده ، فأغلظ له القول لكى ينقطع عن الكتابة ، حرصاً على بقية بصره ، فتألم محمد وخرج من البيت غاضباً ، وسافر إلى صديق له فى مدينة (منوف) ، وكان الطريق إليها متربا ، فما كاد يصل حتى امتلأت عيناه بالتراب ، وأرسل والده إلى الصديق برقية ليعيد محمداً إلى البيت ففعل ، وكان هذا سبباً فى تعجيل كف البصر ! ! . . .

وانقطع عن الدراسة الرسمية بعد ذلك ، وأخذ فى العلاج عند الأطباء الباطنيين والجراحين وأطباء العيون ، ومنهم الدكتور ماكس ماير هوف الألمانى ، والدكتور يلا الإيطالى ، والدكتور دونخين النمساوى ، والدكتور محمود رياض أستاذ الرمد بكلية الطب ، والدكتور نصر فريد ابن أخت المرحوم محمد فريد ، وكانت عيادته تجمع بين العلاج وبين بث مبادىء الحزب الوطنى .

وقرر الدكتور ماكس ماير هوف أن الغدة الدرقية هى أساس العلة ، وقرر إجراء عملية جراحية لنزعها ، وأجراها الجراح الإيطالى الدكتور جاليو ؛ وظل محمد يعالج فى العينين عند ماير هوف الذى قال إن الحالة تحتاج إلى وقت طويل ، وإن الوقت كفيل بالوصول إلى بعض النتائج المرضية ، وظل الفتى فى هذا العلاج حتى مات الدكتور ماير هوف . . .

واستمر العلاج من سنه ١٩٢٣ إلى سنة ١٩٢٥ ، وذات يوم من شهر اكتوبر سنه ١٩٢٥ كان محمد مع صديق له يستمعان إلى الموسيقى فى حديقة الأزبكية ، فاشتريا مجلة (الأمل) التى تصدرها السيدة منيرة ثابت ، وأخذ الصديق يتصفحها ويطالع فيها لزميله ، وإذا فيها إعلان من كلية الآداب بالجامعة المصرية (التى كانت قد تحولت إلى جامعة أميرية) ، وفى هذا الإعلان نبأ عن وجود أماكن خالية لمن يريد أن يلتحق بكلية الآداب ، وكان عميدها حينئذ هو الأستاذ هنرى جريجوار البلجيكى ؛ فعاد محمد إلى البيت مع صديقه ، وأملاه خطابا وجهه إلى الأستاذ أحمد لطفى السيد مدير الجامعة حينئذ ، وطلب فى خطابه أن يسمح له بالالتحاق بكلية الآداب ... وإنما كتب للأستاذ أحمد لطفى السيد لأنه المدير ، ولأنه يمكن معه التفاهم أكثر من العميد البلجيكى .

وضرب الطالب محمد الأمثلة مما تفعله الجامعات الأوربية فى قبول المكفوفين بها وفسح المجال أمامهم فيها ، كما استشهد بوجود الدكتور طه حسين المكفوف أستاذاً فى الجامعة وقتئذ ، ولذلك رجا فى خطابه أن تشجع الجامعة أمثاله حتى يتموا تعليمهم الجامعى ؛ وفى يناير سنة ١٩٢٦ تلقى الطالب خطابا من عميد كلية الآداب بقبوله طالبا فيها مع إعفائه من المصروفات ؛ ويروى الدكتور محمد مصطفى حلمى هنا أنه بعد أن نال (الليسانس) من كلية الآداب عرف من الدكتور طه حسين أن موضوع قبوله طالباً فى كلية الآداب كان موضع إشكال فى مجلس الكلية ، لأن بعض الأعضاء قال : كيف نقبل هذا الطالب وهو لا يستطيع أن يجتاز الكشف الطبى الذى تحتمه اللوائح ؟ .

فرد الدكتور طه — وكان عضوا بالمجلس — قائلا : كيف تعارضون فى قبول هذا الطالب لأنه مكفوف ، وعندكم أستاذ فى نفس ظروفه ؟... قبل أن ترفضوا هذا الطلب ، فكّروا أولا فى إبعاد هذا الأستاذ ! ! ...

وكانت هذه الكلمة هي الفاصلة في الموضوع ، كما يروى الدكتور طه ! .

ودخل الطالب محمد مصطفى حلمي قسم التاريخ بكلية الآداب ، ولكنه لم يجد فيه ما يشبع رغبته فتحول إلى قسم الفلسفة ، وهناك وجد ما يطمح إليه من دراسات عقلية وروحية . وفي سنة ١٩٢٩ حصل على شهادة (الليسانس) في الآداب من قسم الفلسفة ، وبعد هذا قُيِّد اسمه للتحضير لدرجة (الماجستير) وكان موضوع بحثه لهذه الدرجة هو (نظرية الجوهر عند ديكارت واسبينوزا) ، وكانت الدراسة وقتئذ بالفرنسية ، لأن أساتذة الفلسفة كانوا من أساتذة السوربون ، ولم يكن هناك أستاذ مصرى للفلسفة سوى المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق الذى كان أستاذاً للفلسفة الإسلامية ، ومعه الدكتور منصور فهمى الذى كان أستاذاً للأخلاق .

وأعد رسالة (الماجستير) تحت إشراف الأستاذ الفرنسى (لالاند) ثم الأستاذ (بربيه) الفرنسى ، ثم الأستاذ (أسرتييه) الفرنسى ، وأخيرا الأستاذ (روجييه) ، كل منهم يأتى مدة و يعقبه تاليه ، وكانت الرسالة بالفرنسية ، ولكنه قدم لها ملخصا بالعربية ، وقد نوقشت الرسالة فى مايو سنة ١٩٣٢ من لجنة مؤلفة من الشيخ مصطفى عبد الرازق والأستاذ روجييه والأستاذ بوابيه ، وحصل عقب المناقشة على درجة (الماجستير) فى الفلسفة .

وفى ذلك الوقت نشأت بينه و بين المغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق صلة روحية ، إذ أحس من الشيخ الجليل بعطف عليه وتشجيع له ، فأحبه وأحب الفلسفة الإسلامية والتصوف الإسلامى بسببه ، وآثر أن يتخصص فى هذه الدراسات ولاسيما أنه كان إبان دراسته الثانوية يقبل على قراءة (نهج البلاغة) ودواوين الشعراء والصوفيين ، ولا سيما ديوان ابن الفارض . ومن هنا أخذ يلائم بين حبه لهذه الدراسات و بين حبه لأستاذ هذه الدراسات بالجامعة وهو الشيخ مصطفى

عبد الرازق ، وكان من ثمرات هذه الملاءمة بين الحبين أن اختار (ابن الفارض وحبه الإلهى) موضوعا لرسالته فى (الدكتوراه) .

وقد أعد هذه الرسالة بإشراف الشيخ مصطفى عبد الرازق ومعاونة الدكتور طه حسين ، ونوقشت هذه الرسالة يوم ٢ مارس سنة ١٩٤٠ وكانت لجنة المناقشة مكونة من الشيخ مصطفى عبدالرازق،والأستاذ أحمد أمين، والدكتور عبدالوهاب عزام ،والأستاذ بول كراوس التشيكى، والدكتور طه حسين.

الوظائف :

وأما فيما يتعلق بالوظائف فقد ندب للتدريس بكلية أصول الدين فى اكتوبر سنة ١٩٣٦ خلال اشتغاله برسالة الدكتوراه ، ثم عين معيداً بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) فى نوفمبر سنة ١٩٣٧ مع استمراره فى التدريس بكلية أصول الدين ، ولما حصل على الدكتوزاه عين مدرسا للفلسفة بكلية الآداب سنة ١٩٤١ ، ثم رقى أستاذا مساعدا فى يوليو سنة ١٩٤٨ ، وأخذ يدرّس الفلسفة الإسلامية والتصوف الإسلامى والفلسفة الصوفية الإسلامية ، وهى المواد التى تخصص فيها ، ثم رقى أخيراً أستاذاً للفلسفة .

وقد اشترك الدكتورمصطفى حلمى خبيرا فى لجنةالمصطلحات الصوفية فى مجمع اللغة العربية ، ومن العجيب أنه لم يرحل خارج مصر ، ولما سألته عن سبب ذلك أجاب : قل إنه تحرج ،أو تمرض ،أولا أدرى ! ! . . .

المؤلفات :

وقد ألف الدكتور حلمى طائفة من الكتب منها كتاب : بين الفلسفة والعلم وهو أول كتاب له ، ظهر عام١٩٣٦ ، وكتاب : فى تاريخ الفلسفة الشرقية ، وهو

مجموعة المحاضرات التى ألقاها فى كلية أصول الدين ، وكتاب: ابن الفارض والحب الإلهى ، وهو موضوع رسالة الدكتوراه ، طبع سنة ١٩٤٥ ، وكتاب : الحياة الروحية فى الإسلام ، واشترك فى نشر كتاب : راحة العقل ، وهو كتاب قديم من كتب فلسفة الطائفة الإسماعيلية للداعى أحمد حميد الدين الكرمانى ، وكان مخطوطا ، وقد حققه الدكتور وقدم له ونشره بالاشتراك مع الدكتور محمد كامل حسين سنة ١٩٥٢ ، وكذلك نشر الدكتور كتاب: توفيق التطبيق فى إثبات أن الشيخ الرئيس من الإمامية الاثنا عشرية ، لعلى بن فضل الله الجيلانى ، وقد حققه وقدم له وعلق عليه ونشره سنة ١٩٥٤ .

بحوث ومقالات :

وقد كتب الدكتور حلمى سلسلة مقالات بعنوان (روحانية الحب) فى مجلة (مجلتى) ، وسلسلة بعنوان (الروح عند صوفية المسلمين) فى مجلة عالم الروح، وسلسلة بعنوان (مطالعات فى التصوف الإسلامى) فى مجلة الرسالة،وسلسلة مقالات بعنوان (الحب الإلهى فى الآداب) فى جريدة كوكب الشرق حينما كان يرأس تحريرها الدكتور طه حسين ، ونشر بحثا عن (السعادة الإنسانية عند ابن سينا) فى مجلة الثقافة ، ونشر بحثا عن (العشق عند ابن سينا) فى مجلة الكتاب، كما نشر سلسلة مقالات بعنوان (صفحات ونفحات) فى مجلة الإسلام والتصوف .

ونشر فى مجلة كلية الآداب بحثا عن حكيم الإشراق شهاب الدين السهروردى وحياته الروحية سنة ١٩٥٠ ، وبحثا آخر عن آثار السهروردى وتصنيفاتها وخصائصها التصوفية سنة ١٩٥١ ، ونشر بحثا بعنوان (الخصائص النفسية للرياضات والأذواق الصوفية) فى مجلة علم النفس ، فى شهر فبراير ١٩٥٦ ، ونشر بحثا عن (الخصائص الأخلاقية للرياضات والأذواق الصوفية) فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية ، فى مايو سنة ١٩٥٨ م .

حياة الأسرة :

تزوج الدكتور حامى فى مارس سنة ١٩٤٠ بعد نيله درجة الدكتوراه بثلاثة أسابيع ، وقد أحب أن يبدأ حياته العائلية بعد استقراره فى الحياة العلمية ، وهو سعيد فى حياته الزوجية كما يؤكد ذلك ، وله الآن أربعة أولاد ، هم على التوالى : مؤنس ، نبيل ، نجوى ، ساوى .

وعلى الرغم من كف البصر يذهب الدكتور فى الحياة مذهب التفاؤل والاستبشار ، ويؤمن بأن كل ما يقع فى حياته إنما يقع للخير ، حتى ولو كان فى ظاهره شرا ، ويجد من نفسه القدرة على الملاءمة بين نفسه وبين ما يقع لها ، وهو يوقن بأن الله لا يمكن أن يفعل بعبده إلا الخير ، مهما كان اختلاف الناس فى فهم هذا الخير ، وحينما حيل بينه وبين الإبصار لم يشعر أن فى هذا نقصاً ، أو انتقاصا من شىء كان ينبغى أن يكون ، وإنما يحس أن ما كان وما هو كائن ليس إلا خيراً .

معلومات أخرى :

يعترف الدكتور بأن كثيرين من أصدقائه قد أحسنوا معاونته فى القراءة له وهو طالب ، ويخص بالذكر سيدة كانت جارة له ، وكان لها ابن علمه الدكتور الإنجليزية ، فلما كُف بصر الدكتور ردت السيدة الجميل إليه بأن أخذت تطالع له .

ولقد قال الدكتور بعض الشعر فى شبابه ، وإن كان لا يحفظ شيئا منه الآن ، وهو يعتز كثيرا بمقالة كتبها ونشرها فى مجلة النديم الروائى سنة ١٩٢٢ م وكان عنوانها (أحببتها ولن أسلوها) ، وهى من النثر الشعرى ، وقد رمز بها إلى الحرية .

ومن الأساتذة الذين أثروا فيه تأثيرا واضحا فوق من سبق ذكرهم المرحوم

الشيخ عبد الله عفيفى الذى يصفه الدكتور بأنه كان يمتاز بأسلوب رقيق فى الكتابة، ولذلك نفث الشيخ عفيفى فى روح الدكتور أشياء كثيرة كما يقول .

ولم يتعلم الدكتور حلمى طريقة (برايل) ، وهى طريقة الكتابة البارزة للمكفوفين ، ولم يفكر فى تعلمها ، وله سكرتير يطالع له و يكتب له ، وأحيانا يقرأ له بعض الأصدقاء .

ومن العجيب أنه ليست بينه و بين جمعيات المكفوفين صلة مباشرة ، و إن كان — كما يقول — يجلس أحيانا مع صديقه الدكتور عبد الحميد يونس، و يتشاور معه فى أمور المكفوفين ، وقد طالبته بأن يكون له نصيبه فى مجال هذه الجماعات ، ولكنه أجابنى بأنه يتحرج فى هذه الناحية قليلا .

الدكتور عبد الحميد يونس

ترجمة الحياة ومراحل الدراسة :

الدكتور عبد الحميد يونس أستاذ الأدب العربى المساعد بكلية الآداب بجامعة القاهرة هو عبد الحميد بن أحمد يونس بن مرعى بن يحيى ؛ وكان والد عبد الحميد موظفاً ، ممن تعلموا تعلماً مدنياً فى القرية ثم فى القاهرة ، وتزوج ابنة عمته ، وكان جده طبيباً ، ووصل إلى رتبة (يوز باشى) فى الجيش المصرى ، وهى أعلى درجة وصل إليها مصرى قبل ثورة أحمد عرابى ، ولقب هذه الأسرة هو (الخطيب) .

وأصل الأسرة من بلدة (هورين) مركز (السنطة) بمديرية الغربية ، بيد أن جد عبد الحميد حينما أحيل إلى المعاش اشترى أرضا بزمام قرية (شلشمون) مركز (منيا القمح) بمديرية الشرقية ، وأقام بها .

وقد ولد عبد الحميد يونس يوم ٤ فبراير سنة ١٩١٠ م ، فى (جنينة قاميش) بحى السيدة زينب بالقاهرة ، وكان الولدَ البكر لأبويه ، ويمكن أن يقال إنه كان مدللا ، ولعل ذلك بحكم أنه أول الأولاد ، ويذكر عبد الحميد أن أول حلة ارتداها كانت شبيهة بحلة (الجنرال واشنطون) ، ووضع حول رقبته رباطا كبيرا على شكل الفراشة ... وكانت له خادمة خاصة تسمى (أم أيمن) .

ودخل عبد الحميد (الكُتاب) وكان يجلس إلى جوار (سيدنا) بمعطف أحمر وقلنسوة حمراء كالطرطور الصغير ، ثم دخل مدرسة أهلية بحى السيدة زينب بالقاهرة ، تسمى (المدرسة المصرية)، وكان يشرف عليها مهندس ممن اتُّهموا مع (الوردانى) فى حادثة الاغتيال المشهورة ؛ وتحول منها إلى مدرسة (محمد على الابتدائية) سنة ١٩١٩ ، وكان ناظرها حينئذ يحمل لقب (بك) ، وهو الأستاذ

محمد توفيق البرادعى ، وكان ممن ألفوا كتبا كثيرة للتلاميذ ، وكان يدرس الترجمة ، وكان له تأثير كبير فى نفس التلميذ عبد الحميد يونس . وشعر عبد الحميد بالظلم وهو فى هذه المدرسة ، لأنه أقصى عن إدارة الفصل مع أنه كان (الأول) فى ترتيب الناجحين . ويذكر وهو فى السنة الرابعة أن ناظر المدرسة كان يوزع شهادات النجاح ، ويدعو التلاميذ إلى التصفيق لكل تلميذ يتسلم شهادته ، ولكن الناظر — غفر الله له — لم يدعهم إلى مثل ذلك حينما سلم الشهادة لعبد الحميد ، لأنه — برغم كونه الأول — كان راسباً فى (الرسم النظرى). والسبب فى ذلك هو ضعف بصره ، وقد غاظه ذلك ، وأراد أن يعالج ضعف بصره ، فاستشار أبوه أطباء كثيرين فى ذلك ، وانتهى الأمر بأن يضع عبد الحميد على عينيه نظارة سميكة لتقوية بصره ! ...

وأخذ الشهادة الابتدائية من المدرسة المذكورة سنة ١٩٢٣ ، والتحق بعد ذلك بالمدرسة الخديوية بشارع درب الجماميز بالقاهرة ، وحضر آخر سنة للناظر الإنجليزى فى هذه المدرسة ، وهو (المستر فرنسيس) ، وكان الناظر المصرى بعد ذلك هو الأستاذ محمد لبيب الكردانى ، ودرّس اللغة العربية لعبد الحميد الشيخ محمد فخر الدين ، وحبب الأستاذ إلى تلميذه أدب الكاتب المعروف الأستاذ عباس محمود العقاد ، وذلك بسبب أن الشيخ محمد فخر الدين كان أستاذا للعقاد فى أسوان ، كما أن العقاد هو الذى قام بتعريف الشيخ فخر الدين بسعد زغلول ....

ونال شهادة الكفاءة سنة ١٩٢٥ ؛ وفى سنة ١٩٢٦ أصيب أثناء لعبه الكرة بصدمة ، ونقل على إثرها إلى المستشفى ، وظل هناك أربعة وستين يوماً ، ولكنه خرج فاقد البصر ، وكان ذلك فى ديسمبر سنة ١٩٢٦ م .

وفى سنة ١٩٢٧ ذهب عبد الحميد يونس إلى طبيب نمساوى اسمه (فوكس) فى فندق الكونتننتال بالقاهرة ، وكان الطبيب قد عزم على السفر فى اليوم التالى لهذه المقابلة ، فأحال التلميذ المكفوف إلى طبيب من تلاميذه هو (الدكتور

وانجين) فأجرى له عملية فى عينه اليمنى لعلها تبصر ، وقد استطاع عبد الحميد بعد هذه العملية أن يرى النور فى دائرة مقطوعة من أسفل ، بحيث لا يستطيع السير ، ولكن يمكن له أن يقرأ بوساطة مجهر ضخم ما زال يحتفظ به حتى اليوم .

وأصر التلميذ على أن يتابع دراسته من المنزل ، وتقدم لامتحان شهادة البكالوريا سنة ١٩٣٠ ، مستعينا بالمجهر المذكور ، ولكنه رسب فى الامتحان التحريرى فى الدور الأول ، وعلى الرغم من هذا الرسوب كان سروره عظيما حينما رأى درجاته فى الامتحان ، لأنها كانت درجات مشجعة ؛ وكانت الأسرة كلها ضد اشتغاله بالمذاكرة والامتحانات ، ولكنها تفاءلت بهذه الدرجات، وتوقعت التقدم الواسع فيما بعد ؛ ودخل الدور الثانى ونجح . . . وبعد أشهر قليلة تسلم الشهادة — كغيره من الطلبة الذين يتقدمون للامتحان من منازلهم — تسلمها من المدرسة الخديوية القديمة ، وكانت دهشته كبيرة حينما وجد أن ترتيبه هو الثالث عشر بين مجموع الناجحين فى الدورين !! ...

وفكر فى دخول كلية الآداب ، وأقدم على تحقيق فكرته ، ولكن أستاذ اللاتينية فى الكلية يعتمد على السبورة ، وكذلك أستاذ اللغة الفرنسية ، واضطر عبد الحميد إلى الامتحان تحريريا فرسب فى هاتين المادتين ، كما صادفته متاعب تتصل بخادمه الذى كان يرافقه ، وحدثت فى مصر الأزمة المشهورة خلال عامى ١٩٣٠ و ١٩٣١ ، وأثرت هذه الأزمة نوعا ما فى موارد الأسرة ، وكان لعبد الحميد أخ طالب فى مدرسة الهندسة (كلية الهندسة فيما بعد) ، ولم يتيسر لأبيه أن يدفع مصروفات الولدين معا ، وقد كان عبد الحميد وحده يحتاج حينئذ إلى ثلاثين جنيها هى مصروفات الطالب فى كلية الآداب ! ! . . .

وأخلى عبد الحميد الطريق لأخيه يتم الدراسة فى الهندسة ، واشتغل هو بالصحافة ، فشارك فى تحرير (المجلة الجديدة) لصاحبها الأستاذ سلامة موسى ،

وفى مجلته (المصرى) أيضاً ، وقام سنة ١٩٣٠ بترجمة كتاب (الزواج) للمؤلف الكاتب الإنجليزى إدوارد و يستر مارك .

وفى سنة ١٩٣٣ اشترك مع زملائه الأستاذ محمد ثابت الفندى (الدكتور ، وكيل كلية الآداب بجامعة الإسكندرية الآن) والأستاذ إبراهيم زكى خورشيد (المدير المساعد للادارة الثقافية بوزارة الثقافة والإرشاد القومى الآن) والأستاذ أحمد الشنتناوى (مدير التدريب بديوان الموظفين الآن) فى ترجمة دائرة المعارف الإسلامية ، وما زالت أعدادها تصدر تباعا إلى اليوم .

وفى سنة ١٩٣٥ كان رئيس تحرير مجلة (الراوى الجديد) ، كما اشترك فى تحرير جريدة (المساء) التى كان يصدرها اتحاد نقابات العمال ، وهى أول جريدة يومية للعمال صدرت فى ذلك الوقت .

وفى سنة ١٩٣٦ نال جائزة فى المسابقة الثقافية التى نظمتها وزارة على ماهر ، وكان موضوع البحث الذى نال عليه الجائزة هو (البطالة ووسائل علاجها ، وأثر التعليم الإقليمى فى علاج البطالة) واقترح فى ذلك العهد إنشاء بنك صناعى .

وفى سنة ١٩٣٦ أيضا عاد طالباً فى كلية الآداب بجامعة فؤاد (القاهرة الآن) ، فى قسم اللغة العربية ، لشدة رغبته فى استكمال دراسته ، وكان يمتحن تحريريا بالجهر ، أو بالكتابة من الذاكرة ، ومن اجتهاده أنه ظل طالبا بقسم الامتياز الذى يدخله الطلاب الحاصلون على أكثر من ٧٥٪ من الدرجات ، وأعد أثناء ذلك قانونا مقترحا للصحافة ؛ يقترح فيه أن تقتصر رياسة التحرير على الذين يحملون شهادات دراسية عالية ، وحصل على شهادة (الليسانس) سنة ١٩٤٠ ، وفى سنة ١٩٤٦ نال درجة (الماجستير) فى الآداب ، وكان موضوع رسالته هو (سيرة الظاهر بيبرس فى الأدب الشعبى) ، وفى فبراير سنة ١٩٥٠ نال درجة الدكتوراه فى الأدب ، وكان موضوعها (الهلالية فى التاريخ والأدب الشعبى) -

الوظائف :

فى سنة ١٩٤٠ — عقب نيله الليسانس — أنشئت مراقبة الثقافة بوزارة المعارف المصرية، وأسندت رياستها للدكتور طه حسين ،فعُيِّن الأستاذ عبد الحميد يونس فى إدارة الترجمة بتلك المراقبة ، وأجلوا الكشف الطبى عليه، و بعد حين قدم إلى وزير المعارف حينئذ وهو الدكتور عبد الرازق السنهورى تقريرا عن تنظيم إدارة الثقافة ، وكان مديرها وقتذاك الأستاذ محمد عبد الواحد خلاف، وطالب فى هذا التقرير بتسجيل النشاط الثقافى ، وقد نُشر هذا التقرير فى مجلة المقتطف ، وترجمه اتحاد الجمعيات العلمية فى أمريكا .

ثم عين وكيلا لإدارة التسجيل الثقافى ، وأخذ حينئذ الدرجة الخامسة ، وكان المدير هو الأستاذ محمد سعيد العريان ، ودخل اقتراح الأستاذ عبد الحميد يونس المتعلق بتسجيل النشاط الثقافى دور التنفيذ ، وأعدوا السجل الثقافى الأول ، وفى أثناء وجود السجل فى المطبعة انتقل الأستاذ يونس إلى كلية الآداب مدرساً مساعداً فيها ، وكان أن أبدلوا الملزمة الأولى من الملازم التى طبعت من السجل ، ورفعوا من فوقها اسمى الأستاذين محمد سعيد العريان وعبد الحميد يونس ! ! ...

ولما نال الدكتور عبد الحميد يونس درجة الدكتوراه فى فبراير سنة ١٩٥٠ رُقى فصار أستاذا مساعدا فى كلية الآداب ، وأخذ يدرس النقد الأدبى والنصوص الأدبية والبلاغة العربية والأدب الحديث .

واشتغل الدكتور فى جريدة (الجمهورية) منذ إنشائها ، واستمر كذلك ثلاث سنوات ونصف سنة ، يرأس قسم الشباب والجامعات بها ، ثم رأس القسم الأدبى بها ، بعد أن تركه الدكتور لويس عوض .

المؤلفات والأعمال العلمية :

يعتز الدكتور عبد الحميد يونس بمشاركته فى ترجمة دائرة المعارف الإسلامية منذ سنة ١٩٣٣ ، وما زال يقوم بواجبه فيها إلى الآن ؛ وفى سنة ١٩٤٦ قام بترجمة كتاب (فلسفة الجمال) لمؤلفه الإنجليزى (كاريت) وشاركه فى الترجمة الأستاذان عثمان نويه ورمزى يسى ، وفى سنة ١٩٤٧ ترجم كتاب (عالم الغد) لمؤلفه (ه . ج . ويلز) مع المرحوم حافظ جلال ، ونشرته دار المعارف ؛ وألف مع الدكتور عبد العزيز أمين كتاب (لافوازييه) ونُشر فى سلسلة (اقرأ) ، وله مقالات مطولة فى كتاب (تاريخ العالم) الذى تصدره وزارة التربية والتعليم ، وترجم سنة ١٩٥٩ قصة (صائد الغزلان) لمؤلفها (جيمس فنيموركوبر) ، وله كتاب (الهلالية فى التاريخ والأدب) طبعته جامعة القاهرة سنة ١٩٥٥ ، وله كتاب (مجتمعنا) صدر فى سلسلة اقرأ سنة ١٩٥٦ ، وترجم بطلب من جامعة الدول العربية مسرحيتين لشكسبير ، هما (سيدان من فيرونا) و (العاصفة) ؛ وهو يشتغل الآن بكتابه (الملحمة العربية) .

وهو عضو فى لجنة (اخترنا لك) الثقافية ، وعضو فى لجنة الفنون الشعبية التابعة لمجلس الآداب والفنون ، وعضو فى مجلس الإدارة لمركز (الفولكلور) التابع لوزارة الثقافة والإرشاد القومى .

جهوده فى ميدان المكفوفين :

اشترك الدكتور عبد الحميد يونس فى مؤتمرات اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية مرتين ، وبسعيه حلت جامعة الدول العربية محل هيئة الأمم المتحدة فى تمويل برنامج المبعوثين العرب لشئون المكفوفين ، وتقديم الإعانة لمطبعة (برايل) الموجودة بالمركز النموذجى لتوجيه المكفوفين بالزيتون .

وهو نائب رئيس المركز المذكور، ونائب رئيس اللجنة المشتركة لرعاية ذوي العاهات ، ونائب رئيس الجمعية المصرية للعميان ، ورئيس جمعية النور ، وعضو مجلس الإدارة لجمعية النور والأمل ، وله محاضرات كثيرة فى المركز النموذجى السالف الذكر .

الحياة العائلية :

تزوج الدكتور عبد الحميد يونس فى ٧ ديسمبر سنة ١٩٤٤ من زوجة كانت زميلة له فى سنة ١٩٣٠ حينما كان فى كلية الآداب أول مرة ، وأبوها — كما ذكر الدكتور — أديب من كتاب (المؤيد) هو الأستاذ محمد توفيق عزيز ، وخالها أديب هو المرحوم الأستاذ إبراهيم رمزى ، وخالها الآخر عالم هو المرحوم الأستاذ محمد رمزى ، وقد أكملت دراستها فى قسم الجغرافيا بكلية الآداب سنة ١٩٣٤ ، وهى الآن أمينة المكتبة بمعهد الخدمة الاجتماعية للبنات ، وكانت قبل ذلك مدرسة بالمدرسة السنية للبنات بالقاهرة ؛ وهما سعيدان فى زواجهما .

ورزق الدكتور أولا بابنه (أحمد) الذي سمى باسم جده ، وسن أحمد الآن اثنتا عشرة سنة ، ومنذ أربع سنوات أصيب — مع الأسف — بالانفصال الشبكى ، كما أصيب أبوه من قبل ، وأجريت له عمليات جراحية فى مصر والنمسا ، ولكن بلا جدوى ، وفقد بصره نهائيا ! ! . .

وللدكتور بعد أحمد بنت تسمى (هالة) ، والسبب فى تسميتها بهذا الاسم أن زوجة الدكتور ألفت بعد زواجهما كتابا عن السيدة خديجة ، فاتفقا على تسمية ابنتهما باسم (هالة) أخت السيدة خديجة.

معلومات أخرى :

يقرر الدكتور عبد الحميد يونس أن هناك شخصيات أثرت فيه أدبيا ، منها والده الذى كان يحب الأدب ويجيد اللغة الإنجليزية ، وعبد القادر حمزة ،

وطه حسين ، وأمين الخولى ؛ ومن الكتاب الإنجليز ويلز ، و برتراند رسل .
وقد طالع أكثر كتبهما .

وقد أثرت فيه كذلك المكفوفة العبقرية (هيلين كيلر) ، أثرت فيه بحياتها وتاريخها وجهودها ، و يذكر أن قراءته لقصة حياة هيلين كيلر هى التى أعادت إليه الأمل ودفعته إلى العمل ، وكذلك تأثر بكتاب (الأيام) لطه حسين ، وهو يحتفظ حتى الآن بمجموعة أعداد مجلة الهلال التى نُشرت فيها قصة (الأيام) .

وقد أصيب الدكتور يونس بربو الطفولة ، وذهب المرض من نفسه فى سن المراهقة ، ولم تتعبه فترة المراهقة من الناحية الجنسية ، لأنه كان مشغولا بالرياضة والقراءة ، وتحركت عاطفته فى سن العشرين ، واستمرت هذه العاطفة سنوات ، وانتهت بالفشل ، وشرّق أحدهما بينما غرّب الآخر ؛ وهو يدخن منذ كان عمره عشرين سنة ، و يشرب القهوة بكثرة ، ولا يُقبل كثيراً على الشاى ، و يحب المشى ؛ ومن عادته فى الطعام أنه يحب اللحوم ، ولا يحب السلطة أو المخلل ، و يتضايق من وجودهما على المائدة ، مع أنه يكثر من استعمال الملح ، و يحب البطاطس ، ولا يقبل كثيراً على الخضروات ، ومع ذلك يتمتع بصحة جيدة .

رحل إلى الكويت فى ديسمبر ١٩٥٨ م للاشتراك فى مؤتمر الأدباء العرب ، وقد حدثنى عن أطوار حياته أثناء زمالتى له فى هذا المؤتمر ، ودُعى إلى رحلات خارج مصر ، ولكنه لم يستجب لانشغال شريكته بالعمل ولظروفه الشخصية .

وهو ينتوى وضع كتاب عنوانه (التجربة الأولى) ، يذكر فيه ما دار حول كف بصره ، و يقول إنه لن يستعمل فيه ضمير الغائب كما فعل طه حسين فى كتابه (الأيام) ، بل سيستعمل ضمير المتكلم الصريح ! ! ...

سر النجاح :

ولقد سئل الدكتور عبد الحميد يونس عن سر نجاحه ، فقال :

« إن سر نجاحى فى الحياة يرجع إلى الثقة بالله أولا ، والثقة بالناس ثانياً ؛ وهذه الثقة تقوم على المحبة والثقة بالنفس التى ترتفع عن الأنانية وضيق الأفق .

أما فى فرصة التعليم فقد كان الإيمان بالله هو الحافز لى على المثابرة ، ولذلك تقدمت إلى الامتحانات العامة ، وكتبت فيها بالذاكرة لا بالبصر ، ولم أخلق لوزارة المعارف وقتذاك أية مشكلة على الإطلاق ، لأننى تقدمت للبكالوريا كما يتقدم سائر الناس ؛ ولعلك لا تصدقنى إذا قلت لك إننى فى كلية الآداب كنت أؤدى الامتحان تحريريا كذلك بالذاكرة لا بالبصر ، فكنت أكتب كما تعودت فى الماضى ، وأضع المسطرة على حافة الورقة العليا ، لكى أكتب كتابة مستقيمة ، وكثيراً ما انحرفت هذه السطور ؛ ولكنى وفقت بفضل الإيمان بالله ، والثقة بالنفس ، ومحبة الناس ، وإقبالى على الحياة » ! ! ...

الشيخ الصاوى شعلان

ترجمة الحياة ومراحل التعليم :

فضيلة الأستاذ الشيخ الصاوى شعلان مدير إدارة التعليم والإرشاد بمصلحة السجون هو الصاوى على محمد شعلان ، المولود سنة ١٩٠٢ فى قرية (سبك الأحد) مركز (أشمون) بمديرية المنوفية ، وهذه القرية هى بلدة الشيخ محمود خطاب السبكى مؤسس الجمعية الشرعية ، وأسرة الشيخ الصاوى أسرة عربية ، جاءت من جزيرة العرب إلى مصر ، فى عهد السلطان قايتباى ، واستوطنت أرض المنوفية ، وكانت الأسرة قديماً مستعصية على الحكام الأتراك ، لاعتقادها أنهم غاصبون للبلاد .

وقد أصيب فى السنة الثانية من عمره برمد ، وبدأوا فى علاجه ، فأخطأ العلاجُ طريقه ، فأدى ذلك إلى كف البصر ، وأصبحت العين اليمنى لا ترى شيئاً ، وبقى فى اليسرى قليل جداً من البصر ، بحيث يمكنه أن يرى بها الأرقام إذا قاربت عينه ! ...

ويعلق على كف بصره بأنه قد أفاده من بعض الجهات ، لأنه أدرك قيمة النعمة الكبرى فى البصر ، وعرف المتاعب التى يعانيها المكفوف فى نفس الوقت ، ولذلك يمضه ويثير نفسه أن يكون فى حديقة وتتراقص حوله أطياف الأشجار والأزهار ، ويتذكر أن المكفوفين محرومون من التمتع بهذا ؛ كما يتألم لأنه لا يرى هذه الأشياء ، ولو رآها لفجرت فى صدره الكثير من المشاعر .

وقد تُوفى والده وهو فى السادسة من عمره ، وتولت تعليمه أولا أستاذة شيخة قوية الحفظ ، يُضرب بها المثل فى قوة الذاكرة ، وهى الشيخة (زهرة

القاضى) من سلالة تاج الدين السبكى ، وكان أبوها وأخوها قاضيين ، وحفظ القرآن الكريم فى (كُتَّاب) هذه الشيخة ، وكان يحفظ كل يوم ربعاً ، وأتم الحفظ وهو فى العاشرة من عمره ؛ وجوّد القرآن بالقراءات السبع على يد الشيخ (سابق محمد السبكى) ، وعاون الفتى شيخه فى تعليم تلاميذه ، وأراد الشيخ أن يستغل الفتى فى هذه المهمة ، فأطال مدة بقائه فى المكتب ، وكان هذا مفيداً للصاوى ، لأنه عرف كيف يعلم الكبار والصغار القرآن والقراءات ، وكان يجد فى ذلك نشوة ، وإن يكن قد ضاق بطول بقائه بالمكتب فى آخر الأمر !.

والتحق الشيخ الصاوى بالأزهر الشريف فى القاهرة عام ١٩١٨ م ، وانتظم بالقسم النظامى فيه ، وأتم القسم الأول ومدته خمس سنوات ، نال بعدها الشهادة الابتدائية فى أواخر سنة ١٩٢٣ ؛ ثم وجد أنه إذا استمر فى طريق الدراسة المعتاد فلا بد له من البقاء فى القسم الثانوى خمس سنوات أخرى ، فتخطى مرحلة القسم الثانوى كلها فى سنة ، بأن عكف على تحصيل علوم هذا القسم فى عزيمة وتصميم ، وحصل على الشهادة الثانوية الأزهرية سنة ١٩٢٤ ، وفى إجازة هذا العام الصيفية ذاكر علوم السنة الأولى من سنوات القسم العالى بالأزهر ، وامتحن فيها فى أول العام الدراسى ونجح ، والتحق بالسنة الثانية منه مباشرة .

ثم عصفت به ريح السياسة ، لأنه كان عضواً فى لجنة الطلبة التنفيذية مندوباً عن الأزهر الشريف ، وعرضه هذا لمصاعب ومتاعب ، وبخاصة أن الجبهة الشعبية لم يكن مرضياً عنها من السلطات الحاكمة ، فبعد أن كان يتخطى السنوات الدراسية حيل بينه وبين النجاح فى الشهادة العالمية النظامية ، فشغل وظيفة (واعظ سجون) وهو طالب سنة ١٩٢٨ ، وبقى يقوم بهذه الوظيفة ، حتى جاءت سنة ١٩٣٢ فنال شهادة العالمية ، وكان أول المكفوفين الناجحين ، وبقى فى وظيفته ، وكان يقوم إلى جوارها بألوان من النشاط الأدبى ، فهو يقول

الشعر الذى بدأ ينظمه فى العشرين من عمره ، وهو يشترك بقصائده فى المهرجانات القومية والاجتماعية والأدبية فينال الجوائز ، مثل جائزة الشعر الأولى مع الأستاذ أحمد محرم فى مهرجان بنك مصر سنة ١٩٣٦ ، ولقد ألقى قصيدة ذات ليلة فى احتفال بمناسبة الحج ، وأشار فى قصيدته إلى شوقه لزيارة منزل الوحى ، فما كاد الحفل ينتهى حتى جاءته البشرى بدعوته لأداء الحج دون أن يتكلف نفقة ، وقد حج أكثر من مرة !!...

وفى سنة ١٩٤٥ التحق الشيخ الصاوى وهو معمم بكلية الآداب بجامعة فؤاد (القاهرة الآن) بعد أن تعلم اللغة الإنجليزية ، وتعرض لبعض المتاعب وهو يتعلم فى الكلية ، لعدم وجود قائد يرافقه ، وكان قد تقدم إلى الكلية أكثر من مرة فرفضوا طلبه ، ولكن الدكتورين عبد الوهاب عزام وطه حسين ساعداه حتى التحق بها ، والتحق بقسم اللغات الشرقية (الإسلامية) وفى طليعتها الفارسية والتركية ، ومعهما الإنجليزية والألمانية ، و بذلك صار الشيخ الصاوى يعرف العربية والإنجليزية والفارسية والتركية ومبادئ من الألمانية ! .

ونال الدبلوم العالى المساوى للماجستير من هذا القسم سنة ١٩٤٨م ، وفتح الباب أمامه لكى يتقدم لنيل الدكتوراه ، وجعل موضوع رسالته (مقدمة عن جلال الدين الرومى وترجمة ألف بيت نظما من المثنوى لجلال الدين) ، وهو فى طريقه لإتمام هذا الموضوع .

طريقة برايل :

وسمع الشيخ الصاوى عن مدرسة تعلّم المكفوفين الخط البارز بطريقة (برايل) المعروفة ، وكانت وزارة المعارف قد أنشأت هذه المدرسة ، فأراد أن يتعلم فيها ، ولكن الوزارة أغلقتها بعد أن بدأت بطبع بعض الكتب البارزة فيها ،

وكانت هذه المدرسة فى شارع (شيخون) بالقاهرة ؛ وقد خرجت هذه المدرسة طائفة من التلاميذ ، ولكن بلا أهداف كما يقول !...

وسمع عن مدرسة أخرى لتعليم المكفوفين كتابتهم ، وكانت فى الزيتون ، ومديرها (المستر جارد ندارد) ، ولكنه كان يعنى فى هذه المدرسة بتعليم اللغة الإنجليزية ، وخرّجت المدرسة بعض التلاميذ بعد أن علمتهم بعض الحرف أو الصناعات ، ولكن بلا أهداف أيضاً .

وقد ذهب الشيخ الصاوى لزيارة هذه المدرسة ، واعترض على نظامها ، وقال إنها ستخرج التلاميذ ليشحذوا ، ولن يغنيهم شيئا أن يتعلموا صنع (السلال والفرش) ، وكان الصاوى حينئذ فى الخامسة عشرة من عمره !! .

وأحب أن يتعلم طريقة برايل بعد دخوله الأزهر ، إذ تبين له أن من الضرورى أن يتعلم الكتابة والقراءة ، فوجد شخصاً يعلم تلك الطريقة ، وكان يقيم فى (كوبرى القبة) ، وكان الطالب الأزهرى المكفوف يسعى من الأزهر إلى كوبرى القبة يوميا ، وعارضت أسرة الطالب فى تعلمه هذه الطريقة ، لأن بعض الأشرار أفهموها أنها تضيع الوقت ، وتفسد على الطالب دراسته ، ولكن بعض العقلاء أقنعوا الأسرة بضرورة تعلمه لهذه الطريقة ؛ وكان الشيخ الصاوى يعطى دروساً خصوصية ليسدد نفقات حياته ونفقات تعلمه طريقة برايل ، ولقد اشترى (المسطرة) الوحيدة التى كانت موجودة عند المدرس (وهى مسطرة كتابة برايل) ، اشتراها ببقية نقوده ، وقضى يومين فى جوع و بلا نفقة كما يقول ، وكلما رأى المسطرة نسى الجوع وفرح بالمسطرة !!..

هذا ما سمعته منه ، ولقد تحدث مرة إلى إحدى الصحف عن تعلمه هذه الطريقة فكان مما قاله :

« ومن طريف ما حدث أننى لما رغبت فى تعلمها وأنا طالب ، أنكر علىّ

أهلى ذلك ، لأنهم لم يقتنعوا بجدواها ، ولـكننى جمعت كل ما معى من نقود ، وذهبت إلى أستاذ فى هذه الطريقة ، كان يسكن (بالوايلى) وطلبت منه (مسطرة برايل) فتقاضى عنها مائتى قرش ، وكان هذا كل ما معى ، وكنت قد ذهبت إليه وحدى سيرا على الأقدام ، وكان بيته يبعد عن بيتى نحو اثنين كيلو متر ، واشتد بى الجوع ، ولم يـكن معى نقود ، وأغمى على فى الطريق من شدة الجوع ، وُحملت إلى الأزهر ، ولما علم أهلى بهذا ساعدونى على الاستمرار فى تعلم هذه الطريقة » ! ! ...

وتعلم الشيخ الصاوى طريقة (برايل) ، وصار يـكتب دروسه فى الأزهر بها أحيانا ، ووجد أن أغلب الـكتب المطبوعة بطريقة (برايل) مكتوبة باللغة الإنجليزية ، فشرع يتعلمها ، وصار يكتب بها بطريقة (برايل) ، فاتسع نطاق انتفاعه بما يقرأ وبما يـكتب . . . ولعل هذا هو الذى جعل المركز النموذجى لتوجيه المـكفوفين يرجع إليه فى مراجعة وتصحيح الكتب التى يطبعها المركز للبلاد العربية بطريقة برايل .

المؤلفات والأعمال الاجتماعية :

له كتاب الشعراء الخمسة ، وكتاب الرسالة الأولى (مجموعة شعر) ، وكتاب فلسفة إقبال بالاشتراك مع الأستاذ محمد حسن الأعظمى ، وقد ترجم الـكثير من أشعار شاعر الإسلام والباكستان محمد إقبال ، وترجمها شعراً ، ونشر هذه الترجمات فى أماكن مختلفة ، وله ديوان من حكمة الشرق ، نشر فيه مجموعة من أشعار ترجمها لطاغور ، وجلال الدين الرومى ، والسعدى الشيرازى ، ومحمد إقبال ، وألحق بذلك مجموعة من أشعاره ، ونذكر على سبيل المثال قطعة بعنوان (العودة) ترجمها عن طاغور ، وفيها يقول :

لاقيتُ من بعد اغتراب أسرتى ۝ بفؤاد صب عامر الأشـواقِ
نظرَ الشقيق وقال : أين هديتى ؟ ۝ فمنحتُه بِشرى وطيبَ عناقِ

وإذا بوالدتى تسائل : ما الذى أهدى لها من بعد طول فراق ؟
فمنحت فى برّ الخضوع يمينها قُبَلَ النسيم العذب للأوراق
ورنت إلىّ الزوج ، قلت : هديتى أنى حفظت على النوى ميثاقى
وإذا السماء تقول : أين تحيتى ؟ فرفعت عقد الدمع من آماقى
وسموت نحو بروجها بضراعتى وجعلت من طهر الصلاة براقى
قالت لى الفردوس : أين هديتى ؟ فأجبت : إن هديتى أخلاقى ! !

وهذه مقطوعة ثانية ، ترجمها الشيخ الصاوى شعراً عن جلال الدين الرومى بعنوان (الغرام الهادئ العنيف) :

قال لى المحبوب لما زرتُه : من ببابى ؟ قلتُ : بالباب أنا
قال لى : أنكرتَ توحيدَ الهوى عندما فرقتَ فيه بيننا
ومضى عام ، فلما جئتُه أطرق الباب عليه موهنا
قال لى : من أنت ؟ قلت : انظر فما ثَمَّ إلا أنت بالباب هنا
قال لى : أدركتَ توحيد الهوى وعرفت الحبَّ فادخل يا أنا !

وهذه قطعة ثالثة ، ترجمها عن محمد إقبال بعنوان (يقظات الصباح) :

لقد دفنوا فى التراب البذور فلم تفن فى لحدها الهامدِ
ولم تنطفئْ نارها فى الحياة على طول مرقدها البارد
لقد نسجت للحياة البقاء وصاغت من الزهر أبهى حلاه
نما غصنها زاهرا ، واستفادت من الموت تجديد ذوق الحياه
حينما يسفر الصباح ندياً ناصعاً فى مواكب الإشراق
يغسل النورُ فى المشارق أدرا نَ الدياجى عن حلة الآفاق
ويطير الكرى ، وينتبه العشـ ـبُ ، وتصحو عزائم الكائنات
ويهب الأحياء فى البر والبحـ ـر ليستقبلوا عروس الحياة

وإذا كان للخلائق نامو س يرينا الصباح بعد المساء
هكذا تذهب الحياة ، ولكن بعد ليل الحِمام صبحُ البقاء!

ومن شعر الشيخ الصاوى هذه المقطوعة بعنوان (حكمة الورد) :

سمعتُ من الأزهار والروض حكمةً معطرة ، تهدى نُهى وعقولا
فقلن لها : يا وردة الروض ، إننا لنقضى زماناً فى الرياض طويلا
وعمرك يوم فى الربيع معجَّل وتعدو عليك الحادثاتُ ذبولا
كأنك ظل طافَ ، أو حلم نائم سرى ، ثم ولى فى الخيال رحيلا
فقالت : نعم أقضى الحياة قصيرة وأترك عطرا فى الحياة جميلا
لئن قلَّ فى الأرض المقامُ فإننى أرى أثرى فى الناس ليس قليلا
ولن تُحمَد الغربان فى طول عمرها ولو مكثت بين الخرائب جيلا
ولو عاش يوماً واحداً بلبلُ الربا فقد عاش عمرا ، واستفاد جليلا !

وفوق أن الشيخ الصاوى يقول الشعر كثيرا ، ويرتجله أحياناً ، وله قصائد حول المكفوفين ، نراه خطيباً موهوباً ، وهو يكثر فى خطابته من السجع ، وله صوت جهير فى الإلقاء ، ويستعين مع صوته بحركات يديه وإشاراتهما ، وهو اجتماعى بروحه ، لا يتحرج من الاشتراك فى الاجتماعات والحفلات ، وكان له نشاط ملحوظ فى (جمعية الأخوة الإسلامية) التى أنشأها الدكتور عبد الوهاب عزام بالقاهرة وظلت زمناً ؛ كما اشترك فى المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين فى عهد رئيسها الأول المرحوم الدكتور عبد الحميد سعيد ، وما زال الشيخ الصاوى يشارك فى محاضرات المركز العام وندواته أحياناً ، كما اشترك فى نشاط جمعية الهداية الإسلامية، واشترك فى جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية ، وهو رئيس اللجنة الدينية والاجتماعية فيها ، ويشرف على تحرير مجلتها ، وأنشأ جمعية ترقية الخطابة العربية بالزيتون ، وكان يقصد منها النهوض باللغة العربية والتدريب على الإلقاء . . .

وهو كذلك قد كتب و يكتب فى كثير من الصحف والمجلات . . .

والشيخ الصاوى متزوج من سيدة متعلمة ، له منها الآن خمسة أبناء و بنت ، وهو مستريح فى حياته الزوجية .

فى ميدان المكفوفين :

لعل الشيخ الصاوى من أسبق المكفوفين إلى العمل من أجل المكفوفين، فهو يسعى إليهم ، و يحاضرهم فى المركز النموذجى لتوجيه المكفوفين وغيره ، و يكتب لهم فى مجلاتهم البارزة الخط وغير البارزة ، وهو يطالب قدر طاقته بحقوقهم مع من يطالبون بهذه الحقوق ؛ ولعله هو الذى أشاع استعمال (كلمة النور) فى ميدان المكفوفين ، فهو يذكر أنه فى سنة ١٩٣٦ اقترح الأستاذ توفيق اسطمبولية مفتش الموسيقى بوزارة المعارف حينذاك أن تصدر مجلة للمكفوفين ، فاقترح الشيخ الصاوى أن يسموها (مجلة النور) ، ثم استعمل الشيخ الصاوى كلمة النور فى أحاديثه بالإذاعة ؛ ورئى أنه لا بد من إنشاء جمعية للمكفوفين تنهض بهم ، فاشترك الشيخ الصاوى مع الأساتذة محمد عزت ونقولا باسيلى وسيد راشد ورضا حمدى والمرحوم الشيخ يس الشيشينى وغيرهم فى إنشائها ، وكان ذلك سنة ١٩٤٢ .

و بعد ذلك شاع استعمال كلمة (النور) ، فأطلقوا على معاهد المكفوفين عنوان (معاهد النور) ، بعد أن كانوا يسمونها معاهد الشواذ أو معاهد العميان ، وتفرعت عن كلمة النور كلمات ، مثل (الفجر والضياء والأمل) إلخ . . .

وقد اتصل الشيخ الصاوى بالأزهر محاولا إقناعه ببذل جهود ملائمة للنهوض بالمكفوفين ، ولعل الأزهر يستجيب !! . . .

الدكتور صلاح مخيمر

ترجمة الحياة ومراحل التعليم :

الدكتور صلاح مخيمر أستاذ علم النفس بكلية المعلمين هو صلاح الدين حسنى مخيمر ، ولد فى ١٤ يونيه سنة ١٩٢٢ بمدينة أبى قرقاص التابعة لمديرية المنيا بالصعيد ، وكان والده موظفا فى النيابة ، وهو عرضة للنقل بحكم وظيفته ، ولذلك درس صلاح المرحلة الابتدائية فى عدة مدارس ، دخل أولا مدرسة الفشن، فنجع حمادي، فقنا ، ومن مدرسة قنا حصل على الشهادة الابتدائية وهو فى سن الحادية عشرة ؛ ثم درس المرحلة الثانوية فى مدرسة المنيا الثانوية ، و بعد أن قضى فيها ست سنوات حصل على شهادة (البكالوريا) سنة ١٩٣٩ .

ثم دخل الكلية الحربية (وكانت بالعباسية حينئذ)، وقضى فيها ثلاث سنوات ، ثم تخرج سنة ١٩٤٢ ، وعين ضابطا فى الإسكندرية ، ثم أصيب أثناء قيامه بواجب الخدمة العسكرية سنة ١٩٤٣ بلغم أضاع بصره ، كما أضاع إحدى ذراعيه ؛ وكان ذلك داعيا له إلى أن يكيف حياته تكييفا جديداً يوائم ماأصيب به ، فالتحق بكلية الآداب بجامعة فؤاد (القاهرة الآن) ودخل قسم الفلسفة فيها وظل من سنة ١٩٤٤ إلى سنة ١٩٤٨ ، حيث نال شهادة (الليسانس فى الفلسفة) .

وفى سنة ١٩٤٩ سافر فى بعثة علمية إلى فرنسا ، حيث التحق بالسوربون فى باريس ، ودرس هناك علم النفس ، وما أن انتهى عام ١٩٥١ حتى كان قد نال شهادة فى علم النفس العام ، وشهادة ثانية فى علم النفس التربوى ، وشهادة ثالثة فى علم النفس الاجتماعى ، وفى سنة ١٩٥٣ نال دبلوم الدراسات العليا فى علم النفس ، وقدم لهذه الشهادة رسالة فى مئة وسبعين صفحة عنوانها (نحو علم نفس اجتماع الجيشطلطات) ، وهى تطبيق لنظرية (جيشطلت) وهى

كلمة ألمانية معناها (الصيغة) ، وهذه أول مرة يُبحث فيها هذا الموضوع في علم النفس الاجتماعى .

وانتخب عضوا فى الجمعية الفرنسية للاختبار النفسى (الرورشاخ) بعد عامين من تخصصه فى الاختبارات النفسية ، وهذا الانتخاب ليس متاحا لكل شخص ، وبخاصة إذا كان للشخص ظروفه الخاصة كما هنا ، لأن قيمة الاختبار تستند إلى الإبصار ، وكانت هذه أول مرة يقوم فيها كفيف بالاختبار النفسى .

وقد قضى خلال ذلك أربع سنوات فى التحليل النفسى التعليمى ، كما حللوه أثناء ذلك نفسيا لكى تسلم نفسيته ، ويصبح سويا صالحا للقيام بالتحليل النفسى ، حتى لا يُسقط شيئا من نفسه على الأشخاص الذين يقوم بعلاجهم وتحليلهم ، كما انتخبوه عضوا فى الجمعية الدولية للتحليل النفسى . . .

وفى نوفمبر سنة ١٩٥٧ حصل على شهادة الدكتوراه من السوربون (دكتوراه الدولة) بمرتبة الشرف ، وكان موضوع رسالته فيها (تأهيل مكفوفى الحرب) فى ثلاثمائة صفحة ؛ وقد عرض فى القسم الأول من هذه الرسالة للمنحنى الانفعالى الذى يسلكه الشخص منذ إصابته بكف البصر حتى ينتهى إلى نمط من الأنماط النفسية يقف باتزانه عنده . وأما القسم الثانى فيعرض لشتى المشكلات التى يلقاها الكفيف فى الحقل الاجتماعى والعاطفى والجمالى ، وفى حقل الأحداث .

وخاتمة الرسالة هى أن المكفوف الذى يتحقق له التكيف أو التأهيل ينبغى أن يضطلع بشتى واجباته ، فيكون على استعداد للاشتراك فى الحرب القادمة إذا اقتنع بشرعيتها وضرورتها لبلده .

وقد جعل مع الرسالة بحثا آخر عن (الحياة الجنسية لمكفوف الحرب) ، وقد عرض فيها لبنية الحياة الجنسية إبان الحرب ، وانعكاس ذلك على حياة المقاتل عامة ، وإصابة المصاب بضعف البصر خاصة ؛ ثم يتعرض البحث لشتى التطورات

التي تطرأ على الحياة الجنسية للكفيف ، حتى ينتهي إلى الاستقرار عند نمط من الأنماط الثلاثة : النمط الاستقبالي ، ويعني به الشخص الذي يطلب باسم الكف أو على الرغم منه ، والنمط المتوافق الذي يستر ما ينطوي عليه قلبه من مشاعر ألمية تجاه المبصر ، ليظهر قناع الرضى والاستسلام والمرح إلخ . . . والنمط الثالث نمط التكيف حيث يتقبل المكفوف كف البصر المعوق له ، ويتغلب على مشكلاته الفيزيائية ، دون أن يحاول استغلال كف البصر أو تمويهه . . .

وهذه الأنماط تستجيب بطرائق مختلفة تجاه الخصائص المميزة للحقل الجنسي في فترة ما بعد الحرب : أما النمط الأول فينتهي إلى حياة الزواج ، وتتخذ الأسرة بنية معكوسة ، وتصير القيادة فيها إلى الزوجة ، ولا يوجد الاستمتاع الحقيقي ضمن هذا الإطار . . . وكفيف النمط الثاني تنتظره حياة من الصراع ، يناضل هو وزوجته من أجل القيادة ، وتتخذ العائلة بنية دورية ، بمعنى أن يصطلح الزوجان بصورة ضمنية على أن يتولى كل منهما القيادة حينا ؛ ويمر كفيف هذا الضرب بالكثير من التطورات النفسية ، قبل أن ينتهي بحقل المجال الجنسي إلى انتظام جديد يسمح له بالمتاع الكامل ، وإن كان في صورة مخالفة للمبصر .

أما النمط الثالث فينتهي إلى الزواج ، وتتخذ الأسرة البنية العادية ، فيتولى الكفيف شتى واجباته ، ولا يتعدى أن يكون كف البصر مجرد عائق كسائر العوائق ، لا يقع من عبئه شيء على الزوجة ولا على الأولاد .

وخلاصة هذا أن كف البصر ليس له دلالة ثابتة ، وإنما تتحدد دلالته تبعاً لما تكون عليه شخصية المكفوف ، وتبعا لما يسمح به اتزانه النفسي .

وقد كشف هذا البحث بصورة قاطعة نوع الفتاة التي تؤثر الكفيف على المبصر في الزواج ، وأبان دوافع هذا الإيثار ، وهذه ناحية جديدة في الرسالة .

وقد سألت الدكتور صلاح : لماذا لا تترجم هذه الرسالة إلى لغتك العربية ؟

فاعتذر بأنه لا يريد الاستمرار فى عمل علمى نزع يده منه قبل ذلك ، إذ هو يريد أن يعمل عملا جديدا . . .

الوظائف والأعمال :

عاد الدكتور صلاح مخيمر من باريس فى نوفمبر سنه ١٩٥٦ ، واشتغل أستاذاً لعلم النفس بكلية المعلمين ، وندب للعمل بالقسم السيكولوجى بإدارة تدريب الجيش ، وألقى طائفة من المحاضرات فى جمعية النور للنهضة بمكفوفى البصر ، تمهيداً لإنشاء مركز يعنى بشئونهم ، وأنشىء عقب ذلك المركز الثقافى للمكفوفين فى الشرق الأوسط ، وكان ذلك فى مارس سنة ١٩٥٨ ، ثم فُتح للمركز فرع فى دمشق بعد زيارة الدكتور للإقليم السورى واتصاله بالمسئولين هناك .

وأصدر الدكتور مخيمر مجلة (الكفيف العربى يتحدث) فى شهر يوليه ١٩٥٨ ، وهى مجلة تصدر كل ثلاثة أشهر ، والعدد منها فى نحو ثمانين صفحة من الحجم المتوسط ، وهى أول مجلة علمية فى هذا الموضوع تصدر فى الشرق ، والدكتور مخيمر هو رئيس تحريرها وسكرتير تحريرها هو الأستاذ أبو الحمد دياب ، ومن الذين يحررون فيها الدكاترة : عبد الحميد يونس ومحمد غلاب وعبد المنعم نور وفتحى عبد المنعم ؛ والأساتذة : أبو الحمد دياب والسيدة مفيدة عبده والصاوى شعلان والسيد عبد الفتاح وعبد الحميد حمدى وسمير باقى وسميرة الحكيم ومحمد عزت والدكتوران صلاح العقاد وصلاح الحصانى وسهير بيومى والسيد راشد وغيرهم .

وللمجلة اشتراك عادى هو خمسون قرشاً ، واشتراك إعانة مئة قرش ، واشتراك بر خمسمائة قرش ، وقد افتتح العدد الأول بكلمة للرئيس جمال عبد الناصر ، يقول فيها : « فلسفة الثورة المصرية يمكن أن يجمل مرماها فى لفظة واحدة هى القوة ، القوة المادية ، القوة الروحية ، القوة النفسية . . . إن الثورة لا تعرف معنى من معانى العجز ، إذ رفعت هذا اللفظ من قاموسها ، وعمدت إلى أن تنتفع بجهود

كل فرد من أفراد الأمة ، أيا كان هذا الفرد ، وأيا كانت طبيعته ، فكل ميسر لما خلق له ، وكل يستطيع أن يؤدى ضريبة الوطن عليه ، وأن يساهم فى بناء كيانه ورفع قواعد بنيانه » .

وبعدها كلمة لوزير التربية والتعليم السيد كمال الدين حسين ، وفيها يقول :

« إننى أحيي بإيمان وتقدير عظيمين الروح العاملة الخيرة التى توجه هذه المجلة إلى غايتها ، لخدمة هذه الطائفة من المواطنين ، وخدمة المجتمع كله . . . إنه عمل إنسانى وقومى أعلى مرتبة من الشعور بالرثاء والعطف ، لأنه يحاول علاجا لمشكلة المكفوفين فى نطاق شعور عام بالمسئولية القومية والمسئولية الإنسانية تجاه طائفة من إنسانيتنا ومن قومنا يستطيعون أن يكونوا ككل إنسان وككل مواطن أعضاء نافعين كل النفع للانسانية وللوطن ؛ تبارك هذا الشعور وهذا العمل ، وأيده الله بالتوفيق » .

وبعدها كلمة للدكتور طه حسين يقول فيها : « تحية يملؤها الأمل ، وتهنئة من أعماق القلب إلى هذه المجلة الناشئة ، التى كان ينبغى أن توجد فى مصر منذ وقت بعيد ؛ ولكن الله أراد أن يؤجل إصدارها حتى يتهيأ لها من ينهض بعبئها الثقيل الخصب ؛ بعد أن أعد نفسه لها أحسن إعداد وأكمله . وإنى لأرجو أن يتيح الله النجح لهذه المجلة ، كما أتاح النجح للمشرف على تحريرها ؛ فهى مجلة ستخلق شعوراً خطيرا جديدا ؛ ما أشد حاجة العالم العربى إليه فى هذه الحياة التى تفرض على أبناء الوطن أن يكونوا جميعا عاملين منتجين مشاركين ، لا فى رقى الوطن وحده ، بل فى رقى الانسانية كلها » ! ...

وبعدها كلمة للدكتور يوسف مراد ، يقول فيها :

« أن تصدر مجلة تكون منبرا للكفيف العربى ، لا لتدفع عن حقوقه ، إذ له جميع الحقوق التى كفلها الدستور لكل مواطن عربى ، بل لتبصر المبصرين بما يتمتع به الكفيف من قدرات على العمل والإنتاج ، إنه لأمر يدعو إلى الاغتباط والتفاؤل .

ولكن مما يزيد من اغتباطى وتفاؤلى أن تسند رياسة تحرير هذه المجلة الغراء إلى الدكتور صلاح حسنى مخيمر ، فقد عرفته طالبا نجيبا ، ينفذ ببصيرته إلى أعمق الحقائق العلمية والفلسفية ، بل عرفته إنسانا مخلصا مكافحا ، يعرف كيف يحول العقبات التى تعترضه إلى وسائل مجدية كفيلة بأن تحقق له النجاح فى كل مشروع يقوم به . وإنى واثق من أن مجلة (الكفيف العربى يتحدث) ستؤدى رسالتها الجليلة بكل نجاح وتوفيق » ! ...

وقد كتب الدكتور صلاح مخيمر فى هذا العدد الأول مقالا بعنوان (المبادىء الأساسية للتكيف) ، ننقل هنا الجزء الأخير منه كنموذج لكتابته ، قال :

« ينبغى على الكفيف فى هذا الحقل أن يتخلى عن كل فكرة أو محاولة لإصلاح الأوهام الخاصة بالعمى فى المجتمع من حوله ، فهو لن يبلغ من ذلك شيئاً ، وإنما الحرى به أن يحاول إصلاح نفسه ، فإنما يقع التكيف على الفرد لا على المجتمع ، وعلى الأقلية لا على الأغلبية ؛ وحسب الكفيف بالإضافة إلى ماسبق أن يتجنب التناقض فى موقفه ، فلا يشرح للناس القواعد الخاصة بمعاملة الكفيف حين ينادى فى الوقت نفسه بمساواته تمام المساواة ، وعليه ألا يسرف فى حديثه عن عباقرة العميان ، وقد كان بالأمس يسهب فى وصف ماهم عليه من شقاء استدرارا للعون ودعوة للتبرع ، وقد يضطر فى الغد إلى الدفاع عنهم باعتبارهم جماعة كسائر الجماعات تجد فيها العبقرى والمتوسط والأبله ، فى توزع يتبع النسبة الإحصائية .

وينبغى على الكفيف ألا يعتقد أن العمى يكسبه تجاه الغير امتيازا من الامتيازات كائنا ما كان هذا الامتياز ، فالحياة الاجتماعية تستند إلى الخدمات المتبادلة ، ولا تعترف بغيرها ؛ فسبيل الكفيف إلى كسب حقوقه الاجتماعية ينحصر فى اضطلاعه بشتى واجباته كمواطن ، حتى العسكرية منها ، وفى تاريخ روسيا وإيطاليا وفرنسا والعرب ما يكشف عن اشتراك الكفيف اشتراكا فعليا ومباشراً فى الدفاع عن بلده .

وينبغى على الكفيف أن يستمسك بمبدأ تكافؤ الفرص، فمن حق كل مواطن على وطنه أن تتاح له فرصته كسائر المواطنين، ومعنى هذا أنه ينبغى أن تتاح الفرصة للكفيف كى يتعلم كالمبصر، وإلى جانبه، وأن يعمل بعد ذلك تبعاً لإمكانياته بين المبصرين، فلا بد من أن تكون المدرسة والمتجر والمصنع فى المجتمع الديمقراطى بمثابة العينات الصادقة لشتى طوائف الشعب وطبقاته، أصحائه ومعافيه، بيضه وسوده ... إلخ.

هذا وينبغى على الدولة تحقيقاً لتكافؤ الفرص أن تضطلع عن الكفيف بما يتكبده من نفقات إضافية يقهر بها عوائق العمى، فما دام الكفيف يعمل كالمبصر، وبنفس أجره، فمن العدل كل العدل ألا تقع عليه نفقات يجهلها زميله ومنافسه فى حقل العمل.

تلك هى السنة التى تجرى عليها المجتمعات غير الاشتراكية، والتى يقوم فيها العمل على أساس من التنافس الحر، فتمنح الحكومة الكفيف قدراً من المال يسمح له بمعادلة عوائقه، وبالدخول إلى حقل المنافسة على قدم المساواة مع سائر المواطنين. ولقد كشفت التجربة عن أن كل دولار ينفق فى أمريكا على تأهيل الكفيف يتمخض بفضل عمله عن عشرة دولارات من الدخل؛ ناهيك عما يلحق بذلك كله من ازدياد فى تماسك الوحدة المعنوية للوطن . . .

وبعد فليس للعمى من دلالة وأثر إن لم يستند على عمى نفسانى، فلتتقدم أيها الأخ الكفيف، ولتحطم العقبات من حولك، وستجد أن العالم يعكس إليك مالك من صورة عن نفسك؛ وأنت أيها الأخ المبصر، أعنه على أن يأتى يوم فلا يحتاج فيه إليك، ولا يثقل عليك، وإنما يعينك، ويسهم معك فى إنتاج الوطن والذود عنه » ! ! . . .

المؤلفات والمقالات :

ترجم الدكتور صلاح مخيمر كتاب (سيكلوجية الشخصية) لمؤلفه (نوت كت) الإنجليزى ، وطبع سنة ١٩٥٦ ، كما ترجم كتاب (وحدة علم النفس) لمؤلفه (لاجاش) الفرنسى، وهو تحت الطبع، والدكتور صلاح بسبيل تأليف كتاب فى علم النفس الاجتماعى ، وترجمة كتاب آخر عنوانه .(الحياة الجنسية للمرأة) لمؤلفته (مارى بونابرت) الفرنسية .

وله مقالات فى المجلات التالية : الجيش ، المدفعية ، المهندسون العسكريون ، المحاربون ، الـكفيف العربى يتحدث . . .

وقد أنشأ (اختبارين إسقاطيين) للـكشف عن سمات الشخصية .

الحياة العائلية :

تزوج الدكتور صلاح مخيمر فى يوليه سنة ١٩٤٥ من زميلة له فى كليـة الآداب ، ولهما الآن ثلاثة أولاد ذكور ، وقد وقف الحمل منذ ست سنوات تقريباً؛ وقد توفى والد الدكتور سنة ١٩٤٥ ، كما توفى له أخوان ، ويوجد له ثلاثة إخوة ، ومواعيده منظمة ، وحياته رتيبة هادئة ، وهو يتحكم فى وقته ، ويرسم منهجه ، وهو مدين فى هذا كما يقول للحياة العسكرية التى نشأ عليها قبل كف البصر .

معلومات أخرى :

بدأ الدكتور صلاح مخيمر التدخين وهو طالب بالمدرسة الثانوية ، وكان يدخن اللفائف أولا ، ثم انتقل إلى (البايب) بعد كف بصره ، وهو يملأ (البايب) ويشعله لنفسه بنفسه ، مع أنه بذراع واحدة . وقد قام ببعض أعمال النحت على سبيل الهواية ، وهو مولع بدراسة النواحى الفنية والجمالية فى حياة الأعلام من المـكفوفين ، وقد قال الشعر أحياناً ، وتعلم طريقة (برايل) ، ولـكنه

لا يفضلها للمكفوف ، وله فى ذلك وجهة نظر معينة بسطها فى رسالته ، ولا يتسع المجال لشرحها ، وهو لا يتحرج مطلقاً من الحديث عن كف البصر ، وإن كان لا ينشرح للحديث المفصل عن إصابته هو ، كما أنه لا يتحرج — كما سبق — من استعمال مادة (العمى) فى حديثه وكتابته ، وهذا بخلاف ما أرى[1] !! . . .

ولقد كنا نتحدث معاً ذات مساء فى دار المركز الثقافى ، ومعنا البكباشى سعيد الماحى والبكباشى زكى منصور ، وهما صديقان للدكتور ، والأول منهما صديقه منذ ثلاثة وعشرين عاما ، وجرى الحديث عن فلسفة كف البصر ، فقال لى الدكتور صلاح :

« فلسفة العمى كتجربة عشتها هى أن الإنسان يعكس فى نظرته إلى نفسه نظرة غيره إليه ، ولا سيما نظرة المحبّبين إليه من بين هذا الغير ، ولقد رأيتَ كيف أن العمى لم يغير من موقف أصدقائى بالنسبة إلىّ ، ولم يكن هناك مايدعونى إلى أن أغير نظرتى إلى نفسى ؛ فقد كان — وما زال وسيظل — (سعيد) (وزكى) يضفيان على الحياة كلّ مالها من قيمة عندى » ! ! . . .

---

(١) انظر كتاب فى عالم المكفوفين ، المجلد الأول ، ص ١٨ — ٢٢ .

الأستاذ فتحى عبد المنعم

الأستاذ فتحى عبد المنعم الأستاذ بمعهد القاهرة الدينى هو محمد فتحى بن عبد المنعم محمد على عبد الرحمن ، وقد ولد فى ٢٢ يناير سنة ١٩٢٠ فى قرية (البيضاء) بمركز السنبلاوين بمديرية الدقهلية ، ووالده هو عمدة هذه القرية.

وعندما ولد محمد فتحى كان أول طفل لأبويه ، فاغتبطت الأسرة بميلاده ، وكان والده حينئذ شابا يطلب العلم فى الأزهر ، وكان جد فتحى يعنى بتعليم ولده عبد المنعم ، وزوّجه مبكرا ، وقد وُلد فتحى وأبوه فى سن العشرين .

وبعد شهور من الميلاد أصيب الطفل بحالة رمد ، فبدأوا علاجه بالعلاج المألوف فى الريف ، كوضع (القطرات) فى العين ، ثم عرضوه على بعض الأطباء ، وكانوا لا يقدرون خطورة حالته ، ولما لم يفد العلاج ذهبوا به إلى الدكتور (العجيزى) فى طنطا ، فقرر أن العلاج قد تأخر ، وأن الحالة لا يرجى شفاؤها ـ إلا أن يرى قليلا ، بحيث يميز الألوان والأشباح فقط .

وكان لهذا الحادث صدمة عنيفة فى نفوس الأسرة ، وابتدأوا يفكرون فى نوع التعليم الذى يناسب الطفل ، ورسموا الطريق لذلك ، وهو البدء بحفظ القرآن الكريم ، تمهيداً لإدخاله الأزهر الشريف ، ومن الجائز أنه لو لم يصب الطفل بعينيه أن يكون مصيره إلى الأزهر ، لأن الأسرة راغبة فى الدين ، والجد كان حريصا على تربية أبنائه فى الأزهر ، مع أنه كان موسرا يستطيع أن يعلم أبناءه بالنفقة فى المدارس المدنية .

وبكر الطفل بالذهاب إلى (المكتب) فما كاد يحسن النطق حتى بدأ الحفظ ، وبلغ ثلاثة أرباع القرآن حفظا وهو فى السابعة من عمره ، وهو يتذكر هذا جيدا ، لأن اختباره فى ذلك صادف يوم سبت احتضر فيه (عريف المكتب سيدنا الحاج أحمد حسن) ، وأتم فتحى حفظ القرآن وهو فى الثامنة من عمره !!...

ولم يقتصر تعلمه على حفظ القرآن ، بل كان والده يذهب به إلى مدرسة القرية ليسمع دروس التاريخ والجغرافيا والمطالعة ليعى منها ما يستطيع ، وحدث وهو صبى أن احتضنه والده وسأله متوددا إليه : أتحب أن تكون عالما أم شاعرا ؟ . فسأل الصبى عن معنى الشاعر فأجابه أبوه بأن الشاعر هو الذى يقول الكلام الموزون الذى يشبه المنظومة التى تقال قبل انعقاد (حلقات الذكر) ... ولا يذكر الصبى ما الذى اختاره منهما ، ولكنه يذكر أنه حاول عقب ذلك أن يقلد المنظومة بعبارات له قد ينقصها الوزن . . .

ولم يشعر الفتى بكبير نقص لكف البصر ، لأنه كان يستطيع أن يميز بين الألوان ، وهو يرى شروق الشمس وغروبها ، ويرى أشباح الأشجار والأفراد ؛ ولم يحس بإجحاف فى معاملته ، كما أنه لم ينغمر فى عطف أكثر من اللازم يشعره بأن له حالة خاصة تستوجب مزيداً من الرفق ، ولعل هذا هو الذى قرب فطرته ونشأته من الاعتدال والاستقامة ، وبعض الأساتذة المتخصصين فى علم النفس الذين درسوا له حدثوه بذلك ؛ وكان لتعلم الوالد وثقافته وخبرته أكبر الأثر فى هذا الاعتدال . . .

وبعد حفظ القرآن الكريم تعلم أحكام التجويد والقراءات التى حفظ فيها بعض المنظومات ، وفى سنة ١٩٣٠ دخل معهد الزقازيق الدينى التابع للأزهر ، ونال منه الشهادة الابتدائية سنة ١٩٣٤ . وكانت هذه الفترة مرحلة عكوف على العلوم الأزهرية ، وكان يساكن من يكبره سنا ويتقدمه صفاً فى الدراسة ، فكان يسمع من زملائه علومهم وموادهم ، ويشاركهم فى الفهم والتحصيل ، ولو لم تكن هذه المواد مطلوبة منه ، ولا مقررة عليه فى سنته الدراسية .

وحاول أن ينظم الشعر ، وكانت أول محاولة له فى ذلك عقب وفاة أمير الشعراء أحمد شوقى سنة ١٩٣٢ ، إذ حاول أن يقول فيه رثاء ، ويذكر من هذه القصيدة مطلعها الذى يصفه بأنه مضحك ، وهو :

ذقت الأسى ومرارة الحرمان   ونمت بقلبى شعلة النيران

وكانت له بعد ذلك محاولات فى الشعر ، وكان أغلب شعره فى النواحى الوطنية ، وأرسل بعض قصائده إلى محطة الإذاعة ، فتلقى من مديرها حينئذ الأستاذ مدحت عاصم خطابا يشجعه على عمله الفنى . ومن شعره العاطفى قوله :

ويح قلب سار فى لوعته الحرى وحيدا
يعبر العيش على أجنحة الماضى شريدا
يجتلى الروض فلا يأخذه نفح الزهرْ
ويرى النور فلا يؤنسه وجـــه القمر
لم يعد يشهد بعدك فى الـكون جمالا
كل حسن بعد مرآك غدا فيه خيالا !

ثم نال الشهادة الثانوية من معهد الزقازيق أيضاً سنة ١٩٣٩ حيث كان زميلا لنا خلال هذه المرحلة من الدراسة ، وكان مبرزا فى العلوم الأزهرية ، ونفعه عمه (الشيخ طه) الذى كان ولوعا بقراءة الـكتب فى العلوم العربية ، فـكان يقرأ لفتحى الـكتب المقررة عليه فيما يستقبل من سنوات دراسته . وشغف فتحى خلال المرحلة الثانوية بالأدب ؛ بالقصة والمقالة والقصيدة ، ولم يـكن له خلال هذه الفترة عكوف على مدرسة أدبية معينة ، إذ لم يـكن له ميل معين فى هذا ، فهو يطالع للرافعى ولطه وللعقـاد على اختلاف ما بينهم فى المذهب والمشرب .

ثم دخل كلية أصول الدين ، بعد أن كانت له رغبة قوية فى دخول كلية اللغة العربية ، ولم يتمكن من تحقيق تلك الرغبة ، لأن لوائح كلية اللغة العربية تقف — حتى الآن مع الأسف — فى وجه مثل هذه الرغبة ، لا لشىء إلا لأن صاحبها مكفوف ! . . . أحتى فى الأزهر تلك الجامعة الـكبرى التى تضم أكبر عدد من المـكفوفين ؟ !... إلى متى يا رجال الأزهر الشريف؟ !، .

وكان المحرك لهذه الرغبة فيه هو كلفه بالشعر والأدب ، وكانت التعزية الوحيدة له هى أنه فى كلية أصول الدين سيكون وثيق الصلة بالمنبعين الأساسيين للبيان

والأدب وهما القرآن والحديث، وقد اختارت الأقدار له . ونِعِمَّا الاختيار كان . . إذ وجهته إلى أكثر الكليات ملاءمة له ،و بعد أن عرفها وعرف موادها وامتزج بها صار يقول : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما رضيت بكلية أصول الدين بديلا . . .

وأخذ يدرس فى الكلية علم النفس والفلسفة والأخلاق والتاريخ ، كما أخذ يدرس اللغة الإنجليزية ضمن مواد الكلية ، وكان من أوائل الطلاب ، ولذا كان يتمتع بمكافأة التفوق الشهرية التى تخصصها الكلية للسباقين من الطلاب . . . وكان مسروراً مغتبطا ، لأن الأزهر الحديث يتيح لطلابه فرص الفهم للتيارات العلمية والفلسفية .

وحدثت له وهو فى كلية أصول الدين أزمة نفسية عنيفة ، فإنه كان متدينا جداً ، وكان فى الوقت نفسه كلفا أشد الكلف بالفن : بالموسيقى والشعر والغناء والمسرح . . . إلخ . وكان يسائل نفسه : أمن الممكن أن يكون (صاحب فضيلة) وصاحب فن ؟ . أو بعبارة أخرى : ما العلاقة بين الفضيلة والفن ؟ . . . وأحيانا كان يسأل نفسه هذا السؤال وهو يصلى ،وحين يتلو قوله تعالى :« اهدنا الصراط المستقيم» . كان يتساءل بينه و بين نفسه : هل يستقيم الفن مع هذا الصراط المستقيم ؟ وهل الفن من رحاب الدين أو من عمل الشيطان ؟ . . . وكان يسأل نفسه أيضاً : ما العلاقة بين التصوف والحياة العملية الواقعية ؟ هل مقتضى الدين أن يعطى الإنسان حياته كلها للتعبد والتنسك،أو يعطى منها طرفا للفن ؟ وما العلاقة بين الدين والتطور ؟ وهل يتفقان ؟ . . . إلخ .

وأراد الطالب الأزهرى المكفوف أن يجد منفذا يخرج به من لهب هذا الصراع النفسى ، فكتب فى ذلك رسالة مسهبة إلى الدكتور طه حسين ، ورد عليه الدكتور ردا وعته ذاكرة الطالب ، فهو يسرده لا يخرم منه لفظا ، وفى هذا الرد يقول له الدكتور طه :

« سيدى :

تلقيت رسالتك الكريمة القيمة ، فوجدت فيها متاعاً أى متاع ، ولولا أنى على جناح سفر لرددت عليك رداً مفصلا ، يتناول كل ما جاء فى رسالتك ، ولكنى أكتفى الآن بأن أحمد لك هذا الفراغ لنفسك ، ومحاولة النفاذ إلى أعماقها ، وهو آية استعداد حسن جدير أن يؤتى ثمراً طيباً فيه للناس غذاء وشفاء . وإنى أذكرك ولا إخالك تنسى أن الحلال بين وأن الحرام بين ؛ واعلم أن الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، وقد أذن الله للناس أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد ، وما أرى هذه الزينة إلا لوناً من ألوان الفن ؛ وقد سمع النبي الشعر ، ورضى عنه ، وأجاز عليه ، وقال لأصحابه : إنما بعثتم ميسرين لا معسرين .

ولست أرى عليك أو على غيرك بأساً فى أن تقول الشعر ، وتكتب النثر ، وتصنع الألحان ، وتستمتع بالغناء ، وأنت تعلم أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، فسلِّم الناس من لسانك ويدك ، وأد لله حقوقه التى تعرفها ، وخذ بعد ذلك بحظك من الحياة فى رفق وإسماح ، فالله لم يخلق هذه الطيبات وهو يكره أن ينتفع الناس بها .

هذا وأرجو إذا عدت من السفر أن ألقاك لأطيل الحديث إليك والاستماع منك ، وأحب أن تتصل بكلية الآداب فتسمع لما يقال فيها ، كما تسمع لما يقال فى كلية أصول الدين ، وأود بنوع خاص أن تتعمق درس بعض اللغات الأجنبية ، فإنى أكره لمثلك ألا ينتفع بما فى هذه اللغات من أدب فيه ملاءمة بين حاجة النفس إلى الدين ، وحاجتها إلى الحياة المتحضرة ، وأنا أهدى إليك أصدق تحياتى وأخلصها » !! ...

ولقى فتحى الدكتور طه بعد ذلك مرات وفى فترات ، وفى أول مرة لقيه

فيها قال له الدكتور : إنك تنظر إلى الحياة نظرة فنية خالصة ، ويجب أن تنظر إليها نظرة واقعية ...

ونال الشيخ فتحى الشهادة العالية من كلية أصول الدين سنة ١٩٤٣ وكان أول الناجحين فى هذه الشهادة ، إذ كان مجموع درجاته أكبر من مجموع درجات أى طالب آخر من المبصرين والمكفوفين، ولكن اللوائح التى تقف حجر عثرة ، وتوجد نوعاً شاذاً من التفرقة حرمته التمتع بميزات هذا السبق ...

ودخل الشيخ الأزهرى قسم تخصص التدريس التابع لكلية اللغة العربية ، ونال شهادة العالمية مع إجازة التخصص فى التدريس سنة ١٩٤٥ ، وكانت المواد التى درسها فى التخصص خفيفة شائقة ، ووجد أثناء ذلك فرصة للمطالعة .

وفى أواخر السنة المذكورة عين مدرساً فى معهد أسيوط الدينى ، يدرس التوحيد والحديث والمنطق والأدب ، وقضى هناك سنتين كانت من أخصب السنوات التى قضاها : من ناحية الاتصال بالطلاب والتأثير فيهم والتوجيه لهم ، و إلقاء المحاضرات داخل المعهد وخارجه، والاشتراك فى المناظرات التى تدور حول الموضوعات الأدبية والاجتماعية ، ومن حسن الحظ أن مدير أسيوط فى ذلك الوقت هو الشاعر الكبير الأستاذ عزيز أباظة .

وفى سنة ١٩٤٧ نقل الأستاذ فتحى مدرساً فى معهد القاهرة الدينى ، ولكنه لم يجد فى رحاب معهد القاهرة مجال النشاط الذى كان يجده فى أسيوط .

وفى السنة المذكورة تزوج من أسرة من القاهرة بينه و بينها صلة نسب سابقة وعنده الآن أربعة أطفال هم : فاطمة ، وأمانى ، وأكثم ، وأشرف .

وفى عام ١٩٥٠ فكر الأزهر فى إيفاد بعثة علمية إلى أوربا ، فتقدم الأستاذ فتحى بطلب للاشتراك فى هذه البعثة ، فرفض الأزهر طلبه ، وكان شيخ الأزهر حينذاك هو الشيخ مأمون الشناوى . وفى عام ١٩٥٢ سافر فى بعثة علمية إلى

فرنسا ، حيث نزل مع أسرته فى باريس ، وأنفق الفترة الأولى عقب ذهابه فى تعمق دراسة اللغة الفرنسية ، ثم بدأ يعد رسالة للدكتوراه ، ورأى الأساتذة أنه ليس فى حاجه إلى تمهيد لإعداد هذه الرسالة ، بل يبدأ فيها مباشرة ، واختار موضوع الرسالة وهو (تحديد النظرية السياسية عند الفارابى) . وقد عاد من فرنسا فى ١٨ يناير سنة ١٩٥٧ ، ورجع إلى التدريس فى معهد القاهرة ..

وكان يعتقد أن من الأهداف الهامة له أن يعرف الروح الأوروبى ، ويعرف آراء الأوربيين فى الإسلام ، ويرى أنه بلغ من ذلك ما أراد ، ويعتقد أنه لو أتيحت له الفرصة لخدمة الإسلام لسلك الوسائل المجدية فى تلك الخدمة ، ويرى أن المعركة الدائرة حول المعتقدات فى العصر الحاضر معركة خطيرة ، والدين الذى سيقاوم فى هذه المعركة وسيثبت لها هو الإسلام ، إذا فهمناه فهما صحيحاً ، وعرضناه عرضا سليما باللغة التى يفهمها الناس اليوم ، وهو يفكر فى وضع كتاب بعنوان (دين المستقبل) وهو دين الإسلام ، لأنه دين الفطرة السليمة ؛ ويرى أن الفن يستطيع أن يؤدى نفعا كبيرا للإنسانية وخدمة الدين .

والأستاذ فتحى لايتحرج من الحديث عن كف البصر ، وهو عضو فى المركز الثقافى للمكفوفين فى الشرق الأوسط ، وهو يكتب فى مجلة (الكفيف العربى يتحدث) ويشارك فى ندوات المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين وغيرها من الجمعيات .

ونورد هنا جانبا من مقاله كتبها الأستاذ فتحى بعنوان (نحو مجتمع أفضل) فى العدد الأول من مجلة (الكفيف العربى يتحدث) وفيها يتكلم عن المكفوفين ، وعن الجهود التى بذلت من أجلهم ، والجهود التى يجب أن تبذل ، قال :

« لعل من الحقائق التى يجهلها كثير من المثقفين أن بلادنا تمتاز عن كثير من البلاد بارتفاع نسبة فاقدى البصر بين أبنائها ، ولعل من الحقائق التى يستوى

فى إدراكها المثقفون وغير المثقفين أن الآفة التى تصيب الإنسان فى إحدى حواسه فتضعفها أو تودى بها تضيّق مجال الحياة أمامه، فتحرمه من كثير من فرص النجاح والاستمتاع بالحياة التى ينعم بها غيره .

وإذا كان بعض الصم أو العمى قد نجحوا فى الحياة، وصاروا عباقرة فى ألوان من النشاط الفنى أو العقلى عن طريق التعويض، أو لقدرة خارقة على مقاومة البلاء، فإن ذلك لا يعنى أن كل أصم أو أعمى يستطيع أن يبلغ ما بلغوا، لأن البصراء أنفسهم، والذين اكتملت حواسهم لا يستطيعون أن يبلغوا ما بلغه هؤلاء، لأن العبقرية استثناء لا قاعدة، والقاعدة فيمن يصاب بمثل هذه الآفات أن يكون أعجز من غيره عن أن يطلق لنفسه عنان الحياة، وأن يستمتع بسائر مواهبه وملكاته كما يجب، ولكنه على عجزه هذا إذا لقى نصيبا من الرعاية والتوجيه والتثقيف، وأحس أن المجتمع الذى يعيش فيه أخذ بيده ويعينه على النهوض، قادر على التغلب على هذه الآفة، وأن يمضى فى حياته إنسانا منتجا كسائر إخوته المواطنين، أما إذا أغفله المجتمع فإنه يعيش بين أبنائه كالموءود قبل أن يموت .

على أن المجتمع إذ يبسط يده بالرعاية لهؤلاء لا يحسن إليهم، وإنما يحسن إلى نفسه، وخير له ولا شك أن يكون أبناؤه جميعا منتجين، يأخذون ويعطون، من أن يكون بعض أبنائه عبئا على عاتقه، يأخذون ولا يعطون، وينتفعون ولا ينفعون .

وقرانا تزخر بعدد من هؤلاء الذين يعيشون فى برزخ بين الحياة والموت، فهم مع الأحياء يتحدثون إليهم، ويشركونهم فى معاشهم، وهم مع الموتى، لأنهم يدينون لهؤلاء بحياتهم ورزقهم؛ فإن أحدهم بعد أن شب عن الطوق ورأى الحياة مظلمة أمامه، وسمع الناس يتحدثون من أمورها عن أشياء لا يجد لها صدى ولا معنى فى عقله، لم يجد أمامه إلا سبيلا واحدة يستطيع أن يسلكها ليعيش،

وهى أن يحفظ القرآن ويجوده ليتخذ من تلاوته فى البيوت مرتزقا ، والقرآن إنما يتلى فى البيوت ترحما على الموتى ، لا التماسا لما فيه من موعظة وحكمة .

فمناط حياة القارئ منهم ومورد رزقه أن يموت ميت ، أو أن يحتفل بذكرى الأربعين ، أو الذكرى السنوية لفقيد عزيز ؛ وكلنا رأى هذا الطراز من الناس ، ورأى الحياة المتواضعة التى يحيونها ، وإن فى الكثير منهم ذكاء لو استغل ووجه التوجيه الصحيح ، لكان فيه للناس خير كثير .

وقد أتاحت الظروف الاجتماعية والاقتصادية للقليل منهم أن يبرز ، وأن يوفى على الغاية من درسه الجامعى ، بل استطاع بعضهم أن يلتمس العلم فى جامعات أوربا ، وأن يظفر بدرجات علمية رفيعة ؛ ولكن الفضل فى ذلك لظروفهم الاقتصادية التى مكنت أهليهم من أن يخرجوا بهم عن نطاق القرية المحدودة ، ثم للأزهر الذى لا يشترط اللياقة الطبية كما تفعل سائر المدارس المدنية ، ولبعض كليات الجامعة التى تأذن لهم فى الالتحاق بها ثم العمل فيها .

وهؤلاء المكفوفون مع ذلك مواطنون ، لهم ما للمواطنين من حقوق ، وعليهم ما عليهم من واجبات ، وكان واجب الدولة أن تعنى بهم ، وتتيح لهم جميعا فرصة التعليم العام ، ليمضى فيه من يستطيع المضى ، وينصرف عنه من لا يستطيع إلى عمل أو صناعة تهيئه لها الدولة ...» .

الدكتور محمد العلائى

النشأة ومراحل التعليم :

الدكتور محمد العلائى المدرس بكلية الآداب بجامعة القاهرة هو محمد على إبراهيم أحمد ، وقد ولد فى ٨ سبتمبر سنة ١٩١٦ بقرية (كفر الحمام) بجوار مدينة الزقازيق عاصمة مديرية الشرقية ، وهو من عائلة فيها تسمى عائلة (الفوايد) جمع فايد ، وكان والده شيخا مدرسا فى المدارس الابتدائية ، ثم صار مفتشا فى المدارس الأولية .

وكان محمد يبصر فى صغره ، ولكن نظره أخذ يضعف وهو فى سن الحادية عشرة ، وظل يستطيع أن يقرأ و يكتب حتى بلغ الخامسة عشرة ، وعرضوه على الأطباء للعلاج ، ولكن ذلك لم يمنع استمرار البصر فى الضعف ، مع عدم الجزم بسبب هذا الضعف ، اللهم إلا أن يكون ضعفا فى أعصاب البصر مجهول السبب ، ولما فقد محمد بصره بقيت عيناه سليمتين كعينى المبصر ، حتى إن الذى لا يعرف أمره يحسبه حين رؤيته له أنه مبصر وليس بمكفوف .

كان محمد قبل إصابته بعينيه قد دخل مدرسة كفر صقر الابتدائية وهو فى السابعة أو الثامنة ، ثم دخل مدرسة فاقوس لأن والده نُقل إليها ، وبلغ السنة الثالثة فى المدرسة الابتدائية ، ولما ضعف بصره - كما أسلفنا - تحول من المدرسة إلى (المكتب) ليحفظ القرآن الكريم ، استعداداً لدخوله سلك التعليم الأزهرى ، وساعده والده كثيرا بثقافة الإسلامية والعربية ، فاستفاد الفتى من ذلك كثيراً .

ثم دخل محمد معهد الزقازيق الدينى سنة ١٩٣٠ ، وكان غير راض بالدراسة الأزهرية ، لأنه عرف طريق الدراسة المدنية أولا ، ولأن الدراسة الأزهرية طريق

لجأ إليه مضطرا بعد إصابته فى عينيه ، ولأن نزعة التعليم الأزهرى غير موجودة فى أسرته ؛ فأغلب من حوله فيها قد تعلموا تعليما مدنيا، ولكنه شعر عقب فقد البصر أنه بحاجة إلى مغالبة هذا النقص الحسى ، ولا بد مما ليس منه بد ، فأقبل على دراسته ..

ونال الشهادة الابتدائية من معهد الزقازيق سنة ١٩٣٤ ، وكنتُ حينذاك فى معهد دمياط الدينى ، ونلت منه الشهادة الابتدائية فى العام المذكور ، ثم تحولت إلى معهد الزقازيق الثانوى ، حيث زاملته خلال الدراسة الثانوية ، ونلنا معا الشهادة الثانوية عام ١٩٣٩ م ، وتجاورنا فى الفصل أوقاتا كثيرة، وكنا نشترك أحيانا فى القراءة ودراسة الأدب ، وإذا أقبلت العطلة الصيفية وعدتُ إلى قريتى (البجلات) وعاد هو إلى قريته (كفر الحمام) كانت بينى وبينه مراسلات فيها أمور تتصل بالأدب والاجتماع ، وكنت أبدأ خطابى إليه بقولى له (يا أبا العلاء) وذلك لما كانت تتسم به أفكاره ومراسلاته من ملامح تدنو من روح أبى العلاء ، وكان هو برغم ضيقه وشكواه وتبرمه يحاول أن ينكر ذلك ، وكان يسرف فى التدخين وهو طالب ، ويغلب عليه الصمت أثناء الدروس ، ولا يشارك زملاءه الأسئلة أو المناقشة .

ثم فرقت بيننا الحياة فما جمعتنا بعد ذلك إلا نادرا ، فدخلتُ كلية اللغة العربية — حرسها الله معقلا للغة القرآن وأدب العرب — وحاول هو أن يدخل كلية الآداب ، فلم يتيسر له ذلك ، إذ لم يستطع أن يؤدى امتحان المعادلة، لأنه لا يعرف اللغة الإنجليزية ، فدخل الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، حيث مكث بها حينا ، ودرس فيها الإنجليزية وجانبا من العلوم الاجتماعية ، وفى نفس الوقت قيد نفسه طالبا فى كلية أصول الدين بالأزهر ، وحضر فيها طائفة من الدروس ، وأدى امتحانها آخر العام ، وانتقل إلى السنة الثانية ؛ ولكنه لم يستمر فى الجامعة الأمريكية ، ولا فى كلية أصول الدين ، بل ولى وجهه شطر كلية الآداب بجامعة

فؤاد (القاهرة الآن) بعد أن عاونه فى ذلك الأستاذ أمين الخولى والدكتور طه حسين ، وقد تحمس له الأستاذ الخولى وعنى به كثيرا .

ودخل قسم اللغة العربية بهذه الكلية ، وتأثر خلال دراسته بالأستاذين أمين الخولى وأحمد أمين ، والدكتورين طه حسين وعبد الوهاب عزام ؛ ونال (الدبلوم) من كلية الآداب فى اللغة العربية سنة ١٩٤٥ ؛ وتطلعت نفسه إلى بعثة علمية فى الخارج ، واستجاب لهذا التطلع الأستاذ إسماعيل القبانى ، فحوّله إلى معهد التربية ، حيث يقضى سنة دراسية يحضر فيها للبعثة .

وكان محمد أثناء دراسته فى كلية الآداب قد بدأ يقول الشعر الحزين الباكى وينشر بعضه ، وأخذ يقتصر فى اسمه على كلمتى : (محمد العلائى)، وعرفته الأوساط الأدبية بهذا الاسم ، ويذكر العلائى أنه بدأ قول الشعر منذ سنة ١٩٣٩ ، ونشر قصائد معدودة منه فى مجلتى الرسالة والثقافة ، ولم يقل شعرا فى كف البصر ، وهذا أمر يحتاج إلى تأمل وبحث .

وفى سنة ١٩٤٧ سافر إلى انجلترا ، ونزل فى ليفربول، ومنها إلى لندن ، حيث مكث بها عدة شهور ، ثم انتقل إلى أدنبرة عاصمة اسكوتلاندة ليدرس هناك ، وكانت له سكرتيرة هناك تعاونه فى عمله ، وفى انجلترا تعلم مبادئ اللغة الفرنسية، كما تعلم طريقة (برايل) باللغة الإنجليزية ، ولم يتعلمها باللغة العربية ، إذ لم يجد من يعرفها هناك ، كما أن الكتب التى سيطالعها والمكتوبة بطريقة (برايل) مكتوبة باللغة الإنجليزية .

وقضى فى (أدنبرة) ثمانى سنوات ، تعرف أثناءها بآنسة مصرية كانت تدرس فى انجلترا أيضاً ، وهى كريمة أحد أساتذته ، ثم تزوجها وقضى معها حينا ، ولكنهما لم يتفقا فافترقا ، وخلّف هذا الافتراق لونا من المتاعب النفسية ، وهو يذكر أنه يحاول الخلاص من ذلك الآن بالزواج مرة أخرى .

وكان يدرس الحضارة والفلسفة والأخلاق ، وفى سنة ١٩٥٠ نال درجة الدكتوراه برسالة كتبها عن الدراسات اللغوية ، وكان المشرف عليه فى هذه الرسالة هو الأستاذ (ماكرى) ، ثم نال درجة الدكتوراه مرة ثانية برسالة وضعها عن الحضارة ، وكان المشرف عليه فيها هو الأستاذ(مونتجمرى)، وكأنه لم يكتف بهذا ، بل طمحت نفسه إلى أن ينال الدكتوراه فى علم النفس من جامعة بريستول فى موضوع (موقف علم النفس التحليلى من الوعى الخلقى ، ورأى علم النفس فى تكوين الضمير الأخلاقى) ولكن الأسباب لم تهيىء له إتمام ذلك ، وهو لم يترجم رسالتيه اللتين تقدم بهما مرتين للدكتوراه .

ولقد اتصل بشئون المكفوفين وهو فى انجلترا ، فزار المعاهد الخاصة بالمكفوفين ، ودرس وسائل التربية الموجهة للمكفوفين فى أدنبرة ، وبريستول ، ولندن ، وكان يقصد من وراء هذه الزيارات أخذ انطباع عن أساليب تربية المكفوفين ، ومن العجيب أنه لم يتصل كثيرا بجمعيات المكفوفين بعد عودته ، ولم ينفعها بانطباع زياراته ، وهو يحاول أن يعتذر عن ذلك بقوله : « إن العمل فى هذه الجمعيات فرض كفاية يسقط عن الباقين ما دام البعض يقوم به » ! ! . . . وكل ما قنع به الدكتور العلائى من اتصاله بشئون المكفوفين أنه عضو فى مجلس الإدارة للمركز الثقافى للمكفوفين ، وهذا لا يكفى ، بل لا بد من نشاط ومجهود ، ولا يكفى اعتذار الدكتور بأن المتفرغين لهذه الشئون أمثال الدكاترة عبد الحميد يونس وصلاح مخيمر وعبد المنعم نور أولى منه وأقدر .

ولقد حدثته فى ذلك بصراحة ، وبعد مراجعة قال إنه مستعد لأن يسهم فى النشاط الخاص بالنهوض بالمكفوفين . فقلت له : ومتى ؟ . فأجاب : لا أعرف !! ... وأنا أيضاً لا أعرف متى يترك العلائي عزلته ويشق طريقه فى مجتمع الناس !! ...

الوظيفة والجهود :

بعد أن عاد الدكتور العلائي من انجلترا عرضوا عليه أن يدرِّس فى الفلسفة والاجتماع، ولكنه آثر قسم اللغة العربية بكلية الآداب فظل مدرسا فيه حتى الآن ، وهو يقول : « إن كل شيء عملته يمثلنى وأنا طالب ، ومنذ تخرجت لم أعمل شيئا سوى التدريس » . ولكنه يعد الآن كتابا عن (الحضارة) ، يتحدث فيه عن الحضارة عامة وعن الحضارة الإسلامية خاصة، وهذا الكتاب هو مجموعة محاضراته التى ألقاها بالجامعة سنة ١٩٥٨ م ، ويقول عن هذا الكتاب إنه يمثله فى مرحلته الحاضرة ويعتز به .

وهو قليل الحضور للمجتمعات والندوات ، وحينما يُسأل عن ذلك يقول : « إن أصدقائى هم عزائى ، وليس لى فلسفة فى العزلة ،ولكننى مضطر إليها بسبب الإعياء والتوعك ، وشعورى مع الناس دائما » .

ولقد تعرض العلائى حين تطلعه إلى البعثة العلمية فى الخارج لأزمة نفسية عنيفة، ولعل العوائق التى كانت فى طريقه هى سبب هذه الأزمة ، ولقد حاول العلائى أن يصور لنا حاله أثناء هذه الأزمة فى جانب من شعر له نشره على الناس ، ونحن نورد هنا شيئا من ذلك ، لما فيه من تصوير لحالته حينئذ من جهة ، ولأنه لون من آثاره الأدبية من جهة ثانية ، ولأن هذا الشعر له صلته بعالم المكفوفين من جهة ثالثة :

ففى عدد مجلة (الرسالة) الصادر بتاريخ ١٠ يناير سنة ١٩٤٤ نشر العلائى قصيدة بعنوان (على ضفاف الجحيم) ، وصدَّرها بقوله :

« إلى ذلك الروح الذى نفث القدر فى دمى معناه فأخرس كبريائى ، ومزق رغباتى ، وضرب على مشاعرى جواً من الضباب ، تتخبط فيه حكمتى ، وتتعثر أشواقى » . وهذه هى القصيدة :

عَلام أبعث للدنيا بأنغامى ؟ لا الظل ظلى ، ولا الأنسام أنسامى !
لا الشمس فى ضحوتى أسعى بموكبها ولا الحقيقة فى آفاق إلهامى
هيمان أطوى الليالى البيض فى سغب تفلسف الوزن والحرمان أوهامى
حيران ، تصطرع الأهواء فى خلدى وساوس الشك فى نجوى وأحلامى
مُرَوَّع العقل والوجدان ، ذوأمل مشرد الرأى ، أفاق الخطا ، ظامى
موزع الحس ، مخدور المنى ، شرقٌ مفزَّع القول ، هدامٌ لأصنامى
دنياى خلو من الأفراح ، يا عجباً عـلام أبعث للدنيا بأنغامى ؟

* * *

هنا ذوت حكمتى ، وانهار إيمانى وعربد الشك فى عقلى ووجدانى
بالأمس كنتُ هنا قديس حانتهم أحدو الجموع ، وأحدوها بألحانى
أجامل الزور فى أفواه من شربوا وآخذ القول بهتانا ببهتان
جُنٌّ الجميع ، فهذا عبد شهوته وذاك تاجر زهدٍ بين رهبان !
لباقة الراح هاجت إفكَ مسرحهم كلٌّ وفى يده مصباح شيطان
حقيقتى فوق مافى الكأس من سَكَرٍ فلم أُجن ، ولكن جن حرمانى
من لى بسبعة أيقاظٍ لأنشدهم : هنا ذوت حكمتى وانهار إيمانى ؟!

* * *

يا وحدتى بين نادى الصحب والآل كلٌّ بمثل ، ولم أظفر بأمثال
أنا الغريب ، ونفسى فى مجاهلها حيرى تلفت عن قومى وآمالى
تهفو إلى النور فى جوع وفى ظمأ كأنها ذلة فى وجه رئبال
تمضى على الشوك ، لا تشكو تعثرها ولا يفزِّعها تحويم أهوالى
مضى الشباب سدى ، ما كان أجمله ! لو لم أقضِّ سنيه بين أغلالى
طويت أيامه إثما وسخرية أصانع الإفك فى حلى وترحالى

من يفهم النفس إن أفضت بقولتها : يا وجدتى بين نادى الصحب والآل !

* * *

أخرجت من معبد الأوهام خفاقى وعشت فى حكمتى مجنونَ آفاق
هدمت محرابىَ الأسمى، وكم سجدت على قداسته روحى وأشواقى
أحرقت إنجيله كفرا ، وكم خشعت نفسى لما فيه من نور وإشراق
ماتت صلاتى ، وكانت آيها سكناً لما أكابد من يأس وإملاق
خلا المصلى ، وطافت حول هيكله معالم المجد فى صمت وإطراق
وأطفأ المعبدَ الوضاءَ راهبُه وودع القدس فى زيغ وإشفاق
وأرسل الحكمة الهوجاء هاتفة: أخرجت من معبد الأوهام خفاقى !

وفى عدد (الرسالة) الصادر بتاريخ ٢٤ يناير ١٩٤٤ نشر الدكتور عزيز فهمى قصيدة له بعنوان (إلى الأديب محمد العلائى) يرد بها على القصيدة السابقة ، وصدّرها بقوله : « ذكرى أول لقاء على صفحات الرسالة، وقد نشرت له (على ضفاف الجحيم) فى العدد ٥٤٩ صفحة ١٣١ قصيدته ». وهذه هى قصيدة الدكتور عزيز :

أثرتَ كامن أشجانى وآلامى وضج جنبى على (خفاقه) الدامى
يا أيها الشاعر المحروم لا سغباً كما تقول ولكن روحك الظامى
إن (عربد الشك) والتعبير مبتكرَ فى ساعة اليأس عربدْ بعض أنغام
فى نور قلبك من شمس الضحى عوض فاقبس من النور، أو أشرق بإلهام
إن (الحقيقة) ظل حائل أبداً يحوم والناس فى ما خور آثام
دون الحقيقة سد هائل عَرِمٌ من التقاليد محفوف بأوهام
وما الحقيقة إلا ما يزوره خيال مُتجرٍ ، أو عجز أقزام
غرائز الناس تأباها مجردة ويدعم الزورَ منها كل هدام
(خلا المصلى) ولا محراب تنظره وعسعس الليل فى بيداء أحلام

وطفتَ بالمعبد المحزون تسأله : أين المسيح ؟ وأين المبدأ السامى ؟
وتمتم الكاهن الدجال أغنية وأطفأ الشمع ، إلا حول أصنام
كفرت بالإثم ، واجتاحتك عاصفة فى لجة الشك حول الساحل الطامى
وهمت فى الأرض (مخدور المنى شرقا) تقول: (ياوحدتى) فى ليل إحرامى
أخى ، وإن لم تصلنا بعدُ رابطةٌ من الوداد ، ولم نوصل بأرحام
عظُمتُ شعرك عذباً فى طفولته قبل الأوان ، فلم يخطئك إعظامى
ورق قلبى ، وراق اللحن فى أذنى — أنا العنيد — كما يحتج لوامى
يصيب سمعىَ وقر من مباذلهم إذ يقحمون ، كيكا شر إقحام
كذلك الشعر ، فاصدع فى خميلته أعوذ بالشعر من أنغام نظام
عصرتَ من كرمة الحرمان خمرته ففاحت الكأس فى (جوى وأنسامى)
وفى البواكير طعم لا يلذ له إلا عليم بطعم الخمر والجام
نزحت دمعى ، فليت الدمع يشفع لى وليت نفسك ترضى بعد إحجام !

وفى عدد (الرسالة) الصادر بتاريخ ٧ فبراير سنة ١٩٤٤ رد الأستاذ العلائى على الدكتور عزيز فهمى بقصيدة عنوانها (من أحلام الصحراء)، وصدّرها بهذه الكلمات : « إلى الدكتور عزيز فهمى . هل تأذن لى يا أخى أن أهدى إليك هذه الصورة الوجدانية المحمومة ، وفاء لما أشعرتنى به قصيدتك من رقة الشاعر ، وحنان الأخ ، وكرم الصديق » ؟ . وهذه هى القصيدة :

موحش ذلك الظلام ، فيالى من تهاويل وحدتى وخيالى
قذف الليلُ رعبه فى ضميرى عن يمينى مخاوف وشمالى
مزّق الوهمُ خاطرى ، كلُّ شىء فى طريقى يضج بالأهوال
ملء نفسى كآبة ، وبسمعى صرخاتُ الذئاب والأغوال
وعويل الرياح شرقا وغربا وهزيم الرعود فوق الجبال

والأفاعى لها هناك فحيح ينفث السم فى الحصى والرمال
ووراء الكثيب جن تَغَنّى بنشيد الردى ولحن الزوال
وكهوف بها جماجم موتى نبشتها الوحوشُ منذ ليالى
وعلى الجانبين صيحاتُ شؤم بعثرتها الرياح فى الأوغال
حوّم الموت ، واقشعر ضميرى ها هنا مصرعى ، وذاك مآلى !

* * *

أنا ياليل خائف قد تمشت رعدة الموت فى دمى وعظامى
هامد لا أطيق رجع ظنونى والردى جاثم على أوهامى
ذاهل أنطوى على صرخات مزقتنى ، وفزّعت أحلامى
لست أقوى على المسير ، فرأسى مائل ، شله دوار الظلام
وذراعى بجانبى ، ليس فيها من حراك ، والشوك فى أقدامى
جسدى موجع ، وخلف لسانى حشرجاتٌ تردّ فىّ كلامى
وبحلقى شجى يقطّع أنفا سى ، وفى مقلتى بريق الحمام
وبصدرى مواجع ألهبتها وخزاتُ المُدَى ونزع السهام
آه ! خلف الضلوع جرح سأقضى وهو خلف الضلوع دون التئام
لم يعد غير خفقة ، ثم أمضى ليس خلّ هنا يوارى عظامى !!

* * *

ونورد فيما يلى كلمة نشرها الدكتور محمد العلائى فى العدد الثانى من السنة الأولى من مجلة (الكفيف العربى يتحدث) ، بعنوان (نحو حرية جديدة) . وفيها يقول :

« من أهم خصائص الحضارة بصفة عامة فكرة الحرية ، وقد أخذت هذه

الفكرة منذ بداية النهضة تتشكل بمختلف الصور والألوان ، وتتعرض إلى كثير من التأويل والتحريف ، ومن حين إلى آخر كانت فكرة الحرية شعاراً تختفى وراءه الأغراض والأهواء ، فيما ينتاب الطبقات والأمم من صراع وتهافت على وسائل الحياة ومآرب الرفاهية ، ولكن رغم ما يكتنف مفهوم هذه الكلمة من إبهام ، ورغم ما انتابه من انحراف ، فقد ظلت الكلمة قوية فعالة ، تمد الأفراد والأمم بأسباب النهضة ، وتزودهم بإرادة الخلاص .

وفى مرحلة التحول من العصور الوسطى إلى مدنيتنا العلمية الشاملة ، كان لكلمة (الحرية) شأن خطير فى تحرير المجتمع الإنسانى من أغلال التاريخ ، وتحرير الملكات الإنسانية من قيود الفطرة والتقاليد ، فأصبح بذلك الإنسان شديد الثقة بفكره وإرادته ، وأصبحت الطبيعة أمامه مجالا للبحث والتجربة ؛ وبهذا أخذ الإنسان ينسلخ من ذاته ، ويتخلص من عالمه الباطن الذى تنسجه الأوهام والأساطير ، وعاش آلاف السنين يرزح فى قيوده ، ويتخبط فى ظلمته ، مقابل ما يستمتع به من أمن ذاتى واستقرار موهوم .

وكان لهذا التحرير نشوته ، فلم تعد مباهج الحياة وإرادة البقاء قدراً محتوما ينبغى الرضا به والإذعان إليه ، وكذلك لم تعد العوائق والآفات أمراً مفروضاً ينبغى أن يقابل بالخضوع والاستسلام ، فنهضت مجتمعات الطليعة تستنهض فى أفرادها القدرات المطلقة والطاقات الكامنة ، مبشرة بحياة جديدة تستطيع أن تقدم من الحقوق بمقدار ما تطالب فيه من واجبات .

هكذا كشفت المدنية الحديثة عن نوع جديد من الحرية ، يتمثل فى تحرير الملكات واستنفاد الإمكانيات ، وتهيئة الحياة للانتفاع من كل قدرة ، والإفادة من كل طاقة ، وعلى هذا النحو برز وجه جديد من وجوه الحرية ، هو فى ذاته أكرم وأصلح ما أبرزته لنا المدنية من وجوه الفكر ومسالك النشاط .

وظلت المجتمعات الإنسانية مئات القرون تتمثل المقـدرة والبطولة فى القادرين على العدوان ، أو القادرين على دفع هذا العدوان ، فقضت بذلك على ماسكات الفكر والعمل التى لو قدر لها أن تمارس الحياة لاختصرت متاعب الإنسان ، ووفرت عليه الكثير من الدماء والشقاء .

وأرجح الظن أن هذا الوجه من وجوه الحرية الذى يتميز بعالمنا الحديث هو الذى ساعد على خروج الإنسان المتوسط من انزائه ، وخلق فى نفسه الوعى بالحياة والتطلع إلى خيرات الطبيعة ، وتكونت من مجموع وحداته النظرة الجديدة لطبيعة الأشياء ، والتمرد على السدود الاجتماعية التى أقامتها مطامع الاستغلال والإفادة من قصور الآخرين .

هذا ولم يكن مجتمعنا العربى بدعا من المجتمعات الحديثة ، فمنذ تشرب أسباب النهضة ، وأخذ يتلمس مكانه من هذه المدنية الجديدة ، التى من أهم خصائصها العموم والشمول ، وهو يزاول المنهج الجديد للانسان ، هذا المنهج الذى لا يعترف بالعجز ، ولا يقف منه موقفا عاطفيا ينتظر الرعاية و يستدر العطف والعزاء ، فجعلت ملامح الحرية على هذا الوجه تتضح ، وتنعكس على كافة الجوانب النظرية والعملية ، وجعل مجتمعنا العربى يتصور الحرية على أنها انسياب النشاط وانطلاق الملكات ، على نحو يحقق للجميع المشاركة المثمرة فى موارد الحياة والإفادة منها .

وتغيرت النظرة لمقومات العمل وملابسات الإنتاج ؛ فبعد أن كانت الطوائف والأفراد تتحرك فى قاع مظلم ، أصبحت تتطلع إلى تركيز الجهود ، وتمكين الجميع من بذل النشاط فى مجاله الذى يتسامى عن مستوى الضعف ، ولا يستجيب إلى القصور والتواكل .

وبذلك لم تعد الحرية شعارا زائفا يخدم أهواء القلة المترفة ، وإنما أصبحت نداء خالصا يهدف إلى تحرر الملكات ، وممارسة الجميع لما عليهم نحو الحياة من

واجبات وما لهم من حقوق . ولا نقصد بذلك أننا قد طوينا مرحلة بعيدة نحو تحقيق الحرية على هذا الوجه و بذلك المفهوم ، و إنما نقصد إلى أنا قد بدأنا نحس ونؤمن بأن الحرية ينبغى أن تُفهم وتتمثل فى تجريد القادرين من شبهة الضعف والعجز ، وتخليصهم من وصمة القصور والانزواء ، بعد أن قرر المنهج العلمى للحياة إمكان الإفادة من الجميع ، وضرورة إشعار الفرد بقيمته الإنسانية ومكانته الاجتماعية عن طريق العمل ، وعلى مبدأ التعادل بين ما ينبغى أن نأخذ من الحياة وما نقدم لها .

وفى ضوء هذا المفهوم نستطيع أن نجد مجالا فسيحا لكل طاقة ، كما نستطيع أن ننهض بالنشاط الإنسانى الكامن ، ونجعل من ثمراته قاعدة للشعور بالذات والطموح القومى والاجتماعى .

وفى هذه المرحلة من تاريخنا ، وبعد أن تخلصنا من وصاية الرجل الأبيض المغرور ، ينبغى أن نتناول قيمنا الاجتماعية والحضارية بالإصلاح والتهذيب ، ونفهم الحرية على أنها الفرصة الكريمة للعمل الكريم ، واستنفاد الجهود فى مغالبة الطبيعة وتسخيرها لرفاهية الإنسان .

وقد تراءت لنا بشائر هذا المفهوم الجدى لكلمة الحرية فيما يبذل مجتمعنا المصرى بصفة خاصة ، والعربى بصفة عامة ، من جهود نحو توفير المشاركة الفعالة للأفراد والطوائف فى تذليل العقبات و إلغاء الحواجز . ولا أريد فى هذه الكلمة أن أقرر حق المكفوفين فى الحياة باعتبارهم طائفة ، فهو حق حضارى لا يتطلب مزيداً من التقرير والإيضاح ؛ و إنما أريد أن أشير إلى أن منهج الحياة الجديدة يتطلب مزيدا من العناية بهذه الطائفة ، بحيث تساير طبيعة التطور ، وتتمكن من ممارسة الحياة على نحو التفاعل الإيجابى الذى يشعر المكفوف بذاته ، و يعوضه عن ظلمة البصر نور البصيرة ، ليصبح بذلك مواطنا قادرا ، يهب للحياة أكثر مما يتطلب منها .

كما أنني لا أريد أن أقرر ما للمكفوفين من قدرات نظرية وعملية تمكنهم من تنمية الثروة الثقافية والمادية ، فالواقع العملى للمجتمعات المتطورة قد جعل من هذه القدرات أمرا ملموسا لا يقبل جدلا ولا نقاشا ؛ وإنما أريد أن أشير إلى أن مفهوم الحرية المعاصر يدعو إلى المبادرة بإخراج هذه الطائفة من الانزواء، وتشجيعها على مزاولة هذه الحرية ، متمثلة فى فرصة العمل ، وتقرير الثقة بالذات ، والإيمان بحرية الملكات .

وحين تصفحت العدد الأول من مجلة (الكفيف العربى يتحدث) تملكنى شعور بالتفاؤل ، يقوم على الرجاء فيما يمكن أن تؤدى هذه المجلة مع أصدقائها من تنمية لثقافتنا العربية والإنسانية ، وما يمكن أن تخلق من صداقة مستنيرة بين طائفة المكفوفين وإخوانهم فى الوطن والثقافة . . . وعلى وجه الإجمال كانت المجلة فى تقديرى تعبيراً صادقاً عن مفهوم الحرية ، وتعبيراً عن التطلع إلى مستقبل قريب ، يرفع عن المكفوف أسباب العزلة والانطواء ، ويجعل منه شخصية معاصرة ، تمنح الوطن أكثر مما يمنحها ، فإن العجز المفترض فى المكفوف ليس إلا عجزا فى المقدرة الاجتماعية ، وبذلك لا ينبغى أن يكون مسئولا عن انزوائه إلا بقدر ما يوفر له الوطن من أسباب الحرية ومجال التجاوب مع الحياة فى جانبيها النظرى والعملى » .

الشيخ رمضان السيد

الآلة البشرية الحاسبة

هذا شيخ أزهري مكفوف ، تعجب لأمره كثيراً ، وتُطيل التفكير فى تلك الهبة التى ساقتها إليه الأقدارُ ، أو فى تلك العبقرية التى أوجدها الله فيه . . . إنك تستطيع أن تسمى هذا الشيخ المكفوف : (الآلة البشرية الحاسبة) ، أو تسميه : (صاحب العقلية الميكانيكية) . . . إن له ذاكرة قوية فى حفظ الأرقام والتواريخ ، وله قدرة عجيبة فى القيام بالعمليات الحسابية المعقدة . . . يقوم بهذه العمليات فى ذهنه ، ويأتى بنتيجتها المضبوطة فى سرعة مدهشة ، إذ لا تستغرق أضخمُ عملية حسابية من وقته إلا أقلَّ من دقيقة ؛ وأحيانا كثيرة تتم العملية فى بضع ثوان ؛ وهذه العمليات فيها جمع وطرح وضرب وقسمة ، وفيها كسور اعتيادية ، وكسور عشرية ...

وتذكر له تاريخَ ميلادك ، أو أى تاريخ مضى منذ سنوات ، فما هى إلا بضع ثوان حتى يحدد لك (الشيخ رمضان) مكانَ هذا التاريخ من أيام الأسبوع ، فيقول لك : إنه يوم سبت ، أو أحد ، أو غير ذلك من أيام الأسبوع !! . . .

من هو ذلك الأزهرى المكفوف العجيب ؟ ...

إنه الشيخ رمضان السيد أحمد رزق ، المولود فى اليوم الثانى من شهر يوليه سنة ١٩١٨ ، فى قرية (دروا) التابعة لمركز أشمون فى مديرية المنوفية بالوجه البحرى من الأراضى المصرية ، وكان والده (السيد أحمد رزق) رجلا فلاحا ، توفى فى الخامس من سبتمبر سنة ١٩٤١ ، وتوفيت والدته (حميدة أحمد الشافعى) فى الثامن من يناير سنة ١٩٥٣ . ولم يكن أحد من والديه أو أجداده كفيفا ، ولكن شقيقه

عبد السلام الذى يقل عن الشيخ رمضان فى العمر خمس سنوات كفيف أيضا . . .

وقد أصيب الشيخ رمضان بكف البصر وهو ابن شهور ، حدثته والدته بأنه مرض بالرمد عقب ميلاده بأربعة أشهر فقط ، واستمر هذا المرض قرابة شهر ، ولم تعن الأسرة بعلاج الطفل المسكين كما يجب ، ولم يكن العلاج حينئذ متقدما ولا مستقيما ، فلجأوا إلى بعض الوصفات البلدية ، وثقل المرض فعرضوه على بعض الأطباء بعد فوات الأوان ، وانتهى الأمر بالنتيجة المرتقبة ، وهى كف البصر ! ! . . .

ولما شب الطفل وصار صبيا دخل (كُتّاب القرية) ، وحفظ القرآن الكريم وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، والذى تولى تحفيظه القرآن هو (الشيخ عبد الحليم زيان) ، وكان الشيخ رمضان أثناء ذلك يتردد على مدرسة إلزامية فى القرية ، فتاقت نفسه إلى حفظ (جدول الضرب) ففعل ، ثم تعمق فى عمليات الضرب والقسمة والكسور الاعتيادية وحساب المئة والربح البسيط والمكسب والخسارة ، وتعلم كل هذا وهو فى القرية عن طريق السماع ، وعاونه فى ذلك مدرس إلزامى اسمه (محمد المأمون شرف الدين) .

وفى شهر أكتوبر سنة ١٩٣٥ انتسب الشيخ رمضان إلى القسم العام بالأزهر ، وحصل منه على الشهادة الابتدائية سنة ١٩٣٩ م ، وكان خلال هذه المدة يواصل عنايته بالمسائل الحسابية ، ثم التحق بالقسم الثانوى بمعهد شبين الكوم الدينى ، وحصل منه على الشهادة الثانوية سنة ١٩٤٤ م ، ثم التحق بكلية أصول الدين ، وحصل منها على الشهادة العالية سنة ١٩٤٩ . ثم التحق بتخصص الوعظ والإرشاد ، وحصل منه على شهادة العالمية مع إجازة الدعوة والإرشاد سنة ١٩٥١ م .

وعُين الشيخ رمضان إماما وخطيبا ومدرسا فى مسجد (أولاد بدر الدين) ببلدة (بهوت) التى كانت تابعة لمديرية الغربية فى ذلك الوقت ، وهى تابعة

الآن لمركز طلخا التابع لمديرية الدقهلية ، ثم نقل سنة ١٩٥٢ إلى القاهرة ، حيث عين فى مسجد (قايتباى الجهركسى) ولا يزال فيه .

وقد تزوج الشيخ رمضان فى شهر نوفمبر سنة ١٩٥٥ من زوجة متعلمة تحمل شهادة (المعلمات الراقية) وهى من (الدِّر) ، وتزوجها وهى فى السابعة والثلاثين من عمرها ، وتعاونه معاونة فعالة ، إذ تقرأ له وتكتب له ، ولم يرزق منها بأولاد حتى الآن ، ويتمنى أن يكون له ولد واحد ، ليتمكن من تعليمه تعليماً عالياً فى الجامعة أو فى الأزهر ...

وقد كتبت الصحف والمجلات عن الشيخ رمضان عدة مرات ، كتبت عنه مجلة (الاثنين) فى إبريل سنة ١٩٤٠ م ، وكتبت عنه جريدة (الأهرام) فى يناير سنة ١٩٤٤ ، كما كتبت عنه مجلة (الإذاعة) فى عدد ٢٣ فبراير سنة ١٩٥٧ م هذه العبارة :

« أما الفارس الثانى فهو أعجوبة زمانه ، وهو الشيخ رمضان السيد أحمد رزق ، إمام مسجد قايتباى الجهركسى ، وهو ضرير ، ولكنه يتمتع بذاكرة واعية عجيبة ، وقدرة فذة على تحقيق نتائج أضخم العمليات الحسابية بعد بضع ثوان ، بما فى ذلك الضرب والقسمة بالأعداد الصحيحة والكسور العشرية والاعتيادية ، وذلك فى حدود خمسة أعداد فى خمسة أعداد . . . وسأله أحد الحاضرين أن يضرب ٧٢٤ × ٢١٥ فأجاب بعد أقل من دقيقة ١٥٥٦٦٠ ، ثم سئل عن حاصل ضرب ٧٠٥١٢ × ٧٤٩٩٩ .

فأجاب بعد دقيقة ٤٨٨ و ٣٢٩ و ٢٨٨ و ٥ .

وسئل بعد ذلك فى عمليات قسمة وضرب كسور فكان مدهشا ، وكان عندما يندمج فى الحسبة يهز رأسه ذات اليمين وذات اليسار بعنف ، و يتحدث بألفاظ غريبة .

وسأله (طاهر) : هل يمكننا أن نعرف كيف تنهى هذه العمليات بسرعة؟..

— عندى سبورة فى رأسى أحسب عليها ، وأستطيع أن أخبرك أيضا باسم أى يوم تحدد تاريخه من عشرين سنة مضت أو قادمة .

فسأله أحد الحاضرين : ماهو يوم ٩ أغسطس سنة ١٩٥٧ م .

— يوم جمعة .

— و ١١ يونيو سنة ١٩٥٧ ؟ .

— خميس .

وسألته آنسة عن يوم مولدها ١٢ يوليو سنة ١٩٣٦ .

فأجاب بسرعة : يوم سبت .

وذكر الرجل بعد ذلك أهم تواريخ الأحداث العالمية ، وفاجأه (طاهر) بأن سأله :

— هل سمعت آخر نشرة للأخبار اليوم ؟ .

فأجاب بسرعة : أجل ... قالها السيد حسنى الحديدى . . .

وقرأ الرجل نشرة الأخبار كما أذيعت بالتفصيل ، من الذاكرة طبعا .

ثم سأله (طاهر) عمن يحب القراءة لهم من الأدباء، فقال : الغزالى والقرطبى وغيرهما .

— ومن يقرأ لك ؟ .

— زوجتى ... هى عيناى اللتان أبصر بهما كل شىء..

حقاً إن الشيخ رمضان إحدى معجزات القرن العشرين ، وحبذا لو وجد من ينتفع بذاكرته الفذة » .

وعادت مجلة (الصحراء) فى عدد مايو سنة ١٩٥٧ فكتبت عنه تحت عنوان (الإنسان الحاسب) الكلمة الآتية :

«الجواب حضر يا محترم !!...

هذا هو (الكليشيه) الذى يدفع به الشيخ الحاسب قراره النهائى فيما يعهد إليه من أعمال . .

وجلست أتفرس فيه ... هذا الإنسان الآلى الحاسب ، كيف يقوى على حفظ الأرقام المكونة من سبعة أرقام ، يجمعها و يضربها و يطرحها ، ثم يقسمها على أرقام ذات كسور عشرية ؟ . . .

وفى سرعة فائقة يتوقف رأسه عن الاهتزاز ذات اليمين وذات الشمال ، ثم يميل برأسه إلى الوراء قليلا ، ويتجه بنظرته السوداء إلى مصدر الصوت الذى طلب منه إجراء العملية الحسابية ، ثم يقول :

— الجواب حضر يا محترم !!. . :

وتسأله فيملى عليك الرد ، وتراجع ما قرره على ما حسبته الماكينة الحاسبة ، فتجد أن ماقرره صحيح ، وقد ناقشه أحد الحاضرين فى النتيجة ، وثار الشيخ وقال له : عيب .. عيب يا أستاذ !! ..

وراجعنا الأوراق ، وكشفنا أن ماقرره الشيخ صحيح، وأننا نحن المخطئون !..

وقوة ذاكرة الشيخ حادة إلى حد عجيب .إنه يحفظ كل ما يقرأ له ، يحفظه (بعبله) كما يقولون... لقد قرأ علينا من ذاكرته خطاب إقالة الملك السابق لمصطفى النحاس ... قرأها بالكامل ، وضحكنا كثيرا وهو يقول:صدر بقصر عابدين فى يوم كذا الموافق كذا .

وقد استمتعنا بالشيخ فى سهرة من ليالى رمضان ضحكنا فيها طويلا ... إن هذا الرجل الشيخ الكفيف كل شىء عنده بالأرقام ... سمع أحدنا يتحدث مع المهندس سعد جبر ، فصاح : سعد جبر التميمى ؟...

فلما أجيب بالإيجاب ، أضاف قائلا : لقد اعتقل فى يوم الثلاثاء الموافق كذا شهر كذا ، وفتح سعد فمه فى دهشة وابتسم ، ثم نكس رأسه إلى الأرض حياء عندما صفق المجتمعون ، وكانوا يصفقون للشيخ ! …

وقد أدهشنا الشيخ بما يصنع … تذكر له تاريخ ميلادك : اليوم والشهر والعام ،ولا يمضى ثانية حتى يقول : الجواب حاضر يامحترم !! يوم اثنين ، أو يوم خميس … وحقا إن كثيرين لا يعلمون اليوم الذى ولدوا فيه : هل هو يوم سبت ، أو أربعاء ، أما الذين يعلمون فإنهم صدقوا وسلموا بما قال الشيخ …

شىء آخر … أمسك الأجندة الخاصة بالأيام ، وقلب فيها ، واختر يوما من الماضى أو المستقبل ، وأسأله عنه يذكره لك على الفور … وتسأل الشيخ .. ويقول إنه يتخيل (تختة) ، ويكتب عليها فى خياله ، ثم ينطق بما يراه .

إنك إذا جلست إلى هذا الرجل تحس بأنه عملاق ، وأنك بجانبه شخص ضعيف بسيط لا تملك شيئاً ، ومع ذلك لا تحسده ، وإنما تحمد الله على ما أنت فيه ، وإليك التفصيل . . . ناداه أحد الزملاء فى ركن ، ووضع فى يده جنيها وهو يقول له : « كل عام وأنتم بخير ، ادعى لنا يامولانا » ! . . ووضع الشيخ الجنيه فى جيبه واستدار ، ثم أخرج الجنيه ، ومال على من بجواره يسأله : ما هذا الذى فى يدى ؟ . وما إن علم أنه ورقة مالية حتى سارع بدسها وإخفائها فى جيبه ، وبان عليه الندم أن أخرجها .

لا تحسدوه . . . إنه كالآلة الحاسبة تماما . . . صماء لا تعى . . . إن هذا الشيخ الكفيف الذى يستطيع حساب الملايين لم يستطع أن يحس أو يميز جنيها وُضع فى يده . . . لا تحسدوه ، واحمدوا الله على نعمة البصر » .

وأقول إنه من التقصير المعيب فى حق هذا الشيخ المكفوف أن يظل هكذا بلا تدريب أو استغلال . . إنه من الميسور أن يتعلم الشيخ رمضان طريقة

(برايل) للكتابة ، ويستطيع أن يدرس عن طريقها كثيراً من العلوم والمواد ، ويستطيع بعد هذا أن يخدم وطنه خدمات كثيرة ، وأن يخدم زملاءه المكفوفين خدمات كثيرة ، وأعتقد أنه من الواجب على الأزهر الشريف أن يعنى بذلك الموضوع ، وأن لا يسوف أو يؤجل حتى تضيع الفرصة فتصبح غصة .

أتسمعون يا رجال الأزهر المعمور ؟ ! . . .

لو كان الشيخ رمضان فى بلد غربى لعنيت الدولة والجماعات والأفراد بأمره ، ولجعلوا منه أعجوبة ، ولفجروا فى نفسه ينابيع العبقرية والموهبة ؛ وما أشبه الشيخ رمضان بكنز معروف لنا موضوع بين أيدينا ، ولكننا لا نستغله ولا نستفيد منه الفائدة الكاملة .. فهل آن للمسئولين أن يؤدوا واجبهم نحو ذلك الكنز[1] ؟.

---

(١) نشرتها بمجلة الرابطة الإسلامية ، عدد ١٦ أكتوبر سنة ١٩٥٢ .

الدكتور صلاح العقاد

ترجمة الحياة ومراحل التعليم :

الدكتور صلاح العقاد الأستاذ بكلية البنات بجامعة عين شمس هو صلاح الدين ابن أحمد بن سالم العقاد، ولد فى ٧ نوفمبر سنة ١٩٢٩ فى شارع (علان) بكوبرى القبة بالقاهرة، ووالده يشتغل بتجارة الصوف، واسم (العقاد) مشهور فى هذه التجارة، حتى يكاد يكون علما على تاجر الصوف فى بيئته، وأصل الأسرة من القاهرة، ويقال إن الأجداد القدماء لها من المغرب، وهى أسرة ميسورة.

وبعد الميلاد بأربعة أشهر أصيب الطفل برمد فى عينيه، فتعرضتا لكف البصر، وأجريت له أكثر من عملية عند الدكتور محمد صبحى، وظل الطفل يرى الألوان حتى السنة الثامنة من عمره، وفى هذه السنة أجريت له عملية عند الدكتور محمود عزمى القطان، وذهبت بقية البصر بعد ذلك.

وبدأ دراسته فى سن الخامسة على يد إحدى السيدات المشهورات، وهى السيدة زاهية مرزوق، أعطته دروساً خصوصية عقب عودتها من الولايات المتحدة بعد أن تخصصت فى شئون المكفوفين، وكانت الدروس تدريبا للحواس، فهى تأتى له مثلا بالنباتات المختلفة (والبهارات) وتعوده عن طريقها على الشم، وكذلك كانت تجعله يشترك فى زراعة الحديقة بالمنزل؛ وبدأت بتعليمه طريقة (برايل) باللغة العربية قراءة فكتابة؛ ولم تستمر معه طويلا، فقد شغلتها وظيفتها، وخلفها فى هذه المهمة أحد المكفوفين المغمورين، وإن كان من أفضل من تدرب على تعليم المكفوفين فى مصر، وهو الأستاذ نقولا باسيلى، فتولى تعليم صلاح جميع المواد التى تدرس فى التعليم العام، ومن ذلك الرياضة واللغتان الإنجليزية والفرنسية، وكان الأستاذ نقولا باسيلى يستعمل معه الأدوات الخاصة بالمكفوفين لعمليات الحساب والهندسة.

ولكن هذا النوع من التعليم لم يكن يؤدى يومئذ بالمكفوف إلى أية مدرسة معترف بها ، ولذلك اتجه التفكير إلى تعليم صلاح فى الأزهر الشريف ؛ فحفظ القرآن الكريم فى المنزل على يد المقرئ (الشيخ السيد أحمد) ، فحفظه فى سنتين ونصف ، وأتم الحفظ فى الثانية عشرة ، وكانت هذه السنة هى الحد الأدنى لقبول الطالب فى الأزهر ، فدخله سنة ١٩٤١ ، وانتسب إلى معهد القاهرة الدينى ، وبينما كان يدرس فى المعهد دراسته الأزهرية ، كان يتقدم فى دراسة العلوم المدنية مع الأستاذ نقولا باسيلى ، حتى أصبح فى مستوى (شهادة الثقافة العامة) وهو فى سن الخامسة عشرة ، ولذلك اتجه التفكير إلى اختصار مرحلة الدراسة ، وتغيير اتجاهها ، وذلك بمحاولة التحاقه بكلية الآداب بجامعة فؤاد (القاهرة الآن) .

ونال صلاح الشهادة الابتدائية من الأزهر سنة ١٩٤٥ ، وكان الأول بين الناجحين المكفوفين فى هذه الشهادة ، ومع ذلك آثر الدراسة فى الجامعة ، ولكن كيف السبيل إليها دون الحصول على (الشهادة التوجيهية) ؟ . . . تقدم بطلب إلى مجلس كلية الآداب ليعقد له امتحانا معادلا لشهادة التوجيهية فى طليعة سنة ١٩٤٦ ووجد ترحيبا وتشجيعاً من أساتذة الكلية ، وكان قد ترك الأزهر ، والتحق بالكلية طالبا مستمعا فى هذا العام . . .

وفى مايو سنة ١٩٤٦ عقد له امتحان المعادلة ، ونجح فيه ، فقُيِّد بالكلية فى العام الدراسى (١٩٤٦ — ١٩٤٧) فى قسم اللغة العربية ؛ وكان من طلبة الامتياز الذين يأخذون ٧٥٪ من مجموع الدرجات ، وكان من حقه أن يأخذ (مجانية) فى الكلية ، ولكن عائلته غنية ، فلم يجد ضرورة لأخذ هذه المجانية .

وكان لا يميل إلى الدراسة الأدبية كثيراً ، وحدث بينه و بين بعض أساتذته خلاف ، لأن الطالب ذكر أن قيمة الأدب العربى قيمة لفظية ! . . .

وكان صلاح يعتمد فى دراسته على أمرين : الأول قارئ له بأجر شهرى ، والثانى استخدامه طريقة برايل فى كتابة المحاضرات بنفسه ، وهذا أمر لا يستطيعه

الكثيرين ، وكان يختزل فى الكتابة بطريقة اهتدى إليها فوق طريقة الاختزال المعروفة فى كتابة برايل ، وكان صوت الكتابة يضايق الطلاب أحيانا ، ولكنهم كانوا يتسامحون ويصبرون ، كما سهلت له مشقة التردد على الجامعة سيارة العائلة التى كان يتنقل بها .

وفى سنة ١٩٥٠ نال شهادة (الليسانس) ، وعلى الرغم من أنه كان من الأوائل لم يكن من الممكن تعيينه فى وظيفة عادية ، فتطلعت همته إلى السفر فى بعثة دراسية خارج مصر ، وكان قد أعد نفسه لذلك من قبل بعنايته باللغتين الإنجليزية والفرنسية ، ولقى مساعدة من الدكتور طه حسين ، وكان حينئذ وزيراً للمعارف ، فتقرر إرساله فى بعثة دراسية إلى فرنسا ، فى يناير سنة ١٩٥١ م .

وأقام فى باريس ، ودرس فى السوربون ، ومن حسن الحظ أن بعثته كانت فى البعثة الفهمية التى أوقف لها المرحوم (على فهمى) حوالى خمسمائة فدان ، واشترط الحد الأعلى لسن المبعوث ثلاثة وعشرين عاما ، وتحقق هذا الشرط فى صلاح الدين ، وكان نظام هذه البعثة لا يفرض فرعا خاصا للدراسة ، ومن هنا أمكن لصلاح أن يحقق رغبة كانت تسامر خياله قبل تخرجه فى كلية الآداب ، وهى التحول من دراسة الأدب العربى إلى دراسة علمية ، لأنه تبين له أن عواطفه وميوله لا تتفق مع الدراسات الأدبية ، وتردد بين فرعى التاريخ والاجتماع ، وفى فرنسا قرر أن يتخصص فى التاريخ الحديث ، وذلك للروح الواقعية العملية التى يمتاز بها ، حتى كان بعضهم يقول له : « إنك بسبب نزعتك العملية تنجح كثيراً لو اشتغلت بالتجارة » . والتاريخ الحديث أشد صلة بالحياة الواقعية .

وقيد رسالته لدكتوراه الدولة فى موضوعين هما : (الدولة السعودية الأولى) و (التنافس الإنجليزى الفرنسى فى منطقة الخليج العربى من سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٨٦٢ م) . ويتضح من هذا أن فرع تخصصه العام هو التاريخ الحديث ، وأن تخصصه الموضوعى هو تاريخ الدول العربية الحديث ، وقد ظهر أثر هذا بوضوح فى مؤلفاته

وكان البحث العلمى قد دعاه إلى السفر إلى لندن للاطلاع على وثائق دور المحفوظات (الأرشيف) فى العاصمة الإنجليزية .

ولما كان صلاح يتوقع أن يصطدم بعقبات شكلية عند رجوعه إلى مصر ، بسبب تحوله من دراسة الأدب إلى دراسة التاريخ ، رأى أن يتجنب هذا بأن يحصل على (دبلوم) فى التاريخ ، وتحقق له ذلك فى يوليه سنة ١٩٥٤ ، وأخذ الدبلوم فى تاريخ الاستعمار ، وكان معه تسعون طالبا فرنسيا ، فكان هو الأول عليهم فى الدبلوم ، مما جعل الأستاذ الفرنسى (شارل أندريه جوليان) المشرف على الدبلوم يؤكد صلته بصلاح ، ويشرف على رسالته للدكتوراه ، ويرأس لجنة المناقشة فيها ، ويشيد بسبق صلاح لزملائه أمام الجمهور الذى شهد مناقشة الرسالة . ويقرر صلاح أنه تأثر بتفكير هذا الأستاذ ومنهجه فى البحث والدراسة .

وقد نال شهادة الدكتوراه فى ١٩ مارس سنة ١٩٥٦م ، بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى .

وفى خلال إقامته بباريس تعلم الاعتماد على نفسه فى السير ، وبخاصة فى الفترة التى عاش فيها هناك بمفرده ، بعد أن اضطرت زوجته إلى العودة إلى مصر بسبب الأولاد ، وتبين له بالتجربة أن لديه إحساساً دقيقاً بالمكان ، ويعرف أن المسافات قد انتهت بأقل العلامات ، كانخفاض الرصيف فى مكان معين أو نحو ذلك ...

وممرات (المترو) هناك معقدة ، وبخاصة عند التحول من طريق إلى طريق مغاير ، ولكنه كان يستطيع المرور بهذه الممرات والتنقل بينها إذا سلكها مرة أو مرتين من قبل ؛ وكان يستعين أحياناً قليلة (بالعصا البيضاء) ، وهى عصا تشبه عصا جندى المرور ، وفائدتها أن النظام المتبع هناك أنه إذا رفع الكفيف هذه العصا عند إرادته عبور الطريق فإن أى سائق لعربة يقف عند رؤيتها حتى يعبر المكفوف الطريق ؛ ويقرر الدكتور صلاح أنه كان لا يستعمل هذه العصا إلا نادرا ، لأن المارة هناك يسارعون بمساعدة الكفيف فى عبور الطريق ...

ورجع الدكتور صلاح إلى مصر فى يوليه سنة ١٩٥٦ ، قبيل تأمم القناة المشهور بأيام ! ! . . .

الوظائف والأعمال :

بقى الدكتور صلاح بعد عودته نحو نصف عام بلا وظيفة ، وقد شغل هذه الشهور بعكوفه على كتابه الأول ، ثم عين أستاذاً فى كلية المعلمين لتدريس التاريخ الحديث ، كما ندب فى الوقت نفسه لتدريس مواد التاريخ المختلفة فى معهد العلوم السياسية بجامعة القاهرة ، وما زال يقوم بذلك ، ومن المعروف أن هذا المعهد يعد رجال السلك السياسى للدولة ، وفيه كثير من الطلاب يدرسون ويشغلون فى الوقت نفسه وظائف ملحوظة فى الدولة . . . ووجد الدكتور صلاح فى المعهد مجالا للمحاضرة على مستوى عال لإبراز النواحى التى اهتم بها ، والتى تدور حول التاريخ المعاصر للدول العربية .

ولما أعلنت جامعة عين شمس عن خلو وظيفة لتدريس التاريخ فى كلية البنات تقدم إليها ، وقررت لجنة الفحص الجامعية تعيينه بها ، فنقل إليها فى سبتمبر سنة ١٩٥٧ ، وما زال بها حتى الآن .

وهو عضو فى الجمعية التاريخية ، ويحاضر فيها أحياناً ، ويكتب فى مجلتها بحوثاً فى التاريخ .

المؤلفات :

للدكتور صلاح ثلاثة كتب ، الأول بعنوان (الاستعمار فى الخليج الفارسى) وقد طبع سنة ١٩٥٧ ضمن (مشروع الألف كتاب) ، والثانى بعنوان (مغرب الاستعمار الفرنسى) مع آخرين ، وقد طبع سنه ١٩٥٧ فى سلسلة (اخترنا لك) ، والثالث بعنوان (المغرب العربى) وهو فى جزءين : الأول عن المغرب العربى بين التضامن الإسلامى والاستعمار الفرنسى ، والجزء الثانى عن المغرب العربى من الاستعمار الفرنسى إلى التحرر القومى .

وله تحت الطبع كتاب رابع موضوعه (العرب والأوربيون فى شمال أفريقيا).

وقد لقى الدكتور صلاح ترحيباً وتعضيداً من الدكتور أحمد عزت عبد الكريم أستاذ التاريخ الحديث بجامعة عين شمس ، فتوطدت به صلاته ، وقدم الدكتور عبد الكريم كتابى الدكتور صلاح الأول والثالث ، وفى المقدمة التى كتبها لكتاب (الاستعمار فى الخليج الفارسى) والتى بلغت ثلاث عشرة صفحة جاءت هذه العبارة :

« كان سرورى شديداً حين أتيح لى الاتصال بالدكتور صلاح العقاد عقب عودته من بعثته الدراسية بجامعة باريس ؛ ووقوفى على طائفة من نشاطه العلمى ، وخاصة الجهد الرائع الذى بذله فى رسالته الأولى فى تاريخ الدعوة الوهابية والدولة السعودية الأولى ، وفى رسالته الثانية فى التاريخ الاستعمارى بين فرنسا وانجلترا فى الخليج الفارسى أو شرق أفريقية ، وكلها موضوعات تشكل صفحات هامة فى تاريخ العرب الحديث ، وقد اعتمد فى بحثها على وثائق كثيرة لم يسبق نشرها من دور المحفوظات البريطانية والفرنسية ، وعلى مراجع أخرى مطبوعة غير موجودة فى مصر .

ثم كان سرورى أشد حين دفعت إلى الإدارة العامة للثقافة بوزارة التربية والتعليم هذا الكتاب الذى استخرجه الدكتور صلاح العقاد من رسائله ، وقصره على موضوع النفوذ البريطانى فى الخليج الفارسى ، لأقوم بمراجعته والتقديم له ، فسنحت لى بذلك فرصة أنتهزها لأقدم للمشتغلين بالتاريخ فى مصر وسائر البلاد العربية مؤرخا شابا مأمولا ، أسرع إلى النضوج ؛ وأنا واثق أنه سيأخذ مكانه بينهم فى ثقة واطمئنان ، كما أقدم لهم وللقارئين عامة فى مصر وسائر البلاد العربية كتابه الأول ، مسجلا عليه العهد الذى قطعه على نفسه أن يوالى البحث والكتابة فى تاريخ العرب الحديث » .

.. وعاد الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، فكتب لكتاب الدكتور صلاح (المغرب العربى) مقدمة فى عشرين صفحة ، وفى آخرها يقول : « لا أملك إلا أن نقدم للدكتور صلاح العقاد خالص التقدير لجهوده الموفق فى كتابه تاريخ المغرب العربى الحديث . وقد أسعدنى أن أقدم لكتابه الأول عن (الاستعمار فى الخليج الفارسى) فى مثل هذه الأيام من العام الماضى[1] ، كما يسعدنى أن الدكتور صلاح العقاد قد أنجز ما وعد به من موالاة الكتابة فى تاريخ العرب الحديث ، فكتب منذ أشهر الجانب الأكبر من كتاب عن (مغرب الاستعمار الفرنسى) ، وها هو اليوم يضيف إلى قائمة كتبه فى مكافحة الاستعمار فى المشرق والمغرب ، عن طريق البحث العلمى الخالص ، هذا الكتاب فى (تاريخ المغرب العربى الحديث) الذى يسرنى أن أقدم له بهذه الكلمة ، وهو لا شك يسد فراغا ملحوظاً فى المكتبة العربية .

وأرجو أن يكون حافزاً على زيادة اهتمام المشتغلين بالدراسات التاريخية بتاريخ هذه القطعة الغالية من أرض العروبة » .

وقد اهتم الدكتور صلاح بصفة خاصة بالمناطق التى لم تدرس بعدُ دراسة كافية من أجزاء العالم العربى ، فوضع — كما يقول — بداية للخطوط العامة لتاريخها الحديث ، ولهذا نجد أن مؤلفاته ترضى المتخصص كما ترضى طالب الثقافة العامة . والدكتور صلاح يميل إلى التأليف أكثر من ميله إلى كتابة المقالة القصيرة فى مجلة أو صحيفة .

الحياة العائلية :

كان الدكتور صلاح العقاد قد تعرف وهو طالب فى كلية الآداب إلى زميلة له تدرس معه فى نفس القسم ، وتزوجها فى شهر يوليه سنة ١٩٤٨ ، وعاونته فى دراسته خلال السنة الأخيرة له فى الكلية ، ولما سافر فى البعثة صحبته زوجته

(١) المقدمة الثانية كتبت فى ١٦ ديسمبر سنة ١٩٥٧ .

وكان معهما حينئذ طفلة لهما ، وكان هذا مما جعل الإقامة فى باريس شاقة ، حتى إنهما اضطرا لإعادة الطفلة إلى القاهرة ، وكذلك عادت الزوجة .

ولهما الآن ثلاثة أولاد هم : ماجدة ، وأحمد ، ونادية ؛ والأخيرة سنها الآن أربع سنوات ؛ والحياة الزوجية عادية هادئة .

جمعيات المكفوفين :

كان الدكتور صلاح العقاد من مؤسسى جمعية النور للنهضة بمكفوفى البصر سنة ١٩٤٧ ، وكانت بالعباسية حينئذ ، ولكنه تركها ، وهو يرى أن الواجب على جمعيات المكفوفين أن تكون للعمل والتدريب والإنتاج ، بدل اقتصار بعضها على تعريف الآخرين بأحوال المكفوفين .

وهو يكره الدعاية فى هذا الباب وفى غيره ، ولعل هذا كان من الأسباب التى جعلته لا يستجيب لعرض الإذاعة عليه أن يذيع منها . ولقد طالبتُ الدكتور بأن يكون له فى مجال العناية بالمكفوفين جهود تناسب مكانته العلمية وشخصيته الشابة التى بناها بكفاحه ، فقال لى :

إنى متخصص فى التاريخ السياسى ، فبم أفيد هؤلاء ؟ .

فأجبته : إنك تستطيع أن تفيدهم الكثير ، ولو اقتصر جهدك معهم على ناحية تخصصك وهو التاريخ ، وحدثتهم عن تاريخهم وعن التاريخ العام وما يرتبط بذلك ، لكان جهدا له قيمته ، وليس معنى التخصص أن يظل صاحبه محصورا داخل نطاقه المحدود ...

فقال : أود أن تتركز خدمات جمعيات المكفوفين فى الناحيتين الاجتماعية والتدريبية ، وأن يتولى ذلك متخصصون فى الخدمة الاجتماعية ...

معلومات أخرى :

الدكتور صلاح يدخن منذ كان عمره سبع عشرة سنة ، ولكنه مقل فى التدخين ، و يصيبه الأرق كثيراً ، ولعل هذا يجعله حاد المزاج ، وهو يحب السباحة و يمارسها أحيانا ، وهو يأخذ نفسه بالعنف ، وهو يخشى المجتمعات ، ولكنه يفرض على نفسه الاختلاط بها ، و يسعى لذلك سعيا حثيثا شديدا ، وتغلب عليه النزعة الفردية وعدم المتابعة للغير ، ولذلك لا يحب أن يشبهه الناس بغيره من مشهورى المكفوفين فى جهة من جهات كفاحه ، وهو ينظر إلى نفسه — كما يعبر — نظرة موضوعية ، ولذلك لا يستمتع كما يفعل معظم الناس بمنطق التبرير والتبرئة للنفس ؛ ونقده لذاته يشغل حيزاً كبيراً من تفكيره .

النجاح فى الحياة :

وهو يقول : « أعتقد أن مسألة النجاح نسبية ، وإننى إذا كنت قد نجحت فى نظر الغير ، فذلك لأننى آخذ نفسى بالعنف ، و إذاً فالنجاح من وجهة نظرى النفسية لا يعد كسباً كبيراً ، فالشواهد الخارجية تدل على أننى نجحت ، وقد يكون ذلك صحيحا ، ولكن إذا عرفنا أن هذا النجاح معزو إلى الحقيقة النفسية التى ذكرتها — وهى أننى آخذ نفسى بالعنف — جاز لى أن أقول من وجهة نظرى الخاصة : إننى لا أعد هذا النجاح كسبا كبيراً » ! ! ...

الشيخ حسين المرصفي

ترجمة الحياة ومراحل التعليم :

وهذا مكفوف له تاريخ ، وقد لحق بربه منذ عشرات من السنين ، ولكنه يعد من رجال العصر الحديث المعروف بعصر النهضة ،الذى يبدأ من سنة ١٢٢٠هـ. وهذا المكفوف هو الأزهرى العبقرى المرحوم الشيخ حسين أحمد المرصفى ؛ وليس هناك ما يبين تاريخ ميلاده ، ولكنه عاش نحو خمسة وسبعين عاما ، وتوفى سنة ١٨٩٠ م ،فيكون قد ولد حوالى سنة ١٨١٥ م.

وقد ولد الشيخ حسين فى قرية (مرصَفى)[1] ،وهى قرية كبيرة فى مديرية القليوبية ، تقع بجوار مدينة بنها ، وقد أخرجت هذه القرية كثيرا من الرجال الأعلام أمثال المشايخ :زين الدين المرصفى ،وسيد بن على المرصفى، وأحمد الشلبى وأحمد شرف الدين وحسن الأكشر ومحمد أبو سليمان وموسى المرصفى، والأستاذ محمد حسن نايل المرصفى . ولأهل هذه القرية عناية بالتعليم ، ونسبة التعليم فيها كبيرة ، وفى الأمثال : « جاهل مرصفى أعلم من علماء الشموت » ، والشموت قرية بمقربة مرصَفى ، ويقال : « لو كان العلم ينبع من الحيطان لنبع من حيطان مرصفى » !!.

ويقال إن (مرصفى) قد سُميت بهذا الاسم لأن قبيلة عربية نزلت فى مكانها وزرعت به النخيل ، فسميت البلدة (مرج الصفا) ، ثم دخل النحت على الاسم فصار (مرصفى) ، وما زال النخيل يحيط بالقرية .

وكان والد الشيخ حسين — وكنيته أبو حلاوة — من العلماء الذين اشتغلوا بالعلم حتى صار إماما ، وكان زاهدا يحب العزلة ، وانقطع للعلم بالأزهر ، ويقال

---

(١) البعض يكتبها هكذا ، والبعض يكتبها (مرصفا) بالألف .

إنهم رشحوه لمشيخة الإسلام فأباها ، وظل يدرس فى الأزهر قرابة خمس وثلاثين سنة ، ومات وعمره اثنتان وسبعون سنة ، وكان يقطن فى حى الباطنية بالأزهر .

وقد أصيب حسين وهو فى الثالثة من عمره بعلة ذهبت ببصره ، وظلت آثار العلة بعينيه ، وحفظ القرآن الكريم وهو صغير ، ودخل الأزهر الشريف ، وحفظ المتون ، وتلقى العلوم عن كبار العلماء ، وكان لا يفارق الأزهر إلا نادرا ؛ وكان من عادته أن يأكل مرة واحدة فى اليوم ؛ يأكلها ظهرا ؛ ويظهر أنه ورث عن أبيه حب العزلة ؛ فكان منطويا على نفسه ، ونشأ نشأة عامية أزهرية ، ولم تظهر عليه النزعة الأدبية ؛ ولعل ذلك قد جعل تاريخ حياته مجهولا من الكثيرين ؛ وكان الشيخ حسين صاحب حافظة قوية وعقلية ممتازة وتفكير عميق وذكاء ملحوظ ؛ ومن شواهد ذلك أنه تحدث يوما وهو طالب عن كتاب شمائل السيوطى؛ بمحضر أبيه ومحضر العالم المشهور الشيخ إبراهيم الباجورى ؛ فقال : « إن شمائل السيوطى يمكن اختصارها فى مجلدين » ، فوافق الشيخ الباجورى على ذلك ووالد حسين يسمع ! ! . . .

وتصدى الشيخ حسين للتدريس فى الأزهر وسنه ثلاثون سنة ، وهذا يعد شيئاً عجيباً غريباً على عهده ، لأن الشيوخ كانوا فى العادة يدرسون فى الأزهر بعد أن تتقدم بهم السن ، وقضى قرابة عشرين عاما وهو يدرس فى الأزهر ، وكان يدرس كتاب (مغنى اللبيب) فى النحو ، ويقرأ كتب أعلام البلاغة ودواوين متقدمى الشعراء ؛ ثم تعلم المرصفى اللغة الفرنسية خلال ثلاثة أشهر ، حينما كان يسكن فى حارة السادات بدرب الجماميز ، ويروى فى سبب تعلمه الفرنسية أنه كان جالساً مع على باشا مبارك ، وحدث أن تكلم على مبارك بالفرنسية مع ثالث لهما فى المجلس — يقال إنه قنصل فرنسا — فتألم الشيخ وقال : يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يتناجى اثنان دون الثالث ، فإن ذلك يحزنه » !. وقام من فوره ، وعاد بعد ثلاثة أشهر وهو يتكلم الفرنسية .

ويقال فى سبب تعلمه الفرنسية إنه رأى مواطنه الشيخ زين المرصفى يجيد الفرنسية ، فغار وتعلمها ، وقد تعلمها بطريقة (برايل) ، وكان يمتلك آلة للكتابة بها ، وقد انتفع الشيخ حسين بمطالعاته الفرنسية فى كتابته وأفكاره .

فى دار العلوم :

واختير الشيخ حسين للتدريس فى دار العلوم سنة ١٨٧١ م حين كانت بدرب الجماميز ، وكانت قاعة المحاضرات فى أول الأمر ، وسكن الشيخ المرصفى بالقرب منها فى حارة إسماعيل باشا ، ودرّس الأدب فى دار العلوم ،وهو من أسبق المؤلفين فى دراسة الأدب وكتابة تاريخه ، وقد تألق نجم الشيخ المرصفى على عهده ، وهذا يعد أعجوبة من أزهرى مكفوف فى ذلك العهد ، لأن المجتمع كله كان متخلفا ، وكان الأزهر حينئذ أشد تخلفا ، ومع ذلك كان الشيخ المرصفى لا يزهى بنفسه ، بل كان يكره الأنانية ، ويروى عنه أنه دخل الفصل فى بدء السنة الدراسية وقال للطلاب : من الأول ؟ . فرد عليه طالب بقوله : أنا . فقال الشيخ : أعوذ بالله من قولى (أنا) !. وسأله عن اسمه فذكره الطالب !.

ويروى أن الشيخ كان يذهب إلى دار العلوم راكباً حمارا بلا مرافق له — ولم تكن السيارات موجودة يومئذ — وكان الحمار يتفادى كل شيء فى الطريق ، حتى يوصله إلى المدرسة ، فإذا وصل قابله الشيخ عبد الرحمن رشدى ، وقاده إلى حيث يريد ، وأما الحمار فإنه يعود إلى المنزل وحده ، وإذا اعترضه شخص رفصه أو عضه حتى يتركه ، ولذلك يقول الأستاذ محمد عبد الجواد[1] عن هذا الحمار : « إنه فخر الحمير » ! ! .

وكان من ذكائه ودقة ملاحظته يعرف — وهو مدرس بدار العلوم — مكان كل طالب فى الفصل ، ويحفظ اسمه ، فإذا حدث من أحد همس أو حركة

---

(١) له كتاب (الشيخ الحسين بن أحمد المرصفى) نال جائزة مجمع اللغة العربية فى البحث الأدبى ، وطبع سنة ١٩٥٢ ، وقد نفعنا فى إعداد التعريف بالشيخ .

ناداه باسمه ونهاه ، وكان يشعر عقب دخوله الفصل بفراغ مكان الطالب الغائب ، لأنه كان دقيق الإحساس ، ولقد دخل طالب خلسة إلى الفصل فى حذر ، فأحس به الشيخ ، فقال : من ذلك الذى شوش علينا الدرس ؟ . .

وكان إذا أقبل نحوه شخص عرف نوعه : أهو رجل أم امرأة ! ! . . .

فى مدرسة المكفوفين :

واشتغل الشيخ المرصفى مدرسا فى (مدرسة العميان) ، وقد أسست هذه المدرسة — كما يحدثنا الأستاذ عبد الجواد — فى عهد الخديوى إسماعيل فى يناير سنة ١٨٧٥ م ، وكانت من المدارس الخصوصية ، واستمرت ١٥ سنة ، لأنها ألغيت فى ديسمبر سنة ١٨٨٩م ، وكانت هذه المدرسة الأولى من نوعها فى مصر ، وبها من التلاميذ مئة وأربعة عشر تلميذا بمصاريف على الأوقاف ، وكان أول ناظر لها المرحوم محمد أنسى بك الذى صار بعد سبع سنوات كبير المفتشين بالنظارة ، أو رئيس التفتيش ، وقد خلفه عبد الرحمن عفت من ديسمبر سنة ١٨٨٢ إلى فبراير سنة ١٨٨٦ ؛ أما ثالث نظارها فكان المرحوم محمد عبد الفتاح بك خريج دار العلوم سنة ١٨٧٧ ، وهو من تلاميذ الشيخ حسين المرصفى ، وقد مكث فيها ناظراً من سنة ١٨٨١ إلى يونيه سنة ١٨٨٩ ، كما أن المرحوم محمد حفنى ناصف بك خريج دار العلوم سنة ١٨٨٢ ، وأحد تلاميذ الشيخ المرصفى أيضاً ، قضى بهذه المدرسة سنتين وثلاثة أشهر معلم نحوٍ للمكفوفين ، ومعلم طريقة الفهم والتفاهم للخرس .

ويظهر أن وجود الشيخ المرصفى مدرسا فى هذه المدرسة، مع تدريسه فى دار العلوم، قد ساعده على تعلم الخط العربى والخط الفرنسى بالحروف البارزة على طريقة برايل BRAILLE التى كانت مستعملة فى ذلك الوقت بهذه المدرسة لتعليم الطلبة بها . .

***

واختير الشيخ المرصفى أيضا عضوا بالمجلس العالى للتعليم فى مارس ١٨٨١ ثم وكان من زملائه فيه المشايخ : محمد عبده وحسونة النواوى وزين المرصفى . وفى سنة ١٨٨٨ ترك الشيخ المرصفى التدريس بدار العلوم ، وخلفه فيها الشيخ حسن الطويل ، فقال فى ذلك الشيخ أحمد مفتاح :

دار العلوم شكت فراق أبى الهدى (المرصفى) الحبر، أوحد ذا الزمن .
فأجبتها : حسن المعارف بعده لا تجزعى ، إن الحسين أخو الحسن !

وكان المرصفى صديقا للشاعر الكبير محمود سامى باشا البارودى ، وكانت بينهما مراسلات ومساجلات شعرية ، وكان المرصفى يقول الشعر نادرا ، كما كان صديقاً للشاعر عبد الله باشا فكرى ، وكان المرصفى من أجل هذا يكثر الاستشهاد فى دروسه ومحاضراته بأشعار البارودى وفكرى .

المؤلفات :

للشيخ المرصفى كتابه الأدبى المشهور (الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية) وهو فى مجلدين ، ويحوى مجموعة المحاضرات التى ألقاها فى دار العلوم ، وقد نشر أكثرها بنصه فى مجلة (روضة المدارس المصرية) ؛ وهذا الكتاب هو أشهر مؤلفات الشيخ المرصفى ؛ وقد طبع سنة ١٢٩٢ هـ ؛ وأعيد طبعه ، وتكلم فيه عن مختلف العلوم العربية ، ويعد الكتاب كموسوعة فى التعريف بهذه العلوم ، وهو يكثر فيه من الاستشهاد بالقرآن والحديث والحكم والأشعار والقصص .

وهذا الكتاب قد تتلمذ عليه شاعر النيل المرحوم حافظ إبراهيم ، وفى ذلك يقول المرحوم مصطفى صادق الرافعى : « وُلد حافظ إبراهيم سنة ١٨٧١ ، وكان الكتاب الأول الذى هداه إلى سر الأدب العربى ، وأرهف ذوقه ، وأحكم طبيعته ، هو كتاب (الوسيلة الأدبية) للشيخ حسين المرصفى ، المطبوع فى مصر

لخمس وخمسين سنة ؛ ففى هذا الكتاب قرأ حافظ خلاصة مختارة محققة من فنون الأدب العربى فى عصوره المختلفة ، ودرس ذوق البلاغة فى أسمى ما يبلغ بها الذوق ، ووقف على أسرار تركيبها ، وعرف منه الطريقة التى نبغ بها البارودى ، وهى قراءة دواوين فحول الشعراء من العرب ومن بعدهم ، وحفظه الكثير منها ، فبنى شاعرنا من يومئذ قريحته على الحفظ . . . » . ثم يقول : « وفتن شاعرنا بما قرأ فى (الوسيلة) من شعر البارودى ، فأصبح من يومئذ تلميذه ، وسار على نهجه فى قوة اللفظ ، وجزالة السبك ، ومتانة الصنعة ، وجودة التأليف على نغم الألفاظ وأجراس الحروف ، ولكنه لم يدرك شأو البارودى فى ذلك . . »[1] .

وهذا الكتاب أيضاً قد تتلمذ عليه أمير الشعراء أحمد شوقى ؛ يقول مصطفى صادق الرافعى : « والكتاب الأول الذى راض خيال شوقى ، وصقل طبعه ، وصحح نشأته الأدبية ، هو بعينه الذى كانت منه بصيرة حافظ ، وذكرناه فى مقالنا عنه ، أى كتاب (الوسيلة الأدبية) للمرصفى ؛ وليس السر فى هذا الكتاب مافيه من فنون البلاغة ومختارات الشعر والكتابة ، فهذا كله كان فى مصر قديماً ولم يغن شيئاً ، ولم يخرِّج لها شاعرا كشوقى ، ولكن السر ما فى الكتاب من شعر البارودى لأنه معاصر ، والمعاصرة اقتداء ومتابعة على صواب إن كان الصواب ، وعلى خطأ إن كان الخطأ .

وقد تصرمت القرون الكثيرة والشعراء يتناقلون من ديوان المتنبى وغيره ، ثم لا يجيئون إلا بشعر الصناعة والتكلف ، ولا يُخلد الجيل منهم إلا لما رأى فى عصره ، ولا يستفتح غير الباب الذى فُتح له ، إلى أن كان البارودى ، وكان جاهلا بفنون العربية وعلوم البلاغة ، لا يحسن منها شيئاً ، وجهله هذا هو كل العلم الذى حوّل الشعر من بعد ، فيالها عجيبةً من الحكمة ! وهى دليل على أن أعمال الناس ليست إلا خضوعاً لقوانين نافذة على الناس ! . —

(١) كتاب وحى القلم ، ج ٣ س ٣٢١ ، الطبعة الأولى .

وأكب البارودى على ما أطاقه ، وهو الحفظ من شعر الفحول ، إذ لا يحتاج الحفظ إلى غير القراءة ، ثم المعاناة والمزاولة ؛ وكانت فيه سليقة ، فخرجت مخرج مثالها فى شعراء الجاهلية والصدر الأول من الحفظ والرواية ، وجاءت بذلك الشعر الجزل الذى نقله المرصفى بإلهام من الله تعالى ، ليخرج به للعربية حافظ وشوقى وغيرهما ؛ فكل ما فى الكتاب أنه ينقل روح المعاصرة إلى روح الأديب الناشئ ، فتبعثه هذه الروح على التمييز وصحة الاقتداء ، فإذا هو على ميزة وبصيرة ، وإذا هو على الطريق التى تنتهى به إلى ما فى قوة نفسه ما دام فيه ذكاء وطبع ؛ وبهذا ابتدأ شوقى وحافظ من موضع واحد ، وانتهى كلاهما إلى طريقة غير طريقة الآخر ، والطريقتان معا غير طريقة البارودى »[1] .

وشوقى نفسه يتحدث عن أستاذية المرصفى له ، وعن تأثيره فيه وتوجيهه لشعره ، فيقول فى تصوير نشأته الأدبية : « وُفقت لنظم الشعر وأنا فى الرابعة عشرة من عمرى ، وكان أستاذى يومئذ المغفور له الشيخ حسين المرصفى ، وعليه قرأت (الكشكول) ، وديوان البها زهير ، حتى إذا بلغت فى مطالعة الكشكول إلى قول الشاعر :

وَمُخَرَّقٍ عنه القميص تخاله ... بين البيوت مِنَ الحياء سقيما

حتى إذا حمى الوطيس رأيته ... عند اللواء على الخميس زعيما

استخف الطربُ الشيخَ ، وطلب إلىّ أن أشطِّر البيتين ، فقلت :

(ومخرق عنه القميص تخاله) ... ملَكا تنم به السماء كريما

يحمى الحمى ، عف اللواحظ والخطا ... (بين البيوت من الحياء سقيما)

(حتى إذا حمى الوطيس رأيته) ... نارا على نار الوغى وجحيما

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٠١ .

وإذا القبائل أطبقت ألفيته (عند اللواء على الخميس زعيما)

فاستحسن البيت الأول والثانى ، وأرشدنى إلى موضع التكلف من الثالث والرابع ، ثم اقترح أن أجرب لسانى فى الحكمة ، فعملت هذين البيتين ، وهما أول عهدى بإنشاء الشعر :

قصارى العيش أن يذ هب ، إن حلوا وإن مرا

فإن شئت فمت عبدا وإن شئت فمت حراً !!

فأعجب الشيخ بهما كثيرا ، وبشرنى بمستقبل فى الحكمة غزير » !! . .

وحسب الشيخ المرصفى فخرا أن يكون موجها لشاعر العربية وأمير الشعر شوقى ، وأن يكون كتابه (الوسيلة الأدبية) عاملا فى تكوين تلك الشاعرية الفذة !! . . .

ومن مؤلفات الشيخ المرصفى كتاب (دليل المسترشد إلى فن الإنشاء) ، وهو كتاب مخطوط فى ثلاثة مجلدات ، تناول فيه عدة علوم وفنون ، كالأدب وتاريخه ، والتربية وتاريخها ، وعلم النفس ، والمنطق ، والحكمة ، والنقد الأدبى ، والفقه وعلم الحياة ... إلخ .

ومن مؤلفاته أيضا (رسالة الكلم الثمان) ، وهو كتاب ضمنه الشيخ ثمانية فصول عن ثمانية كلمات يرددها الناس — وبخاصة شباب بيئته وعصره — وهم لا يعرفون معانيها بدقة ، فشرحها لهم شرحا وافيا ، وهذه الكلمات هى : (الأمة ، الوطن ، الحكومة ، العدل ، الظلم ، السياسة ، الحرية ، التربية) .

وصدر رسالته بهذين البيتين :

أرجو قبولَ هدية لقبتها (الكلم الثمان)

أهديتها لأولى النهى فتيان أبناء الزمان !

وقد طبعت هذه الرسالة فى ذى الحجة سنة ١٢٩٨ هـ - أكتوبر سنة ١٨٨١ م، وكأنه انتهز فرصة النهضة التى بدت فى الوطن ، فأراد أن يوجه أبناءه إلى حقوقهم وواجباتهم ، وأن يعطيهم دروسا فى التربية الوطنية والثقافة القومية ، وقد تحدث فى هذا الكتاب عن مسائل فى الإصلاح الاجتماعى والتربية وعلم النفس ، والأمور الاقتصادية ، والديمقراطية والأوضاع السياسية والدولية ، ولك - من غير حرج - أن تعجب لشيخ أزهرى مكفوف يتحدث فى هذا الزمن المتقدم عن هذه الأمور الدقيقة العميقة التى مازالت موضوع حديث فى مجالات الثقافة الحديثة والمعرفة الواسعة، ويظهر أن معرفة الشيخ المرصفى للغة الفرنسية ومطالعاته فيها ، مع تدريسه فى دار العلوم التى كانت تحاول الجمع بين ثقافة الأزهر الموروثة و بعض الثقافة الحديثة، مع مزاملته لطائفة من الأساتذة الشرقيين والغربيين فى التدريس ، مع مجالسته لرجال السياسة والاجتماع والأدب ، يظهر أن هذا كله كان من العوامل التى هيأت للشيخ الأزهرى المكفوف أن يقتحم ميدان الكتابة فى هذه الأمور . . .

ويزداد عجبك أو إعجابك حينما ترى الشيخ مع هذا كله قد اعتمد فى حديثه على الروح العربية والروح الإسلامية ؛ فى تفكيره وفى استشهاده وتعبيره ! ! . . .

معلومات أخرى :

على الرغم من أن الشيخ المرصفى كان من كبار العلماء فى عصره كان مرتبه فى الأزهر الشريف مئة وخمسين قرشا فقط فى الشهر ، مع بضعة أرغفة من (الجراية) ، وكان مرتبه فى دار العلوم أربعة جنيهات أولا ، وارتفع إلى ستة ، وفى سنة ١٨٨ م صار مرتبه أحد عشر جنيها ، وفى العام التالى صار خمسة عشر جنيها . . .

وكان الشيخ المرصفى مع رقة مزاجه وحدة ذهنه مرحا فكها يجيد الدعابة ؛ وكان يجالس على مبارك باشا — وهو فى عصره كأنه علم فى رأسه نار — وكان يحادثه ويباحثه فى شتى الأمور ، ولعلى مبارك فى الشيخ كلمة يترجم له بها ، وهى تدل على بليغ التقدير وعظيم التنويه ، يقول فيها: « له اليد الطولى فى كل فن ، وقل أن يسمع شيئاً إلا ويحفظه ، مع رقة المزاج وحدة الذهن وشدة الحذق ؛ اجتهد فى التحصيل وحفظ المتون ، حتى متن جمع الجوامع وتلخيص المفتاح ، وتصدر للتدريس ، وقرأ بالأزهر كبار الكتب ، كمغنى اللبيب فى النحو لابن هشام . وله تآليف مفيدة ، أجاد فيها وأفاد ، منها كتاب الوسيلة الأدبية فى علوم العربية ، جمع فيها نحو اثنى عشر فناً ، وتكلم باللسان الفرنساوى ، وقرأ الخط العربى والفرنساوى فى أقرب زمن ، مع انكفاف بصره ، وهو حروف اصطلح عليها اصطلاحا جديداً ، تُدرك بالحس باليد ، وقد أنشأ الخديوى إسماعيل من ضمن ماأنشأ من المدارس مدرسةللعميان، يتعلمون فيها هذا الخط مع فنون أخرى ، وكان الشيخ حسين معلم العربية فى دار العلوم ، وبالمدارس الكبرى ، وبمدرسة العميان »[1] .

ومع هذا حدث فتور بين الشيخ وبين على مبارك سنة ١٨٨٨ ، ويقال إن هذا الفتور كان سبباً فى ترك الشيخ لدار العلوم ، كما يقال إن هذا أدى إلى مرضه الذى انتهى بموته .

وكان للشيخ المرصفى ولدان ، هما المرحوم الشيخ عبد العزيز ، وكان مكفوفاً قارئاً شهيراً ، وقد استفاد منه المرحوم الشيخ محمد رفعت كثيراً ، وكان مولعاً بالموسيقى ، وعنده جميع آلاتها ، والولد الثانى هو المرحوم الشيخ أمين ، وكان يشتغل بالمطبعة الأميرية .

---

(١) الخطط لعلى مبارك ، ج ١٥ ص ٤٠ .

وقد توفى المرحوم الشيخ حسين المرصفى فى ٥ جمادى الثانية سنة ١٣٧٠ هـ — ٢٦ يناير سنة ١٨٩٠ م . وسار فى جنازته شيخ الأزهر ، ومفتى الديار المصرية ، وكبار العلماء ، ورجال التربية والتعليم ، وصلوا عليه فى الأزهر ، وتليت قصائد فى رثائه ، و دُفن (بقرافة العفيفى) بالقاهرة ، بالقرب من الشيخ عبد الله المنوفى والشيخ عليش ، عليهم رحمة الله .

أما بعد ، فهذا أزهرى عبقرى مكفوف ، لم يمض على موته ثلاثة أرباع القرن من الزمان ، فمَنْ مِنْ أبناء الأزهر المبصرين يقصون قصته ، أو يتدارسون حياته؟ بل مَنْ مِنْ أبناء الأزهر المكفوفين يتدبرون كفاح المرصفى ، و يتخذون منه قدوة ومثلا ؟!! ...

« ياليت قومى يعلمون » !! ...

الشيخ يوسف الدجوي

النشأة والتدريس :

فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى هو أبو المحاسن جمال الدين يوسف ابن أحمد بن نصر بن سويلم الدجوى الأزهرى المالكى عضو جماعة كبار العلماء بالأزهر الشريف ، ولد سنة ١٢٨٧هـ بقرية (دجوة)[1] فى مركز طوخ بمديرية القليوبية ؛ وهو من أسرة ينتهى نسبها إلى حبيب من بنى سعد ، وهى إحدى القبائل العربية الحجازية ، وكان أبوه من أعيان (دجوة) كريماً فاضلا ، ووالدته هاشمية يرجع نسبها إلى الحسن بن على ، وهى من سلالة السيد محمد فرغل بن أحمد ، وأبوها هو السيد عبد الفتاح الفرغلى .

وقد نشأ الشيخ الدجوى نشأة عربية إسلامية ، ورتّب له والده من قام بتحفيظه القرآن الكريم ، وأصيب فى هذه الفترة بمرض الجدرى ، فأفقده بصره ، وحزنت أمه لذلك وأخذت تبكى كثيراً ، ولكن والدها التقى الصالح قال لها : « لا تحزنى ، إن الله سبحانه سيعوض عن بصره ببصيرة نافذة تجعله عالماً كبيراً ، يُرجع إليه فى حل المشكلات » ! ! . .

وظهرت على الطفل مخايل النجابة والذكاء ، ثم دخل الأزهر الشريف سنة ١٣٠٢ هـ ، حيث تفقه على مذهب الإمام مالك ، ودرس علم القراءة على

---

(١) بعض اللغويين يضبط (دجوة) بكسر الدال ، وبعضهم يضبطها بضم الدال، وهذا أكثر ، وبعضهم يقول (دجوى) مقصورة ، وينسب إلى دجوة محدثون منهم : محمد بن المعين ابن الزين الدجوى المتوفى سنة ٨٠٩ هـ. وقد تحدث عن (دجوة) الزبيدى فى شرح القاموس، وعلى باشا مبارك فى الخطط التوفيقية ، والجبرتى فى تاريخه . كما جاء ذكرها فى معجم البلدان لياقوت ، وفى كتاب مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، والقاموس الجغرافى الذى أصدرته حكومة مصر سنة ١٨٩٩ م .

الشيخ حسن الجريسى الكبير ، وتخرج فى باقى العلوم على الشيخ هارون بن عبد الرازق الصعيدى ، والشيخ أحمد فايد الزرقانى ، والشيخ محمد بن سالم طموم المنوفى، والشيخ أحمد الرفاعى الفيومى ، والشيخ رزق بن صقر البرقامى ، والشيخ محمد البحيرى ، والشيخ عطية العدوى ، والشيخ سليم البشرى ، وغيرهم .

وقد تجلى ذكاؤه وحدة ذهنه فى وقت مبكر ، مع أنه كان ضعيف البنية ، نحيل الجسم ، رقيق الطبع ، لين الجانب ، وكان يجمع بين طلب العلم وتدريسه ، فهو يحضر درس (الأشمونى) نهاراً ، ويقرأ (شرح ابن عقيل) ليلا . وتقدم إلى امتحان شهادة (العالمية) فى أول صفر سنة ١٣١٦ ، وكان فى نحو التاسعة والعشرين من عمره ، وكان رئيس لجنة الامتحان الشيخ سليم البشرى شيخ الأزهر ، وفيها الشيخ محمد راضى شيخ الحنفية ، فأظهر الشيخ يوسف علماً ونجابة ، فنال الشهادة من الدرجة الأولى الممتازة ، وقال الشيخ راضى : « لو كان هناك شىء فوق الدرجة الأولى لأعطيناه إياه » ! ! .

وعقب ذلك اختارته المشيخة لتدريس شرح ابن عقيل ، بدل عالم كبير نقل إلى الإسكندرية ، فأقبل الطلاب فى كثرة على درسه ، كما قرأ للطلاب كتاب (شرح السعد) ، و (العزية فى فن الصرف) ، و (العصام على السمرقندية) و (جمع الجوامع) ، و (مختصر ابن الحاجب فى الأصول) ، وغير ذلك من الكتب الأزهرية التى كانت مشهورة حينئذ بالعمق والصعوبة .

وكما درّس فى الجامع الأزهر درس حيناً فى مسجد (أم الغلام) بحى الإمام الحسين ، وتخرج على يديه كثير من الطلاب الذين صاروا قضاة أو أساتذة أو موظفين فى وظائف ملحوظة ، ومن تلاميذه الشيخ عبد الرازق البجيرمى ، ومن تلاميذه العالم المشهور الشيخ محمد زاهد الكوثرى ، وقد كتب فى رثائه له يقول :

« وقد تلقيت من الأستاذ الدجوى رحمه الله موطأ الإمام مالك ، من رواية يحيى الليثى فى مجالس آخرها فى اليوم الثانى والعشرين من صفر سنة ١٣٦١ هـ بقراءتى عليه لجميعه ، إلا بعض مواضع يسيرة ، فإنه ناوبنى فيها الشيخ على الخصوصى فى بعض المجالس ، فأجازنى به و بجميع ماله من الروايات إجازة عامة ، وساق سنده فى الموطأ عن أحمد منة الله ، عن الأمير الكبير بسنده ، بطريق السقاط . ورجال هذا السند كلهم من المالكية ، من الأستاذ الدجوى إلى الإمام مالك رضى الله عنه » .

ومن تلاميذه المرحوم الشيخ عبد الله عفيفى ، و يروى عنه أنه قال عن الشيخ الدجوى سنة ١٩٤٣م هذه العبارة :

«أنا من أبناء الشيخ وأفخر بذلك ، حضرت عليه (ابن عقيل) بعد أن نقل شيخنا إلى الإسكندرية وكيلا لمعهدها ، وجاءت المشيخة بفضيلة الشيخ عقب تخرجه ، واعتقدنا أنه لا يستطيع إتباعنا لشيخنا فى بقية الكتاب ، فلما سمعناه أول يوم فتنا به وعرفنا بعد ذلك أنه يكفى الطالب أن يحضر درسا واحدا على الشيخ الدجوى ، ثم يكون عالما فى أى درس من دروسه ، لأنه يقرر النحو والبلاغة والأدب والبيان الرائع » ! .

ويظهر أن الشيخ الدجوى — رغم تواضعه ولين خلقه — كان يعتد بنفسه. و يعتز بمكانته ، وقد يدل على ذلك قوله :

إن عندى لسيوفا من براهين العقول
تقطع الطاعن فيما جاء من شرع الرسول !

المؤلفات :

للشيخ يوسف الدجوى مؤلفات كثيرة تتحدث فى أمور الدين والعقيدة ، فله كتاب (سبيل السعادة) ألفه سنة ١٣٣٠ هـ — ١٩١٢ م فى فلسفة الأخلاق الدينية ، وقد أعجب الشيخ حمزة فتح الله اللغوى المشهور و كبير المفتشين بوزارة

المعارف بهذا الكتاب ، وكتب عنه منوها به ، وقال لمؤلفه : « وبالإجمال فقد أحسنت ياشيخ الدين ، وأديت فرض الكفاية عن المسلمين ، وشفيت السقام ، ورويت الأوام » ! .

وله كتاب (الجواب المنيف فى الرد على مدعى التحريف فى الكتاب الشريف) ألفه سنة ١٣٣١ هـ — ١٩١٣ م ، يرد به على (القس كولدساك) رئيس المبشرين الذى تطاول على القرآن الكريم فى كتابه (هل من تحريف فى الكتاب الشريف) فثار الشيخ لذلك الكتاب الذى وزعوا منه عدداً كبيرا على المدارس المصرية حينئذ ، ورد عليه ردا قويا جعل المسئولين يبادرون بمصادرة الكتاب وجمعه من المدارس بسرعة .

وله كتاب فى تفسير قوله تعالى : «لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون» وقد ذهب فى تفسيره مذهبا يخالف ما قاله المفسرون ، وقد فصل فيه القول عن أشياء هامة . وله كتاب (المحاضرة السلطانية) التى ألقاها فى الرواق العباسى بالأزهر فى الرابع من المحرم سنة ١٣٣٦ م حين زيارة السلطان أحمد فؤاد له ، وقد طبعها الشيخ عبد الرازق البنجيرمى. وللشيخ رسالة فى(علم الوضع)ألفها سنة ١٣٣٦ هـ —١٩١٧م، وقد نالت الجائزة من لجنة فحص الكتب ، وقرر الأزهر تدريسها بمعاهده ، وهى مفيدة برغم وجازتها ، وله كتاب (رسائل السلام ورسول الإسلام). ألفه سنة ١٣٤١ هـ — ١٩٢٢ م ، وسبب تأليفه له أن خطابا جاء من طائفة من الباحثين فى أمريكا إلى شيخ الأزهر يسألونه كتابا يعرفهم تعاليم الإسلام ومزاياه ومكانة رسوله ، فأجمع كبار العلماء على أن يقوم الشيخ الدجوى بكتابة هذا البحث ففعل ، وطبع هذا الكتاب ، ثم ترجم إلى اللغة الإنجليزية ، ووزعوه داخل مصر وخارجها.

وقد وجهت صحيفة (الأهرام) فى آخر سنة ١٩٣٩ نصيحتها إلى زعيمى المحور

حينئذ الهر هتلر والسنيور موسوليني بأن يتبعا ما جاء فى هذا الكتاب ، و يعملا بالتعاليم الموجودة بين دفتيه ، لأنها تعاليم الإسلام الإنسانية الرفيعة .

وله مذكرات فى الرد على كتاب (الإسلام وأصول الحكم) للشيخ على عبد الرازق ، وقد طبعت سنة ١٣٤٤ هـ — ١٩٢٥ م ، وله كتاب (صواعق من نار فى الرد على صاحب المنار) ، وله كتاب (هداية العباد إلى طريق الرشاد) طبع سنة ١٣٥٦ هـ ، وله كتاب (تنبيه المؤمنين لمحاسن الدين) ، وله أيضاً كلمة فى (السلفية الحاضرة) طبعها بعض العلماء بدمشق سنة ١٣٥٦ .

وهناك كثير من المقالات التى نشرها الشيخ الدجوى فى مختلف المجلات الدينية ، كما أنه ترك كثيرا من البحوث المخطوطة فى موضوعات متعددة ، وأهم هذه المخطوطات دروسه فى التفسير ، وهى الدروس التى ظل يلقيها فى الصباح الباكر بجامع العدوى والرواق العباسى منذ سنة ١٣٣٠ هـ إلى سنة ١٣٤٢ ، وهى تقع فى أربعين كراسة كبيرة ، وتشتمل على تفسير ثلث القرآن ، وقد ذكر الشيخ عبد الرافع الدجوى صهر الشيخ يوسف الذى عنى بنشر معلومات أفادتنا عن الشيخ ، أن للشيخ الدجوى كثيراً من المؤلفات المخطوطة التى تستحق أن تطبع وتنشر ، لما فيها من فوائد وثمرات .

ومن مخطوطاته كتابه (الرق فى الإسلام وعند المصريين) ، وكتاب (فضيحة الملحدين) وغيرها ، والشيخ الدجوى نفسه كان يعتز بمؤلفاته ومخطوطاته ، فيقول مثلا :

كراريسى بها علم كثير — ويعرف فضلها الرجل الخبير!

وكان الشيخ الدجوى يقول الشعر منذ شبابه على طريقة المشايخ فى عهده ، فله قصيدة فى مدح أم المؤمنين السيدة خديجة منها هذه الأبيات :

من مثل من قد صدقت خير الورى — وقلوب كل الناس غاب هداها ؟

لما أتاها من (حرا) فى دهشة ... وزأته مرتاعا وقد تاجاها
قالت مقـال خبيرة و بصيرة ... وكأنما الوحى الأمين أتاها :
والله لايخزيك ربك ، سيدى ... أبداً ، فكن متهللا بيأطه
هى جدة الحسنين أعلام الهدى ... هى أم فاطمة المطير سناها
من مثل من جاء النبى المجتبى ... بسلامها جبريل عن مولاها ؟
و بشارة عظمى بقصر طيب ... فى جنـة الفردوس فيه مناها
يامن تريد مديحها ، أقصر تجد ... مدحَ النبى المصطفى أغناهـا
كان النبى يقول إن ذُكرت له : ... كانت ، وكانت ؛ مادحاً لعلاها
فتقول عائشـة : كأنك لم تجد ... فى عالم الدنيـا العريض سواها
فيزيدها مدحاً ، ويُعْظم فضلها ... فى قصـة يحلو العلا بحلاها !

ومن قوله فى المواعظ والحكم :

كم قد سمعنـا من الآثار والحكم ... لكن بأذن عن الإنذار فى صمم
همنـا بوادى المعاصى آنسين به ... فالقلب فى ظلمة الوادى الوخيم عمى
إنـا لنعرف ما نسمـو به عظما ... لكن أنفسنا تأبى عن العظم
أدلة الحق كالأعـلام ظاهرة ... لكنْ جهالتُنا تعمى عن العَلَم
يا نفس وقتُكِ سيف فى يدىْ أمل ... إن كنت نائمـة فالموت لم ينم
جِدِّى ، وكونى على الخيرات عاكفة ... وفارقى مرتع العصيان والظُّلَم !

و يقول فى ثقل الحياة وفى محبة الموت :

حيـاتى أصبحت عبأً ثقيلا ... وصار الموت أهون من حياتى
فليـلى كله هم وكرب ... وذاك النوم أصبح من عداتى
رأيت الموت أفضل كل شىء ... لشيخ ذى سقام مقلقات

ومن شعره فى الدعوة إلى الرحمة :

ارحم عباد الله يرحمك الذى ... عمّ الخلائق جوده ونواله
فالراحمون لهم نصيب وافر ... من رحمة الرحمن جل جلاله

ومن قوله فى الانتقاد :

أفتتركون المنكرات سبهللا[1] ؟ ... وتحاسبون على اقتراف الذرة ؟
أفتصلحون البيت من شرفاته ؟ ... ما أنتم إلا كأهل الكوفة ![2]

ومن أمثلة نثر الشيخ هذه العبارة :

« النفس من شأنها التلون والتلبيس على صاحبها ، لمكان الهوى والشهوة التى تعمى البصيرة[3] ، وسر ذلك أن القلب ليس له إلا وجهة واحدة ، متى توجه إليها انصرف عن غيرها ، وإن كان من أوضح الواضحات وأولى البديهيات ، فإذا اقتاده الهوى لم يمكنه أن يوجه بصره إلى غير ناحية الأمر المحبوب .

النفس تأبى إلا قضاء شهواتها ، ولو فسدت السموات والأرض ومن فيهن ، فأكثر ما يؤتى الناس من قبل ضعفهم أمام شهواتهم ، لا من قبل جهلهم بالنقص والكمال » .

ويقول أيضا : « الحرية الحقيقية أن تحرز نفسك من أسر الشهوات التى استعبدتك لمن لا يحصون عدداً من الشركاء المتشاكسين ، فالناس كلهم فى الذل من خوف الذل ، وفى الفقر من خوف الفقر ، وقد قال أبو الطيب المتنبى :

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله ... مخافة فقر ، فالذى فعل الفقر » !

---

(١) سبهللا : أى مختالا غير مكترث ، ويمشى سبهللا : إذا جاء وذهب فى غير شىء (القاموس) .

(٢) أهل الكوفة قتلوا الحسين ، ثم سألوا عبد الله بن عمر عن قتل الحاج المحرم للذباب ، فقال : عجبا يا أهل الكوفة ، تقتلون سبط الرسول ، وتسألون عن قتل الذباب ؟

(٣) نلاحظ أن الشيخ تكرر الحديث عن عمى القلب وعمى البصيرة ، وهذا يستحق البحث والتأمل .

أعماله الدينية :

ألف الشيخ يوسف الدجوى (جمعية النهضة الدينية الإسلامية) سنة ١٩١٤ وذلك ليقاوم العلماء حركة التبشير التى انتشرت بين المسلمين على أيدى غير المسلمين حينذاك ، وكان رئيساً لها ، واشترك فيها كثير من العلماء ، وحدث أن أعلنت الأحكام العرفية أثناء الحرب العالمية الأولى ، و بسطت انجلترا حمايتها على مصر ، وكان رئيس الحكومة حينئذ (حسين رشدى باشا) فاستدعى الشيخ فى سنة ١٩١٧ ليطالبه بوقف نشاط الجمعية ، وقال له : « أنت لك يا مولانا مشاغبات كثيرة مع المبشرين » .

فقال له الشيخ : « هذه وظيفة العالم » . فقال له رشدى باشا : « أرجو أن تكفوا لئلا يُستغل الظرف لغير الدين ، والحرب قائمة » . فاشترط الشيخ لذلك أن يكف المبشرون أيضاً عن نشاطهم ، فوعده رئيس الحكومة بذلك ، وكان مع الشيخ الدجوى عالمان آخران ، وذاع خبر هذه المقابلة بين الناس ، وأعجبوا بشجاعة الشيخ الدجوى .

وكذلك ألف (جمعية مساعدة منكوبى حرب الأناضول) ، وكان رئيساً لها ، وكتب الخليفة (وحيد الدين) إلى الشيخ يشكر له جهده ونشاطه فى مساعدة المنكوبين ، ولما وقع (الانقلاب الكمالى) فى تركيا توقفت أعمال الجمعية .

ولما اختير الشيخ عضواً فى (هيئة كبار العلماء) لملء كرسى المالكية فى أغسطس سنة ١٩٢٠ أحس أن واجبه الدينى قد اتسع ، فضاعف مجهوده فى البحث والإفتاء والرد على الأسئلة الدينية الكثيرة التى كانت تأتيه من شتى بقاع العالم الإسلامى وغيره ، وكانت ردوده على هذه الأسئلة تنشر فى مختلف المجلات أو ترسل لأصحابها ؛ ولما عُيِّن الشيخ عضواً فى الهيئة المذكورة استن (القصر)

سنة جديدة لمثله ، فمنحه (كسوة التشريف العلمية من الدرجة الأولى) ، ولم يحصل عليها أحد قبله من نظرائه .

ثم اختير عضواً فى لجنة فحص الرسائل العلمية التى يتقدم بها أصحابها للترشيح للعضوية فى هيئة كبار العلماء ، ثم اختير عضواً فى لجنة اختيار الأعضاء المرشحين للهيئة فى أول سنة ١٩٢١ .

وكان الشيخ الدجوى مشهوراً بجرأته وشجاعته ، وحدث أن حضر مجلساً فى دار الشيخ حسونة النــواوى شيخ الأزهر سنة ١٩١٠ ، وكان هناك أحد (الباشوات) ، فتهكم على الأزهر والأزهريين ، فلم يصبر الشيخ الدجوى ، بل رد على الباشا رداً صريحاً عنيفاً ، وأبان له أن الأزهريين قد سجلوا الفخر لأنفسهم ، قبل الاحتلال وبعده ، وقاموا بواجبهم فى كل مناسبة ، وأن نكبة الأمة جاءت من سراتها وعظمائها المقصرين ، الذين لا يستجيبون لنصح العلماء ، ولا يعملون بتعاليم الدين ، وفى آخر كلامه قال للباشا : وهل يستطيع الباشا أن يخبرنا عما صنع هو وأمثاله من الموسرين ؟ ! . . .

فغضب الباشا وانصرف محتجاً ، ولــكن الشيخ حسونة أعجب بموقف الشيخ الدجوى وقال له : « جزاك الله عن الدين والعلماء خيراً » . ولما هم الشيخ الدجوى بالانصراف سار معه الشيخ حسونة إلى باب الدار على خلاف عادته من قبل .

وفى سنة ١٩٢٤ ذهب الشيخ الدجوى إلى الوزير الذى كان يتــولى وزارة الأوقاف حينئذ ، ليحادثه فى إنصاف أحد الأئمة ، ولــكن الوزير لم يحسن الحديث مع الشيخ ، فقال له الشيخ : « إن وزارة الأوقاف وزارة المسلمين كلهم ، وهى وزارة الإحسان من أوقاف المسلمين إلى المستحقين من المسلمين ، لا وزارة الباشوات والأغنياء ، ورحم الله ذلك الزمن الذى كانت الوظائف تكبر فيه بأربابها ، ولــكن هذا الزمن يــكبر الشخص فيه بالوظيفة » ! ! . . .

فقال له الوزير : أتشتمنا يا أستاذ ؟ . فقال له الشيخ : ليست الشتائم من دأب العلماء ، وإنما ذلك من كرامة العلماء ، وماذا فعله العلماء فيكم حتى تنسبوا لهم ما هم بريئون منه ؟ ! . . .

والغريب أن المجلس انتهى بإعجاب الوزير بالشيخ ، وقضى له حاجته ، وصارا صديقين بعد ذلك . . .

ومن شجاعة الشيخ أنه احتج لدى العميد الإنجليزى فى مصر عقب اعتقال الإنجليز لسعد زغلول وصحبه ، وكتب الشيخ للعميد يقول : « عجبا لسياستكم العتيقة ، كيف يفوتها أن شدة الضغط تولد الانفجار ، وأن تقليم الأشجار لا يزيدها إلا تهيجا ونماء ، وأن النفوس الإنسانية متى امتلأت بشىء استعذبت الموت فى سبيله ؟ . ولا تظنوا يا جناب اللورد أن هذه احتجاجات تفوه بها الألسن ، وإنما هى قلوب متأججة وأرواح مشتعلة وأعصاب متنبهة ، فاعملوا إنا عاملون ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

وقد نشرت الصحف هذا الاحتجاج حين ذاك .

كما كتب إلى ملك انجلترا عقب الحكم بالإعدام على الأزهرى الوطنى المرحوم (محمد الشافعى البنا) ، وطلب من الملك تخفيف حكم الإعدام ، وقد تحقق رجاؤه فلم ينفذ الإعدام ! ! . . .

وكان الكبار من المتدينين المصريين والشرقيين يعرفون للشيخ الدجوى مكانته وقيمة علمه ، وكان بعضهم يحرص على حضور دروسه فى الرواق العباسى ، مثل سعادة السيد محمد صادق المجددى الذى كان سفيراً لأفغانستان فى مصر ، كما نوه بهذه الدروس أحد المستشرقين ، وكتب عنها مقالات نشرتها بعض صحف فرنسا تحت عنوان : (سبنسر وبيكون فى الأزهر الشريف) .

ولم يكن الشيخ الدجوى يدرّس فى الأزهر فقط ، بل كان يحاضر أيضا فى كثير من الجمعيات الإسلامية .

وعلى الرغم من الجهود العلمية التى بذلها الشيخ الدجوى ، ومن كثرة مقابلاته ومراسلاته ومقالاته وأجوبته على أسئلة الدانين والنائين ، وعلى الرغم من أن مجالسه كانت يتخللها القصص الطريف أو التنكيت الظريف ، كان يحب العزلة والانفراد ، ويكثر من التفكير والتأمل ، كما يكثر من العبادة والتلاوة والذكر؛ وكان يردد قوله : « هذا وقت السكوت ، وملازمة البيوت ، والرضا بالقوت ، حتى تموت » ! . . .

ولعل هذا هو الذى جعله يترك درسه بالرواق العباسى بالأزهر سنة ١٣٥٥ هـ ، ويلزم داره فى (عزبة النخل) بالقرب من (عين شمس) إحدى ضواحى القاهرة . وفى هذه العزلة يقول الشيخ :

يئست من الأنام فطاب عيشى ... وتمت راحتى ، وصفا يقينى
عرفت الناس ، ثم فررت منهم ... لأصلح ما تصدّع من شئونى
بلاد كلها طيش وجهل ... ومصر الآن فى دور الجنون
فدعها فى الفتون ، فليس يجدى ... نصيحةُ ناصح زمنَ الفتون !

ويبالغ الشيخ فى فرحه بهذه العزلة ، فيقول :

أنست بوحدتى ، حتى لو انى ... أتانى الأنس لاستوحشت منه !

أقوال الناس عنه :

يقول المرحوم الأستاذ الجليل الشيخ محمد زاهد الكوثرى عن الشيخ الدجوى :

« كان رحمه الله آية فى الذكاء وسرعة الخاطر وجودة البيان ، وقوة الذاكرة وسعة العلم ، يحضر حلقات دروسه فى الأزهر الشريف مئات تناهز الألف من العلماء وطلبة العلوم ، يصغون إصغاء كليا إلى بيانه الساحر ، وإلقائه الجذاب ، وينهلون من هذا المنهل العذب ، وكان هو مفسر الأزهر ومحدثه وفيلسوفه ،

وكاتبه وخطيبه بحق بين أهل طبقته من العلماء ؛ وكان موضع ثقة الجماهير من الشعوب الإسلامية فى شتى الأقطار ، اعترافا منهم بسعة علمه ، وعظم إخلاصه ، وبالغ روعته ، تتوارد إليه استفتاءات من شتى الأقطار والجهات ، وكان سمحا كريما ، يتهلل وجهه سروراً عندما يتمكن من قضاء حاجة مَن رجع إليه فى أمرها[1] ، وكان عطفه على الغرباء مما لا يتصور المزيد عليه ، وذلك مما هو مذخور له فى آخرته . وله مؤلفات ممتعة سارت بها الركبان إلى شتى البلدان ، ومقالاته النافعة فى شتى المواضيع لم تزل تنشر فى الجرائد والمجلات العربية إلى آخر لحظة من أيام حياته رحمه الله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » ! .

وحينما ألف الشيخ جمعية منكوبى حرب الأناضول نظم الشيخ يوسف البجيرمى أحد تلاميذ الشيخ قصيدة يمدحه بها ، ومنها هذه الأبيات :

يا خير من يزهــو به الإسلام	دم للبلاد ، فما سواك إمام
أعليت شأن الدين بين معاشر	كادت تطيش بقصدها الأحلام
فكأنما يملى عليك الوحى من	أسراره ويمــدك الإلهام
لم تحى فى مصر لنفسك ساعة	بل لذة الدنيا عليك حــرام
تقضى لياليك الطوال مفكرا	وتقوم حيث الناسُ حولك ناموا
فليذكر التاريخ وقفتك التى	طاشت بها للمارقــين سهام
لولاك لانتهك الشرائع جهرة	نفرٌ من القوم اللصوص طغام
ملأوا صحائفهم بكل سـفاهة	وضلالة أوحى بها الإجرام
أنت الذى سيرت جندك نحوهم	وأقمت حربا نصلها الأقلام !

---

(١) كان الشيخ يردد قول الحسن بن على : « إن من نعم الله عليكم حوائج الناس إليكم » . وكان يصدر بهذه العبارة كثيراً من كتبه التى يكتبها إلى ذوى الجاه والسلطة لقضاء حوائج من يلتمسون معاونته عندهم .

وحينما زار الشيخ بلدة (شبين) حياه الأستاذ مصطفى الجندى بقصيدة طويلة منها هذه الأبيات :

شرف على شرف لدجوى إنها ... بك أصبحت تسمو على البلدان

كانت مع النكرات قبلك ، إنما ... صيرتها علما بلا نكران

كم فرية قامت فكنت تردها ... بنواصع الآيات والبرهان

إن يأخذوا التفسير عنك ، فإنما ... أخذوا عن الإلهام خير بيان

ملك على العلماء غير متوج ... ما كان عز الملك فى التيجان

لو أنهم نهجوا سبيلك فى الورى ... ما ساد إلا أشرف الأديان !

وفاته :

امتدت حياة المرحوم الشيخ يوسف الدجوى حتى قارب الثمانين ، وكان قد تزوج وصارت له ذرية من البنين والبنات ، ومن أولاده من صار من العلماء فى الأزهر الشريف ، و بين المغرب والعشاء من يوم الثلاثاء الرابع من شهر صفر سنة ١٣٦٥ هـ — ٨ يناير سنة ١٩٤٦ م لحق الشيخ يوسف الدجوى بربه ، وفى اليوم التالى صلوا عليه فى مسجد (الأميرة فريال) فى عزبة النخل ، وأم المصلين شيخ الجامع الأزهر ، وحملوا جثمانه على الأكتاف إلى مدفنه فى مقبرة (عين شمس) ، وأودع مقره الأخير بعد العصر ، رحمه الله رحمة واسعة ، وأسكنه فراديس جنانه ، فقد قال فى حياته :

والدار دار ابتلاء لا صفاء بها ... أما الصفاء فدار الخلد موعده !

الشيخ محمد رفعت

المرحوم الشيخ محمد رفعت قارئ القرآن المشهور ، هو محمد محمود رفعت ، ولد فى منزل أسرته بشارع المغربلين فى التاسع من شهر مايو سنة ١٨٨٢ هـ ، وكان والده تاجراً ، وأصيب الطفل وهو فى الثانية من عمره برمد أتى على بصره ، إلا بقية ضئيلة جداً ، ثم فقد هذه البقية أيضاً سنة ١٩٣٠م ، وذلك بعد أن اشتد حزنه على مرض ولده الأكبر (محمد) الذى أصيب فى رجله ، بأن تصلبت شرايينها ، وما زال أثر المرض باقياً إلى اليوم .

وكان والد الشيخ رفعت يحفظ القرآن ، ولذلك قام محمود بتحفيظ ابنه محمد مايقرب من نصف القرآن ، ومما يروى أنه كان يحمله على كتفه ذات يوم ، وكان الوالد يرتل القرآن ، فأخطأ فى آية ، فصححها له ابنه الصبى ، فعز على الوالد ذلك ، فضرب ابنه ، ولكنه راجع نفسه فرجع إلى المصحف ، فوجد ابنه على صواب ، فتألم من تسرعه بضربه ، وندم على ذلك ، وحاول مصالحته ، فاشترى له بقرشين (حلاوة طحينية) ، لأن الشيخ رفعت كان يحب من صغره هذه الحلاوة ، وقد توفى الوالد وابنه فى العاشرة .

وفى الخامسة من عمره أدخله والده مكتب (بشتك) بدرب الجماميز ، ليحفظ القرآن ويجوده على يدى الشيخ (محمد حميدة) ، وهذا المكتب هو المعروف باسم (سبيل مصطفى باشا كامل) ، وهو مواجه لمسجد فاضل باشا الذى ظل يتلو فيه الشيخ رفعت القرآن الكريم أيام الجمع من سنة ١٩١٨ إلى أن أقعده المرض سنة ١٩٤٤ .

وقد ختم الصبى القرآن وهو فى الحادية عشرة من عمره ، وفطن معلمه الشيخ (حميدة) إلى ما عند الصبى من المواهب الموسيقية ، فلقنه درساً فى التجويد (وهو علم الموسيقى القرآنية) ، وسرعان ما أصبح الصبى مقرئاً تهفو النفوس إليه

سماعه ؛ وقد قرأ الشيخ رفعت بالأجر وهو فى الثانية عشرة ، ويقال إن أجره بدأ بخمسين قرشاً فى الليلة ، وإنما قرأ بالأجر ليعول أسرته الكبيرة التى تركها له والده ، والمكونة من والدة الشيخ رفعت ، وخالاته الأرامل الثلاث ، وأخيه مجرم ، وقد توفى محرم سنة ١٩٣٠ ، بعد أن زوّجه الشيخ رفعت مرتين ، وكان محرم يصحب أخاه الشيخ فى سهراته ، ولما مات صار (محمد) أكبر أبناء الشيخ رفعت يصحبه ويخدمه ؛ ومن العجيب أنه عقب وفاة الشيخ رفعت تيسرت الأسباب بلا مجهود يُذكر ، فعُيِّن محمد ابن الشيخ محمد رفعت فى مقام السيدة زينب بالقاهرة ...

وما كاد الشيخ رفعت يبلغ الخامسة عشرة حتى صار قارئاً مشهوراً يدعى للقراءة . وكان يعطى كل أجره لوالدته ، وهى التى تتولى الإنفاق عليه وعلى الأسرة ، وكان يقرأ بجوار القرآن الموالد والابتهالات ، وكانت له (بطانة) مكونة من المشايخ عبد العزيز حسين المرصفى وأحمد متولى ومحمد بشير رحمهم الله ، والشيخ إسماعيل إبراهيم أطال الله بقاءه ، وجاء فى تاريخ الشيخ حسين المرصفى أن ابنه عبد العزيز المذكور قد أفاد الشيخ رفعت كثيراً ، لأنه كان مولعاً بالموسيقى ، وعنده جميع آلاتها ....

والشيخ رفعت كان يجمع بين الحنجرة الممتازة والموهبة الموسيقية ، وكان دارساً لأصول فن الموسيقى ، وله بجوار هذا قلب يفيض بالإيمان ، وذكاء بارع يوائم بين المعنى والنغم ، بحيث يبرز المعنى فى الصوت ، ويصوره تصويراً ...

وفى سنة ١٩٢٣ انتقل الشيخ محمد رفعت إلى حى البغالة بالسيدة زينب ، وأقام فى المنزل رقم ٣٠ بشارع يحيى بن زيد ، وهو المنزل الذى قضى فيه بقية حياته . وفى سنة ١٩٢٥ قرأ القراءات السبع على المرحوم الشيخ (عبد الفتاح هنيدى) إمام مسجد الحسين ، وأعطاه بذلك (إجازة) فيها تقدير له وتنويه بذكائه .

وفى سنة ١٩٣٤ طابته (محطة الإذاعة المصرية) ليذيع فيها ، فاستفتى الشيخ السمالوطى وعالماً آخر معه فأفتيا باستحسان ذلك ، وذكرا له أن صوته ربما هدى كثيرين من المبتعدين عن هدى القرآن الكريم ، وقبل الشيخ رفعت . وسارع الشيخ السمالوطى فاشترى جهاز (راديو) ليسمع منه الشيخ رفعت .

وهنا سطع نجم الشيخ رفعت ، وأقبلت الآذان تستمع إليه وتعجب به ، وتفجرت الموهبة الموسيقية وعبقرية التلاوة القرآنية فى صدر الشيخ رفعت ، فملأ الدنيا وشغل الناس بهذا الصوت الرائع الأخاذ ، وعجب الناس كثيراً لهذا المكفوف الذى يجذب الأسماع فى قوة إلى آى الذكر الحكيم ... ولم يغفل الشيخ رفعت تثقيف نفسه فى الوجهة التى اتجه إليها وهى التلاوة والترتيل ، كما درس الموسيقى ، وأجاد الاستماع إلى مختلف الأصوات والنغمات وطرق الأداء ، وفى كتاب (ألحان السماء) هذه العبارة : « ولكن الفنان رفعت لم يقنع بدراسة فنون البسطاء ، بل راح ينهل من الفن الكلاسى الرفيع ، وعندما مات خلف ثروة كبيرة من اسطوانات باخ وموزارت و بيتهوفن وليست ، وعدة اسطوانات أخرى للعازف الكبير باجانينى ، وكان رفعت يقضى أمسيات طويلة مع هؤلاء العباقرة الأفذاذ ، يستمع إلى النغم الرائع الذى أبدعوه ، فظل مخلداً على الزمان ؛ ومن الدراسة الشاقة الطويلة للنغم الرائع وفنون الشعب استطاع رفعت أن يبقى فى عالم الفنون راسخا كالهرم ، خالداً كرسالات الأنبياء .

ولم يكن من قبيل المصادفة أبداً أن يقترن ظهور الشيخ محمد رفعت بظهور عبقرى من نفس الطراز هو الشيخ سيد درويش . لم تكن مصادفة أبدا ، فقد كان الشعب قد اكتمل وعيه ونموه ، وترجم هذا الوعى وهذا النمو بثورته عام ١٩١٩ ، وفى خلال الثورة كان سعد زغلول يمثل روح الشعب الصلبة القوية المصممة على السير فى الطريق الذى بدأته حتى النهاية ، وراح سيد درويش يلحن صيحات الشعب السياسية والاجتماعية ، وراح رفعت يلحن حياة الشعب الروحية .

ليست هذه مبالغة ، فسيد درويش ورفعت كانا زعيمين من طراز سعد ، وكما التفت طبقات الأمة وطوائفها حول سعد ، وكما طربت لسيد درويش ، تراها — وهنا العجب — تلتف حول رفعت بطوائفها ، فلم يحدث أبدا قبل رفعت أن استمع أقباط مصر إلى مقرئ ، بل إن استماعهم إليه كان بشغف وحب وبإعجاب شديد » ! ! .

والواقع أن الشيخ رفعت كان صاحب هبة فى صوته وتلاوته ، وقد بدت ملامح هذه الهبة وهو مازال شابا فى أول الطريق ، فقد حدث أن سمعه الشيخ على محمود وهو شاب صغير يتلو ، فأعجب بتلاوته قبل أن يرى شخص الشيخ رفعت ، ولما قيل للشيخ على إن صاحب هذا الصوت مكفوف ارتعد وخنقته العبرة وقال : « سيكون له شأن عظيم » ، وفعلا عاش الشيخ على محمود حتى تحقق ماقال ، وصار الشيخ رفعت صاحب شأن عظيم !! . . .

ولقد سمعت الشيخ رفعت فى حياته وجها لوجه أكثر من مرة ، فبدا لى أن سر روعته فوق حلاوة صوته وموهبة حنجرته أنه كان يقرأ القرآن وهو يفهم معنى ما يرتل . ولذلك كان يرقق حيث يحسن الترقيق ، ويفخم حيث يحسن التفخيم ، وإذا رتل آية رحمة وثواب سمعت صوته كأنه نسمة هادئة من نسمات الربيع الباكر ، وإذا رتل آية نقمة أو عذاب بدا لك صوته كأنه زمجرة الإعصار أو دمدمة الرعود . كان يقف حيث يجمل الوقف ، ويصل حيث يجمل الوصل ، وقد يلفتك بوقفه إلى معنى من معانى التنزيل ربما غاب عنك حين الوصل . ويروى فى ذلك أنه كان يتلو قوله تعالى : « وآتاكم من كل ماسألتموه » فوقف على كلمة « من كلٍّ » ثم بدأ فقرأ : « ما سألتموه » ، فاعترض عليه بعض المستمعين ، وأصر على أنه مخطىء ، ولكن الشيخ رفعت ذكر له أنه مصيب ، ووجَّه قراءته هذه بأن المعنى الأول فيما قرأ ينتهى عند كلمة « كلٍّ » ، كأن الله سبحانه — وهو أعلم بمراده — يقول إنه آتاكم من كل شىء من النعم التى لاتحصى قبل أن تطلبوا منه ذلك[1] ،

---

(١) وتكون (ما) حينئذ نافية ، والتقدير : وآتاكم من كل شىء غير سائليه .

ولهذا جاز الاستئناف والبدء بقوله تعالى : « ما سألتموه » ، أى لم تسألوه ذلك من قبل ! ! .

وقد استطاع الشيخ رفعت بفطرته وخبرته وحنجرته أن يوائم بين الترتيل ونغمة الموسيقى ، وأن يبين للناس ما أودع فى القرآن المجيد من دقائق الانسياق اللفظى والتوافق التعبيرى ، وماينطوى عليه لفظه من موسيقى عجيبة خاصة به ، تلوح أخاذة آسرة إذا وجدت الصوت المرتل العذب الفاهم .

ويقول المرحوم الأستاذ الشافعى البنا : « إن الناس قبل أن يستمعوا إلى الشيخ رفعت كانوا يظنون أن الموسيقى لا تستجيب فنونها ولا تخضع أوزانها للقرآن ، لأنه على نسق خاص من الترسل الذى لم تألفه العرب فى الغناء ، ولم تعهد مثله فى أصوات الحداء ، وكان باعثا لفضل الله فى آياته ، وكاشفا عن بعض فيوضاته ؛ فصاروا يعتقدون خلاف ما كانوا يزعمون ، ويرون أنهم كانوا يتوهمون ، لأن فى القرآن الإيقاع الإلهى ، والنغم العبقرى ، صنعه الله لا الناس ، ليوقظ به غوافى الإحساس ، وكوامن الأنفاس » ! ! .

ومن حرص الناس على الاستماع إلى صوت الشيخ رفعت كان بعضهم يسجل ما يذيعه على اسطوانات خاصة عنده ، وأشهرهم فى هذا التسجيل (زكريا باشا مهران) فقد سجل أغلب إذاعاته ، حتى روى أنه يحتفظ بمصحف من قراءة الشيخ رفعت هو مجموعة اسطوانات متوالية ، وكذلك عنى بالتسجيل للشيخ رفعت (محمد خميس) التاجر فى شارع (بين الصورين) . وهذه التسجيلات أفادت كثيراً فى حفظ صوت الشيخ رفعت بعد وفاته ، وتمتع الذين لم يسمعوه فى حياته بسماعه بعد مماته ، وإن كان هناك فرق كبير بين الصوت الحقيقى وتسجيله ، كما أن هذه الاسطوانات قد نالها ما نالها بسبب عدم توافر الأسباب الكافية لدقة التسجيل ، وبسبب كثرة الاستعمال ، حتى قيل إن كثيراً من هذه الاسطوانات تسىء إلى الشيخ رفعت أكثر مما تحسن إليه ، بسبب مافيها من خلل أو عطب .

ولقد قال (حسين) نجل الشيخ رفعت : إننا لا ننكر فضل زكريا باشامهران على والدنا وقراءته ، ولا ننكر فضل أسرته .

ومما يدل على تأثير صوت الشيخ رفعت فى الجماهير أنه حدث بينه وبين الإذاعة خلاف، فانقطع عنها حينا، فثار الناس وغضبوا وكتبوا إلى الإذاعة يقولون إنهم يفضلون سماع رفعت على سماع كبار المطربين والمطربات ، بل أعلن بعضهم الانقطاع عن الاستماع للاذاعة مادام الشيخ رفعت لا يذيع ، وهدد بعضهم بعدم دفع الضريبة للإذاعة إذا لم يعد الشيخ رفعت .

وقد يتصل بهذا التأثير أنه لما مرض الشيخ رفعت ، وذكرت عنه إحدى المجلات أنه يحتاج إلى نفقات العلاج سارع الكثيرون بالتبرع لذلك ، حتى تجمع قدر كبير من المال ، ولما عرضوا ذلك على الشيخ رفعت أبى وقال : « لقد عشت طوال حياتى بكرامتى ، وهذا من فضل الله علىّ وكرمه ، وقد كفانى الله ذل السؤال ، وإنى أشكر المتبرعين ، وأسأل الله أن يقيهم شر المرض » ! .

وهكذا – كما قال الأستاذ عباس حافظ – عن الشيخ رفعت : « هزته نفحة من نفحات الإباء ، ولم يرض البلبل الآدمى أن يوافيه من الناس الغذاء أو الدواء ، فقرب منقاره البديع من ريشه ليلعقه ، واحتمل الألم ولم يشأ أن يدفعه، ورد للناس – شاكراً – الاكتتاب » ! .

وقد أدركت الإذاعة مكانة الشيخ رفعت بعد مماته ، وقد حدث أكثر من مرة أن تعلن الإذاعة أنها عثرت على تسجيل له لم يذع بعد وفاته ، فيسارع الناس بالتحلق حول أجهزة الإذاعة ليستمعوا إلى صوته العذب العميق .

وقد مهد الشيخ رفعت طريق السطوع لكثير من مشهورى القارئين ، ففى سنة ١٩٣٠ كان الشيخ رفعت يقرأ فى طنطا ، وتجمعت الجموع ، وظلت تصغى إلى هذا البلبل حتى منتصف الليل ، وهنا أحس الشيخ رفعت بالتعب ، ولكن

الجموع التى تيقظت مشاعرها ما زالت راغبة فى المزيد ، وهنا انتهز الفرصة قارئ شاب هو الشيخ (مصطفى إسماعيل) ، وجلس مجلس الشيخ رفعت ، وقرأ فأجاد ، وانفتح أمامه باب الشهرة والظهور ، وأعجب به رفعت وقال له : بارك الله فيك، سينفع بك الله المسلمين .

وكذلك الشيخ (أبو العينين شعيشع) كان للشيخ رفعت أثر فى توجيهه وإظهاره ، فقد رأى الشيخ رفعت الشيخَ شعيشع وهو شاب فأعجب بصوته ، وتنبأ له بمستقبل باهر ، ولازم الشيخ شعيشع الشيخَ رفعت ، واتخذه أستاذاً له وتأثر به ، حتى إنه لما مات الشيخ رفعت استدعت الإذاعة الشيخ شعيشع فى سنة ١٩٥٢ ليقوم بتكملة أشرطة الشيخ رفعت، لأن شعيشع يقرأ بطريقة أستاذه ، وكان الشيخ رفعت يرضى كثيرا عن هذه الطريقة ؛ وللمناسبة نقول إن هناك شخصاً آخر يجيد تقليد الشيخ رفعت ، وهو الدكتور أحمد هيبة الأستاذ بكلية الزراعة بجامعة القاهرة .

وكذلك (الشيخ كامل يوسف البهتيمى) تعرف إلى الشيخ رفعت فخصه بالعطف والحنان ، وظل الشيخ كامل يتردد على الشيخ رفعت حتى مات ، وصار الشيخ كامل يبكى كلما سمع صوت الشيخ رفعت يذاع فى تسجيل له .

وكذلك (الشيخ منصور الشامى الدمنهورى) ، قرأ مرة مع الشيخ رفعت فى حفل كبير بالإسكندرية ، ومنذ تلك الليلة والشيخ منصور يجرى فى طريق الشهرة ، إذ كان يكفى أن يقرأ القارئ مع الشيخ رفعت فتسير شهرته هنا وهناك .

وكذلك (الشيخ عبد الباسط عبد الصمد) يعد تلميذا للشيخ رفعت ، ففى سنة ١٩٣٩ كان فى بلدة (أرمنت) جهاز (راديو) واحد ، وكان يبعد عن منزل الشيخ عبد الباسط عدة أميال ، فكان الشيخ عبد الباسط يذهب للاستماع من

هذا الجهاز إلى صوت الشيخ رفعت ، مرة يوم الثلاثاء ، وأخرى يوم الجمعة ، ولا شك أن الشيخ عبد الباسط تأثر كثيراً بهذا الصوت .

* * *

وقد تزوج الشيخ رفعت وعمره أربع عشرة سنة ، ولكن أسرة الزوجة حاولت أن يستقل الشيخ بزوجته بعيداً عن أسرته المحتاجة إلى رعايته ، فترك هذه الزوجة بعد سنتين ، ثم تزوج أم أولاده التى ما زالت حية ترزق ، وكان له منها أولاده : محمد ، وأحمد ، وحسين ، وبنت هى الآن زوجة الأستاذ عبده فراج الأستاذ بكلية المعلمين بالقاهرة .

وكان الشيخ رفعت رجلا عاطفيا سريع التأثر ، وكان يعبر عن إعجابه بالدموع تنهمر من عينيه فى صمت ، وكان أكثر الأمور استدراراً لدموعه ترديده لآيات العذاب فى القرآن ؛ ويروى عنه أنه كان يصلى خلف إمام ، فسمعه يقرأ بعض هذه الآيات ، فسقط على الأرض من شدة التأثر ، ثم تمالك وقام إلى صلاته ! .

وفى نوفمبر سنة ١٩٤٢ أصيب الشيخ رفعت بمرض (ضغط الدم) ، ومنعه ذلك أن يذيع شهوراً ، وعاد إلى الإذاعة بعد ذلك وآثار المرض بادية عليه ، وفى سنة ١٩٤٤ أصيب بمرض (الزُّغُطة) فامتنع عن الإذاعة ، واعتكف فى بيته إلى أن لقى ربه فى فجر اليوم التاسع من شهر مايو سنة ١٩٥٠ م . وحينما بلغ مفتى سوريا نبأ وفاة الشيخ رفعت قال : « رحمه الله ! لقد جدد شباب الإسلام » .

وقد أشار إلى علة الشيخ رفعت الأستاذ عباس حافظ فى رثائه له حيث يقول :

« قضى الشيخ محمد رفعت بعد علة عجيبة ، لم تصبه إلا فى مادة خلوده ، ولم تتخير سوى موضع إعجاب الدنيا به ، وحط السقام عليه من جانب حنجرته

الصافية كالبلور ، والأوتار المتدرجة مع السلم الموسيقى ، رجعا وتصدية ، وترتيلا وتغنية ، وعذوبة إلهية ، كأنما ينحدر صوته من السماء ، أو يأتى جرسه من جانب عالم روحى فسيح ، ليهز الناس هزا ، ويجردهم بعض ساعة من المادية اللاصقة بالتراب .

ماتت الموهبة النادرة فيه قبل مماته ، وسكنت الحنجرة الملهمة قبل مطال صمته ، وخفت الصوت الصادح الغنى الذى كان مصدر نعمته ، وعجز الطب عن علاج علته ، وإن كان الطب قد بلغ الإعجاز فى علاج العلل العصبية ، ودخل إلى الأمراض والأدواء من كل باب »[1] .

ولعل الشيخ رفعت هو القارئ العبقرى الذى أقر له إخوانه القراء بالسبق والفضل ، فالشيخ عبد الفتاح الشعشاعى يعد صوت الشيخ رفعت أحبّ صوت إليه ، والمرحوم الشيخ محمد الصيفى يقول : « صوت الشيخ محمد رفعت لم يكن كبقية الأصوات تجرى عليه أحكام الناس ، لقد كان هبة السماء » . والشيخ عبد الباسط عبد الصمد يقول : « أم كلثوم فلتة لن يجود بمثلها الزمان ، إنها فى الطرب مثل الشيخ محمد رفعت فى التلاوة ، كل منهما عبقرى ، وكل منهما فيه سر من عند الله »[2] .

ولقد عرف كثير من الأوفياء والمنصفين للشيخ رفعت بعد وفاته مكانته وجهده ، ففى ذكرى الأربعين لوفاته (وكانت فى يوم ٢١ مايو سنة ١٩٥٠) صاغ الشاعر الأستاذ محمود حسن إسماعيل قصيدة بعنوان (بلبل الفردوس) ، وأهداها إلى روح الشيخ رفعت ، وفيها يقول :

---

(١) جريدة المصرى ، يوم ١٣ مايو سنة ١٩٥٠ .

(٢) يقول السيد حسين نجل الشيخ رفعت : « إن أم كلثوم وعبد الوهاب كانا يزوران والدى ، وانقطعت أم كلثوم ، وظل عبد الوهاب مواصلا للزيارة » .

أسرى إلى الفردوس بلبلُه ... والذكر فى فمه يرتله

وتسبِّح الآياتُ فى فمه ... وجناحها للخلد يحمله

الفجر بالصلوات كفَّنه ... ومضى لشطِّ الغيب ينقله

وهفا الأذان له فضمَّخه ... بدعائه ، وغدا يقبِّله

عرجت به الرحمات من كمد ... كم راح فوق الأرض يثقله

سجنان حَطَّا فوق هيكله ... وكلاهما أبدٌ يجلِّله !

سجن الضياء ، وكان يسكبه ... من صوته الصافى و ينهله

وعذاب حنجرة مصفَّدة ... يبغى الصِّياتَ بها فتخذله

سكنت بها (فهَّاقة) رُصدت ... للصوت ، يُطلقه فتعقله

مجنونة لم تدر ما حبستْ ... وحىٌ ضياءَه الله يرسله

أجراه من فمه كما نزلت ... آياتُه الكبرى يفصِّله

يتلوه رفرافا بأجنحة ... دون السرائر لا تنزِّله

تشقى المعاصى حين تسمعه ... ويُذيب قلب الجن مِقوله

وإذا صغى جبل لقارئه ... خشعت ذراه ، وناء كلكله

من خشية الرحمن تبصره ... وتكاد روعته تزلزله

كل العباد عنَوْا لرهبته ... وهداهمُ للنور مشعله

المسلم المعمور مسجده ... والراهب المغمور هيكله

ما زال يسقيهم ويُثملهم ... بحلاولة الترتيل جدوله

حتى أذاب حشاه ، واختلفت ... علل على جنبيه تقتله

وأوى لعزلته ، وما ذكرت ... (مصر) الوفيةُ ما يعلله

جحدته ، بل جحدت صداه ... فما حفظت له رنَما يسجِّله

لو أنه غنّى لهـــا نغما ... متهتكَ الصبوات تأمـله

لرأيتها حفرت بمهجتها ... تمثـاله ، ومضت تدلله

ياقوم ، لا طوبى لمـا ذهبت ... دنيا كمُ بالفن تفعله

تسقيهم الحرمان ممتزجا ... بعصارة النسيان حنظله

فإذا دنا الحصَّـاد مختاجا ... بسكينة الأموات منجـــله

وقفتْ تسحُ على مقابرهم ... نوْحاً دموعُ الثُّكل تجهله!

وقال الأستاذ الشافعى البنا فى رثاء الشيخ رفعت :

لو كان غـــيرك ولّى ... ما كنتُ أحسستُ ثُكلا

ولا رأيت قريضى ... صام الغـــــداة وصلّى

ولا جرى لى دمع ... أشدُّ ما كان بخلا

ولا تمـــــزق قلبى ... وما تمـزق قبْــلا

يا من جعلتَ حياتى ... من جنة الخلد ظلا

ترتل القــول أشهى ... من الشِّهاد وأحلى

فأستشف رحيقـــا ... لا إثمَ فيـه وَغوْلا

مضيتَ لله بَرًّا ... فانعم به وتمـــــلى

واقرأ هنالك (طـه) ... فذاك خـــير وأولى

ملأتَ أسماع قومى ... طـــوال عمرك قولا

فما أصاخـــوا للفظ ... من اليواقيت أغلى

ولا استجابوا لمعنى ... فيـه المنى تتجـــلى

ولا اهتدوا ببيان ... كالصبح حين أهـلاّ

وزاد كل غـوى ... من الغواية جهـــلا

(محمد) كنت فينا ... ظرفا ، وطهرا ، ونبلا

وقال فيه الأستاذ محمود جبر :

قيثارة الخلد قد رُدّت لباريها ... والأرض قد ودّعت أحلى أغانيها

قد أسعدتها ترانيم مفصلة ... من الكتاب تعالى الله موحيها

كأنما هكذا (جبريل) رتلها ... آياً تساق إلى الدنيا وأهليها

ما رحت تقرأ من آى منزلة ... إلا وألهمتنا أسمى معانيها

يا أطهر الناس أخلاقا ومنزلة ... وأكرم الناس كفا حين يندبها

هذا جزاؤك ، فاهنأ عند مقتدر ... أعطاك جناته ، فاملأ مغانيها !

و يقول الأستاذ حافظ محمود عن الشيخ رفعت :

« لقد علمنى الشيخ رفعت أن أجمل أدوات الموسيقى هو الحنجرة الذهبية ، وأن أية عبارات ولو كانت سرداً للتاريخ يمكن أن تحول إلى نغم ؛ لقد كان الشيخ رفعت يهزنى — وما تزال الذاكرة تهزنى — كلما كان يردد فى الأذان السابق على قيام الصلاة كلمة : (حى على الفلاح) . إنه كان يرجّع فى لفظ (الفلاح) وحده ترجيعاً حلواً متماوجا ، يمتد إلى دقيقتين يرتفع فيهما الشيخ رفعت بوجدان السامعين من الأرض إلى السماء ؛ وأشهد أننى مع كثرة ما سمعت من جمال أصوات المقرئين النوابغ لم أسمع إلى ترتيل فيه السحر المذاب فى صوت الشيخ رفعت .

لقد كان صوت الشيخ رفعت وأسلوبه القرآنى ، وتقليد هذا الأسلوب هو كل سلواى وسلوى زملائى الذين شاركونى الحبس بعد سنين فى قضيات بعض الحركات الوطنية السابقة ... لم تكن سجون ما قبل عشرين سنة كسجون اليوم نظاما ، و إن لم تختلف مكانا ... كانت الكتب والصحف والمجلات من الممنوعات ، فكانت سلواى وسلوى زملائى المسجونين السياسيين الشبان بسجن (الاستئناف) هى تلاوة آى الذكر الحكيم على طريقة الشيخ رفعت .

وذات صباح استيقظت فى محبسى فجأة قبل مشرق الشمس على صوت نفسى، وأنا أردد آيات سورة (الضحى) على الطريقة الرفعتية ؛ و بعد ساعات من هذه الواقعة أفرج عنا بطريقة فجائية غير ذات مقدمات طويلة » ! ...

رحم الله الشيخ رفعت ، البلبل المكفوف الذى طالما غرد فأشجى وأبكى ، ثم رحل ليغرد هناك ... فى الفردوس ! ! ...

الشيخة منيرة عبده

جاء فى كتاب (ألحان السماء) للأستاذ محمود السعدنى هذه السطور :

« كانت للأسر المصرية القديمة تقاليد ، كانت ليالى المأتم تقام للرجال ، ثم تتبعها ليال أخرى للنساء ، ومن أجل هذا السبب ظهرت مع مشاهير القراء شهيرات من المقرئات ، وكانت أشهرهن جميعا الشيخة كريمة العدلية ، والشيخة منيرة عبده .

ففى عام ١٩٢٠ سطع فجأة نجم فتاة صغيرة فى السادسة عشرة من عمرها ، نحيفة ضعيفة كفيفة ، ذات صوت جميل ، فيه حنان ، وفيه وقار ، وكانت هى الشيخة منيرة عبده .

وأحدث ظهورها ضجة كبرى ، ولم تمض الشيخة قليلا حتى أصبحت الشيخة منيرة نِدًّا للشيخ (أحمد ندا) و (الشيخ محمد رفعت) ، وذاع صيتها فى البلاد العربية ، وتهافتت عليها جميع إذاعات مصر المحلية ، وأذاعت لها محطتا لندن و باريس .

وفى عام ١٩٣٠ عرض عليها ثرى من تونس أن تذهب إلى هناك لتقرأ القرآن لمدة شهر ، و بأجر (ألف جنيه) ، وهو مبلغ يساوى بحساب النقد هذه الأيام خمسة آلاف جنيه ، ولكن الفتاة الصغيرة الكفيفة لم تستطع تحقيق أمنية الرجل الثرى الطيب ، فقضى هو شهرا فى القاهرة ليستمتع بصوتها الجميل الوقور .

وعندما أنشئت الإذاعة الرسمية فى القاهرة كانت الشيخة منيرة فى طليعة الذين أذاعوا فيها ، وكانت تتقاضى مبلغ سبعة جنيهات ونصف جنيه فى الوقت الذى كان الشيخ رفعت يتقاضى فيه عشرة جنيهات ، وعندما ارتفع أجر الشيخ رفعت إلى خمسة عشر جنيها زاد أجر الشيخة إلى عشرة جنيهات ، وكانت هى

صديقة لـكل القراء ، وكانوا جميعا أصدقاء لها ، وكانت هى تفضل — بينها و بين نفسها — الشيخ محمد الصيفى ، كانت تعتبره أباهم جميعا ، وكانت تعشق طريقته فى الأداء .

وفى عام ١٩٣٩ أفتى بعض المشايخ (الـكبار) بأن صوت المرأة عورة ، وأن تلاوتها تغضب الملائـكة أجمعين ، وهكذا أُخرجت الشيخة منيرة من الإذاعة ، وتوقفت محطتا لندن و باريس عن إذاعة أشرطتها خوفا من غضبة الشيوخ (الـكبار) ! .

وتلقت محطة الإذاعة آلافا من الخطابات يحتج فيها المستمعون على إبعاد الشيخة منيرة ، ولم تستطع الإذاعة أن تفعل شيئا ، فقد كان للمشايخ الـكبار سر باتع .

واعتـكفت الشيخة منيرة فى بيتها ، تجتر ذكريات الأيام الجميلة الحافلة التى عاشتها مع الشيخ ندا والشيخ على محمود . . . إنها تعيش الآن مع هوايتها الوحيدة ، وهى الاستماع إلى أصوات العمالقة الذين انتقلوا إلى رحمة الله من الاسطوانات الـكثيرة التى تحتفظ بها كذكرى لهذه الأيام الجميلة الحافلة ؛ ومع هذه الاسطوانات الـكبيرة اسطوانات تحمل صوتها عندما بدأت تقرأ القرآن لأول مرة عام ١٩٢٠ .

إنها تقول : إن الزمن يفقد الأصوات بعض خصائصها الجميلة . . . وهى تحب الاستماع إلى صوتها عندما كانت فتاة فى السادسة عشرة » ! .

المكفوفون في الكويت

معهد النور للمكفوفين بالكويت

تقديم :

المال هو عصب هذه الحياة ، وإذا وُجد المال فى اليد التى تحسن استغلاله وإنفاقه استطاعت أن تفعل به الكثير ؛ وقد أتى الله إمارةَ الكويت العربية بسطة فى مالها وثروتها عن طريق (النفط) الذى تفجرت آباره فى أرضها ، وقد شرعت الكويت تنفق من هذه الثروة على أسباب التجديد والتعمير فيها ؛ ونهضةُ التعليم فى الكويت تستلفت البصر وتثير الفكر ، فقد اتسعت دائرتها ، وانفسح مجالها ، وتعددت مظاهرها ، ويقود الحركة التعليمية فى الكويت سمو الشيخ عبد الله الجابر الصباح رئيس المعارف والمحاكم والأوقاف فى الكويت ، ويعاونه الأستاذ عبد العزيز حسين مدير المعارف ، ومن أحدث مظاهر النهضة التعليمية فى الكويت أنها أنشأت (معهد النور للمكفوفين) ، الذى يقوم على تعليم المكفوفين فى الكويت وتوجيههم وتدريبهم ؛ وقد لاحظتُ خلال زيارتى للكويت فى ديسمبر سنة ١٩٥٨ للاشتراك فى مؤتمر الأدباء العرب المنعقد فيها أن سمو رئيس المعارف ومديرها ومن يتعاونون معهما يعطون هذا المعهد عناية هو لها أهل وبها جدير .

وقد حرصت بطبيعة الحال على زيارة هذا المعهد لدراسة شئون المكفوفين فى الكويت عن طريقه ، وفى صباح الأحد ٢١ ديسمبر سنة ١٩٥٨ توجهت إلى المعهد ، وهو يحتل بناية حديثة تقع فى الجهة الشرقية من مدينة الكويت ، فى

حى يسمى باسم أسرة (البلوش) ؛ وقد افتتح معهد النور للمكفوفين بالكويت في شهر أكتوبر سنة ١٩٥٥ ، وكان حينئذ مشتركا مع المعهد الديني بالكويت في بناء واحد ، وكان معهد النور فصلا واحدا ، ثم نقل إلى مسكن خاص في (حى الشرق) خلف منطقة (المقوع) بالقرب من قصر (دسمان) ؛ ثم نقل إلى مدرسة (كاظمة) واستمر هناك سنة ١٩٥٧ ؛ ثم نقل إلى هذا البناء الجديد سنة ١٩٥٨ م .

ناظر المعهد :

وقد قابلنا عند باب المعهد ناظره الكويتي الأستاذ عبد العزيز شاهين ، ورحب بنا كعادة الأشقاء الكويتيين ، وهو في الواقع لم يكن يعد نفسه في دراسته ليكون في هذا العمل ، ولكن ناظر المعهد السابق المندوب من مصر وهو الأستاذ غانم عبد العزيز تغيب في إجازة لمدة شهرين ، فحل مكانه الأستاذ شاهين ، ولما جرب العمل في هذا الحقل وجده مستحقاً للعناية ، وأراد أن يدرس شئون المكفوفين ، فتحدث في ذلك مع الأستاذ عبد العزيز حسين مدير المعارف ، فأرسله إلى مصر للقيام بدراسة خاصة لوسائل الإيضاح في تعليم المكفوفين وأشباههم ، فقضى فترة في القاهرة ، وأخرى في الإسكندرية ، وعاد إلى الكويت فتولى نظارة المعهد ، وفي الربيع يذهب لزيارة معاهد المكفوفين ومصانعهم في مصر ليزود المعهد بما يستكمل به عمله ورسالته ، لأن هناك تفكيراً في فتح قسم لتعليم الصم والبكم وضعاف البصر وأمثالهم . . .

المعهد وتلاميذه ومدرسوه :

وبناية المعهد واسعة فسيحة حديثة البناء ، مستقلة عن غيرها في جهاتها ، يغمرها الضوء وتتخللها الشمس ، ولا عيب فيها من هذه الناحية ، وعدد المكفوفين

ستة وخمسون مكفوفا ، منهم أربعة عراقيون ، وشخص لبنانى ، والباقون من الكويت ، والمعهد مفتوح الأبواب لأى مكفوف عربى . وأعمار هؤلاء تتراوح بين الثامنة و بين السابعة والخمسين ، إذ لا يوجد تحديد فى السن ، وهذه مسألة تحتاج إلى بحث ، ومتوسط العمر هو ثمانية عشر عاما ، ونصف الموجودين فى حدود هذه السن ؛ وقد رأيت طفلين فى سن السابعة دخلا المعهد أمس فقط .

ومن هؤلاء اثنا عشر مكفوفا يسكنون فى جناح ملحق بالمعهد ، منهم اثنان عراقيان والباقون كويتيون ، وحجر النوم فى المعهد نظيفة وصحية ، وكل حجرة لثلاثة تلاميذ ، ولكل تلميذ سرير عليه ثلاث بطانيات ومرتبة من الكاوتشوك ، ولكل تلميذ دولاب لأدواته وملابسه وكتبه ، وتغسل الملابس على حساب المعهد ، وقد وجدت على أحد الأسرة كتاب (الحساب المفيد) المطبوع بطريقة برايل فى المركز النموذجى لتوجيه المكفوفين بالزيتون .

وفى النية تخصيص مسكن لجميع تلاميذ المعهد ، وفى المعهد أربعة فصول فى القسم الابتدائى ، وفصلان فى القسم المتوسط ، وهناك سبع حصص يومياً للقسم الابتدائى ، وست حصص للقسم المتوسط ، وتتخلل الحصص فسح إفطار وغداء ، وساعة نشاط للموسيقى والطباعة ، ووقت لأداء الصلاة .

وأقل فصل فيه ستة تلاميذ ، وأكبر فصل فيه خمسة عشر .

وفى نشرة قصيرة جداً أصدرتها دائرة المعارف عن المعهد جاءت هذه العبارة : « يدرس التلاميذ فى هذا المعهد المناهج المقررة للمدارس العادية بطريقتهم الخاصة ، ويعدون لنفس المؤهلات التى تعد لها مدارس المبصرين ، ويقوم بالتدريس فيه أساتذة مختصون فى تعليم هذا النوع من التلاميذ ، ويسير التعليم فيه على نظام اليوم الكامل من بدء إنشائه ، فيستقبل تلاميذه فى الصباح ، ويبقيهم تحت الرعاية طول اليوم ، ثم يعيدهم إلى ذويهم فى نهاية اليوم ، ليتدربوا على البيئة التى سيعيشون فيها بعد إتمام دراستهم ، ويتناولون وجبتى الغداء والفطور فى المعهد » .

والنشاط فى معهد النور يشمل الموسيقى والأشغال والرياضة والتمرين على الآلة الكاتبة العربية فى القسم المتوسط ، وسيحضرون الكاتبة الإنجليزية قريباً ، وبعد نيل التلميذ الشهادة المتوسطة يمكنه أن يتقدم مع المبصرين إلى الامتحان فى الكتابة على الآلة .

وهناك أجهزة (برايل) للكتابة ، وفى النية إحضار مطبعة على طريقة (برايل) ، والمعهد يستحضر الكتب والمجلات والصحف النافرة الحروف (بطريقة برايل) من مصر والأردن وغيرهما .

وفى المعهد عشرة مدرسين ، منهم ستة من الجمهورية العربية المتحدة بطريق الندب ، واثنان من الكويت كفيفان ، هما الأستاذان ماجد سلطان وعلى حسين ، وقد تخرجا فى المعهد الدينى بالكويت ونالا شهادة الأئمة ، ثم انتهيا من القسم الابتدائى بمعهد النور ، ثم اشتغلا بالتدريس فيه منذ سنتين تقريبا ؛ ومدرس من الأردن مكفوف يحمل شهادة (الليسانس) فى الآداب وهو الأستاذ إبراهيم استانبولى ، وقد درس فى مصر ، وهناك مدرس للقرآن والدين وهو الشيخ عبد الرءوف عوض ، وهو مصرى يشتغل فى المعهد بعقد شخصى ، وبجوار هذا يوجد الموظفون الآخرون والخدم .

حجرات المعهد :

وبدأت الطواف على حجرات المعهد ، وهو يحوى ثمانى عشرة حجرة تقريبا ، وقد بدأنا (بحجرة المعرض) حيث شاهدنا فيها نماذج من عمل التلاميذ المكفوفين ، فهذه نماذج — من الصلصال أو غيره — لحمّال وسقّاء وطير يجرى وعصافير وجمل وكلب وحمار ، وهذه أشكال هندسية وزخرفية وطبقية من الخرز الملون ، وأنواع من السلال الخيزرانية ، ومن النسيج والفرش والمكانس ؛ ورأينا خريطة بارزة مجسمة لإمارة الكويت ، يستعين بها مدرس الجغرافيا الكفيف

فى شرح مادته لتلاميذه ، ويتحسسها التلاميذ أيضاً ، وعرفنا أن المعهد يستحضر (الخامات) للفرش والمنافض والمراوح من مصر ، ويستحضر الخيزران والنايلون من الهند ؛ ورأينا فى المعرض نماذج لإنتاج العام الماضى ، وهناك فرق واضح كبير بين إنتاج العامين من ناحية توافر الخامات وتنوع الأعمال وإتقان الصنع ؛ وقد أُلحق بهذا المعرض حجرة للمشغل (الورشة) وحجرتان للخامات .

وانتقلنا إلى (حجرة وسائل الإيضاح) ، وقد أنشأ وسائل الإيضاح فيها الأستاذ المصرى أنور محمد على الذى كان يدرس فى الكويت منذ حين ، ويوجد فى الحجرة ميزان بارز وعدادات ونماذج للساعات وللخطوط ، ولعمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة، بالوسائل المنقوشة البارزة .

وفى (غرفة الطباعة) وجدنا اثنتى عشرة آلة كاتبة عربية ، وهى من طراز (أوليمبيا) ، ورأينا نماذج للكتابة ، فهذا تلميذ قد كتب عبارة : « لم أبال بما شكوت » وآخر قد كتب : « مالكم تلكأتم » !...

وفى (حجرة الجغرافيا) يوجد كرتان أرضيتان ، ونماذج بارزة للجهات الأصلية والفرعية ، وحركة الشمس والقمر ، وأوجه القمر . . . إلخ .

وزرنا (قاعة المطعم) ، وهى قاعة أعدت فى أول الأمر لتكون مسرحا أو مكانا للاجتماعات العامة : ولكنها تستعمل الآن مطعما ، وفيها مناضد مستطيلة تتسع لستة وخمسين تلميذا ، ويجلس مع التلاميذ بعض المراقبين لملاحظتهم ، ولكن المدرسين يأكلون وحدهم !... والوجبة التى قُدمت للتلاميذ اليوم مكونة من شطيرة (سندوتش) من جبنة (فلمنك) وشطيرة (كفتة) وبيضة وتفاحة، ويقدم الشاى بعد أداء الصلاة التى تعقب الغداء ، حيث يتردد الأذان داخل المعهد فى مكبر الصوت ، ويصلى التلاميذ جماعة ، يؤمهم وكيل المعهد وهو الشيخ عبد الرءوف عوض ، وفى المعهد مكان مناسب للصلاة .

وتأتى الأغذية مهيأة من قسم التغذية الضخم التابع لدائرة المعارف ، وأحيانا يكون الغذاء (مطبوخا) وأحيانا يكون أطعمة جافة . و إذا كان الوقت صيفا فإن التلاميذ ينامون بعد الغداء والصلاة لمدة ساعة على أسرة وحشايا مجهزة من قبل المعهد ، وفوق التغذية يقدم المعهد لكل تلميذ حلتين (بدلتين) فى الشتاء ، وحلتين فى الصيف ، وملابس للرياضة ، و يعطى المعهد خمسين روبية (الروبية نحو خمسة وسبعين مليما) لكل تلميذ فى القسم الابتدائى ، وستين روبية لكل تلميذ فى القسم المتوسط ؛ وهناك سيارتان كبيرتان خاصتان بنقل التلاميذ من بيوتهم إلى المعهد ، ومن المعهد إلى بيوتهم يوميا ، والذين يقيمون فى القسم الداخلى بالمعهد يذهبون فى هذه السيارات إلى بيوتهم بعد ظهر الخميس ، ويعودون إلى المعهد مساء الجمعة .

وزرنا (حجرة الإذاعة) فإذا فيها مجموعة من الاسطوانات ، وجهاز إذاعة داخلية (ميكروفون) ، وجهاز تسجيل لتسجيل القرآن والأحاديث وحفلات السمر التى تقام مرة فى كل أسبوع ، ومن الممكن استغلال هذه الحجرة على نطاق واسع مثمر .

وانتقلنا إلى (غرفة الطبيب) ، والطبيب فى المعهد فلسطينى هو الدكتور نمر فيشاوى ، وفى حجرة مكتبه وجدنا سريرا للكشف وصيدلية فيها أنواع مختلفة من الأدوية ، ولكل تلميذ ملف خاص بحالته الصحية فيه سجل الفحص و بيان التحليل وطلبات إجراء الكشف أو العلاج ؛ والطبيب يزور المعهد ثلاث مرات فى الأسبوع ، و يصرف الدواء للتلميذ مجاناً ، وإذا كان فى حاجة إلى العلاج حوّل إلى المستشفى .

وذهبنا إلى (غرفة الموسيقى) ، وكانت فرقة الموسيقى من التلاميذ قد تجمعت فيها لتقدم إلينا شيئا من فنها تحية للزيارة ، ووجدنا الأفراد بأيديهم وأمامهم الآلات الموسيقية المختلفة : العود ، الكمنجة ، البيانو ، المندولين ، الفلالاتيا ،

الجاز باند ، الطبلة ، الفلاوت ، المثلث ، وغير ذلك ، ورأينا ملامح الصحة بادية عليهم ، وأعوادهم وهم وقوف تبدو معتدلة مستقيمة ، ولا ريب أن هذا من أثر النظام والغذاء والرياضة والعناية الصحية ، ولم نجد فى وجوههم مظاهر دمامة بارزة ، وكانوا يجلسون أثناء العزف على مقاعد مريحة ، وأمامهم مناضد نظيفة ، وبدأوا ينشدون ، فإذا الصوت منسق وجماعى ، وإذا الأداء جميل فيه أثر واضح للتدريب والإتقان ، وقد أسمعونا أولا نشيد المكفوف ، أو نشيد معهد النور ، من تأليف الأستاذ أحمد أبو بكر المفتش بدائرة المعارف ،وتلحين الأستاذ حسن نبيه سامى مدرس الموسيقى بالمعهد ومتخرج من المعهد العالى للموسيقى الشرقية بالقاهرة ، وفى النشيد فيه هذه الكلمات :

هنا فى ضيائك يا معهدى   عرفتُ السبيل إلى مقصدى
فأنت الصباح به أغتدى   وأنت الشعاع به أهتدى

وأنت سلاحى ، وأنت يدى

سناك يبدد جُنْح الظُّلَمْ   ويأسو الجراح ، ويمحو الألمْ
ويُذْكى العزائم ، يحيى الهمم   فأطوى الصعابَ ، وأعلو القمم

فيبسم يومى ، ويصحو غدى

أجارى بعلمك ركبَ الزمنْ   وأقضى بفضلك حقَّ الوطنْ
سأمضى ، سأسعد رغم المحن   بعزمى القوى ، وقلبى الفطن

وأهتف : يانفس لا تقعدى

أخوض الحياة برحب الأملْ   وأضرب فى الجد أعلى مثل
ولستُ ضعيفاً أهاب العمل   ولستُ على أحد أتكل

سأعمل للعز والسؤدد

أجاهد فى الخير صلبَ القناهْ   أشارك قومى بناء الحياه
وأسمى بعلمىَ بين السعاه   وأشدو بلحن يهز الهداه

منار الهداية يا معهدى !

ثم سمعنا منهم لحنا موسيقيا فيه قوة عنوانه (الكويت) ، تأليف مدرس الموسيقى ؛ وقد نال هؤلاء التلاميذ كأس معارف الكويت للمدارس المتوسطة فى الموسيقى فى العام الماضى . ولقد شاهدت بين التلاميذ العازفين والمنشدين شيخا فى نحو الستين من عمره ، أبيض الشعر ، يميل جسمه إلى النحولة ، وهو هادئ فى جلسته لا يشارك فى العزف أو الإنشاد .

وذهبنا إلى (صالة الرياضة البدنية) التى يبلغ طولها ثلاثين مترا وعرضها عشرة أمتار ، ورأينا فيها الدراجات والمتوازيات وأدوات التسلق والتجديف ، وغير ذلك من الأدوات ، وهى لا تقل عن أية صالة فى المعاهد الدراسية الكبيرة فى مصر ، بل إن الدراجات الموجودة فى هذه الصالة والمستوردة من لندن لا يوجد مثلها فى صالات مدارسنا ، ورأينا التلاميذ وهم يقومون بالتمارين المختلفة داخل الصالة ، وكان عددهم عشرين تلميذا ، وكل منهم يلبس قميصا أخضر وسروالا أبيض وحذاء أبيض ، وقد قاموا بحركات مد الأذرع والساقين إلى الجانبين وإلى أعلى ، وحركات الوثب وضغط الجذع إلى أمام وخلف ، والتسلق على الحواجز ، والصعود على الحبال ، والتعلق فى الهواء مع ثنى الركبتين ومدهما ، ثم صعود السلم المكون من حبلين وقطع خشبية ، واللعب على العقلة ، والركوب على الدراجات الواقفة وإدارتها لتمرين عضلات الساقين والفخذين ! .

ولا شك أن هذه الألوان المختلفة من الرياضة تؤدى إلى التنفيس والتهذيب والتدريب ، وهى فى الوقت نفسه معوان على ترقية الحالة الذهنية عند هؤلاء التلاميذ ، لأن العقل السليم فى الجسم السليم .

ومررنا على (نادى المعهد) فإذا هو مكان هادئ مريح ، فيه مقاعد مريحة ومناضد نظيفة ، وشاهدنا على بعضها أدوات (الدومينو) البارزة النقط .

و بلغنا (المكتبة) ، وعرفت أنهم هناك يقرأون بطريقة (برايل) بحثى (فى صحبة المكفوفين) الذى نشرته فى كتابى (محاضرات الثلاثاء) سنة ١٩٥١ كما وجدت نسخا من كتابى (فى عالم المكفوفين) ، ووجدت فى المكتبة عشرين دولابا فيها مختلف الكتب والمجلات بطريقة برايل ، وهذه الكتب فى الدين والتاريخ والجغرافيا والأدب والقصص وعلم النفس ، وتوجد نسخ كاملة من المصحف الشريف بطريقة برايل ، وفى المكتبة أيضا وسائل إيضاح وحيوانات محنطة وكتب إنجليزية ، وهناك أوراق لاستعارة الكتب ، يختم عليها التلاميذ بأختامهم عند استعارتهم الكتب .

قسم البنات فى المعهد :

وفى المعهد جناح خاص منه مفصول بجدار حتى يستقل بنفسه ، وهذا الجناح مخصص للتلميذات المكفوفات فى الكويت ، وفى هذا القسم مشرفة وثلاث مدرسات متخصصات من مصر ، وهن يأخذن جداولهن الأساسية فى مدارس عادية ، ثم يأخذن حصصا إضافية فى هذا القسم ؛ وتبدأ الدراسة فيه من الساعة الثانية بعد الظهر حتى الرابعة والنصف ، وفيه عشر بنات كلهن كويتيات ماعدا بنتا فلسطينية واحدة ، وهن يأخذن اثنتين وعشرين حصة فى الأسبوع ، ومواد الدراسة هى القرآن واللغة العربية والحساب والأشغال والتدبير والعلوم والموسيقى والتربية البدنية .

والميزات التى يتمتع بها الذكور فى المعهد يتمتع بها الإناث ، وهذا القسم تابع للمعهد ، ويشرف الناظر عليه .

معلومات عامة :

وقد أخبرونى بأن مستوى الناحية الأخلاقية بين التلاميذ لا بأس به ، وأن الكبار يدخنون ، فهناك اثنا عشر تلميذا يدخنون ، ومن التلاميذ سبعة متزوجون ، ولا توجد سرقات ولا انحرافات خلقية ، كما قيل لى إنه لا نتائج سيئة لتفاوت الأعمار بين التلاميذ ، وبرغم هذا أرى أن المسألة تحتاج إلى بحث .

وأزكى تلميذ فى المعهد هو (حمد فهد الخالد) الكويتى ، وعمره أربع عشرة سنة ، وهو يميل إلى البدانة ، وهو نظيف الثياب ، ذكى حساس ، ولد مبصراً ، ثم فقد بصره عن طريق مرض أصابه ، وهو (قرحة فى الرأس) ؛ وهو يؤدى واجباته باستمرار ونشاط ، وأسرته غنية ، وقد أثر كف البصر فيه من الناحية النفسية ، ومع هذا ننتظر له مستقبلا ملحوظا .

هذا ، وقد وجدت فى (متحف الكويت) ركنا خاصا بالمكفوفين ، عرضوا فيه طائفة من الصور لهم وطائفة من منتجاتهم ، وعلى الرغم من أن هذا عمل يستحق الشكران ، أرجو أن يتوسع المسئولون فى هذا الركن ، حتى يكون أكبر مما هو عليه الآن ، وبخاصة حين ينقلون المتحف كما يعتزمون إلى مكان أوسع من مكانه الحالى .

مكفوف من الكويت

الأستاذ عبد الرزاق البصير

بمناسبة الحديث عن المكفوفين فى الكويت أذكر أننى عرفت فيها أحد الأدباء المكفوفين الكويتيين ، وهو الأستاذ عبد الرزاق البصير أمين المكتبة فى دائرة المطبوعات والنشر .

وأثبت هنا ما أمدنى به من معلومات تتعلق بنشأته وحياته .

فقد ولد الأستاذ عبد الرزاق البصير بالكويت سنة ١٩١٩ م فى أسرة يصفها هو بالرجعية، لأنها كانت تعتقد مثلا أن التطعيم ضد أى مرض من الأمراض لا يجوز شرعا ، لأن التطعيم قد يجلب المرض للإنسان ، وهذا غير جائز شرعاً ، وكانت ترى أنه إذا مضى أسبوع دون أن يزورها فقيه أو ولى ، فإنها ستتعرض لغضب الله ، وكانت تعتقد أن كثيراً من الأمراض تزول بقراءة بعض الأدعية والأذكار على المريض أو فى ماء يشرب به المريض ، وأسرة هذا شأنها لا يمكن — كما يقول — أن تعنى بتاريخ أفرادها ، ولذلك جهل عبد الرزاق تاريخ ميلاده ، وظل يتحرى حتى عرف أنه كان فى العام السالف الذكر ...

وفى العام الثالث من عمره أصيب بمرض الجدرى فذهب بصر عينيه ، وكان الصبى شديد الحيوية كثير الحركة . فأصيب فى صغره بكثير من الحروق كما حدثوه فيما بعد ، لأنه لا يذكر من ذلك شيئاً ، ويقول إنه لم يشعر بفقد بصره إلا بعد مدة ، لأنه كان يشارك أترابه فى جميع ما كانوا يصنعونه من ألعاب ، حتى تلك الألعاب التى لا يمكن أن يقوم بها غير المبصرين ؛ وأصيب الفتى وهو فى الثانية عشرة من عمره بمرض (الحصبة) .

ونشأ يجيد التقليد ، حتى إنه لم يكن يسمع خطيباً من الخطباء حتى يرجع إلى منزله ويحاكى من سمعه مصوراً لهجته وطريقته ، حتى عرف بذلك فى محلته ، ويذكر أنه قلد الإذاعة المصرية عند أول سماعه لها ، فأتقن ذلك إتقاناً عجيباً . . .

وبدأ عبد الرزاق دراسته فى (كُتَّاب) اختلط فيه الجنسان ، وكان التعليم فيه مقصوراً على تحفيظ القرآن الكريم . وكانت معلمة (الكتاب) امرأة عجوزا فيها بعض القسوة ، ولها بنت مسرفة فى القسوة تعاونها فى إدارة (الكتاب) ، فكانت تضرب الصبيان جميعاً إذا ماأخطأ واحد منهم ؛ ولقد مكث الصبى فى هذا (الكتاب) — كما يقول — أربع سنوات دون أن يحفظ القرآن حفظاً صحيحاً ، ثم خرج منه متظاهرا بأنه قد حفظ القرآن ؛ ثم ذهب به والده إلى رجل مكفوف ليعلمه أشعاراً فيها مدح ورثاء لأهل البيت — لأن الأسرة شيعية — وكان هذا المعلم رجلا رحيما شفيقاً ، فأقبلت نفس الصبى على الحفظ ، حتى حفظ كل ما عند هذا الرجل من أشعار وأحاديث ، ولكنه لم يكن يفهمها .

ثم بدأت نفسه تحب القراءة ، فاتصل بفقيه ليتعلم عنده الفقه والنحو ، واستمر على هذه الحال حتى تعلم شيئاً لا بأس به ، ولكنه لم يتقن ما أراد ، لأن ذلك الفقيه فارسى لا يحسن التعليم ... وظل الفتى متديناً شديد التدين ، لا يجيز لنفسه أبداً أن يقرأ شيئاً غير كتب الدين ، ثم اتصل به شاب يحب الأدب ، فحرضه على قراءة الأدب ، فأقبلا يطالعان ديوان الشريف الرضى قراءة متمهلة متفرغة ، وتفتحت نفس الفتى للشعر والأدب ، وما يدور حول تراجم الأدباء وتاريخ الأدب ، وأخذ يقرأ ماوسعته القراءة ، وهو يذكر أن الكتاب الذى أطلق تفكيره من الجمود هو كتاب (الإسلام فى عصر العلم) للمرحوم الأستاذ محمد فريد وجدى ، وذلك لما اتصف به هذا الكتاب من طريقة تخالف طريقة الكتب التى كان يطالعها ، وكان صاحبنا حينئذ فى الثامنة عشرة من عمره .

وأراد الشاب أن يصور أفكاره بالكتابة ، ولكن من الذى يكتب له ؟ وأحس بالحزن يعصر قلبه ، لأن ذهاب بصره يقف حائلا بينه و بين ما يشتهى من إقبال على العلم والكتابة ، وخُيِّل إليه أن جميع الذين يكتبون لا بد أن يكونوا مبصرين ، وظل هكذا عامين ، ولكنه سمع أن الأديب المصرى المشهور الدكتور طه حسين صاحب المؤلفات والكتابات الكثيرة رجل مكفوف ، فتردد فى تصديق ذلك ، ولما تيقن منه فرح فرحا شديداً ، وأقبل على قراءة كتب الدكتور طه ، وأعجب به ، وتأثر به و بمطالعاته للعقاد والمازنى وزكى مبارك ، ثم أخذ يتابع الحركة الفكرية قدر طاقته .

وقد اشترك الأستاذ البصير فى الحركة التى قامت فى الكويت سنة ١٩٣٩ م ، وكان خطيب (كتلة الشباب الوطنى) ، ولما فشلت الحركة سافر إلى البحرين ومنها إلى الأحساء ، وبقى نصف عام ، ثم عاد إلى الكويت ليستأنف نشاطه ، وصار مأذوناً من قبل المحكمة الشرعية منذ سنة ١٩٤٨ م ، وكان من الذين أسسوا (النادى الثقافى القومى) بالكويت سنة ١٩٥٢ م ، وفاز بالعضوية الإدارية فى جميع الدورات الانتخابية ، واشترك فى تحرير مجلة الإيمان ، وملحق الإيمان ، وصدى الإيمان ، وهى النشرات التى كان النادى الثقافى القومى يصدرها ، كما ألقى عدة أحاديث أدبية واجتماعية فى ذلك النادى .

ونشر مقالات فى مجلة الكويت التى كان يصدرها الأستاذ يعقوب عبد العزيز الرشيد ، وفى مجلات : صوت البحرين ، والكتاب المصرية ، والآداب اللبنانية ، والرائد الكويتية الأسبوعية والشهرية . وألقى بعض الأحاديث فى (محطة الشرق الأدنى) ، وطلبت منه المحطة الاستمرار فى هذه الأحاديث ولكنه أبى . وفاز بالعضوية الإدارية للرابطة الأدبية ، وهو الآن مشترك فى تحرير جريدتى الشعب والفجر الكويتيتين . وتوجد لديه دراسات عن بعض الأدباء الأقدمين كالفراء والزجاج وأبى الحسن الجرجانى ، وفى نيته أن يتفرغ

للبحث والتأليف بعد سنة أو سنتين . وقد اشترك معنا فى مؤتمر الأدباء العرب بالكويت ، فى ديسمبر سنة ١٩٥٨ ، وألقى بحثا موضوعه :(البطولة كما يصورها الشعر العربى الحديث) .

وهو يرى أن العقيدة القومية الصحيحة هى الدواء الوحيد للوطن العربى كله ، وقد اتصل بزعماء القومية العربية كالأساتذة ميشيل عفلق،وأكرم الحورانى وصلاح البيطار ، وجابر عمر ، وعبد الرحمن البزاز ، و يوسف الرويس ، وغيرهم .

وقام برحلات إلى العراق وسوريا ولبنان والأردن .

وقد حاولت أن أعرف المزيد من التفاصيل عن حياته وأسرته ، ولكنه كان يعد ويسوّف و يعتذر ! ! . . .

المسيح والمكفوف

جاء فى (إنجيل برنابا) ما يلى[1] :

« ولما اجتاز يسوع من الهيكل بعد أن صلى صلاة الظهيرة ، وجد أكمها، فسأله تلاميذه قائلين : أيها المعلم ، من أخطأ فى هذا الإنسان حتى وُلد أعمى : أأبوه أم أمه ؟! .

أجاب يسوع : لا أبوه أخطأ فيه ولا أمه ، ولكن الله خلقه كهذا شهادة للانجيل .

و بعد أن دعا الأكمه إليه تفل على الأرض ، وصنع طينا ، ووضعه على عينى الأكمه ، وقال له : اذهب إلى بركة سلوام واغتسل .

فذهب الأكمه ، ولما اغتسل أبصر ، و بينما كان راجعا إلى البيت قال كثيرون من الذين التقوا به : لو كان هذا الرجل أعمى لقلت بكل تأكيد : إنه الذى كان يجلس على الباب الجميل من الهيكل . وقال آخرون : إنه هو ، ولكن كيف أبصر ؟! .

فسألوه قائلين : هل أنت الأكمه الذى كان يجلس على الباب الجميل من الهيكل ؟ . أجاب : إنى أنا هو ، ولماذا ؟ .

قالوا : كيف نلت بصرك ؟ . أجاب : إن رجلا صنع طينا تافلا على الأرض ، ووضع هذا الطين على عينى ، وقال لى : اذهب واغتسل فى بركة سلوام ؛ فذهبت واغتسلت ، فصرت الآن أبصر ؛ تبارك إله إسرائيل ! .

---

(١) انظر إنجيل برنابا ، ص ٢٤٢ ، طبعة المنار سنة ١٣٢٥ هـ — ١٩٠٧ م .

ولما عاد الرجل الذى كان أكمه إلى الباب الجميل من الهيكل امتلأت أورشليم كلها بالخبر ؛ لذلك أحضر إلى رئيس الكهنة الذى كان يأتمر مع الكهنة والفريسيين على يسوع ، فسأله رئيس الكهنة : هل ولدت أعمى أيها الرجل ؟!. أجاب : نعم .

فقال رئيس الكهنة : ألا فأعط الله مجدا ، وأخبرنا أى نبى ظهر لك فى الحلم وأنالك نورا . . . أهو أبونا إبراهيم ، أم موسى خادم الله ، أم نبى آخر ؟ لأن غيرهم لا يقدر أن يفعل شيئاً نظير هذا .

فأجاب الرجل الذى ولد أعمى : إنى لم أر فى حلم ، ولم يشفنى لا إبراهيم ولا موسى ولا نبى آخر ، ولكن بينا أنا جالس على باب الهيكل أدنانى رجل إليه ، وبعد أن صنع طيناً من تراب بتفله ، وضع بعضا من ذلك الطين على عينى ، وأرسلنى إلى بركة سلوام لأغتسل ، فذهبت واغتسلت وعدت بنور عينى ! .

فسأله رئيس الكهنة عن اسم ذلك الرجل ، فأجاب الرجل الذى ولد أعمى : إنه لم يذكر لى اسمه ، ولكن رجلا رآه نادانى وقال : اذهب واغتسل كما قال ذلك الرجل ، لأنه يسوع الناصرى نبى إله إسرائيل وقدوسه .

فقال حينئذ رئيس الكهنة : لعله أبرأك اليوم ، أى السبت ؟ . أجاب الأعمى : إنه أبرأنى اليوم . فقال رئيس الكهنة : انظروا الآن ، كيف إن هذا الرجل خاطىء ، لأنه لا يحفظ السبت .

أجاب الأعمى : لست أعلم أخاطىء هو أم لا ، إنما أعلم هذا ، وهو أنى كنت أعمى فأنارنى .

فلم يصدق الفريسيون هذا ، لذلك قالوا لرئيس الكهنة : أرسل وادع أباه وأمه لأنهما يقولان لنا الصدق . فدعوا أبا الرجل الأكمه وأمه ، فلما حضرا سألهما رئيس الكهنة قائلا : هل هذا الرجل ابنكما ؟ . أجابا : إنه ابننا حقا .

فقال حينئذ رئيس الكهنة : يقول إنه ولد أعمى ، والآن يبصر ، فكيف حدث هذا الشىء ؟ .

أجاب أبو الرجل الذى ولد أعمى وأمه : إنه ولد أعمى حقا ، ولكن لا نعلم كيف نال النور ؛ هو كامل السن ، اسألوه يقل لكم الصدق ! .

فصرفوهما ، وعاد الرئيس فقال للرجل الذى ولد أعمى : أعط مجداً لله وقل الصدق .

وكان أبو الرجل الأعمى وأمه خائفين أن يتكلما ، لأنه صدر أمر من مجلس الشيوخ الرومانى أنه لا يجوز لإنسان أن يتحزب ليسوع نبى اليهود ، و إلا فالعقاب الموت ، وهو أمر استصدره الوالى ؛ لذلك قالا : هو كامل السن ، اسألوه ! .

فقال حينئذ رئيس الكهنة للرجل الذى ولد أعمى : أعط مجداً لله ، قل الصدق ، لأننا نعلم أن هذا الرجل الذى تقول إنه شفاك خاطئ .

أجاب الرجل الذى ولد أعمى : لست أعلم أخاطىء هو ، إنما أعلم هذا : أننى كنت لا أبصر فأنارنى ؛ ومن المؤكد أنه منذ ابتداء العالم حتى هذه الساعة لم يُنر أكمه ، والله لا يصيخ السمع إلى الخطأة .

قال الفريسيون : ماذا فعل لما أنارك ؟ .

حينئذ تعجب الرجل الذى ولد أعمى من عدم إيمانهم وقال : لقد أخبرتكم فلماذا تسألوننى أيضاً ؟ أتريدون أنتم أن تصيروا تلاميذ له ؟ .

فوبخه حينئذ رئيس الكهنة قائلا : إنك ولدت بجملتك فى الخطيئة ، أفتريد أن تعلمنا ؟ اغرب وصر أنت تلميذاً لهذا الرجل ، أما نحن فإننا تلاميذ موسى ، ونعلم أن الله كلم موسى ، أما هذا الرجل فلا نعلم من أين هو .

فأخرجوه من المجمع ،ونهوه عن الصلاة مع الطاهرين بين إسرائيل ؛ وذهب الرجل الذى ولد أعمى ليجد يسوع ، فعزاه قائلا : إنك لم تبارك فى زمن ما كما أنت الآن ، لأنك مبارك من إلهنا الذى تكلم على لسان داود ونبيه فى إخلاء العالم قائلا : هم يلعنون وأنا أبارك ... » .

فى دنيا المكفوفين

جرت العادة أن أخصص كل عام ندوة عن الأشقاء المكفوفين فى سلسلة (حديث الاثنين) الذى أنظمه فى المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين بالقاهرة، لتكون هذه الندوة فرصة لمدارسة شئون المكفوفين المختلفة ، والمطالبة بحقوقهم المضيعة ، والتنويه بمكانتهم فى الحياة ، ويشترك فى كل ندوة عدد من الباحثين المكفوفين أو المبصرين .

وأذكر على سبيل المثال أنه فى يوم الاثنين ٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٧ — ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٥٧ م عقدنا ندوة عنوانها (فى دنيا المكفوفين) ، وأثبت فيما يلى خلاصة أخذت للكلمات ألقيت متتابعة فى هذه الندوة ، وقد ألقى الأستاذ الصاوى شعلان فى هذه الندوة قصيدة وضعناها مع القصائد المتعلقة بالمكفوفين ، وستمر علينا فى هذا الكتاب ، وكنت أتمنى لو سجلت الكلمات التى ألقيت بنصها ، ولكن لم يتيسر ذلك ، فلنكتف بالخلاصات التالية :

خلاصة كلمة المؤلف :

بسم الله الرحمن الرحيم . أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلى وأسلم على أنبيائه ورسله ، وأستفتح بالذى هو خير ، ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير . إن الموضوع العام لحديث الاثنين الليلة هو (فى دنيا المكفوفين) ودنيا هؤلاء يجب ألا يقتصر فى الحديث عنها على ندوة فى كل موسم من من مواسم محاضراتنا وندواتنا ، بل يجب أن يتكرر الحديث عن هذه الدنيا ويتشعب ، لأن قضايا المكفوفين الحاضرة والمستقبلة جديرة بعناية أوسع وأنفع ، ولعلنا بهذه الوقفات التى نقفها من أجل هؤلاء الأشقاء نحرض غيرنا على أن يقف وقفات أطول وأجمل .

ودنيا المكفوفين دنيا عريضة واسعة ، وإن تكن مجهولة للكثيرين منا ، بل قد تكون فى بعض نواحيها وصورها ، أو فى جوانب من أخيلتها وتصوراتها ، أدق وأعمق من دنيا المبصرين ... تلك دنيا المكفوفين على حقيقتها ، ولكنها تبدو لكثير من المبصرين ضيقة محدودة ، إذ يظن هؤلاء المبصرون أن هذا المكفوف خاق للعزلة والانكماش ، ولذلك يعاملونه معاملة من تقاصر عن المشاركة الواسعة فى الحياة ؛ ولعل سبب ذلك أنهم لم يتتبعوا عالم المكفوفين ولم يدرسوه ، بل أهملوه ، فكان من جراء ذلك أن انحرف المكفوف أحيانا أو اعتسف ، أو ضاعت منه جهود ومواهب ، وكان من جرائه أيضا أن تقطعت صلات بين جموع المبصرين وجموع المكفوفين ، فلم يتحقق بين الفريقين التعاون الواجب .

وكذلك نجد أن دنيا المكفوفين تبدو ضيقة عند كثير من المكفوفين أنفسهم ، لطول ما جرى عليهم من إهمال و إغفال وحرمان ، ولأنه قد حيل بينهم و بين وسائل التعليم والتدريب والتمرين ، حتى أخذوا يفهمون أو يتوهمون أن دنياهم صغيرة ضيقة ، وكانوا كمن طال عليه القيد فتعوده ، أو طال به الحرمان فألفه ورضى به .

ولكن دنيا المكفوفين واسعة فسيحة رضينا أم أبينا ، وإن كان المجتمع قد جنى بإهماله و إغفاله على هؤلاء المكفوفين ، فستر دنياهم وعطل مواهبهم ، وجعل بعضهم ينحرف أو يعتسف بسبب الإهمال والتضييع ، حتى سمعنا بعض العامة يقول عن بعض المكفوفين : كل ذى عاهة جبار ؛ وقد يقع هذا ، ولكن التجبر حينئذ تكون تبعته فى أكثر الأحوال واقعة على المجتمع لا على المكفوف وحده .

و بعد أن مضت عصور من الإهمال للمكفوفين وعصور ، بدأت صحوة المصلحين و بدأت العناية بالمكفوفين ، وشرعنا منذ سنوات نلتفت إلى هؤلاء الأشقاء الذين حرمتهم الأقدار نعمة الإبصار ، وكنا فى هذا — مع الأسف — مقلدين تابعين ؛

لا بادئين مبدعين ، لأن الغرب قد سبقنا قبل ذلك بزمن طويل فى العناية بالمكفوفين ؛ وإذا كنا حتى اليوم لم ندرك الموكب الواعى العامل فى حقول المكفوفين بالغرب ، فإن أقل ما يجب علينا هو ألا نكف عن المسير فى هذا الطريق .

والواقع أن الدولة يجب عليها أن تتحمل عن المكفوف كل مضرة أو تبعة تلحقه بسبب كف بصره ، وأن تقدم إليه ما تستطيع من المعونة المادية والأدبية والعلمية والفنية ؛ وهنا نلاحظ أن الذين يولدون مكفوفين قليلون جداً ، وأكثر المكفوفين يصابون بكف البصر فى حياتهم بسبب الإهمال من الدولة ممثلة فى أفرادها أو جماعتها ، فيجب أن تتحمل الدولة تبعة إهمالها ، وحتى لو فقد الإنسان بصره بإهماله أو انحرافه فالمجتمع لا يخلو من تبعة تجاهه ، إذ لو تهذب هذا الفرد وتربى منذ أول الطريق لما انحرف إلا نادراً .

وتستطيعون أن تستعرضوا تاريخ المكفوفين فى الشرق والغرب ، وفى القديم والحديث ، لتجدوا أن المكفوفين الذين تهيأت لهم ظروف التعلم والتثقف قد نجحوا وبرزوا ، وشاركوا الناس حياتهم الاجتماعية ، وقدموا جهودا ملحوظة مشكورة . وإذن فمن واجبنا أن نبذل ما نستطيع لكى نهيئ كل الظروف الممكنة لتدريب المكفوفين وتوجيههم ؛ ومن أجل الدعوة إلى هذا ننظم مثل هذه الندوة ، راجين أن يكون فيها تقدير وتذكير .

خلاصة كلمة الدكتور فتحى عبد المنعم :

عندما شرفنى أخى الأستاذ الشرباصى بالدعوة إلى الإسهام فى هذه الندوة الكريمة أحببت أن أتحدث فى موضوع المكفوفين والأزهر ، ولكنه نصح لى أن لا أتحدث فى هذا الموضوع ، لأنه حريص على أن يجعل له ندوة خاصة به ... كان يريد أن يردنى عن الحديث ليظل هذا الموضوع بكراً ، أو لعله كان يخشى.

أن أثور وأمور ، ولكنى أطمئنه ، لأنى لن أمسه إلا مساً خفيفاً ، ويوم تقام لهذا الموضوع ندوة خاصة ، سأحضر سامعاً لا متحدثاً ... أطمئن أخى الأستاذ الشرباصى بأنى لن أثور ولن أمور على هذا الأزهر ، فالأزهر أحق بالحمد على ما أسداه ، وأحق بالشكر على ما أولاه ، ولئن كانت هنالك تصرفات للذين تولوا أمر هذا الأزهر ، أو لبعض من تولوا أمر هذا الأزهر ، فهذا لا يعنى أبداً أن الأزهر يحمل جريرة هذه التصرفات من هؤلاء الأشخاص ، فما هؤلاء إلا طيوف عابرة ، مرت على رمال الزمن ولم تترك فيها تاريخاً ولا أثراً . . .

— أما بعد — فقد كان الأزهر فى مصر ولم يكن شىء معه . . . كان البيت العلمى العتيق الذى يلجأ إليه كل راغب فى العلم . والأزهر مزاج من المسجد والجامعة ، هذه طبيعته ، ولا يستطيع أن يتخلى عنها ... ونحن المكفوفين مدينون لهذه الطبيعة بما تعلمنا من علم ، ولا بد أن يظل الأزهر مسجداً وجامعة ، فإذا ألغى فيه معنى المسجد ، فقد شلت رسالته ، فهو إذن مسجد وجامعة . . . مسجد لأن بيوت الله لا ترد أحداً عن ارتيادها ، وجامعة يجب أن لا ترد طالب علم عن بابها .

والأزهر كجامعة مزدوجة علم أبناءه العلم يوم أن كان العلم مقصوراً على طائفة من الناس يشترونه بالمال ؛ فكان الأزهر يبث العلم لا يميز فيه بين غنى وفقير ، وهذا هو السر الذى أوجد فيه ملجأ وملاذاً للعلم ؛ على أن الأزهر ظل ينشر العلم ، وينشر الهدى ، حتى بدأ الشرق يعى ، ويحاول أن يسير فى مضمار التعليم إلى أشواط بعيدة ، وظل الأزهر يتابع نشاطه ، و بدأ لون جديد من التعليم ينشأ فى مصر بإنشاء المدارس ، فكان لون التعليم فيها مغايراً لما فى الأزهر ، ولم يكن من مصلحة المستعمر أن يتعلم المصريون العلم للعلم ، بل كان من مصلحته أن يتعلموا للوظائف ، فكان طبيعياً أن يشترط فى التلميذ وطالب الوظيفة اللياقة الطبية .

والمكفوفون قلة بالنسبة المبصرين ، وليس هناك ما يدعو إلى العناية بهم لأننا كنا نتعلم لا للعلم وإنما للوظيفة ، والناس بصراء ومكفوفون ، وما أكثر الذين كانوا لا يستطيعون أن يدفعوا ثمن العلم فى المدارس ، فازداد الإقبال على الأزهر ، وحتى المكفوفون الذين كانوا يستطيعون أن يتعلموا كانوا لا يجدون بدا من التعليم فى الأزهر .

ولكن الأزهر استزاد من الحضارة لأنه رغب فى التطور ، وهذه الاستزادة كادت تنحرف به ، فكان فى بعض الظروف يحرم المكفوفين من بعض الميزات التى كانت تعطى المبصرين ، ولكن لحسن الحظ لم يتوطن هذا المرض فى الأزهر ، وما كانت هذه الحال إلا وعكات خفيفات تلمّ بالأزهر . .

ومن ذلك أن كلية اللغة العربية مثلا تحرم على المكفوفين الالتحاق بها ، ذلك لأنها تعد المعلمين للتدريس بوزارة التربية ، والمكفوف لا يمكن أن يقوم بالتدريس على المناهج الحديثة ، وهى لا تريد أن تهيىء مكفوفا يتخرج وبعد ذلك لا يجد عملا ، وأذكر أننى تقدمت إلى كلية اللغة ، وودّ المسئولون لو مكنونى من دخول الكلية ، إلا أنهم بحكم القوانين لا يستطيعون ، وكان يحال بين المكفوفين وبين التخصص ، وكان يحال بينهم حين يتخرجون وبين التسوية بزملائهم ، ولكن هذه الوعكات والأمراض التى كان يصاب بها الأزهر فتخرجه عن طبيعة المسجد ، لم تتوطن فيه إلى حدّ بعيد . . .

وظل المكفوف فى الأزهر يدرس إلى جانب زميله المبصر ، وكيف نجحد للأزهر هذه النعمة ، وقد أوفد من أبنائه المكفوفين إلى أوربا من ذهبوا لتلمس المعرفة ؟. . . الواقع أن الأزهر لم يقصر فى تعليم المكفوفين ، بل بدأ يأخذ بالأسباب الحديثة فى تعليمهم .

وقد قرأت بجريدة المساء يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٥٧ أن شيخ الأزهر قد ألّف لجنة لإنشاء فصول للمكفوفين ، وتعليمهم بالمصورات الجغرافية والحروف البارزة ،

وهذه حقيقة تستحق الشكر والتقدير ، على أن لنا ملاحظة أو اثنتين على هذا القرار ، فليس من المعقول — واللجنة المؤلفة كسائر اللجان — أن يؤلف مدير مصلحة لجنة ليس بينها عدد من المتخصصين فى شئون مهمتها ، ولكن فيها عضواً واحداً هو الذى رضيت المشيخة عن اختياره ، وهو الأستاذ الصاوى شعلان ، وهو وحده يقدر على أن يقول لنا هل اجتمعت اللجنة أو لا ؟ وهل هى ماضية فى طريقها أو أنها جرت على الحكمة القائلة : إذا أردت أن تقبر مشروعا فألف له لجنة ؟.. على أن هذه اللجنة إذا كانت قد قطعت شوطا فى طريقها فلا شك أن أعضاءها يستحقون من المكفوفين الشكر . . .

ولقد حال الأزهر أحيانا بين بعض الناس والتماس العلم فى معاهده ، وقد أشرت إلى كلية اللغة ، ولا زلت أذكر شخصا تقدم إلى الأزهر سنة ١٩٣٨ ولم يكن مكفوفا ولا مبصراً ، وكان شيخ المعهد غائبا فى ذلك الوقت ، وكان أحد المراقبين يقوم مقامه ، فرفض قبوله لأنه لم يحز نسبة المكفوفين ولا نسبة المبصرين ، ولم يحظ بالانتساب إلى الأزهر ، ولو انتسب لكان من القادة المفكرين .

على أننى أعود فأشكر الذين فكروا فى الأزهر فى هذه العناية ، وإن كنت ألاحظ الملاحظة الثانية ، وهى عزل المكفوف عن زميله المبصر فى فصل خاص من فصول الدراسة . . . إن الناس فى أوربا لا يحبون أن يشعروا المكفوف بأنه معزول ، وفى أمريكا قد أدمجوا الكفيف إدماجا معماريا فى مجتمعه ، وإننا نرجو أن يكون على المقعد الواحد مبصر وكفيف فى الأزهر ، والأزهر قد نجح فى إشعار المكفوفين بأنهم أعضاء حية فى جسم المجتمع ، وهذا الأزهر الذى أنعم على المكفوفين ، نخشى أن يعزل الضرير عن المجتمع ، فإذا سمح لى أن أتكلم عن هذه اللجنة اقترحت عليها أن تتخفف من الفصول المستقلة ، وأن تقصرها على العلوم المخصوصة ، وتجعل حصص الكتابة البارزة فى وقت غير الأوقات الدراسية ، على أن لا يمنع الكفيف من تحصيل الدرس مع زميله المبصر ، لأنى حريص على

أن يظلا معاً وأطالب بذلك ، وإن كانت الدنيا المتطورة ستخفف من الكتابة البارزة ، وتُسمع المكفوف الأجهزة المسجلة ، حتى توفر على المكفوفين مشقة الاستعانة بزملائهم ، لكي يكون الإنسان مستطيعا بنفسه لا مستطيعا بغيره .

هذا وأخشى أن أكون قد أطلت عليكم ، وأظنني قد بررت بوعدي مع أخي الأستاذ الشرباصي ، فلم أمس الموضوع إلا مساخفيفا ، حتى يدعوكم مرة أخرى إلى هذا الموضوع كما يحب بكراً . . . ولا يفوتني أن أتوجه بالشكر إلى الأستاذ الشرباصي حيث تحدث في كتابه (محاضرات الثلاثاء) عن المكفوفين . . ثم أصدر كتابه الجليل (في عالم المكفوفين) .

ولقد كنت في (سويسرا) منذ عام أو يزيد حيث أطلعني بعضهم على جريدة (منبر الشرق) ، وفيها مقال للأستاذ الشرباصي ، ضمنه قصيدة لإيليا أبي ماضي عن المكفوف ، وفي هذا المقال يزعم صديقي الأستاذ الشرباصي أنه قد فاته أن يضع هذه القصيدة ضمن كتابه (في عالم المكفوفين) بحجة ضعف الذاكرة ، مع أنه يذكر أنه كان قد نسخ ديوان إيليا بخط يده ، وذلك قبل خمسة عشر سنة[1] ... وأنا رفيق الأستاذ الشرباصي ، فسألت نفسي : ماهذا الذي يقوله الأستاذ الشرباصي من أنه قد أصبح ضعيف الذاكرة ؟ وكدت أفزع إلى شهادة الميلاد لأنني قد خشيت أن أكون قد شخت مادام صديقي الباحث الشاب يريد أن يوهمنا بأنه قد شاخ حتى ضعفت ذاكرته .

ثم تفضل فقدم إليّ الكتاب ، ثم أتيح لي أن أتصفحه أخيرا ، وأعتقد أنني أؤدي له بعض شكري عن كتابه الجليل إذا تمنيت له مزيدا من التوفيق والسداد ، والسلام عليكم ورحمة الله .

(١) انظر صفحة ٣١٧ من هذا الكتاب .

خلاصة كلمة الدكتور عبد الحميد يونس :

أيها الأصدقاء :

عند ما دعانى صديقى الأستاذ الشرباصى لأتحدث إليكم فى هذا الموضوع، (دنيا المكفوفين) لم يكن يخطر ببالى أن يكون هذا الحديث فى مثل هذه المناسبة الجميلة ؛ فهذا الحديث يساق إليكم وقد أذن فى مصر توقيت زمنى جديد ، وتوقيت وطنى جديد... توقيت زمنى ، لأننا فى اليوم الذى ينتصر فيه النور على الظلام ، إذ النهار يطول بعد الثانى والعشرين من هذا الشهر ؛ وتوقيت وطنى ، لأننا نحتفل اليوم بخروج آخر رجس من أرجاس المستعمر الغاصب . . .

وبعد ، فأنا لا أحب أن أتحدث إليكم من زاوية فردية خاصة ، فكل منا يتأثر الإطار الثقافى لمجتمعه بطريق مباشر أو غير مباشر ، ولكنى أوثر أن أتحدث إليكم من الزاوية الجماعية العامة ؛ ففى هذه الأيام التى نعيش فيها خاض مكفوف مثلى معركة مع مجتمع ظالم فى سبيل تحقيق الفرصة الطبيعية لتحصيل العلم والثقافة ، ولقد سُجِّلت هذه الفرصة فى الدستور بعد جهاد مرير ، إلا أننا نريد أن نحياها كما نص عليها الدستور ، فلا تبقى مادة جامدة هكذا وحسب . . .

إن المركز النموذجى لتدريب المكفوفين تجربة ، لا نقول إنها أول تجربة من نوعها فى الإسلام أو العصور القديمة ، بل فى تاريخ مصر كله ، فنحن نعيش فى فترة منفصلة عما قبلها تماما ، والإسلام قد عنى بالمكفوفين عناية كاملة فاضلة ، ونحن إذا نظرنا إلى ميادين الحياة العامة لم نجد فرعا من فروع المعرفة إلا وقد نبغ فيه مكفوف . . . وقد أفاض زميلى فتحى فى الحديث عن الأزهر الشريف الذى حافظ على المكفوفين ، ورعى هذا التقليد الكريم رعاية حقة ، وكنت أخشى أن ينحرف الأزهر عن هذا التقليد العظيم حين بدأ يتطور ، لأنه كان ولا يزال

أول وآخر من حرص على هذا التقليد ، أما وزارة المعارف ، ولا أقول وزارة التربية والتعليم ، فقد استثنت الكشف الطبي ، فحالت بين أصدقائنا وأصدقائكم وبين التعليم ، وجميع الذين وصلوا إلى الجامعة إنما دخلوا عن طريق الأزهر إلا اثنين فقط هما اللذان دخلا الجامعة من غير الأزهر : أنا ، والدكتور محمد مصطفى حلمى ... أما أنا فقد كتبت من الذاكرة ، دون أن أستطيع أن أراجع ورقة الامتحان ، وعلى ذلك تخلصت من المشكلة . . . اثنان فقط هما اللذان استطاعا أن يقتحما الجامعة من غير الأزهر ، أما الأزهر فقد كان ولا يزال الجامعة التى حافظت على تقاليدها ، ولم تباعد بينها و بين طبيعتها الأولى ، وإنى لأشكر زميلى الذى ذكرنا بالأزهر ، ولكنى مع ذلك أحب أن أتوسع فى التكلم عن الأزهر ، فأقول : إنه سيسقط حقه الموروث إذا فكر أن الكفيف دون زميله المبصر ، فيحرمه من الحساب والهندسة ، والجغرافيا ، والرياضة .

والأزهر قد أخذ بسنة قديمة هى أن الكتابة أمر تعسفى ، فالكتابة رمز لتسجيل الأفكار والمشاعر ، واللغة هى تركيب الأصوات ، والأزهر قد أخذ بذلك ، ولكنه أخذ بفروع أخرى ، وكانت هذه هى التجربة الأولى والجديدة التى اضطلع بها هذا الأزهر فى تاريخنا الحديث . . . ولكنها ليست جديدة فى تاريخنا القديم ، فقد استطاع مكفوف أن يخترع طريقة فى الكتابة ، وأن يتعلم الحساب والهندسة ، ومصر قديما لم تفرق بين مبصر وكفيف ، ولكن مصر التى رزحت تحت نير الاستعمار هى التى فرقت بين المبصر والكفيف ، فعلت ذلك بمؤثر خارجى ، ولكن الأزهر لم يفعل ذلك ، لأن يد الاستعمار لم تدخل إليه ، ولم تعبث بنظمه . . .

ومن أجل ذلك كان حديثنا عن المكفوف فى ميدان التعليم حديثا عن النضال الذى يجب أن نؤمن به فى سبيل حصوله على حقه كاملا غير منقوص ...

إن من الممكن أن يتعلم المكفوفون كما يتعلم المبصرون ، كتابة تحل محل كتابة، ورموز تحل محل رموز ، ولذلك يجب أن يتحطم الستار الحديدى الذى ضرب حول مدارس المكفوفين ..

إن المستعمر كان يريد أن يخرج منا آلات جامدة لا أكثر ولا أقل ، ونحن الآن نريد أن نحقق الكرامة والعزة فى مجتمع كريم على نفسه ، والإسلام لم يفرق بين مبصر وكفيف ، وحسب المجتمع أن يهىء المجال أمام كل منهما . إن الدولة تطالبنى أن أؤدى الضرائب ، ولكنها لم تفكر أن تعطينى الفرصة التى أعطتها لغيرى ، وأنا أقولها بصراحة : إننا فى عصر نستطيع أن نجند فيه الرأى العام حتى فى الحرب ، لأنها حرب سيكلوجية .

وقد وقعت يدى على شهادة من معهد النور لفتاة ...أتعرفون ماذا كتب فى شهادة هذه الفتاة التى كانت الأولى ، والحاصلة على الدرجات النهائية ؟ . كتب فيها : « هذا بيان للدرجات التى حصلت عليها التلميذة ، ولا يعد بأى حال مؤهلا للعمل فى الحكومة » . . .

ماذا تفعل المسكينة ؟ أو ماذا يفعل أى إنسان بمثل هذه الشهادة ؟ .

إن فى مصر جمعيات للمكفوفين نطالبها بالعمل ، ولقد وقع فى يدى تقرير خطير . . . فلانة المكفوفة مكثت فى المدرسة الفلانية ست عشر سنة ولم تتعلم شيئا ... ماذا كانت تصنع ؟ لا شىء على الإطلاق . . . وأنتم تعلمون أن الذين يخرجون على المجتمع يتعلمون شيئاً ، ولو كان عملا آليا ، ولكنه عمل على أى حال ، ومن هنا كانت السجون والملاجىء خيرا من بعض هذه المدارس ، وخيراً من المؤسسة . .

والحل الوحيد أن نعود إلى تقاليدنا القديمة ، فلا نفرق بين مبصر وكفيف ، ولا نضع العقبات فى طريق المكفوف .... ومثلى يطلب إليه أن يذهب إلى

القومسيون الطبى بعد أن نال أعلى شهادة ؛ أتعلمون لماذا ؟ لكى يكشف على عضلاتى ، دون أن يفكروا فى الكشف على عقول الناس ، وكأنما يطالب إلينا أن نكون كالثيران ، تسير وتحرث الأرض ؛ أما كرامة الإنسان فشىء لم يفكر فيه أحد . . . كان الاستعمار يحاول وهو يعلمنا أن يسلب منا الكرامة ، ولكننا فى عهد الثورة نطالب بالكرامة ، ونطالب بالمساواة الكاملة فى برامج التعليم .

نحن لا نريد امتيازا ، ولا تتصوروا أن هناك مواد يجب أن نعفى منها كالرسم مثلا ، لأن المقصود من علم كالرسم هو التربية الفنية ، وهذه التربية الفنية للمكفوف يمكن أن تتحقق بالموسيقى بدل الرسم مثلا . . .

جاءنى طالب يقول : أردت أن أدخل دار العلوم ، ولكنهم رفضوا ؛ واللجنة قالت إنه لم يستطع أن يمتحن فى الخط العربى الذى هو مادة أساسية فى الكتابة . . . يقولون إن الخط العربى مادة أساسية فى النصف الثانى من القرن العشرين . . . كان ينبغى أن تكون دار العلوم كالأزهر الشريف ، ولكنها لم تشأ ، فحطمت بذلك تقليداً كريماً كان يجب أن تحرص عليه وترعاه . . .

طالبنا بتوحيد البرامج وقلنا إن المناهج يجب أن تكون متساوية ، والاقتناع بالفكرة لم يأخذ إلا يوما أو بعض يوم ؛ أما التطبيق فقد يتم فى سنة أو سنتين ، ومع ذلك فقد علمنا الإسلام الصبر ، وبفضله استطعنا أن ننتصر ، ولأول مرة ستسمعون أن المكفوفين سيدخلون امتحان القبول للمدارس الإعدادية ، ثم للمدارس الثانوية للذين يجتازون هذه المرحلة ، وبذلك يصبح المكفوفون على قدم المساواة مع إخوانهم المبصرين .

بعد ذلك طلبنا إلى الأزهر الشريف أن يجعل الكتابة على طريقة برايل ضمن مناهجه للمكفوفين ، وبذلك يتحطم الحاجز بين التلاميذ ، لأنهم سيتعلمون الجبر والحساب ، والهندسة . . . إلخ . ومن اطلع منكم على المصورات الجغرافية البارزة ،

يرى فيها تفصيلا واضحاً لموقع قناة السويس وسيناء وغيرها ، وإذا كان هناك فرق بين الرسم النظرى والرسم البارز فهو فرق نوع ، ومن هنا إذا أراد كفيف بعد طه حسين، وبعد جيلى أنا — أن يتحدث، فسيتحدث إليكم ونفسه خالية من العقد النفسية الناشئة من الصراع بينه وبين مجتمعه .

وحسبى أن ألتقى بكم يوم انتصر النور على الظلام ، ويوم أخرجنا من مصر آخر رجس من أرجاس الاستعمار ، وسلاماً ، سلاماً ، سلاماً ...

خلاصة كلمة الدكتور عبد المنعم نور :

بعد كلمة الافتتاح التى سمعناها من فضيلة الأستاذ الشرباصى ، وبعد الحديث الذى سمعتموه من زميلىّ الدكتورين ، أشعر أننى لا أجد من الموضوعات الفنية ما أستطيع أن أوفيه حقه . . ذلك أنهم تحدثوا عن التربية والفرص المتكافئة والاتجاهات ، وعن الأخطاء التى كانت شائعة بالنسبة إلى إخواننا المكفوفين ، ولكننى أحاول أن أقول كلمة عن تأهيل المكفوفين .

(التأهيل) كلمة جديدة ترجمت أخيرا ، وشاعت بعد الحرب العالمية ، حينما وجد الحكام كما وجد غيرهم أنه لا بد أن نساير الحركات المختلفة . .

لقد حرمنا من مسايرة الركب فى الميادين العامة ، حتى أرادت الثورة أخيرا أن تحيي مشروع (توجيه المكفوفين) ، وأنا أتكلم الآن وقد أخذ الرئيس جمال معه سجادة من أسرة المكفوفين بالروضة تحية لبورسعيد الخالدة ، وقد أراد المكفوفون أن يذكّروا العالم كله ؛ وأن يذكّروا المجتمع فى هذا اليوم أن أفراده جميعاً ينهضون به، كلٌّ من ناحيته . .

التأهيل كما قلت كلمة حديثة ، ترمى إلى تمكين المواطن من المساهمة فى وجوه النشاط ، وحينما أردنا أن ندخل هذا النوع من التعليم فى مصر حدثت

مناقشات فى ترجمة الكلمة ، ووجدوا أخيرا أن معناها لا يتعدى التوجيه والتأهيل .

حينما تتأخر المجتمعات تفرق بين أبنائها بقوة الأجسام : هذا طويل وهذا قصير ، ونجد المجتمعات المتصفة بالوحشية التى تسود فيها المشكلات العنصرية يفرقون بين السود والبيض ، وكانت مصر إلى عهد قريب تفرق بين المبصرين والمكفوفين ، وأذكر أنه كان كل ولد مكفوف غنى يذهب إلى المدرسة ومعه ولد يحمل له الحقيبة ، وهذا خطأ ، إذ يجب أن يحمل الكفيف حقيبته ، ويسير ويجلس بنفسه . نحن لا نريد الأساليب التى ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب . ثم إنهم كانوا فى الماضى يقدمون للمكفوفين طعاما فى أمكنة خاصة ، وهذا يُشعر المكفوف بعدم استكمال شخصه . . .

يأتى لنا مثلا طفل أبوه مستشار ، أو قاض ، أو مدرس . يأتى هذا الطفل ككتلة خام من عدم الاعتماد على النفس ، فنحاول نحن أن نخلق فيه روح الاستقلال والاعتماد على النفس ، فإذا زرت مدرسة المكفوفين الحديثة فستجد فيها ملاعب رياضية وأحواضاً للسباحة ، ثم كل الفرص والإمكانيات التى تهيئ التلاميذ لكى يتعلموا شيئا ، فمثلا البالغون منهم يوجهون إلى المصانع ، وغيرهم للعمل فى المنزل ، وبعضهم يشترك فى بعض المشروعات ، كمشروع شركة البيع ، وهناك أكشاك المكفوفين يبيعون فيها ، ثم يرجعون آخر النهار بقروش تكفى حاجاتهم . . . ففلسفتنا فى ذلك هى أن يذهب الواحد منهم وحده ، ويرجع وحده ، ويباشر عمله وحده ، حتى يتعود الاستقلال والاعتماد على النفس .

ولم يقتصر الأمر على توجيهه الإنتاجى فى المدينة ، وإنما اتجهنا به اتجاها ريفيا آخر ، كتربية الدواجن والنشاط الاقتصادى المناسب للمكفوفين .

إذن هى فلسفة بسيطة ، لا نريد الإشفاق المبنى على الجهل بمعانى الكرامة

الإنسانية ، فالقسوة خير منه . . . وقد تمكن العاملون فى هذا الميدان من تطبيق فكرة الفرص المتكافئة لأول مرة ، حتى رأينا المكفوفين يجتازون مراحل التعليم مرحلة بعد أخرى ، حتى يتخرجوا من الجامعات كزملائهم سواء بسواء . . .

ومطبعة المركز النموذجى تعمل ليل نهار على إخراج الكتب والمؤلفات بالخط البارز ، حتى نستطيع أن نكمل هذا النقص الذى نحسه ، ونمد البلاد العربية بما تحتاجه ، وقد بدأنا نكتب القرآن الكريم بهذه الصورة . .

إننا فى تكامل شخصياتنا نعتمد على خبرات ، وهناك حواس يستطيع المكفوفون أن يستخدموها ، والتاريخ مملوء بنجاح هؤلاء المكفوفين ، والكسب الذى حققوه . .

العاشق المكفوف[1]

إذا أقبل المرءُ على موضوع من الموضوعات وأخلص له شُغل بالكبير والصغير من أموره ، وعنى بالقريب والبعيد من مسائله ، وكلف بكل ما يتعلق به ، وأحس كأنه مسئول عنه ، فهو يبدئ فى الحديث عنه و يعيد ، وهو يرجع إلى هذا الموضوع الحين بعد الحين ، يؤكد هذا الجانب من جوانبه ، أو يوضح هذه الحقيقة من دقائقه ، أو يقرب تلك المسألة من مسائله ، وبقدر إخلاص المرء لموضوعه أو فكرته يكون مقدار إقباله وعنايته . ولقد شغلنى موضوع المكفوفين منذ حين بعيد ، فلا غرابة إذا عاودت الحديث مرة بعد مرة عن هذا الموضوع الذى أتمنى أن يشغل الله به كثيرين غيرى من المفكرين والقادرين .

وهناك قصة هندية تدور حول (عاشق مكفوف) ، وهذه القصة تصور ملامح من نفسية المكفوف ، وما يعتاج فيها من أحاسيس ومشاعر ، كما ترمز إلى سمو العاطفة وجلال التضحية عند هذا المكفوف ، وقد عولجت هذه القصة عن طريق الشاشة ، واستطاعت السينما بروعة عرضها و إخراجها أن تزيد موضوع القصة جمالا وتأثيراً ، وقد يكون من الخير للقراء عامة ، وللمشتغلين بشئون المكفوفين خاصة ، أن أضع أمامهم خلاصة مركزة لقصة هذا (العاشق المكفوف) :

(شامو) صبى هندى فقير ، أحب الطفلة (مالا) الأميرة بنت الأمير الذى يعيش فى رعايته ذلك الصبى مع أمه البائسة ، وكان الطفل يركب مع الطفلة جوادها متنزهين يتبادلان الغناء ، وكان الأمير المتكبر يغضب لهذه العلاقة البريئة و يعمل على فصمها ، وحدث ذات يوم أن ركب (شامو) مع (مالا) الجواد ، وغنيا أغنية أخاذة انسجما فيها جداً ، وتناول الصبى وهو فى نشوة الغناء العصا من يد

---

(1) نشرتها فى الرابطة الإسلامية — ١٦ أغسطس سنة ١٩٥٧ .

الصبية ، وضرب بها الجـــواد ، فجمح بهما فوقعا ، وجُرحت (مالا) بسبب ذلك ! . . .

وغضب الأمير على الصبي وأمه الفقيرة ، فطردهما بعد أن كانا يعيشان من إحسانه ، فهجرا البلدة ، وقاسيا الشدائد ، وماتت الأم فى الطريق ، بينما صبيها لا يملك من حطام الدنيا شيئا .

وعثر بعض الناس على (شامو) فآواه ، ولـكن الصبي سمع فى ليلة عاصفة — بأذن خياله — صوت (مالا) يناديه قائلا : (شامو ... شامو) !... فخرج مستجيباً للصوت الذى تخيله ، وفى خلال العاصفة الهوجاء جعل يذهب يميناً وشمالا وهو لا يدرى وجهته ، واشتدت العاصفة فألقت به إلى الأرض مغشياً عليه ، وكانت النتيجة أن فقد (شامو) بصره ، وأصبح مكفوفا ! ! . . .

ومرت الأيام ، وكبر (شامو) الـكفيف ، وكان جميل الصوت حلوَ الغناء : وعطفت عليه الفتاة (شامبا) الجميلة صاحبة الصوت الجميل أيضاً ، وعاونته بجهدها وعملها ، وأحبته وهو مكفوف ، ورجت أن يحبها ، بل حسبت أنه يحبها ، ولـكن (شامو) لم ينس الحبيب الأول . . لم ينس حبيبته (مالا) ، وجعل يغنى لها أشجى الأغنيات ، ولما أدرك (شامو) فيما بعد أن (شامبا) تـكافح وتـكدح لـكى تعوله وتطعمه لم يصبر على ذلك ، بل خرج إلى الأسواق يغنى و يجمع المال لنفسه ولشامبا ولرفيق له كان يتبعه و يلازمه .

وننتقل إلى (مالا) فنراها قد شبت وكبرت ، و بلغت مبلغ النساء ، وصارت ذات جمال وبهاء ، وإن يـكن الجرح الذى أصابها فى حادثة جموح الجواد قد ترك فى وجهها أثراً أو ندبا لم يزل . . . ونرى الشاب (كيشوز) الذى عاد من دراسته وهو يحمل لقب (دكتور) ، وأصبح طبيباً للعيون ، يعجب بجمال (مالا) ، و يتقدم إلى خطبتها ، وتنشأ بينهما علاقة مودة ، فيبدوان متحابين ! . .

ويسافر (كيشور) الطبيب فى رحلة للراحة والاستجمام قبل زواجه من خطيبته (مالا) ، وتشاء الأقدار أن تكون هذه الرحلة إلى القرية التى يقيم فيها العاشق المكفوف المغنى (شامو) ! .. ويسمع الطبيب غناء المكفوف فيعجب به قبل أن يراه، ويحرص على لقائه فيرى أنه مكفوف البصر ، فيتألم لذلك ، ويقرر إجراء عملية جراحية لرد بصره ، ولكن العملية يجب أن تكون فى وسط الشتاء ، أى بعد ثمانية أشهر من الوقت الذى قرر فيه الطبيب إجراء هذه العملية! ..

وخلال هذه الفترة الاستجمامية تأتى (مالا) إلى القرية لزيارة خطيبها (الدكتور كيشور) ، ويأتى (شامو) حسب عادته ليغنى أمام الطبيب ، فتراه (مالا) ، وتسمع غناءه وتتأثر به ، وتتحرك ذكريات الطفولة فى أعماقها تحركا خفيفاً بدون إرادة أو تفكير ، ولكنها لا تعرفه ، وهو أيضا يسمع صوتها ولا يراها، ولكنه يتأثر وتتحرك ذكريات طفولته فى صدره تحركا خفيفا . . .

وأثناء هذه الفترة نرى (شامو) وهو فى بعض حديثه مع (شامبا) التى عطفت عليه وأحبته ، ونسمعه وهو يعدها الغنى والثروة ، ليعوضها عن تعبها فى سبيله ، ويخبرها بأنه سيؤلف كتابا يجمع عن طريقه كثيراً من المال ، فتسأله (شامبا) بحسن نية : وكيف تؤلف هذا الكتاب وأنت أعمى ؟ ! . فيتألم (شامو) من كلمة (أعمى) ويحزن لسماعها ! .

ويعود الطبيب مع خطيبته إلى مقرهما ، وتمر الأيام ويحل موعد العملية ، ويذهب الدكتور إلى القرية ، ويعود منها ومعه (شامو) ليجرى له العملية عنده فى البيت الذى يقيم فيه مع (مالا) .

ونرى (شامبا) التى عطفت على شامو تحزن كثيراً لفراقه، وتدعو الله فى عمق وابتهال أن يعيد إليها حبيبها (شامو) ، ونراها فى هذا الموقف متدلهة فى حبه بروعة وإخلاص .

وتظهر (مالا) عنايتها القوية بشامو ، ويجرى الطبيب له العملية ، وتنجح، ويبصر (شامو) . . وكان الطبيب قد وعد شامو قبل ذلك بأن يريه الفتاة التى

أحبها شامو فى صغره وهى (مالا) التى وصفها شامو للطبيب وصفاً دقيقاً محدداً ، فلما أبصر شامو طالب الدكتور بتنفيذ وعده له ، و بعد حوار فهم الطبيب من وصف شامو للفتاة التى أحبها أنها هى (مالا) خطيبة الطبيب ذاتها، فيتحامل على نفسه ، و يقول لشامو إنه سيجعله يراها ولكن بشرط أن لا يذكّرها بشىء من الماضى ، فيعطى (شامو) وعداً بذلك ، و يريه الطبيب خطيبته ،و يدرك (شامو) وهو يبصرها أن هذه هى حبيبة الطفولة ، فتموج الذكريات ، وتثور العواطف فى صدره ، ولكنه يكبح الجماح ! .

وأثناء ذلك تأتى (شامبا) بعد أن بحثت طويلا عن (شامو) حتى عثرت على مكانه ، وتفرح فرحا كبيراً لشفائه ، وتصارحه بحبها فى عنف ، فيقدر لها عاطفتها ، و يأسف وهو يخبرها بأنه يحب غيرها ، فتحزن وتتألم ، وتعود منكسرة ، ولكنها تظل متذكرة لشامو دائماً ، منطوية على حبها له .

و يظل شامو عند الطبيب حينا ليكون تحت رقابته الصحية ، وقد نشأت صداقة بينهما ، وذات يوم يخرج الطبيب ومالا وشامو للنزهة فى عربة يجرها جواد، وكانت السائقة هى (مالا) ، وسارت العربة بهم فى نفس الطريق القديم الذى سارت فيه مالا على الجواد مع شامو وهما صبيان صغيران يغنيان ،وهنا يتذكر شامو بدافع غير شعورى أو غير إرادى أحداث الماضى ، و يتذكر أغنية هذا الطريق ، و يبدأ فى غنائها ، بنفس ذلك النغم القديم ، وتثور ذكريات الأمس البعيد فى نفس (مالا) ، و يستيقظ الماضى فى قلبها ، فتضطرب أعصابها ، وتضرب الجواد فيجمح ، وتتقلص عضلاتها ، والطبيب يشاهد ذلك ، و يفهم السبب ! ! ...

ويدرك الطبيب أن (شامو) ما زال يحب (مالا) حباً عنيفاً ، وأنها هى الأخرى تحبه حباً عنيفا ، فتناله ثورة الغضب والغيظ ، و يذهب وهو فى حمى هذه الثورة إلى (شامو) و يصفعه ، ثم يراجع نفسه و يؤنبها ، و يعود إلى (شامو) معتذراً ، و يعلنه بأنه قد تنازل له عن (مالا) ، حتى يعيش شامو معها فى حب ووئام .

ويبلغ الخبر مسامع الأمير والد (مالا) فيثور ، ويذهب إلى شامو ويحاول جرحه وإحراجه قائلا له : إنك ستفسد حياة ابنتى وتجلب لها التعاسة والشقاء ، فإما أن تأخذ ماتريد من المال وترحل ، وإما أن تقتلنى بمسدسى هذا ...(ويقدم إليه المسدس) وليس من الإحسان فى شىء أن تكافىء من أحسن إليك (يعنى الطبيب) بهذه الإساءة ! ...

ويتأثر شامو تأثراً بليغاً ، ويقرر فى نفسه أن يقدم الواجب على العاطفة ، ويعتزم التضحية ، ويصمم فى نفسه أن يبتعد عن (مالا)، لتسعد بخطيبها الطبيب ، ونراه عقب ذلك يستدعى (مالا) على انفراد ، ويقول لها : انظرى إلى عينى فإن فيهما شيئا يؤذينى !. وتنظر مالا وهى تظنه يعنى ما نطق به ، ولكنه فى الواقع كان يريد بذلك أن تكون (مالا) هى آخر ما يراه فى الحياة !! ...

ويتركها ويخرج ، ثم يغلق على نفسه حجرة فيها (شمعدانات) موقدة باللهب ، فيتناول اثنين منها ، ويغرسهما فى عينيه ، فيقضيان على نورها ، ويسيل الدم غزيراً منهما ، ويفقد بصره ! ! ...

وهنا يلاحظ الطبيب غياب (شامو)، ويهب للبحث عنه ، ويحس بوجوده فى الغرفة ، ويسمع أنينا أو حشرجة فيحطم الباب ، ويسارع إليه ، ولكن بعد أن فقد عينيه ... وصار مكفوفا !! ...

ونرى لهما موقفا فى غاية الروعة والتأثير ... ونسمع شامو يؤكد للطبيب أنه يفضل أن يظل مكفوف البصر ، لأن بصره هو الذى سبب له الآلام والمتاعب ، ويستحلف (شامو) الطبيبَ لكى يكتم هذا السر عن خطيبته (مالا) ، حتى لا تشقى فى حياتها ...

ويقدر الطبيب هذا الموقفَ النبيل من شامو ويكبره ... ويرحل (شامو) عن الطبيب وخطيبته ؛ يرحل عنهما إلى (شامبا) التى ما زالت تفكر فيه وترحب به ! .. وهكذا تنتهى قصة العاشق المكفوف ! ...

مشاهدات عمياء[1]

« إلى زوجى فى المستقبل »

« هذه قصة صديقة من صديقات طفولتى ، كانت لها فى نفسى منزلة لاتدانيها منزلة ، حتى نزل بها ما أنا بصدد ذكره اليوم ، فضرب بيننا النوى آخر الدهر » :

لقد كانت حديثة السن يوم مات آخر ذوى قرباها ، فتركها فتاة جميلة ضاحكة السن فى غير ابتذال ، رقيقة الطبع فى غير انسياق وراء العاطفة الطائشة ، حادة الذكاء ، عارمة الفطنة ، فيها مكر و إن لم يكن فيها خبث ، متزنة لا يصل بها التعقل إلى الجمود والتجرد من العاطفة ، ولا تصل بها العاطفة إلى حيث توردها موارد الهلاك ، وكانت فوق ذلك طيبة الأرومة ، واسعة الثراء ، شديدة الوفاء ، متينة الخلق ، فتهافت عليها الرجال بين طامع ومعجب ، فما من رجل تمنى فى امرأة صفة يحبها إلا وجدها فيها ، فصدفت عنهم جميعا حتى وضع القدر فى طريقها شابا براق المظهر ، فيه جاذبية الأناقة واللباقة ، وله من حسن الشكل وحدة الذكاء وذلاقة اللسان ما يشفع له فى رقة حاله ... فكان بينهما ما كان لابد أن يكون ، وانتهى بهما الحب إلى زواج هانئ ، فسكنا إلى بيت يرفرف عليه الحب ، وتجتمع له أسباب السعادة جميعا ، حتى صارا موضع حسد الأصدقاء والصديقات... وليس أحسد للمرء من أصدقائه وصديقاته !...

وفى تلك الليلة التى دلف فيها العروس إلى مخدع عروسه لأول مرة ، وقد انصرف المهنئون والمهنئات الذين وفدوا بدافع من الفضول قبل أن يفدوا

---

(۱) عن جريدة الأهرام ، ٢٦ فبراير سنة ١٩٣٧ ، لحكمت كامل .

بدافع من المشاركة فى الشعور ... ركع إلى جانبها ، وأخذ يصب فى أذنيها كلاما رقيقا ، بصوت يجيش بالعاطفة القوية ، ملأه بعهود الولاء والوفاء ، و بالأيمان المغلظة على أن يظل مخلصا لها فى الحال والاستقبال ، ومهما وقع مما يحتمل ومما هو بعيد عن الاحتمال . . . ولكن صاحبتى راجعته فى كلامه ، وقالت له إنها لاتقيده بشىء فيما يتعلق بالمستقبل ، و إنما هى تأخذ منه ماتفيض به نفسه ، فالعاطفة تؤخذ ولا تسأل ، وهى كماء الينبوع يتفجر فلا يمنع ، و يغيض فلا يفتعل ... فلم يصادف كلامها هوى فى نفس زوجها ، وعاد يلح فى قسمه وأيمانه ، فشكرت له ذلك الشعور الذى أملى عليه هذا الكلام ، وتمنت أن يكون صادقا فيما ذهب إليه .

مرت على ذلك ليال ليست من الكثرة بحيث تنسيه ، وتمحوه من نفس قائله ومستمعه ، اجتمعت فيها لصاحبتى ألوان من الهناءة والرفاهة والاطمئنان للحياة ، من صديقات تحبهن ، ومن زوج يخلص لها الحب و يمنحها الوفاء محضا ، ومن أتباع لايدخرون وسعا فى سبيل إظهار التفانى فى خدمتها والسهر على راحتها ...

مرت أيام لا إلى الطول مع هذه السعادة الشاملة ، وهى مع ذلك إلى القصر فى حساب الزمان ، حتى كان يوم حر شديد فى صيف قائظ أصاب عينيها بمرض استفحل شره حتى خشى على بصرها أن يذهب ، فأشار عليها أساطين الطب أن تجرى فى عينيها عملية جراحية بسيطة ، فيزول ما اعترى عينيها ، وإلا كف بصرها . . . فألح عليها زوجها الحبيب إليها ، الذى أقسم أن يظل مخلصا لها أبد الدهر ، وألح عليها صديقاتها اللواتى لم يدخرن وسعاً فى البرهنة لها على حبهن لها ، لذاتها لا لجاهها . . . وألح عليها أتباعها الذين لم يتركوا فرصة إلا انتهزوها لإظهار إخلاصهم لها . . . ألح عليها كل هؤلاء أن تسمح بإجراء تلك العملية ، حتى يسلم (لهم) ولها بصرها ، فلم تجد بداً من الإذعان .

كانت مضطجعة على سريرها ، وفوق عينيها العصائب البيضاء ، بعد أن تمت العملية ، وآن أوان رفع تلك العصائب فى غداة تلك الليلة . . . عند مابدأت تفكر بعد تلك الأيام الطوال ، التى تعودت فيها ألا ترى ، كما تعودت فيها أن تسمع وتحس ، وأن تتخيل بصيرتها الأشكال والألوان على ضوء ما تعرف من عاداتها ، وما تحيط بها من ظروف وأحوال . . . بدأت تفكر — دون أن تشعر — فى ماذا لو أن العصائب رفعت عن محجريها فإذا بها تفتح عينيها ولاترى شيئا ، وماذايكون تأثير ذلك فى زوجها وصديقاتها وأتباعها ، وفى كل من تحب ومن يحبها من الناس كافة ! . . هل هو شعور حزن ؟ . لا شك أنه سيكون شعور حزن فى بادىء الأمر ، وإن اختلفت درجاته ودواعيه ، فى كل شخص من هؤلاء الأشخاص ، ولا شك أن الحزن سيعقبه تعوُّد الحالة الجديدة ، وربما الملالة والتبرم . . .

فكرت فى هذا الشأن،وراعها أنها بدأت تجد لذة فى تصور حال هؤلاء الناس إذا تحقق هذا الأمر ، حتى صارت تلك اللذة رغبة غالبة ، وأمنية لازمة التحقيق . . . وبدون أن تشعر شرعت تقول لنفسها : « وماذا لو أننى رأيت بعينى رأسى ما أراه الساعة بعين الخيال ؟ وماذا لو قلت إننى فقدت البصر حتى أبصر وقع هذا الحدث فى نفوسهم ؟ فكرة جميلة ، وإن كانت خبيثة بعض الخبث ، فإننى سأزعجهم ولا شك فى بادىء الأمر ، ولكنها ستكون مفاجأة سارة لهم عندما أكشف لهم عن الحقيقة فيفرحون فرح الأهل عاد إليهم وليدهم بعد أن واروه التراب . . .

مضى على الفاجعة يوم واحد عندما كانت جالسة فى حجرة مطلة على حديقة الدار ، تصلها بها شرفة تنتهى بدرج صغير ، ومعها زوجها ، وعلى وجهه مسحة من القلق ، وهو يداوم النظر إلى ساعته بين الفينة والفينة . . . وما لبث أن أن انفرجت أساريره وصعد الدم إلى وجنتيه ، حينما أقبلت أحب صديقاتها إليها ،

فى أبهى ملابسها ، مما يدخر لأسعد المناسبات ، لتسليها وتعزيها . . فاستقبلها الزوج الكريم عند الباب ، استقبالا حاراً على صمته ، وسلمت على صاحبتها سلاما تفيض كلماته أسى وحزنا . . . ثم جلست ويدها بين يدى زوجها الوفى . . . وصاحبتى لا تكاد تمنع عينيها من أن تومض بصورة ماترى . . . فإذا بالزوج المخلص يقول فى لهفة عميقة صادقة : لا تحزنى يا حبيبتى ، فماذا يهمك مادمت أنا إلى جانبك ، وما دمت لم أحب قبلك أحدا ، وسأظل أحبك ما حييت ؟! . . .

قالها ، أما لمن قالها ، فذلك ماتسمعه العمياء ، وما تراه المبصرة ! . . . وأعقب الكلام عناق طويل صامت ، لم تشعر به صاحبتى ، وإن شعرت بصداه فى حناياً صدرها نارا حامية ، لا من غيرة . . . فهى الآن لا تشعر بالغيرة مثلما تشعر بالخيبة وبالخديعة الوضيعة تتداعى لها حياتها جميعاً . . . فهذا هو الزوج الذى أقسم من ليال معدودات أن يخلص لها العمر كله ، والذى غضب عندما أظهرت تشككها فى قيمة قسمه . . . وهذه هى أخلص الصديقات ، وأوفى الصاحبات . . . فماذا بقى لها من دنياها التى اطمأنت إليها ولم تعد تعيش إلا لها ؟ .

ودخلت عليها خادمتها التى ربتها صغيرة ، ونشأت فى نعمتها وبرها ، فأعربت لها عن مزيد أسفها وحزنها ، بصوت مضطرب ، وإن لم يكن من رنة موافقة لما ظهر على وجهها من بشر طافح وارتياح عميم . . . فعجبت صاحبتى فى نفسها ، فزوجها وصاحبتها منفعتهما ظاهرة فى (عماها) ، ولكن هذه الفتاة ، ما مصلحتها فى هذا الأمر ؟ ولكن سرعان مازال عجبها عندما رأت تلك الخادم لا تعنى بترتيب الأثاث ، مطمئنة إلى أن عين سيدتها لم تعد تراقبها وتراجعها فى عملها . . . فعذرت الفتاة فى فرحها بعماها ، لأنها أفادت منه الراحة وامتناع الرقابة ! . . .

ثالمت صاحبتى . . فالزوج والصاحبة والخادم ، كلٌّ له من كارثتها منفعة يجنيها دون ندم ولا تحرج . . . ولكنها كتمت ألمها فى نفسها حتى سمعتُ بنبئها

فسعيت إليها لعلنى أستطيع تعزيتها فى مصابها فى بصرها . . . فما ضمتنى وإياها خلوة فى الحديقة ، والكل لاه عنا بشأنه ، حتى قالت لى :

— فى أى مصاب جئت لتعزيتى ؟ .

— فى مصابك فى بصرك . . .

— ألا ليت المصاب مصاب البصر !. فإن مصابى هو مصابى فى الدنيا جميعا ، فإننى قد فجعت فيها . . . ثم كشفت لى عن سريرتها ، وحدثتنى بالقصة كلها ، فما انتهت منها حتى أقبل كلبها العزيز وجلس تحت مقعدها هادئا ، فقالت لى صاحبتى : « لم يعد يخلص لى إلا هذا الكلب ، ولكن وفاءه وفاء اضطرار لا وفاء اختيار ، فالوفاء فى الكلاب غريزة . . . » .

وما أتمت كلمتها حتى خرج الكلب من تحت مقعدها وفى فمه قطعة من العظام كان قد دفنها تحت ذلك المقعد الذى تعود الجلوس تحته مع سيدته . . . وما التقم العظمة حتى أسرع مبتعدا ، فما به من حاجة إلى المكوث مع سيدة لم تعد تطعمه — لعماها — كسابق عهدها . . .

رأت صاحبتى وفهمت ، فاغرورقت عيناها بالدموع ، وقالت : « حتى أنت يا كلبى العزيز ؟ ! لقد غاض الوفاء حتى ممن يفون بالطبع والغريزة . . . فأقدس الذكريات لا تساوى عند الناس والحيوان أتفه المنافع وأوضع اللبانات ! . . ألا ما أسعد العميان ، وما أسعد الجهلاء الذين يسعدون ، لأنهم يُخدعون ولا يعرفون أنهم يُخدعون ! ألا ما أكيس المغفلين ، فهم — فى الحقيقة — العقلاء ، وإن كانوا عقلاء على الرغم منهم ! . . . »

انصرفت عنها ، وقد فشلت فى تعزيتها وفى محاولة كشف القناع عن خطتها حيال المستقبل ، ولكن فى الغداة جاءنى من قال لى : إن صاحبتى (العمياء) قامت أثناء الليل لتناول دواء تعودت تناوله فى مثل هـذا الوقت ، فأخطأت

— اماها — فأخذت قارورة أخرى شبيهة بها فيها سم زعاف ، فماتت لساعتها . . .

سألت نفسى وقد عرفت خاتمة القصة : أخطأ ما فعلت أم صواب ؟ فوجدت أنها فعلت ما كان لا بد لها أن تفعل بعد أن تعرض لها القدر[1] ، فما فى الحياة لمثلها من خير بعد أن عرفت حقيقتها . . . و بدون أن أشعر ، وجدت نفسى أتساءل : أمجنونة صاحبتى أم عاقلة ؟ . فإذا بى أسمع نفسى أجيب ، وكأن شخصاً غيرى هو الذى يتكلم : لقد كانت مجنونة جنون العقلاء ... وكان خيرا لها أن تكون عاقلة عقل المجانين ! ! ! .

(١) نحن لا نقر ما فعلته الفتاة ، فالفرار من الحياة وأحداثها عن طريق الانتحار هزيمة وانكسار ، ثم هو اعتداء على الحياة صنعة الله وهبة الخالق العظيم .

انطفأ النور . . فمات الحب[1]

« حينما تخرجت من إحدى كليات الجامعة منذ عشر سنوات كان الزواج أبعد خاطر يخطر ببالى . . وكان هدفى هو الدراسة ، والبحث للحصول على (الدكتوراه) . . ولكن الهدف ما لبث أن اختفى . . اختفى تماما حينما تعرفت إلى الفتاة التى أحببتها وتزوجت بها وما زلنا نعيش معا إلى اليوم . . . حياة زوجية عمرها عشر سنوات إلا بضعة أشهر .

والذى أنسانى أهدافى العلمية والبحوث التى طالما كانت نفسى تصبو إليها أثناء أن كنت طالبا بالجامعة ... الذى أنسانى هذه المتع الروحة كلها هو الحب . . الحب لا الزواج ، فقد كنت أرانى أعيش مع هذه الزوجة فى حياة غرامية ، أكثر من كونها حياة زوجية ، ولعلها كانت تعيش معى بذات الشعور والأحاسيس .

كانت الحياة كالحلم الناعم اللذيذ .. كانت عيوننا دائما وسنى ، لا ترى ما يزعجها من الواقع الذى يجرى حولنا فى الحياة . . وعشنا . . عشنا بعمق ، لم نعش على السطح دقيقة واحدة . كنا نتراشف كأس الحب طوال هذه السنوات فنثمل دائما ، وتتثاقل جفوننا دائما . كان الحب فى حياتنا كالمخدر القوى ، يسدل أجفاننا فى نشوة ، فلا نرى الحياة وما فيها إلا أطيافا . . أطيافا ترقص . . وتضحك وتغنى .

وفى منتصف عامى المشئوم — كما أسميه دائما — عام ١٩٥٤ ، أصبت فى حادث ، ثم انعدم عصب الإبصار ، وعميت . . عميت عيناى ، ولم تفلح جهود العلم فى الاحتفاظ لإحدى عينى ببصيص من النور أطل منه على هذه الحياة الجميلة . أو . . التى كانت جميلة . . لم أعد أرى وجه زوجتى الحبيبة . أعنى لم أعد أرى

---

(١) رسالة أملاها زوج مكفوف ، وأهداها الأستاذ محمد على وهبة إلى القارىء ليتأملها ويفكر فيها . عن جريدة القاهرة — ١٨ أغسطس سنة ١٩٥٧ .

وجه الحب . . وكم كنت أود أن يكون الحب قد اختفى فى داخل نفسى . . كنت أود أن يكون الحب قد اختفى فى داخل نفسى . . كنت أرجو لو أنه قد اتخذ له فى غور نفسى معزلا عن الحياة . . ولو أن هذا حدث ، لكان للحب إذن عذره فى عزلته واحتجابه ، لأنه فقد النافذة التى يطل منها دائما على هذه الحياة .. أغلق القدر النافذة . . أغلق عينى ، فلم يعد للحب سبيل للظهور . . وإلا فمن أين تطل علينا عاطفته ؟ . هل تطل من الأنف ؟ . هل تطل علينا من الأذن . . أو من الفم ؟ . العين . . والعين وحدها هى نافذة الحب ، نافذة العواطف جميعاً . . العواطف الجميلة الشاعرة . . نافذة الجمال . . العين التى أطفأ القدر فى حياتى نورها ، وأغلقها ، بل إنه دمرها وشوهها إلى الأبد .

نسيت أن أقول : إن يد القدر لعبت أيضا فى جانب من وجهى فشوهته .

هل الحادث شىء غير ما كونته يد القدر . . أو أحد أصابعه سامحه الله . . أعنى سامح الله القدر . . لأنه بالغ وأسرف فى إنفاذ مشيئة الله[1] وكان ممكنا أن ينفذها فى إطار من رحمته الواسعة .

. . قلت لك : كم كنت أرجو لو أن الحب بعد أن أصابنى العمى ، قد اتخذ معزله فى أغوار نفسى . . قلت لك هذا . . لأنى عرفت — والحسرة تمزق قلبى — أن الحب قد اعتزل حياتى . . . وعاش بعيداً .. بعيدا عن كيان رجل أعمى .

. . هذه الزوجة . . هذه الحبيبة جاملتنى ، أو بالأحرى جاملت عاطفتى قرابة عامين ، عاشت معى فى الظلام الذى أعيش فيه . . ذات الحب . . ذات القبل . . ذات اللهفة …

… وقلت لك إنها جاملتنى عاطفيا خلال هذين العامين … وربما أكون قد ظلمت شعورها إذا وصفت حبها الأخير بأنه مجاملة … ربما كان ذات الحب

(١) هكذا . . .

القديم .. حب عينى الواسعتين ... المشعتين ... وعينيها الساحرتين ... ربما كان هذا .

ولكن الذى حدث أخيرا يبعث فى نفسى الميل لأن أصف حبها للأعمى بأنه مجاملة . . وعلى أية حال فقد انتهت . . انتهت حتى المجاملة . و ... انتهت باكتشافى ذات صباح ... صباح من أصبحتكم أنتم ، لأننى لم يعد لى صباح ، فحياتى كلها مساء ... كلها ليل ... اكتشفت إعجابها بشاب من جيراننا المخالطين لنا ... أقول يا سيدى إعجابها ... لأننى لا أقوى على التعبير الثانى ... لا أحب أن يجرى على لسانى .

لقد كنت أنا فتاها .. وكانت فيما مضى ترفع بصرها إلى وجهى فى أوقات الصفاء — وما كان أكثرها! — وتقول فى إعجاب بالغ : أريد أن أضرب عينيك هاتين ، لأنهما هما اللتان تسحرانى وتستعبدان قلبى ... إنهما جبارتان ... ثم تقبلهما فى حرارة .

كنت ... وكانت هكذا ... واليوم ... كما قلت لك ... اكتشفت ... شيئاً ...

... يا رب . لماذا أكون ضعيفاً وجبانا ؟ لماذا لا أقول ما عرفته ؟ . . هل يجدى تجاهلى للواقع ؟ ... هل يمحو ما كتب القدر ؟ . . سأقول .

إننى اكتشفت حبا بين زوجة الأعمى وشاب مبصر العينين . . عرفت الحقيقة . . ووجمت . . لم أقل شيئا . . . لا تسألنى يا سيدى كيف عرفت . . ولكن قل لى . . كيف أفعل ؟ ... كيف أتصرف ؟ ... ولا تنس أننى قضيت هذه السنوات مع هذه الزوجة دون أن أعقب نسلا إلى اليوم .

.. أمن العقل أن أنازعها ما صبت إليه نفسها ، لأستبقى قلبها معى يعيش فى الظلام ؟ ...

وهل من الحكمة ، أو من الشجاعة والمروءة ، أن أظل أنا فى حياتها ؟
لماذا لا أذهب بعيدا ... بعيدا عن حياتها ؟.. إنها تريد رجلا يبصر جمالها ويراه..
كل ما فعلته أننى أمليت صديقى العزيز هذه الأسطر ، و بعثت بها إليك ».

* * *

وانتهت رسالة هذا الإنسان الشقى ، قرأتها ورأيت أنها أروع من كل ما يكتب عنها فقدمتها هدية لك . . لكل من قرأها . . إنها هدية حزينة . . واجمة مبكية . . ولكن لكل شىء جماله . . حتى المآسى ، فقد يكون فيها من عنف العاطفة المرسومة ما يبلغ من القلب مبلغ الجمال والفن . . وفيها من العظة والاستعبار ما ينفع الآخرين .

. . ولست أجد ما أقوله لهذا المسكين ، غير أنه قد توهم فى رسالته أنه يتحدث عن امرأته . . وهذا وهم . . إنه — فى الواقع — تحدث عن المرأة .

إن الزوجة التى من طراز زوجة النبى أيوب التى كان حبها له واعتزازها بالحياة معه يزداد بازدياد علته وأمراضه سنين طويلة . . هذا الطراز من الزوجات لم يعد له مكان فى عالمنا . . اللهم إلا فى النادر الذى لا يمكن القياس عليه .

الأعمى[1]

كانت زوجته تقول له أحيانا :

— إن انتهى بك الأمر إلى العمى ، فلن أطيق الحياة وأنا أراك تتحسس طريقك ،وتتعثر رجلاك و يداك بالأشياء ... إنها لصورة قاتمة ، خير لنا عندها أن نقتل نفسينا بيدينا ...

هذا أولى بنا من المضى فى حياة تزداد تعاسة وفقراً يوما بعد يوم .

وكان يقابل كلامها بالابتسام ، و يتصنّع المزاح ، و إن كان واثقا كل الثقة أنها جادة فيما تقول ... وذات يوم قال لها :

— خطرت لى وأنا فى الفراش ليلة أمس فكرة ... ليس أمامى وقت أتعلم فيه الموسيقى بحيث أستطيع تدريسها لنعيش من هذه المهنة ، ولكن ما رأيك فى القصص البوليسية ؟ سأحاول أن أبتدع قصة من هذا النوع ، أمليها عليك ..

وحاولت أن تتمثله كاتباً أعمى ، وقد ترهل جسمه لطول قعوده فى البيت ، وشحب لونه لحرمانه من أشعة الشمس ، وعيناه المظلمتان تحملقان فى ظلام من فوقه ظلام ، ورأت أن التفكير فى القصص البوليسية تفكير مظلم أسود ، يملأ ظلام حياته بالدماء والقتل والخناجر والمطاردات والأحقاد . أجل ، إنه لن يرى شيئاً فى ظلمات حياته سوى ذلك ، ولكن يا له من عالم أشد حلكة من واقع عالمه الحالك .

وتملكتها قشعريرة ، وقالت له فى ذعر :

— كلا ! كلا ! الموت خير من هذا وأولى ...

وابتسم ابتسامة وادعة من تحت أربطة عينيه ...

---

(١) قصة الأديب اليابانى ايشكاوا ، ترجمها الأستاذ نظمى لوقا ، ونشرتها مجلة (العربى) العدد الثالث .

لم يكن واثقاً أنه سينتهي إلى العمى ، وإن كان أمله فى الإبصار ضعيفاً . فالطبيب يقول إن القرنية بهـا جراح ربما التأمت فيرى ، أو لا تلتئم فيصاب بالعمى ، وظل يقضى وقته إلى جوار المذياع يستمع إليه ، وتقرأ له زوجته الصحف فى الصباح والمساء ، وحين تخلد الإذاعة الصمت يخلد هو إلى التفـكير فيما عساه أن يصنعه حين يصاب بالعمى كاملا .

أجل إنه رأى المرة بعد المرة أن ينتحر كما اقترحت زوجته ، رأى ذلك كلما فـكر فأعيته الحيلة فيما يصنعه لـكسب قوتهما ، ولـكن بمرور الوقت هدأت نفسه ، وثاب إلى شىء من الجمود الفـكرى ، اعتقاداً منه أن العناية الإلهية لن تتخلى عنه ، وأنها سوف تدبر لهما معاشهما لو أصبح عماه أمراً محققاً ، ورأى أن التفـكير فيما يصنع قبل وقوع الواقعة لن يفيد منه إلا الشقاء .

كان يأكل كأنه الطفل ، وزوجته جالسة أمامه ترقب حبات الأرز تتناثر من يده وفمه ، فتنحنى وتجمعها فى الطبق ، وتزجره قائلة :

— ألم تتعلم إلى يومنا هذا كيف ينبغى أن تأكل ؟ ! ...

وكان لا يجيبها ، لأنه لم يكن قد تعود العمى . كان الطعام ، يتناوله بنفسه ، أشق شىء عليه . وبدأ يشعر بأن زوجته تبتعد عنه بروحها أكثر من ذى قبل ، فاستوحش . إن إحساسه بالحاجة إلى قربها كان يشتد كلما ألحت عليه المحنة . نعم ، كانت الهوة قائمة بينهما دائما ، ولـكنه لم يشعر بها حينما كان صحيحاً معافى قادراً على نيل ما يريد . حقاً إن العافية تطمس البصيرة ... !

كانت تقوده من كمه كل يوم إلى الشارع ، وتضعه فى عربة ، وتذهب به إلى الطبيب ، وكانت لهجة الطبيب تغيض منها الثقة يوما بعد يوم ، إلى أن تملَّك المسكينة اليأس .

وفى كل يوم ، وهى تتأهب للخروج معه ، كانت تتردد فى تزيين وجهها ، وتتساءل : هل يليق بها أن تضع المساحيق على وجهها وزوجها أعمى ؟ أللآخرين

تتزين ؟ . ولكنها مع هذا كانت تضع المساحيق آخر الأمر ، وتخرج معه وهى متمردة ساخطة ! ...

وكثيراً ما كانت تجلس فى البيت بجواره ، وتمس ركبتها ركبته ، ثم تفتح يدها فجأة فى وجهه ،وتصيح به :

— هل ترى يدى ؟ .

— هناك شىء ما ...

— كم إصبعا ترى ؟ .

ويسكت . فتقرب يدها ، وهو لا يرى من الأصابع الثلاث شيئاً ... إلى أن تمس بها أنفه ... !

وعندئذ يتملكه اليأس ، وينطرح على ظهره ويقول لها :

— أعدّى الفراش من فضلك ...

— أتشعر بالنعاس ؟ ...

— لا ، ولكن ما جدوى الجلوس ؟ وما جدوى اليقظة ؟ ...

ونظرت تلك الليلة إلى وجهه ، فرأت لحيته نمت نمواً كبيراً ؛ فقامت وسخنت ماء ، ووقفت وراءه ،وحلقت له لحيته حلاقة غير متقنة قبل أن ترقد بجواره.

ومع الصباح أشرق فى نفسه نور الأمل . الأمل فى أن عناية الله لن تخذله . فأقبل على آنيات فى المطبخ مختلفة الأحجام ، فنسقها أمامه ، وبخيزرانة صغيرة راح ينقرها على التوالى ، وهو واثق أنه سينتهى بتلك الطريقة إلى عزف مقطوعات موسيقية ، كمعزوفات البيانو تماما .

ووقفت هى فى دفء الشمس تنظر إلى إصراره العنيف ، فأوشكت أن تحس بمثل إحساسه . أوشكت أن تحس بأنها لو أصيبت مثله بالعمى ، فقد تنبعث فيها حياة جديدة مثل هذه ، حياة مرهفة ، عميقة الغور عنيفة ، فيها صفاء الهدوء فى عالم متحرر من قيود اللون والشكل .

كانت تغمض عينيها طويلا ، لتشعر بعالم غريب غامض ينبعث أمامها ، وهى راقدة بجواره ، بعد أن يكون قد استسلم للنوم .

وذات صباح قال لها إن الأمر قد تم ، وإنه لم يعد يرى شيئاً إطلاقا . ونظرت فى عينيه فوجدتهما بيضاوين . .

ذعرت ، ودست وجهها فى صدره ، وبكت بهدوء وسكون . إن أفكارها لم تكن متمردة هذه المرة ، ولم تحم حول الموت ، وقتل نفسها بيدها ، كلا . فلقد تعلمت ، وقد وقع العمى وتم ؛ إن العمى ليس بالطامة الكبرى من جميع وجوهه ، وإن زوجها الآن — وقد احتاج إليها كل الحاجة — صار أقرب إليها وألصق بها مما كان .

وما لبثت أن هدأت ، ووضعت كفيها على خديه فى ملاطفة له وإعزاز ، ووجدت من ذلك لذة جديدة دخيلة .

لذة أداء واجب تفرضه عليها الأقدار !! .

قصائد في المكفوفين

العميان (1)

رحم الله العماد الأصفهاني الأديب العربي المشهور ، فقديما قال :

« إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده : لو غُيِّر هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يُستحسن ، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل ، ولو تُرك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر » ! ..

لقد ختمتُ كتابي (في عالم المكفوفين) بملحق كبير جمعت فيه ما وقع لي من قصائد الشعراء القدامى والمحدثين الذين نظموا شعرا في المكفوفين ، وطالعت من أجل ذلك مئات من الدواوين ، حتى استخلصت منها قصائد للشعراء : أحمد شوقي ، وحافظ إبراهيم ، وفخري أبي السعود ، وعلي محمود طه ، والبهاء زهير ، وولي الدين يكن ، وجبران خليل جبران ، وعلي الجارم ، وعلي الجندي ، وأحمد فتحي مرسي ، وأحمد الصافي النجفي ، وشبلي ملاط ، وغنطوس الراعي ، وكيبر ، وشفيق المعلوف ، وميخائيل نعيمة ، ولسان الدين بن الخطيب ، وغيرهم (2) .

ومع طول الجهد فاتتني قصائد قديمة وحديثة ، واطلعت على هذه القصائد بعد طبع الكتاب ، ومن بين هذه القصائد قصيدة للشاعر المعروف إيليا أبي ماضي في ديوانه (الجداول) وقد جعل عنوانها : (العميان) ، ومن العجيب أنني قد

---

(1) نشرتها بمجلة (منبر الشرق) — ٣٠ مارس سنة ١٩٥٦ م .

(2) ذكرت هناك اثنتين وعشرين قصيدة وقطعة ، انظر كتاب (في عالم المكفوفين) المجلد الأول ، من ص ٣٥٠ إلى ص ٣٧٧ .

نقلت بخطى ديوان (الجداول) وأنا طالب بكلية اللغة العربية — حرسها الله معقلا للغة القرآن وأدب العرب — لإعجابى به ولندرة نسخه ، وكان ذلك منذ أكثر من خمسة عشر عاما ، وحفظت الكثير من شعر الديوان ، ولعل قصيدة (العميان) هذه كانت مما حفظته ، ولكن الإنسان سريع النسيان ، والذاكرة أصبحت كالغربال الذى تتسع خروقه بمضى الأيام ومرور الليالى ، وبخاصة بعد أن تكسرت النصال على النصال ؛ وأصبحت الحياة ذات أثقال وأحمال[1] .

وها أنذا أثبت هذه القصيدة هنا ، لنضمها إلى مجموعة القصائد الواردة بكتاب (فى عالم المكفوفين) :

كم خفضنا الجباهَ للجاهلينا وعذرناهمُ فما عذرونا

خبِّروهم يا أيها العاقلونا إنما نحن معشر الشعراء

يتجلى سر النبوة فينا !

ذكِّروهم فرُبَّ خير كبيرِ فعلته الهداةُ بالتذكير

إنما الناس من تراب ونور فبنو النور يعبدون النورا

وبنو الطين يعبدون الطينا

قيل عنا : قصورُنا من هباء تتلاشى فى ضحوة ومساء

أو سطورٌ بالماء فوق الماء لو سكنتم قصورَنا بعضَ ساعة

لنسيتم شهورَكم والسنينا

لو دخلتم هياكل الإلهامِ وسرحتم فى عالم الأحلام

(١) انظر صفحة ٢٨٩ من هذا الكتاب .

واجتليتم سرَّ الخيال السامى وعرفتم — كما عرفنا — الله

لخررتم أمامه ساجدينا !

* * *

قد سقتنا الحياةُ كأساً دِهاقا حسنت نكهةً ، وطابت مَذاقا

وسقينا ممـا شربنا الرِّفاقا فتركناهمُ حيارى سكارى

يتمنون أنهم لا يَـعُونا

همكم فى السكؤوس والأكوابِ آه لو كان همكم فى الشراب

لطرحتم عنكم قيودَ السراب وشعرتم بلذةٍ أو عذاب

هذه الخمر . . . ليتكم تشربونا !

أتقولون : إنه مجنونُ ؟ ! أتقولون : إنه مفتون ؟ !

أتقولون : شاعرٌ مسكين ؟ ! كم مليك ، كم قائد ، كم وزير

وَدَّ لو كان شاعرا مجنونا !

عاش (ملتن) فلم يكن مذكوزا وهوميروس (كالشيخ) كان ضريرا

ولقد مات (ابن برد) فقيرا أرأيتم كما رأى العميان !

أفَـلْستم بنورهم تهتدونا ؟!

وإيليا يشير فى المقطع الأخير إلى الشاعر الإنجليزى (ملتون)، والشاعر الإغريقى (هوميروس) ، والشاعرين العربيين (الشيخ أبى العلاء المعرى) ، (وبشار بن برد) .

إلى عازف أعمى [1]

.. وهذه قصيدة ثانية من قصائد الشعراء في المكفوفين ، وهى للشاعر الشاب الذى اختطفه الموت وهو فى ربيع حياته : أبو القاسم الشابى ، وقد جعل عنوانها : (إلى عازف أعمى) ، ونُشرت هذه القصيدة فى ديوان الشابى المسمى (أغاريد الحياة) الذى طبعته دار مصر للطباعة سنة ١٩٥٥ م ، ونجد القصيدة فى الصفحة الثامنة والسبعين من الديوان ، ومعها رسم لشخص مكفوف ينفخ فى الناى ، وقد بدا عليه الشقاء والبلاء .

ونثبت القصيدة فيما يلى لتضم إلى مجموعة القصائد التى جمعتها فى كتابى (فى عالم المكفوفين) ، ونرجو من القراء الأدباء الذين يعثرون على قصائد قديمة أو حديثة قيلت فى المكفوفين غير الذى أنشره هنا ، وغير الذى نشرته من قبل بكتاب : (فى عالم المكفوفين) أن يتفضلوا بلفت نظرى إليه ، حتى نجمع أكبر قدر ممكن من القصائد التى قيلت فى هذا المجال قديماً أو حديثاً .

قال الشاعر المرحوم أبو القاسم الشابى فى قصيدته :

أدركتَ فجرَ الحياة أعمى ... وكنتَ لا تعرفُ الظلامْ

فأطبقتْ حولك الدياجى ... وغامَ من فوقك الغمام

وعشتَ فى وحشةٍ تقاسى ... خواطراً كلها ضرام

وغربةً ما بها رفيق ... وظلمةً ما لها ختام

تشق تيهَ الوجودِ فرداً ... قد عضَّك الفقرُ والسقام

وطاردت نفسَك المآسى ... وفرَّ من قلبك السلام

* * *

(١) نشرتها فى مجلة (منبر الشرق) — ٦ ابريل سنة ١٩٥٦ م .

هوّن على قلبك المعنّى إن كنتَ لا تبصر النجوم
ولا ترى الغابَ وهو يلغو وفوقه تخطر الغيوم
ولا ترى الجدولَ المغنّى وحولَه يرقص الغميم
فكلُّنا بائسٌ جدير برأفةِ الخالق العظيم
وكلنا فى الحياة أعمى يسوقه زعزعٌ عقيم
وحوله تزعق المنايا كأنها جِنّة الجحيم

* * *

ياصاح ، إن الحياةَ قفرٌ مروِّع ، ماؤه سرابٌ
لا يجتنى الطرف منه إلا عواصفَ الشوك والتراب
وأسعدُ الناس فيه أعمى لا يبصر الهولَ والمصاب
ولا يرى أنفسَ البرايا تذوب فى وقدة العذاب
فاحمد إلهَ الحياة واقنع فيها بألحانك العِذَاب
وعشْ كما شاءت الليالى من آهة الناى والرباب

* * *

ونحن نلاحظ أن الشاعر قد عُنى أولا بتجسيم ما يعيش فيه ذلك العازف المكفوف من هموم وغيوم ، فذكر الوحشة ،والغربة ، والظلمة ، والوحدة،والفقر والسقم ، والقلق ، وقد يوجد من يؤاخذ الشاعر على مثل هذا المسلك ، إذ من الواجب علينا ألا نشعر المكفوف بمثل هذا ، حتى لا يتطرق الضعف أو اليأس إلى قلبه وعزيمته ، بل علينا أن نبعث فيه حوافزَ العمل والسير ومواصلة الإنتاج .

ولـكن الشابى قد اتخذ من هـذا التجسيم وسيلة إلى الانتقال بالمكفوف من دائرة هذه المصائب إلى دائرة التهوين عليه والتخفيف من بلواه والمواساة له : « فـكلنا بائس » و « كلنا فى الحياة أعمى » ، وهذا التعبير يذكرنا بأول البحوث فى كتاب (فى عالم المـكفوفين) من ص ٩ إلى ص ١٥ .

وكنت أحب للشابى ألا يستعمل كلمة (الأعمى) أو ألا يكثر من ذكرها ، ولـكنه ذكرها فى عنوان القصيدة ، وكررها فى قطعته التى لم تبلغ عشرين بيتا ، وقد دعوت منذ زمن بعيد إلى عدم استعمال كلمة (الأعمى) بصفة مستمرة ، لأن أشقاءنا المـكفوفين يتضايقون — غالبا — من هذا اللفظ ، ودعوت إلى استعمال كلمة (المـكفوف) فى هذا المجال ، وبسطت هذا الموضوع فى بحث (المـكفوف فى نظر الإسلام) من ص ١٨ إلى ص ٢٢ من المرجع المذكور .

قيمـــة البصر (١)

كان الشاعر الـكبير الأستاذ محمد الأسمر ، قد أصيب منذ سنوات بمرض فى عينيه يسمى (المية الزرقا) ، وجنى عليه هذا المرض فأفقده ضوء عينه اليمنى ، وسارع الشاعر إلى الدكتور محمود عبد الحميد عطية ، طبيب العيون ، فأجرى له عملية (الأغلوقوما) فأنقذ العين اليسرى التى كانت مهددة بذهاب إبصارها ، وأثناء العملية لبث الشاعر مدة لا يبصر فيها شيئا ، وبعد نجاح العملية حيّى الشاعر صديقَه الطبيب بأبيات فيها ذكر العين والبصر وما لهما من قيمة ، قال :

كـفُّ محمودٍ وما أبـ رعها ، نفسى فداها
ياله من عبقرى شـقّ عينى ورَفاها
شقها شقّاً رفيقا وجَلا عنها أذاها

(١) نشرتها بمجلة (منبر الشرق) — ١٣ إبريل سنة ١٩٥٦

فهو باسم الله والإخـ ـلاص للعلم شفاها
ما تألمتُ ولا قلـ ـت من المبضع : آها
كفُّه نسمةُ روض وهو أخـلاقا شذاها
لا صداعَ اليوم ، لاها لات زرقاء أراها
كف (محمود) دواءُ الـ ـعين إن عزَّ دواها

ثم أراد الشاعر الموهوب أن يصور قيمة العين ، وأن يرسم لوحة جامعة رائعة لجلال المرئيات ، وأن يبين ما يضيع على الغافل أو المحروم من البصر من مشاهد الفتنة والجمال فى هذا الكون العريض الوسيع ، فصاغ قصيدة جعل عنوانها (دنيا المرئيات) ونشرها فى ديوانه ، ص ٥٤٨ ، وأهداها إلى صديقه الطبيب السابق ذكره . وفى هذه القصيدة يقول :

يارب أبق الذى أبقيتَ من بصرى
حتى أرى حسنَ ما أبدعتَ فى الصورِ

من كلِّ شكل ولون ، فى جمالهما ما فيه من بهجة للنفس والنظر
ما أجمل العالم العلوى من سحب ومن نجوم ، ومن شمس ، ومن قمر
وأجمل الأرض من سهل ، ومن جبل ومن رواب ، ومن بحر ومن نهر
فى كل شىء جمالٌ حين تنظره حتى الدياجى بها شىء من الحوَر
حتى القرود فما تخـفى ملاحتها حتى الكواسر من ليث ومن نمر
يكفيك من رؤية الأشياء رؤيتها ولو نظرت إلى أفعى على حجر
فكيف بالكون يصحو بعد رقدته وقد تبسمت الأضواء فى السحر
وكيف بالشمس وافت بابَ مشرقها وحين تطلع منه طلعة الحذر
وكيف بالليل يسرى فى مواكبه نجومه حوله وضاحة الغُرر
وبالأهـلة لاحت فى مطالعها كأنها بسماتُ الكون للبشر
وبالرياض وقد أنجمن بالزهر وبالغصون وقد أنهدن بالثمر

وبالطيوان إذا ما حلّقت فسمت أو حوّمت فهوت تأوى إلى الشجر
وكيف بالصحب أو بالأهل تنظرهم أو البنين وقد أقبلتَ من سفر ؟
ورؤية الظرفاء الأوفياء إذا جالوا مجالهمُ في اللهو والسمر
وبالغوانى وما يخلعن من فتن وبالعذارى وما يلبسن من خفر
وبالعيون ، فكم جفن تكسّره مجرد لحسام غير منكسر
وبالشفاه تراها فى تلهبها تفترّ جمرتها عن سائغ خصر
وكيف بالصحف تتلوها وتكتبها وربّ دنيا حوتها الكتبُ فى السطر
وكم على الشاشة البيضاء من عجب شتى الأفانين فى شتى من الصور
وفى المسارح ما فيها لرائدها من كل فصل بروض الفن مزدهر
هذا ، وكم عجب للفن فى الصور وفى التماثيل ، حتى الوشى بالإبر
هذا إلى غير هذا لست أذكره وكيف حصرىَ ما يُفضى إلى الحصر
دنيا الجمال اختفت عن كف لامسها وسمعه ، فهى غير اللمس والخبر
دنيا الجمال يراها من له بصر فإن يزل زالت الدنيا على الأثر
وارحمتاه (لمحمود) وحادثه فى فقد عينيه ، لا أحداثه الأخر
النفى والحبس هانا يوم حل به فى النفى والحبس خطب غير منتظر
لهفا على الطائر الغرّيد حين هوى يغوص فى بحر ليل غير منحسر
ليس العمى فى الصبا ، والعين ما نظرت شيئاً ، كمثل العمى يأتى على الكبر

* * *

هذا وكم منن لله فى محن وكم جنى النفعَ جانيه من الضرر
ورب أعمى أراه لحظُ خاطره ما غاب عن مُدرك الأشياء بالبصر
(أبو العلاء) و (طه) كشّفت لهما نفساهما عن دياجى كل مستتر
قل لليمامة : لا (الزرقاء) مثلهما ولا سواها غداةَ البحث والنظر
فالحمد لله حمدَ المطمئن له : فما أبالى وإن رُوّعتُ بالنذر

أراح نفسى : إيمانى بخالقها ثم الرضا بقضاء الله والقدر !

وتظهر صلة هذه القصيدة بمجموعة قصائد الشعراء المثبتة فى كتاب (فى عالم المكفوفين) من أبياتها الأخيرة التى تبتدى بقوله : « وا رحمتاه » ، وإن كانت القصيدة فى مجموعها لا تبعد عن عالم المكفوفين ، لأنها حديث شاعر عن العين والبصر والحرمان من الإبصار ، والشاعر يقصد (بمحمود) الشاعر المصرى الكبير محمود سامى البارودى ، الذى نفى من وطنه مصر ، وأصابه كف البصر فى أخريات أيامه ، ويقصد (بأبى العلاء) أبا العلاء المعرى ، و (بطه) الدكتور طه حسين .

وسنوالى نشر ما تقع عليه يدنا من قصائد فى هذا الباب ، لنضمها إلى المجموعة المنشورة بكتاب (فى عالم المكفوفين) . فإلى لقاء قريب .

الشاعر الأعمى (١)

... وهذه قصيدة للكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد ، وهى منشورة فى (ديوان العقاد) فى الصفحة التاسعة والعشرين من الجزء الأول ، وقد جعلها صاحبها بعنوان (الشاعر الأعمى) ، وهو يتحدث فيها عن شاعر كُفّ بصره ، فحيل بينه و بين التطلع إلى مشاهد الكون ومناظر الطبيعة ، يقول :

شكا الشاعرُ الباكى عمىً قد أصابه
وأظلم ما نال الورى جفن شاعرِ

ينوح بعين لم يدع عندها البلى
سوى نبعِ حزنٍ ناضبِ الماء غائرِ

وتلحظ عينُ الشمسِ شزرا جبينه
فيطرق إغضاءً بمقلةِ حاسرِ

(١) نشرتها فى مجلة (منبر الشرق) — ٤ مايو سنة ١٩٥٦ .

ويسألهم : هل أومض البرقُ فى الدجى
وهــل طلعت فيه وجوهُ الزواهر ؟

وهل يلمع الدرُّ المنضَّـــد والحلى
على الغيد ، أم بات الحصى كالجواهر ؟

تــكاد تشق الأفقَ زفرةُ صدره
إذا راح يلحاه بصيحــة حائر

تجـــود لعين الذئب يا أفقُ بالسنا
ليهـــديه فى فتـكِهِ بالجــآذر

وترميه فى بئر عميــقٍ قرارُها
وتسفــكه فوق البطـــاح الغوامر

وتسلبنى نوراً أراك بوحيـــه
فأظهر ما أخفى سوادُ الدياجر

وأرجعه معنى على الطرس مشرقا   يضىء سناه مظلماتِ السرائر

لمن تجمل الأكوانُ إن كان لا يرى
بدائعَـها عينٌ ترى كلَّ باهر ؟!

فما كانت الدنيا سوى حسن منظر
وما جاد فيها الحظ إلا لناظر

وهل كنت أخشى الموت إلا لأنه
سيحجب عنى حسنَ تلك المناظر ؟!

فها أنا ، لاجهد الحياة بهاجرى   أمينا ، ولا ريب المنون بزائرى

جمعت شقاءَ العيش فى ظلمة الردى
فيالى من ميتٍ شقى الخواطر

أرى الصبحَ وهاجا بمقلة نائم ... ويلحظه قلبى بحسرةِ ساهر

ومن لىَ إلى هذا الوجود بلمحة ... أراه ولم يعم الترابُ بصائرى؟

فياقلب أنفق من ضيائك ، واحتسب ... لدى الشمس لألاء الوجوه النواضر

والقصيدة — كما ترى — تظهر فيها صبغة التشاؤم ، بينما نحن نريد أن نخفف عن المكفوف لا أن نزيد فى بلواه ، وقد تحدثتُ عن ذلك بتوسع فى باب (واجبنا نحو المكفوفين) من كتاب (فى عالم المكفوفين[1]) . ونحن نسائل الشاعر الجليل : لماذا هذا الحديث المؤلم الموجع عن نكبة المكفوف فى بصره ، والإشارة إلى أن ضياع بصر المرء الشاعر هو نهاية الظلم فى هذا الوجود ، وأن زفرة صدره تشق الأفق ، وأنه يطرق مغضيا حسيرا كسيرا .. إلخ ؟!! .

قد يكون هذا حقا وواقعا ، ولكن الشاعر صاحب الفن الجميل من وظيفته أن يجمِّل ويخفف ، ويوجه ويحرض .. وليس كل حق يقال ، كما أنه ليس كل واقع يحسن أن نتحدث عنه أو نجسمه .

ثم لماذا هذه المقارنة التشاؤمية بين الذئب المبصر للفتك بالجآذر والمكفوف الذى كان يستطيع — لو أبصر — أن يكشف أسرار الحياة ، ويضىء السرائر بسناه ؟؟ .. ويزيد الشاعر فى تجسيم نكبة المكفوف ، فيخبرنا عنه بأنه قد جمع شقاء العيش فى ظلمة الردى ، وأنه يقضى أيامه ميتا بين الأحياء ... إلخ .

ولولا هذا البيت الأخير فى القطعة وهو :

فياقلب أنفق من ضيائك ، واحتسب ... لدى الشمس لألاء الوجوه النواضر

لبلغ السيل الزبى كما قال الأوائل ! ...

---

(١) انظر المجلد الأول ، ص ٣٩ — ٧٥ .

ثم كلمة (الأعمى) هذه التى جاءت فى العنوان ، وتكررت فى القطعة وهى لم تبلغ عشرين بيتا ... ليت الشاعر قلل منها أو تجنبها واستعمل بدلها كلمة (المكفوف) ، فهى أخف الكلمات وقعا على سمع المكفوف كما شرحت ذلك مرارا .

نريد أن نتحدث عن المكفوفين و إلى المكفوفين حديث التشجيع والدفع والتوجيه ، وأن نشعرهم دائما بأنهم لم يفقدوا كل شىء بفقد أبصارهم ، بل مازالوا قادرين على الكثير بفضل ما أبقى الله لهم من مواهب وملكات .

فى الصحة والمرض

وقد نشرت مجلة (صوت الشرق) فى عددها الصادر فى يونيه سنة ١٩٥٧ مقالا للأستاذ الكبير العقاد تحت عنوان : (من خواطرى بين الصحة والمرض) أشار فيه الى القصيدة السابقة ، ونورده فيما يلى :

فى ديوانى الأول قصيدة بعنوان (الشاعر الأعمى) أقول فى مطلعها :

شكا الشاعر الباكى عمى قد أصابه   وأظلم ما نال العمى جفن شاعر

ومنها أبيات يصرخ فيها الشاعر سائلا :

لمن تجمل الأكوان إن كان لا يرى   بدائعها عين ترى كل باهر ؟

فما كانت الدنيا سوى حسن منظر   وما جاد فيها الحظ إلا لناظرى

وهل كنت أخشى الموت إلا لأنه   سيحجب عنى حسن تلك المناظر !

ثم ينعى الشاعر قسمته فى الحياة فيقول :

جمعت شقاء العيش فى ظلمة الردى   فيالى من ميت شقى الخواطر

أرى الصبح وهاجا بمقلة نائم   و يلحظه قلبى بحسرة ساهر

فمن لى إلى هذا الوجود بنظرة   أراه ولم يعم التراب بصائرى ؟ !

إلى أن يقول متأسيا بنور البصيرة عن نور البصر :

فياقلب أنفق من ضيائك واحتسب   لدى الشمس لألاء الوجوه النواضر

* * *

قصيدة لا شك كان لها باعثها كغيرها من القصائد التى ينظمهاالشعراء بوحى من خاطر نفسانى أو حادثة عارضة . فما هو الخاطر النفسانى هنا ؟ أو ما هى الحادثة العارضة ؟ . . .

هل كنت أحس فى صباى ضعفا فى النظر بعث فى نفسىالإشفاق من فقدانه والمصير إلى مثل ذلك الظلام الذى شكاه الشاعر المنكود فى بلواه ؟ .

ذلك أقرب ما يرد على الخاطر فى تفسير باعث القصيدة ، ولكنه على قربه بعيد من الواقع ؛ لأننى كنت أيام نظم الديوان الأول على أقوى ما يكون الإنسان بصرا فى صباه ، وكنت — بالإيجاز — أستطيع أن أقرأ الصحيفة على نور القمر تحت قبة السماء .

ومن الجائز أننى كنت لا أعرف هذه القوة فى بصرى ، وأننى كنت أكبر وأجاوز الشباب والكهولة ، ولا أدرى مبلغ بصرى من القوة ، كما يتفق كثيرا أن يجهل الإنسان ما يألفه من قوته و يحسبه من المألوفات التى لا غرابة فيها ، ولم يكن هنالك ما يدعونى إلى القراءة على نور القمر ، لأن المصابيح أوفر من أن تفتقد فى مدينة كبيرة أو صغيرة ، ولكننى أعلم الآن أننى استطعت أن أقرأ على نور القمر ، وأذكر ذلك جيدا ، لأننى حين اضطررت إلى هذه القراءة مرة واحدة كان ذلك مقرونا بمناسبات متشابكة جامعة بين الجد والفكاهة ، و بين ذكريات الأسرة والموطن وغرائب الروايات والتقاليد المتواترة فى الريف . فليس فى وسعى أن أنساها بعد حين ، ولا أزال أذكرها اليوم كأنها قد حدثت قبل يوم أو يومين ولم تمض عليها — كما مضى فعلا — أربعون سنة أو تزيد . . .

فى جوار أسوان — بلدتى — ضاحية صغيرة جميلة على مسافة محطة قصيرة منها ، أهلهامن أقدرخلق الله على التشبيه المحكم ، أوعلى الإصابة بالعين كما اشتهروا فى الإقليم كله ، ويقال عنهم إن أحدا منهم لا يملأ عينيه من الشىء إلا قضى عليه ، وأصابه بما يعطبه أو يضره لساعته ، وآية امتلاء العين من الشىء المنظور عندهم أنها تستوعبه بالتشبيه المحكم فلا تعدو صفة من صفاته . .

فالتشبيه المحكم والإصابة القاتلة فى عرف القوم مترادفان .

قالوا : إن أحدهم نظر إلى بستان من التين فصاح إعجابا بثمراته المتفتحة : ما هذا التين الذى يحكى خياشيم السمك ؟ ! .

وقالوا : إن أحدهم رأى رهوانا محلى السرج واللجام بالألوان المختلفة ، فصاح قائلا : أتراه يحمل بيارق الأحمدية ؟ ! . . يعنى طريقة من الطرق الصوفية تسمى بالطريقة الأحمدية ، ويحمل أتباعها الرايات المتعددة بمختلف الألوان .

وقالوا : إن أحدهم نظر إلى ساقية بخارية فقال : إنها تبلع البحر بحوته!.

وقالوا غير ذلك كثيرا من أمثال هذه التشبيهات ، ولم ينسوا مرة من المرات أن يردفوا التشبيه بذكر العاقبة التى تلحق به على الأثر ، وهى التلف والبوار . .

وكان فى هذه الضاحية عرس نعرف أصحابه ، وذهبنا نشترك فى إحياء العرس ، فمر القطار بالصحف قبل وصوله إلى أسوان ، وجاءتنا الصحيفة فطويناها حتى خرجنا من الدار نتنسم الهواء فوق كثيب من الرمال البيضاء ، وفتحت الصحيفة على غير التفات منى إلى الخطر المزعوم من وراء هذه المجازفة . . وإذا بزميلى يختطفها من يدى على عجل ويصيح بى : « ويحك ! أتريد أن تعمى ؟ ألا تعرف أين أنت ؟ أهنا مكان تقرأ فيه الصحيفة على نور القمر وتسلم من العاقبة ؟ ! » .

حادث بطرائفه ومناسباته لا ينسى ، فليس فى وسعى إذن أن أجهل أننى كنت على قوة مبصرة خارقة فيما بين الخامسة عشرة والثلاثين ، وليس الباعث

على نظم القصيدة — قصيدة الشاعر الأعمى — أننى أشفقت من مصير كذلك المصير الذى وصفته بتلك الأبيات .

أما الباعث فى الواقع فلا أعرفه على التحقيق ، ولكننى أظن ظنا أنه يرجع إلى مطالعاتى فى تلك الفترة ، وأكثر ما كنت أطالع يومئذ شعر أبى العلاء ، وشعر ملتون فى قصيدة الفردوس المفقود ، ولعلى قرأت يومئذ لأول مرة قصيدة الشاعر المحدث الضرير فرنسيس فتح الله مراش التى يقول فى مطلعها :

عاد عندك يا زمان بعادى خطب تعاندنى به وتعادى

ويقول منها :

وبدا النهار لكل عين أبيضا ولأعينى متوشحا بسواد

وليست هى على طائل من جودة الشعر ، ولكنها على ضعفها معبرة عن شعور صحيح .

ومضت الأيام والسنون ، وجاوزت الأربعين ، فسمعت عن تقاليدها المرعية بين أصحاب النظارات ، وعملت بتلك التقاليد على غير اضطرار فى مبدأ الأمر ، لأنى كنت أستطيع القراءة نهارا وليلا بعد الأربعين ، ولكننى أردت المزيد من الوقت فى مطالعاتى الليلية ، فصنعت النظارة بين الخامسة والأربعين والخمسين ، ولم أستخدمها إلا قليلا جدا فى ذلك الحين .

ثم شعرت فى السنوات الأخيرة بالحاجة إليها تزداد على ممر الأشهر ، ولا أقول على ممر الأعوام ، وكدت أنسى قصيدة الشاعر الأعمى فى الديوان الأول بعدما نظمته من قصائد الدواوين المتوالية ، فإذا بهذه القصيدة أثبت القصائد فى ذاكرتى خلال السنتين الأخيرتين . .

« عملية جراحية » وإلا فلا نظر ! .

. . وهانت العملية والعمليات مع هذه العاقبة المحذورة التى يهون معها فقد الحياة . .

وتمت العملية بسلام ، ودخلت فى ظلام الغماء راضيا به مغتبطا بسواده المحتوم، لأنه الليل الذى يُطلع فجر الضياء .

وتشاء المقادير أننى أضع الغشاء على عينى فى صبيحة اليوم الذى أظلمت بعده سماء مصر الجديدة حيث أقيم ، لأننى أجريت العملية فى أواخر شهر أكتوبر ، وفى تلك الأيام منيت مصر الجديدة بغارات الخريف المشئوم .

إن كان فى تلك البلية رحمة من رحمات الغيب فرحمتها أنها لم تتقدم يوما واحداً ، ولم تفاجئنا والمشرط بين العين ويد الطبيب القدير ... ثم أطبقت البلية ساعات من أحلك ساعات الليل والنهار على السواء ، فحمدت الله الذى لا يحمد على المكروه سواه . . حمدته لأنى ألازم موضعى بحكمة وشجاعة أو بغير حكمة ولا شجاعة ! ! ولأننى أطفأت النور قبل أن تتصايح الأصوات حول الدار : أطفئوا الأنوار ... أطفئوا الأنوار ! ! . . .

يسألنى الأخ المحرر[١] عن تلك الساعات الطوال : كيف كنت أقضيها ، وبأى الأطياف والأشباح كنت أعمر ظلماتها وأملأ فراغها ؟ .

والحق أنها كانت ظلمات من أحلك الظلمات ، وأنها كانت فراغا من أثقل الفراغ . ولـكننى لم أسعد فيها — أو لم أشق — بطيف من أطياف الظلام ، ولا بهاجس من هواجس الفراغ ، ولست أعجب لذلك ، لأننى تعلمت من تجارب الليالى والأيام أن الشواغل إنما تكون على قدر الحيرة والقلق ، وأنه حيث يكون فى الأمر قولان أو عدة أقوال فهناك التردد والاضطراب ، وهناك الهواجس والأخيلة والأوهام والأشباح ، وأما مسألة البصر فأى اختلاف فيها ؟ وأى حيرة وأى موازنة وأى ترجيح ؟ . . إنما هو القبول والاستسلام ، أو الرفض والخلاص من الظلام إلى الظلام ! .

وقد كنت أنتظر إحدى النتيجتين ولا أزيد ، وكان جانب الرجاء بحمد الله

---

(١) الأستاذ خليل جرجس خليل ، رئيس تحرير مجلة (صوت الشرق) .

أقوى فى النفس من جانب الخوف والقنوط ، فتراجعت الأشباح والأطياف إلى ظلماتها ، وقضينا الساعات الطوال بالشواغل التى تضحك ولا تبكى ، وتسلى ولا تشجى ، ومنها ما يضحك السامع ضحكتين لا ضحكة واحدة ! . . لأنه يضيف إلى ضحكة العبث ضحكة المثل القائل : إن الزمار يموت ويداه تلعبان !.

ومن أمثلتها الكثيرة مثل (البحث اللغوى) فى إطفاء الأنوار .

إنهم يسمونه فى سورية ولبنان (بالتعتيم) ، ونسميه فى مصر بالإظلام أو إطفاء الأنوار .

ونحن فى جوار الغارات الجهنمية نستمع إلى زلازلها وضوضائها ، ونتساءل : أيهما الصحيح ؟ . . .

ونمضى فى التعليق ، بين قائل إن التعتيم خطأ ، لأن العتمة ظلام خاص بأول الليل ، وقائل إنها ظلام الليل على إطلاقه ، ونتشاور برهة فى الموازنة بين التغمية والتغشية والتخفية وغيرها وغيرها بديلا من التعتيم ومن الإظلام ... وكلها كالشر الذى تخفيه ، بلاء لا خيار فيه ! .

وانجابت الغمة بحمد الله ، وأسفر الصباح بعد ليالٍ مطبقات . . وإننى لأصدق النور حقه فأقول : بل أسفرت الغمة عن فجر أو شفق ، ولم تسفر عن صباح أو نهار!

ولا بأس بالفجر والشفق فى عالم الشعر والشعراء ، فربما طاب لنا الفجر كما يطيب الشفق بوحى من ذوق الجمال وغبطة السكينة والسلام ، وإن لم يكن فى سطوعه ولمعانه ندًّا للصباح أو قرينا للنهار .

صوت المكفوفين [1]

فى يوم شعلة بور سعيد

انظر فقلبك أقوى للعلا نظرا ترى البصيرةُ ماقد يعجز البصرا

واشهـــد بعقلك ما لا عين تدركه
وحسبك الروحُ إنْ لم تشهـدِ الصورا

الـكون منك قريبٌ غير محتجب
وسرُّه بقلوب العـــارفين يُرَى

وفى أريج الربا عن لونها عوضٌ لم يَفـقدِ الزهرَ من لم يحرم الثمرا

ألا لعل كفيفا باليقين رأى ما كان عن مقلة (الزرقاء) مستترا

حاشا عروبتكم والعدلُ شيمتها أن تجعلوه لهذا العدل مفتقرا

زيدوا به فى صفوف العاملين يداً
لا تتركوه لأيدى الفضل منتظرا

ما البرُّ تُعطاه يمناه فَيَجْرحها كالبر تُعطيه كفاهُ إذا اقتدرا

وحين ينمو قويمُ النبت من صغر
لا يشتـكى صغراً فى الدهر أو كبرا

يارُبَّ طفل نحيل لو تعهـده
غرسٌ لأطلع منه كوكباً بَشَرا

هذا فتى أمِّ مكتومٍ وهمته وفضله يملآن الدهرَ والعُصُرا

---

(١) ألقيت فى (حديث الاثنين) بدار المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين . انظر صفحة ٢٨٣ من هذا الـكتاب .

مهاجرىٌّ صحابى مضى قُدُما ... فى الله محتسبا ، لله مصطبرا

مؤذنا ، حافظا ، مستخلَفاً ، ورعاً ... مُحدثا ، فَطِنـا ، مستبسلا ، حذرا

فى (القادسية) يبدو تحت رايته ... والنقع يُرسل من لفح الوغى شرراً

تزلزلت دونه الأبطالُ ؛ وهو على ... صعيدها خطر ، لا يرهبُ الخطرا

قضى شهيداً ، وأبقى بعده مثلا ... وسيرةً يتحدى مجدُها السَّيَرا

والحرُّ لا يشتكى الأقدارَ منهزما ... بل يجعل النصرَ فى إيمانه قدرا

كم من ضرير بصير ، فى مواهبه ... مكبراتٌ بها عينُ الضمير ترى

(الشاطبى) إمام القارئين هدًى ... (كالترمذى) به نهر الحديث جرى

رسمُ المصاحف يهديه الكفيف لنا ... عقيلةً حسنُها قد حيَّرَ الفكرا

و (للمعرى) درارى الشعر ، ما عرف الغواصُ فى البحر يوما مثلها دُررا

وهذه كتبٌ باللمس تقرأها ... بلا مداد تريك الفن مُبتكرا

فى (مركز النور بالزيتون) تشهدها ... من عين شمس فتلقى النور مزدهرا

يا أسرة النور ، هذا اليوم مبعثكم ... تاب الزمان إليكم فيه واعتذرا

يا شعلة النصر والأعيادُ مشرقة

إن الكفيف (بعبد الناصر) انتصرا

يا أيها العربُ الأحرار ليس سوى ... صنع الجميل به تاريخكم ظهرا

فأطلقوا من رهين المحبسين يداً ... ولا تعينوا على حرمانه الغيرا

وبوركت (ندوةُ الشبان) ، وهى غداً ... تُقيم للبعث والإصلاح مؤتمرا

قميص (يوسف) فى ذا العصر معرفةٌ ... ردوا إلى كل (يعقوب) بها البصرا

إن الذى لم يشاهد فى الدجى قمرا ... قد يصنع العلم منه للهدى قمرا

الضباوى شيعلان

المكفوف (1)

مَنْ لسَارٍ فى الليل طال سُراهُ   ومحا نورَ ناظريه دُجاه

كلُّ ليل يمضى ، فيالت شعرى   ليلُه السرمدىُّ ما منتهاهُ ؟

الضحى ، والأصيلُ ، والصبحُ ، والليـ   ـلُ ؛ تساوتْ فكلها أشباهُ

وضُروبُ الألوان متّـفقاتٌ   فى سواد تُحسّه مُقلتاهُ

لا يرى جلوةَ الربيع إذا اختا   لَ ، ولا البدر حين يبدو سناه

لا ولا يجتلى سنا الشمس رقْرا   قاً إذا فضّض الوجودَ ضُحاه

وإذا ذهّبَ الأصيلُ روابيـ   ـه عدا طرفه اجتلاءُ رُباه

وإذا الطيرُ ردّد اللحنَ فى الدو   حِ مضىَ لايحسُّ إلا صداه

كلُّ ما فى الوجود من فتن   الدنيا لوَتْهُ عن سحرِه دنياه

أبداً يحتويه سجنُ لياليـ   ـه ، وما فيه من سجينٍ سواه

إن مشى سار مُرتعشَ الخطـو   وئيداً تخشى الأذى قدماه

وإذا لم يجد رفيقاً وفيّاً   أرشدته إلى الطريق عصاه

أودع اللهُ نفسه دقةَ الحسِّ ، ففى حِسه الدقيق هُداه

وجلاَ سمعَه ، فلا يُخطئُ الهمـ   ـس ونجوى النسيم فى مسراه

يرهف الأذن حين لاتسعف العـ   ـينُ خطاه ، فعينه أذناه

وإذا ضلّ راح يفغر فاهُ   مستغيثاً ، ولوّحتْ كفّاه

لو تراهُ مُحملقاً مُصغىَ الجيدِ رأيتَ العجيب فيما تراه

لهفةً للرؤى تُثير أمانيه فيرجو اجتلاءها ناظراه

ثم يرتد شوقه حسراتٍ بالشوق الأعمى ، ويا لمناه

ليس أشقى من فاقدٍ نورَ عينيه ، وأغلى مافى الفتى عيناه

---

(1) نظمها الشاعر على إثر رغبة أبداها المؤلف له .

أى طعم للعيش إن لم ير الدنيا وما حظه ؟ وماذا جناه ؟
ماله فى حياته من عزاء أو رجاء يسليه إلا الله

* * *

هون الخطبَ يا أخى ، إن هذا زمن لم تعد تسر رؤاه
حسبُك العُزلةُ التى أنت فيها حين شاهتْ دنيا بَنيه وشاهوا
إن فى نفسك الجميلة دنيا من جَمال يُغْنيك عما عَداهُ

* * *

لكَ يارب فى النوازل سرٌّ عَىَّ فهمُ العباد عن معناهُ
كلُّ خطبٍ قدَّرتَه يا رحيما لكَ فيه لطفٌ يدقُّ خفاهُ
قد سلبتَ الأعمى وأعطيتَ حتى صحَّ عدلُ القضاء فيما قضاهُ
إن تكن قد حرمْتَه نورَ عينيه ففى قلبه يشعُّ ضياهُ
ليس بالعين مُبصرٌ أو كفيفٌ بصرُ المرءِ قلبُه أو عماهُ
رُبَّ أعمى منحْتَه منكَ نوراً ورفعتَ الحجابَ حتى رآهُ
وسكَبْتَ الذكاء فى حسه المرهف حتى أنسيته ما دهاه
يُدرك الخاطرَ الخفىَّ بحس يسمع النملَ فى دبيب خُطاهُ
وأديبٍ ماضى اليراع ، بَراهُ خالق النابغين حين بَراهُ
وفريدٍ فى شعره عبقرىٍّ ينفث السحرَ أو يفضُّ رُقاه
وصَناعٍ تجيل أنمله النولَ على لحمة الكسا أو سداهُ
وشجىِّ الألحان إن رتل الذكر أتى الله تائباً من عصاه
وفتاة غطى الجمال عماها وكساها من سحره وحلاه
نعمٌ هانت المصائب فيها وعزاء ينسى المصابَ أساه

* * *

أيهـا الناعمون بالحدق النُّـجلِ ، وما فاتهم غِنىً أو جاهُ
اذكروا نعمة الإله عليـكم وأعينـوا الأعمى على بلواهُ
أَطلعوا صبح ليـله بالأماني وأصيخوا إلى مَريرِ نِداهُ
وانشلوه من بحره الهادر المـوج ، ومِن لُجّه الذى قد طواهُ
واكفلوهُ فربما صار يوماً علماً يهتدى الحمى بهداهُ
شرُّ ما يقتل المواهبَ إغفا لٌ ، وداءُ النبوغ أن تنساهُ
لا يُضيع الإلهُ حُسنَ صنيع فاغنموا شُكرَه ، وجوزوا رِضاهُ

حسن جاد حسن

المدرس بكلية اللغة العربية

الضريرة (١)

بينما كنتُ ذات يوم بمقهى أشرب الشايَ قربَ وقت الظهيره
وأمامى نرجيلتى وكتابٌ كله حشوُ فلسفاتٍ حقيره
إذ دنت طفلةٌ تذكرتُ فيهـا طفلتى حلوةً ، ولكن ضريره !
أخذت تستهدى بغرغرةِ الشيشة نحـوى ، ونفسُها مسروره
وعلى كفِّها قليلٌ من الحلوى لكى أشـترى وأُرضى الصغيره
فكأنى بها وبى أشبه الحقلَ تهـاوت لصدره عصفوره
لا نريد البقـاءَ إلا لتشدوَ قبل أن يجـذب الفضاءُ صقوره
قلت : من يا ابنتى أبوكِ ؟ فقالت وهى تستضحك : الحياةُ مريره
بائع اليانصيب : أحمد ، قدما ت ، واسمى إذا أردتَ (منيره)
قلت : هل عنده سواكِ ؟ فقالت : لى أختٌ تبيع ، لكنْ كبيره

---

(١) كتاب ليالى الأدب ، ص ١٩ .

قلت : ماذا تبيع ؟ قالت : يقولو ... ن تبيع الزهورَ فى ماخوره
كل يوم تجىء فى آخر الليل ... وتهذى كأنها مخموره
إن أختى رقيقة ، كل ليل ... تشترى لى من (الفطايرى) فطيره
عندما يصبح الصباحُ أراها ... قربَ رأسى بسكرٍ مغموره
قلت : بل كيف تعبرين طريقاً ... من زحامٍ إذا أردتِ عبوره ؟
قالت : الناس طيبون ، وإرشا ... دى أمور على الكرام يسيره
لقمةُ العيش سيدى علمتنى ... كيف أطوى الطريقَ رغمَ الوعوره
ويدُ الله عوّضتنى عن العين ... ياسيدى نَفاذَ البصيره
غير أنى نفحتها نصفَ قرش ... أخذته ، وقهقهت مسروره
ومضت فى الطريق تعثر كالنجم ... إذا غذَّ فى الظلام مسيره
تتهاوى على الزبائن ، مِنْ هذا ... لهذا ، فراشةً مذعوره
وستمضى مع المساء إلى البيت ... تعدُّ القروشَ كالمسحوره
وستحظى بقبلة ، ثم تغفو ... حيث تلقى الرؤى بعين قريره
بين أجفانها عروسٌ من الحلم ... وفى حضنها السماء الكبيره
يعبث النور فى رؤاها ، وتطوى ... حين يصحو الصباح فى العين نوره

كامل أمين

تحية المكفوف (1)

حفلُ الصغير الشاكر ؛ حفلُ اليتيم القاصر
حفل الكفيف إذا مشى يمشى بخطو عاثر
مأساةُ بعض مواطنٍ مُنوا بكفٍّ الناظر
وتعذبوا فى الأرض تعذيبَ السجينِ الصابر

---

(1) ألقيت فى أبريل سنة ١٩٥٧ ، فى جمعية الكرمة القبطية بشبرا ، فى الحفل الذى أقيم لتكريم أبناء ملجأ الجمعية المكفوفين .

وقضت بذلك حكمةٌ صمدت لكل مكابر
والله أرسل رحمةً للناس : عطفَ القادر
عطفَ القلوبَ على القلوب رضاً ونبلَ مشاعر
إن الصحيح زكاته حقٌ العليل السادر
إن الغنيَّ عطاؤه فرضٌ لجبر الخاطر
هذى المعانى قد جلاها الدين أقدس آمر
ها نحن فى شهر الصيام نعيد سنةَ شاكر
صمنا وصام المسلمون معاً فريضة ذاكر
ما بيننا إلا الوفاقُ ، ولُحمةُ المتجاور
الدينُ للديان ، جل جلالُه من فاطر
والحب ، والوطن الكبير يضمنا فى عامر
الثورة الكبرى أتت ، فمحت ظلام الغابر
ومشت بقدرتها المدى ، تبنى جلالَ الحاضر
جمعت قلوبَ العنصرين على محبة (ناصر)
الخيرون كثيرهم جاءوا لحفلٍ زاهر
لبوا لدينا دعوةً بسماحة وتبادر
وتسابقوا فى الخير ، لايألون جهدَ القادر
إنى لألمح نخبةً وهبت لخير غامر
جمعية الإكرام والكرماء ملءُ الخاطر
دستورهم سعىٌ لصنع الخير دون تفاخر
مدّوا إليهم بالرضا والعونِ كفَّ مناصر
فإذا الضرير بملجأ العميان مثل الباصر
وإذا هنا عشرون منهم فرحةٌ للزائر

وإذا همُ الأكْفاء ، ليس العاجزين لناظرِ
هذى وليمتهم لسادتنا ضيوفِ السامرِ
فكلوا هنيئا ، واذكروا إخوانكم فى الحاضرِ
وتوجهوا لله حمداً للنجاح الباهرِ
ما أجمل الحفلَ الذى فيه أحبٌّ بشائرِ !

خليل جرجس خليل

خواطر مكفوف[1]

« مهداة إلى فضيلة الرائد الأستاذ أحمد الشرباصى »

أنا أعمى . . ملء عينىَّ بكاء وأنينْ
وحياتى قصةٌ شوهاء أدماها الحنين
يركض الإعصارُ فى أفيائها عبرَ السنين
ويغشّيها ضبابُ اليأسِ كالفجر الحزين

* * *

أنا لحنٌ فى قفار التيه موهونُ الصَّدَى
أوسعتنى نقمةُ الأقدار بطشاً أربدا
فأحالت ومض أيامى ظلاماً سرمداً
وصَدَاحى صمتَ آباد ، ونبعى جلمدا !

* * *

الضياء الغضُّ فى عينىَّ كالليل العريضْ
وانطلاقى فى ربوع الكون مكبوحٌ مهيض

(١) نشرت فى مجلة الرابطة الإسلامية — ١٦ مارس ١٩٥٨ .

غلفَ الدهرُ حياتى بظلام لا يغيض
أتراها فى غَدى بالنور تهمى وتفيض!

* * *

أم تُرانى سوف أقضى العمرَ فى هذا القتامْ !
تُشرق الدنيا ، وأبقى أنا وحدى فى الظلام
تصخب الأناتُ فى قلبى ، ويذوى الابتسام
ويضج الجرحُ فى روحى كمشبوب الضرام ؟

* * *

أم ترانى كلما سرت على الدرب البعيد
يا إلهى أسرق الخطوَ ، وأخشى أن أحيد
لا أعى من أين ، لا أو أين ، كاللحن الشريد
كاحتضار البسمة العذراء فى ثغر الشهيد !

* * *

لست أدرى ما جنت عيناى من ذنب رهيب
أخرس الأضواءَ فيها والسنا الحلو الحبيب
ليت أنّى كنتُ كاللاشىء مغلولَ الوجيب
لم تصافح مقلتى العمياءَ أطيافُ المغيب ! !

* * *

قيل لى : فى الروض أزهارٌ وأطيار تغنّى
وغصون علّمتها رقصةُ الريح التثنى
وفراشٌ حائرُ التهويم فى الدوح الأغنّ
آه ! إنى لا أرى الروضَ ، توارى الكون عنى !

* * *

قيل لى : فى البحر أمواجٌ وأثباجٌ وثوره
وشراعٌ عارمُ الأشواق مشدودٌ بصخره
وفتى أسمرُ ملاَّحٌ يغنِّى البحر شعره
آه ! إنى لا أرى البحر ، فهل أسبر غوره ؟

* * *

قيل لى : فى الأفق أضواء وأغباش حيارَى
وفلولٌ لسحابٍ هائم يبغى القرارا
وفتونٌ كانسياب الحبِّ فى صدر العذارى
آه ! إنى لا أرى الأفقَ تراءى أو توارى !

* * *

قيل لى : فى القفر أوعارٌ وكثبان وواحه
وسهول ينشد الظبْىُ بمغناها مِراَحه
وحُزُونٌ طرَّز الهولُ حواليها وشاحه
آه ! إنى لا أرى القفر . . . ولم أُبصر بِطاحه !

* * *

كم ترى يارب من أعمى تصبَّاه الصباح
فأذاب الدمعَ والأناتِ فى ليل الجراح
وانطوى فى زحمة الأيام كالزهر المصاح
كم ترى من تائه فى الأرض مكبول الجناح !

* * *

يا أشقائى الذين استهدفوا هـذا القضاء
أنتمُ مثلى ، كلانا رهنُ أغلالِ الشقاء

نزرع النورَ ، ولا نجنى سوى شوكِ المساء
ونغنى الحبَّ للدنيا ، ونستجدى الرجاء

* * *

زلزلوا العرشَ ، وصيحوا : أنتِ ياعينَ السماء
أطلعى فجرَ الحيارى التائهين الأبرياء
قد سئمنا الليلَ والحرمانَ من ومض الضياء
وسئمنا حيرةَ التوهان فى رحب الفضاء

* * *

نحن أعماقٌ تحب الخيرَ والنورَ الجميلْ
وتحب الحب ، والأمجادَ ، والعيشَ النبيل
فأضيئوا دربَنا بالفجر والصبح الأصيل
إن دنيا الله للأخيار . . . جيلا بعد جيــل !

محمد أحمد العزب

لاقيت مكفوفا[1]

لاقيتُ مكفوفا تضىء على مُحيّاه البشائرْ
بكفاحه قهر الصعابَ ، وعيشُـه بالخصب ناضر
قد كان فى الدنيا يعانى من تصاريف المقادر
هو والزمان وحربه ، لم أدر أيهما المغـامر
وظلام الاستعمار أقسى محنـةً ممـا يحاذر

(١) ألقيت فى حفل توزيع شهادات الخريجين فى المركز النموذجى لتوجيه المكفوفين بالزيتون بحضور السيد حسين الشافعي وزير الشئون الاجتماعية ، صباح الأحد ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٧٨ — ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥٨ م .

فإذا به يوما كما ابتسمتْ على الروض الأزاهر
لا مشيهُ وهنٌ ، ولا إقدامه فى الخطو عاثر
لا يستعين بغـيره ، بل تستضىءُ به النـواظر
ناديتُـه : ألديك نورٌ تستشف به المناظر ؟
فأجاب : نورُ الثورة العليـا هدايةُ كلِّ حائر
يا رُبَّ شاكٍ أبلغتْـه القصدَ ، فهو اليومَ شاكر
بعثت سراج بصيرة ، والناسُ فى الدنيـا بصائر
فعرفتُ مجدَ عروبتى (بجمالها) ، والله ناصر
حىِّ الوزيرَ الألمعى ، وكلٌّ وصف عنه قاصر
ماذا أصوِّر من مزايا ؟ أو أسطر من مآثر ؟
فى برِّ عهدك وهو نبل ؟ أم بيانك وهو ساحر ؟
فى مَـولد الهادى قدمتَ ، فيومنـا بالسعد وافر
فى مولد النـور الذى عمَّ البوادى والحواضر
بربيع ميلاد (العراق) ، ويمن ميلاد (الجزائر)
عاش الوزير (الشافعى) ، ومرحبا يا خير زائر
ولـكل مبعوث هنا ، أهْـدى التهانى والبشائر !

الصاوى على شعلان

طريد المجتمع (١)

بين الظلام المدلهمِّ كأنه صحفُ الذنوبْ
فى ليلة ثلجيـة الأنفاس ، تُنْـذر بالخطوب
جنية الأشبَـاح ، تنشر هولها فوق الدروب

(١) ألقيت فى (حديث الاثنين) بدار المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين .

والنجم ُساهٍ ،واجمُ النظرات، كالأمل المكذوب
سار الكفيف مكافحًا فى الليل إعصارَ الجنوب
نادى بصوتٍ مزقته مخالبُ الريح الغضوب

* * *

يستعطف الدهرَ العنيد ، ويبتغى عطفَ البشرْ
والناسُ دون شكاته غضُّوا المسامعَ والبصر
والنار تنشر دفئها لهمُ لكى يحلو السمر
ومشى الكفيف معذَّبَ الوجدانِ من حُكم القدر
والعاصفُ المجنون هبَّ معربدا بين الشجر
وكساؤه البالى عليه ، ما وقاه من الضرر

* * *

متعثرَ الخطواتِ فيه بقيةٌ لم تنفد . . . ! !
أمسى يهدده الشقا ، ويدُ المنون بمرصد
والريحُ تسرع خلفه بزئيرها المتوعد
فكأنها خصمٌ يلاحقه بليل أسود
والسخطُ يصرخ فى دماه ، وقلبه المتوقد :
هل للشقاوة آخرٌ ، أم ذا بلاءٌ سرمدى ؟

* * *

بين الأعاصير التى منها انطفاءُ شعاعِهِ
يبدو كما رقص الذبيحُ تحيةً لوداعه
والقر يعزف لحنَه الدامى على أضلاعه
أنغامه زادته أوجاعًا على أوجاعه

حتى هوى فوق الثرى ، متوسدا لذراعه

* * *

متقطـعَ الأنفاس ، ضج النـاسُ من أنَّاته
نقموا عليه لأنهم جهلوا مذاقَ حياته
ما ضرهم لو أنصفـوه ، وأنصتوا لشـكاته ؟
لِمَ لمْ يجد مأوى ؟ من المسئـــولُ عن مأساته ؟
إن الضعيف حياتُه بين الورى كمماته

* * *

وهناك أسـلم روحه ، تحت الفضاء البـاردِ
والريحُ تسفى تربها ، فوق الحطام الهامـد
من بعد ما عانى الصعابَ من الزمان الحاقد
بذل الحياةَ رخيصــــةً لينال أجرَ الزاهد
فقد استراح من الضنا ، ومن الشقاء الزائد
ومضى بموكبه المقدَّسِ للنعـيم الخالد . .

* * *

لما العذارى فى الصباح خرجن فى طلب المياه
فإذا بهن يجدن هذا الشيخ قد فقد الحياه
وعصاه فى يمناه ، يقبضها كسيف ما حماه !
وإذا بإحداهن تهتف : مات ! ! يرحمه الإله
يا حسرةً للعاجز المسـكين ، ماذا قد دهاه ! ؟
طرق العشيـةَ بابَنا . . . لـكن والدنا ازدراه

* * *

تبًّا لناس لم يمرَّ بهم ضياء الرحمة
طردوا الكفيفَ عن الديار بغلظة وبقسوة
فكأنه كلب ، وليس بآدميّ الخلقة ! !
حتى سُقى بيد الردى من كأس حتف مُرة
وبلا بكاء أو عويل قد رموه بحفرة
بين التظاهر بالأسى ، وقلوبُهم كالصخرة

* * *

يا ليت شعرى أى ذنب قد جنى هذا الضريرْ ؟
حتى يكون ضحيةً ترمى لغُول الزمهرير
ألأنه هدفٌ لقوسِ الفقر ، ينكره العشير ؟ !
ألضعفه ولعجزه يرميه بالحجر الصغير ؟ !
الدهر يمسى ضدَّه والناسُ . . . يا سوء المصير !
يا شعب أنت مطالَبٌ بدم الذى فقد النصير !

عبد الله محمد أبو عيد

قصيدة الضرير

« تلبية لاقتراح الشيخ محمد رفعت
مقرئ القرآن الشهير . . . »

مررتُ على الضرير ، فقلتُ : إنى أخاف عليك من حجَرٍ هناكا
ألا ترضى — رعاك الله — منى مساعدةً ، فيشملنى رضاكا ؟
أقودك حيثما تهوى ، وأرجو وصولك بالأمان إلى حماكا
فلست بشامت أبدا ، وهلا مجال للشماتة فى ضناكا

لعمرك ما مررتُ على ابن أنثى ... وكنت أراه يضحك من بلاكا

بل الدنيـــا تحن ، وكل قلب ... يذوب كآبة مما عـــراكا

يقيني أن يوما ســـوف يأتى ... ترى الدنيـــا تحقّق مبتغاكا

وربك خالق الأكوان طرا ... يريك من العجائب ما كفاكا

فمن أحياك يقـــدر كل يوم ... بلمح البرق أن يشفى عماكا

وإن الله حين يريد خـــيرا ... يفير الـكون من طرفىْ عصاكا

* * *

ألا امسك بى ، وسر شبرا فشبرا ... ورائى استنرْ بُهـــدى ضياكا

فلستُ بطالب أجرا ، ولـــكن ... كفانى الله شيئـــا من دعاكا

وإن تقبل لمستك ، لست أبغى ... سوى البركات من كفّىْ رداكا

ولو فى الناس إنصاف لـكنّـا ... على طرق الهـدى نمشى وراكا

ألا اسمع لى ... إلىَّ الله أوحى ... بمعجـــزة تقرّب لى شفاكا

فترجع مثلما من قبـــل كانت ... تضىء على الـكنانة مقلتاكا

فلى عينان ، واحـــدة ستبقى ... بها الدنيا أرى ، وأرى سناكا

وأخلع أختهـــا لتـكون وقفا ... عليك ، فما لها فيهـــا هناكا

وهبتك ما لدىَّ أعـــــــز شىء ... وليس أعز من عينى فـــــداكا

فأنت الآن من حسنات ربى ... تميز وجـــه صبحك من مساكا

وتفرح حينما جـــــــزلا ترانى ... وأفـــــرح حينما عينى تراكا

تساوينا ، وفى العـــثرات إنى ... لأنسى كل شىء ما عـــداكا

على المعروف لا أرجوك شـكرا ... فلا طمع بمالك أو غنــــــاكا

لوجـــه الله أفعل كل شىء ... لعـــل الله يؤتينى هداكا

* * *

فقهقه ضاحكا ، وأجاب : هلاَّ   أرانى أستحق أنا اعتناكا
مشيتُ الأربعين على حياة   أعيش بظل من رفع السّما كا
فما لى والحياة وما تبقّى   قليل يشغل الفكر انهماكا
لقد ذهب الشباب ولم يفدنى   نداء أحبتى ، وكذا نداكا
فهب أنى شُفيت ، ترى ألقى   نعيما فوق ما المولى حباكا ؟
وأنت تقول إنك غير راض   عن الدنيا ، ولم يكمل هناكا
فكم أدمت لنا الأيام قلبا   وأنت بهن أعلم من سواكا
شربت المرَّ فى دنياى علّ   كؤوس الحلو أشربها هناكا
هناك الراحة الكبرى ، وفيها   أعيش كما تعيش على هواكا
فما هى لذتى والموت منى   على باعٍ يمدُّ لى الشباكا
فكيف بها أسر ، وكيف عظمى   يفكك من مفاصله انفكاكا
وللأعمى ألوف من عيون   وعين الله حارسة خطاكا
وكم أعمى يسير ؛ وكم بصير   على الطرقات يرتبك ارتباكا
ويكبو حيث لا أكبو ، وقلبى   ينير الشهب فى مسرى سماكا
أسير على الطريق وبى حنين   إلى المغنى أخفف من عناكا
وأنشد فى الإذاعة قول رب   من القرآن ينسبك انسباكا
وأذكر ما حييتُ جميل صنع   وما فعلته من كرم يداكا
وفى الملكوت لقيانا ، وإنى   شفيعك يوم يسعدنى لقاكا
وكم أرجو إذا وُفقت يوما   أمام الله أن أشدو ثناكا
فخير أن أظل كما ترانى   وخير أن تظل كما أراكا
(جزاك الله عنى كل خير   وأعلم أنه عنى جزاكا)

* * *

مشى الشيخ الضرير ، فقلت : ربى   أأنسا ما أشاهد أم ملاكا ؟

ففاجأنى من العلياء صوت طروب فى العذوبة لا يحاكى :
(محمد رفعة) هذا ، وهذا أعز الناس ، قلت : كفى بذا كا
وحق أبيك أعرفه ، وإنى لأعرف عنه ما عنه خفا كا

* * *

فيا من غاب عن عينى فقلبى لفرط الحزن يؤلمه نوا كا
(يعز علىّ حين أدير عينى افتش فى مكانك لا أرا كا)
مررتَ ولو عرفتك كنت أسعى لأطرب مسمعى بصدى شجا كا
هى الدنيا تراها فى انتظار على المؤاج لاتبدى حرا كا
ويوم تذيع فى الآفاق آيا من القرآن يبكينا بكا كا
فكم آبت إلى المولى نفوس وثابت تهتدى بسنا حجا كا
على الطرقات كم ألف وألف طوال الليل رافعة لوا كا
وكم أصغت إليك ، وكم ليالٍ سهرناها لتسمعنا صدا كا
وكم لحن أتيت به انتعاشا وكم نغم يذوب له حشا كا
وحول (الراديو) كم بات غاوٍ أليف الداء يشفيه دوا كا
وبالوهاب تذكرنا خصيصاً إذا جودت (رصدك) أو (صبا كا)
ألذ من البلابل إذ تغنى وأطربها إذا سمعوا (نوا كا)

. . .

ألا يا (شيخُ رفعةُ) يسِرْ ، فإنا سألنا الله أن يرعى قوا كا
إذا الأهرام نالت ما تمنت من الحسنات فاذكر مصطفا كا
فعهد المصطفى من عهد سعد وسعد سامع أبداً غنا كا
والاستقلال تم بعون ربى وإن الله حقق مشتها كا[1]

الدكتور ميشيل بيضا

(١) أهداها ناظمها إلى الشيخ محمد رفعت فى لوحة ، ثم طبعت مستقلة .

الليل والضحايا !

الليل قد طال والضحايا هيهات هيهات يرقدونْ

نهارهم .. ليلهم .. سواء إشراقة النور والدجون

غناؤهم مترع القوافى بالحزن ، والناس يضحكون

سجنتنا يا ظلامُ لما سرقت من وجهنا العيون

قيدت خطواتنا بقيد كالنار ، والنار قد تهون

جعلتَ أعداءنا جداراً وحفرة تصنع المنون

نسير تلهو بنا الزوايا وتضحك الأرضُ فى جنون

كأننا لعبةٌ برتها يدُ المقادير من قرون

والليل قد طال والضحايا هيهات هيهات يرقدون

* * *

أقسمت لا أستطيع نوماً وذمتى أثقلت ديون

لهؤلاء الذين باتوا فى سطوة القيد يصرخون

لكننى من أكون وحدى ؟ لا شىء هذا الذى أكون

فلتجعلوا روحكم شعاعاً فى عين من ليس يبصرون

ولتجعلوا قلبكم مناراً يضىء إن غامت السنون

قرأت فيما قرأت بيتا قد خطه شاعر حنون

أقوله الآن لا أبالى بالناس إن قلتَ يغضبون :

كم مبصر لا يرى ، وأعمى يرى ويدرى الذى يكون

يا ويح من لا يرون شيئا إلا إلا إذا فتّحوا العيون

كمال عمار

خواطر مكفوف

قال وقد أنهكه التحديق
فى ظلمات الكون
فى صوت أشبه بالهمس
فى أحلك ساعات اليأس
يسأل نفســـه :
ما كنهُ اللون ؟

. . .

ويجىء جواب من أعماقه
فى نبرة معصوم من شك :
« سر لن تعرفه أبدا . . .
حتى لو قدمت حياتك مهراً له »

. . .

ما أشقى أن يحيا مكفوف
ما أتفه عمراً لا يعدل نظره
لا يعدل لحظةَ مبصر
فالمبصر أدرى باللون

. . .

قال لنفسه :
أنا لا أعرف إلا أن المرأة أنثى
لكن الناس لهم فى المرأة آراء

فى المرأة آراء ومذاهب
لا يعرفها غير المبصر
فالشقراء بها رجل مفتون
والسمراء لها رجل لا يعـــدل عنها
ويقولون : هناك امرأة خمرية
وهنالك أوصاف المرأة لا يحصرها حصر
أوصاف قيلت فى المرأة
أنا لا أدرك منها إلا أن المرأة أنثى ! . .

* * *

أنا لا أعرف إلا لغة المنطق
أتفاهم بالألفاظ
وهنالك غير لغات الناس لغات
ليست إلا فى دنيا المبصر
فهى إشارات ورمـــوز
بالنظرات ، وبالأيدى ، بالأكتاف
أسمى لغة هى لغة العشاق
بعيون تتـكلم . . . لا بالأصوات
ورموش تتفاهم بالأهداب
أهداب تقتل أو تحيي
لـكنى لا أعرف إلا لغة المنطق ! . . .

* * *

ما أفقرنى إلا من نور الله
نور فى جنبات النفس

كم بدد ظلمتها
ألحقها بالملأ الأعلى
طهَّرها من أدران لا تحصى
وخطايا جهل الإنسان
الإنسان الأحمق
التائه فى بيداء الجهل
الهابط فى أعماق الظلمات ...

* * *

قد يزلق مكفوف
لكن فى شىء يمحى بالماء
شىء لا يصل إلى القلب
لا يتعدى منه الثوب
والمبصر لا يزلق إلا فى الأعماق
أعماق محيط الإثم
قد لا يمحو زلته بحرُ دموع
أو لا يمحوها دم
شكراً لله...

* * *

أنا لا أعرف ماذا كنت أكون
لو جئت صحيح العينين
لا أعتمد على مخلوق يهدينى سبلى
أمشى حيث أشاء
تحت قيادة عقل قاصر

عقل الإنسان الأخرق
وتصرف إنسان أحمق
ماذا كنت أكون؟
شكراً لله ! !...

عبد الغفار عفيفى الدلاش

العين الزجاجية

(مترجمة عن أوسكار وايلد)

كان فى الماضى ملاك فاتن   مشرقُ الطلعة كالبدر المنير
يأسر الغيدَ بطرف أحور   أين منه مقلةُ الظبى الغرير
فإذا صادف صيداً نافراً   جاءه يرسف فى قيد الأسير

* * *

سار فى روض بهيج ناضر   رسمت ألواحَه كفُّ الربيع
خطرت فى ظله غانيةٌ   صاغها الحسنُ من النوع الرفيع
صوّب الطرفَ لها عن كثب   فأتت فى ذلة العبد المطيع

* * *

جلست تمسح منه عَرَقا   كان مثل الدر يعلو وجنتيه
فهوت إصبعُها — عن خطأ   غير مقصود — بيمنى مقلتيه
فخبا النورُ بها فى سرعة   هكذا إصبعُها تجنى عليه !

* * *

وأتى المرآةَ يرنو وجهه   فإذا منظره لايسحر

عينه العمياء فى شرع الهوى سبةٌ شنعاء لاتغتفر
فمضى يصرخ من أعماقه : ويح نفسى ! إننى محتقَر !

* * *

ورآه صانع ذو خبرة يصنع المقلةَ من لوح الزجاج
قال : عندى مقلة ساحرة أنت محتاج لها كلَّ احتياج
هى لو تدرى علاج ناجع أى غر ليس يرضى بالعلاج ؟

* * *

ركَّبَ العين فزانت وجهه بعد أن كان دميم المنظر
غير أن الشك قد قال له : ويك ! إن القبح لم يستتر
فمضى يسأل عن مقلته وينادى الناس : هل من مخبر ؟

* * *

ورأى فى سيره ذا فاقة معدما يطلب رِفْدَ المحسنين
فأتى يسأله مستفسرا بعد أن أعطاه — فى رفق ولين :
أترى فرقا جليًّا واضحا بين عينىّ يُرى للناظرين ؟

* * *

قال : يمنى مقلتيك اتُّخذت من زجاج يجتليه من رنا
قال : كيف اسطعت أن تعرفها؟ قال : هذا كان عندى هينا
إننى أبصرت فيها رحمةً جعلت منك سخياً محسناَ[1] !

محمد رجب البيومى

(١) مجلة الثقافة ، السنة الثامنة ، العدد ٤٠٥ — ٦ من ذى القعدة ١٣٦٥ هـ — أول أكتوبر ١٩٤٦ م .

خـــواطر بكماء [1]

« سيـــدى فضيلة الأستاذ الشرباصى :

أنت فى كتابك الخالد (فى عالم المكفوفين) إنسان يناضل عن قضية أجيال من البائسين . . . وهذه خواطر إنسانة بكماء ، أهديها إليك ، فأنت رمز التعبير فى بيان و إيمان عن أولئك المحرومين » ! .

(العزب)

عجباً ! أتفدحنى الخطوبُ ، ولست أملك أن أصيحْ ؟
وأثور ، لكن لا أُبين ، كثورة الطير الجريح ؟
أنا من رآنى قال : شاعرةٌ لها نطقٌ فصيح . .
لكنها فى صمتها تتعمق الكونَ الفسيح ! ! !

* * *

ويح لهم ! أنا لست شاعرةً ، ولكنى عَييَّهْ !
تتواثب الألفاظ فى خـــلدى ، وتُعيي شفتيه !
أنا إن صَمتُّ فرغم أعماقى ، ورَغم البشريه !
لكننى طوعُ القضاء ، فكيف لا يحنو عليَّه ؟

* * *

كم من ليال بتُّ أحـــلم بانطلاقة مِقولى
لأساجل الأطيـــارَ فى تغريدها المترسل

---

(١) نشرت فى مجلة الرابطة الإسلامية — ١٦ مارس سنة ١٩٥٧ .

وأصوغَ سحر الكون فى شدو كشدو البلبلِ
فإذا أفقت وجدتنى لا زلتُ رهن الأحبلِ

* * *

حتى دموعى لم تزل خرساء كالنبع السليبْ !
وخواطرى البكماء يطوى عمرها الصمتُ الرهيب !
ومشاعرُ الأنثى بأعماقى تولول فى نحيب !
هل تسمعون صراخها فى جدب أغوارى الرحيب ؟

* * *

يا ويل من عقدت يدُ الأقدار فى الدنيا لسانَه !
هو إن هذى طفل لديه رأى من الفصحى رَطانه !
حيران إن حدثته ، وإذا صمتَّ ترى هوانه !
ذهبت بمنطقه الغيوبُ ، وأردفت تضوى كيانه !

* * *

أنا لست أخشى أن يقال : لسانُها فى الشعر أخفقْ
فالصمت فى تلك الحياة من الإبانة عادَ أنطق
لكننى أنثى تحب من الرجال فتًى وتعشق
وتريد أن تهدى عواطفها إليه فهل تُوفَّقْ ؟

* * *

أإذا خلوتُ إليه ، وانسابت بنا الأحلامُ تجرى
كالزورق النشوان ، ترقصه الغواربُ وهو يسرى
وأصاخ . . هل أسطيع يوماً أن أبوح له بسرى ؟
أبداً . . . إذاً كالدمية الخرساءِ إغرائى وسحرى ! ! !

* * *

أأثور بالأقدار ؟ كلا . . . لن أثور على القدرْ

فالضوء فى غبش المساء حديثُ أشواقِ القمر

وأريج أكمامِ الزهــور بيانُها بين البشر

وهديرُ هذا البحر إفصاحٌ بقصته هــدَرْ

والناى ، والقيثار ، والقلم المعبِّر ، والشجر

والقمةُ الشمّاء ، والسفح المطأطئ ، والحفَرْ . .

ولوافحُ الريح السموم ، ونفحُ أنسامِ السحر

والنخلة الجرداء تحـــــلم بالربيع وبالثمر

هى لا تبين . . . وإنما توحى فتُعجز من شَعَرْ

حسبى إذاً من منطقٍ وحىٌ بأعماق استسر ! !

محمد أحمد العزب

اليتيم المكفوف الضائع (١)

خذوا بيد الأعمى الصغـير وآووه ... ومدوا اليدَ اليمنى إليه وآســوه

أعيـدوا له عطفاً تقلص ظلُّه ... يحن إليه كلَّ حين ، أعيدوه

ولا تتركوه هكذا متسكعاً ... بكل طريق ، والـكآبة تعلوه

لقد طُمست عيناه ، وانهد جسمه ... وماتت له أمٌّ ومات أبوه

فعزّ عليه العطفُ من كل جانب ... ومَنْ حاله هذى فأين محبُّوه ؟

توالت عليه النائبـاتُ ، ولم تزل ... مرابطةً ، والذل لا زال يكسوه

وجار عليـــه الدهرُ حتى أذله ... فهان عليه الموت ، والموت مكروهُ

صغير يعانى الفقرَ واليتمَ والعمى ... ثلاثةُ أعداءٍ لهم أوجه شُوهُ

---

(١) كتاب (الـكويت المدينة الفاضلة) ، ص ٨٤ .

يئن و يشكو – لا إلى الناس – همه ... ولكن إلى مولاه ما كان يشكوه

تناوئه الأيامُ فى كل مسلك ... ولاعجب إن أصبح الكلُّ يقلوه

إذا ما دعاه ذو يدٍ حاتمية ... توالى عليه البشرُ ساعةَ يدعوه

و إن مر بين الناس يضحك تارة ... ويشكوالأسى أخرى،يقولون:معتوه!

فكم عاهة فى جسمه اشتد فتكُها ... به ، فأسعفوه بالدواء وداووه

خذوا بيديه فهو أولى بعطفكم ... إلى مستواكم ، فهو منكم، وراعوه

له أمنيات قد غمرن فؤادَه ... فيا قوم هيا حقِّقوها وواسوه

لقد صدَّه عن وِرْد آماله العمى ... وأقعده عن خير ما كان يرجوه

يرود المقاهى والحوانيتَ دائباً ... يمد يديه بالرجاء ليعطوه

و يأوى إلى كوخ صغير بلا وطاً ... يقيه خشاش الأرض والخوف يعروه

ينام ولا نوم ، غراراً كأنه ... أزيغب ريشٍ فر عنه مُغَذِّوه

فيصبح طاوىالبطن حيرانَ جائعاً ... يشم فطورَ القوم ساعةَ يدْنوه

تمنى من اللذات ما لذَّ طعمه ... ولكنكم عما تمناه مُقْصوه

أحقٌّ يُربى فى القصور بنوكمُ ... ويعجز عنه عطفكم أن تربوه؟

فمن حقه أن تضمنوا ما ينوبه ... وأن تطعموه ما طعمتم ، وتسقوه

وأن لا يُرَى بين الحوانيت سائلا ... وأن تلبسوه ما لبستم وترضوه

فهذا الضمان الاجتماعى ، حبذا ... لو انكم وفقتم أن تقيموه

فيأمن من غدر الليالى يتيمنا ... وعاجزنا فى ظله حين يعلوه

فأنتم إذا لم تلفتوا نظراً إلى ... فقيركم أوشكتم أن توارُوه

فريشوا جناحاً قلم الدهر ريشه ... ليسبح فى جو السعادة ، رِيشوه !

فأنتم لمسئولون عن كل هائم ... يتيم كهذا قد مضى عنه أهلوه

فهذا الصراط المستقيم أمامكم ... و بين يديكم مشعل النور فاهدوه

(الكويت) ... عبد الله سنان

المكفوفون[1] ! ...

للشاعر الفرنسى شارل بودلير ، وترجمة الدكتور إبراهيم ناجى[2]

انظرى ... تأمليهم يا روحى

ما أتعسهم ! ..

كتماثيل الأزياء ...

تثير الضحك الغامض ...

كأنهم منوّمون

تنطلق محاجرهم إلى

حيث لا تعلم ، فى عالمهم المظلم ...

عيونهم التى انطفأت فيها الشعلة الإلهية

تلوح كأنما ينظرون إلى بعيد

نحو السماء ...

إنهم لا ينظرون أبداً إلى أسفل ، ولا تميل إلى هناك

رءوسهم الثقيلة .

وهكذا يقطعون الظلام اللانهائى

الأخ الشقيق للصمت الأبدى .

أيتها المدينة : كل هـذا بينما أنت تضحكين ، وتغنى حولنا ، مندفعة فى سرور عارم !...

انظرى ... هأنذا أنطلق أيضاً ، ولكن أكثر منهم...

---

(١) فى الأصل (العمى) ، ولكننا آثرنا استعمال كلمة (المكفوفون) .

(٢) كتاب أزهار الشر ، ص ١٠٦ .

فأندفع أنا بدورى
وفى بلادة أكثر منهم أقول وأسأل :
لماذا ينظرون إلى السماء .
كل هؤلاء المكفوفين ؟ . . .

ماذا يهم ؟[١]

لن أراكِ بعد هذا أيتها الشمس الساطعة ...
ولكنى سأحس حوادثك ...
لن أراكَ بعد هذا يا سناءَ الورود ...
ولكن السماء قسّمت حظوظنا ...
فماذا يهم الضيـاء ؟...
إن عندى روحَ الأشياء !...
لن أرى بعد هذا بهاء الورود
ولكن عندى عبيرها الفوّاح ...

مدام جاليرون دى كالون

صلاة مكفوف[٢]

فى أسبوع النور والأمل !

يارب نورُ الحيـاه . . . اعتـدْت حِرمانُه
واعتـــدت رِقى لعُكّازى وسلطانُه

(١) مجلة الرسالة ، العدد ٥٩٧ ، ١١ ديسمبر سنة ١٩٤٤ .
(٢) نشرتها مجلة الاثنين .

واعتدت ذلّ الطريقْ للناسْ ، وإعلانُه

ورْضيت بحظِّى ونصيبى ونْعمى عِينى

عن الحياهْ ، والجمالْ ، والكونْ وألوانه

□□

راضى بْقضاكْ فى عنيّه الجوزْ وقَفْلِتهم

راضى بْقضاكْ فى النهارْ والليل وضَلْمِتهم

راضى بْقضاك . . . أهلى ما أعرفش صورتهم

راضى بْقضاكْ . . . بس الطفْ فى القضا وارحمْ

يا فارجْها ع المكروبين فى عِزّ بَلْوتهم

□□

هبْ لى مِن العلمْ عُكّازَه تساعدنى

وعصايه فى ظُلْمتى الأبديه تِسْنِدنى

وتُرجمانْ للحيـاهْ يقرا ، وزَوِّدنى

هبْ لى نصيب الضرير فى العلم يا ربى

واجعل قلوب البشرْ تلطفّ وتِنجدنى

« سعيد »

يا يســـوع

لبعض الشعراء المسيحيين :

صرخ الأعمى ابن طيما : يا يسوع ارحم فتاك
نال غيرى منك برأً فأعن ضعفى كذاك

* * *

الجمـــوع انتهرته غضباً وهو يزيد
فدعاه الرب : أقبل ثم سلنى ما تريد

* * *

لم يرد مالاً سيغنى منه مع فقر علاه
بل بغى رحمة ربى ليس يعطيها سواه

* * *

قال : أرجو نور عينى أنت تعطيها البصر
أبصرت عيناه حالا فدعاه وشكر ! ! [1]

بين مكفوف ومقعد [2]

« كان للحكم بن عَبدل صديق أعمى يقال له أبو عُلية ، وكان ابن عبدل قد أُقعد ، فخرجا ليلة من منزلهما إلى منزل بعض إخوانهما ، والحكم يحمل وأبو علية يقاد ؛ فلقيهما صاحب العسس بالكوفة فأخذهما فحبسهما ، فلما استقرا فى الحبس نظر الحكمُ إلى عصا أبى علية موضوعةً إلى جانب عصاه فضحك وأنشأ يقول :

(١) هكذا وجدت القطعة بين أوراقى . وانظر فصل (المسيح والمكفوف) ، صفحة ٢٨٠ من هذا الكتاب .

(٢) الأغانى ، ج ٢ ، ص ٤٠٥ و ٤٠٦ .

حبسي وحبس أبي عليـــة من أعاجيب الزمانِ
أعمى يقاد ومقعَد[1] لا الرِّجلُ منه ولا اليدان
هـذا بلا بصر هنا ك ، وبي يخبُّ الحاملان
يا من رأى ضبَّ الفلا ة قرينَ حوتٍ في مكان
طِرْفي وطِرْف أبي عليـــة دهرَنا متـــوافقان
من يفتخر بجـــواده فجيادنا عـــكازتان
طِرفان لاعلفَـــاهما يُشرَى ولا يتصاولان
هبني وإياه الحـــر يقَ ،أكان يسطَع بالدخان

قال : وكان اسم أبي علية يحيى ، فقال فيه الحكم أيضاً :

أقول ليحيي ليـــلة الحبس سادراً[2] ونومي به نوم الأســير المقيَّد
أعِنّي على رعي النجـــوم ولحظها أُعنك على تحبير شعر مقصَّدِ[3]
ففي حالتينا عـــبرة وتفكر وأعجب شيء حبس أعمى ومقعد
كلانا إذا العـــكاز فارق كفَّـه ينيخ صريعاً ، أو على الوجه يسجد
فعكازة تهدى إلى السبـــل أكمهاً وأخرى مقامَ الرجل قامت مع اليد ».

رثاء عـــين[4]

« أنشدني ابن الأعرابي لرجل من بني قُريع يرثي عينَـه ويذكر طبيباً :

لقد طفتُ شرقيَّ البلاد وغربَها فأعيا عليَّ الطبُّ والمتطبب
يقولون : إسماعيل نقَّابُ أعين وما خير عين بعد نَقْب بمثقب.

---

(١) أقعد الرجل بالبناء للمجهول : أصابه داء فلم يستطع المشي .
(٢) السادر : المتحير الواجم .
(٣) شعر مقصد : مطول كثيرة أبياته .
(٤) الحيوان للجاحظ ، ج ٧ ص ١٥١ .

يقولون: ماء طيِّبٌ خان عينَه ... وما ماء عين خان عيناً بطيِّب
ولكنه أيامَ أنظرُ طيبٌ ... بعينى قُطامِىٍّ[1] علا فوق مرقب
أحمَّ حديدِ الطرف ماخان عينَه ... شآبيبُ ماء المزنة المتصبب
كأن ابن حجل مدَّ فضلُ جناحه ... على ماء إنسانيهما ماءَ طحلبِ »

أشعار فى العين

قال الشاعر :

أشارت بطرف العين خيفة أهلها ... إشارة مذعور ولم تتكلم
فأيقنت أن الطرف قد قال : مرحبا ... وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم

وقال الآخر :

وللقلب على القلب ... دليل حين يلقاه
وفى الناس من النا ... س مقاييس وأشباه
وفى العين غنى للمر ... ء أن تنطق أفواه

وقال أبو الشيص :

دموع العاشقين إذا تلاقوا ... بظهر الغيب ألسنةُ القلوب

وقال إبراهيم بن المهدى :

إذا كلمتنى بالعيون الفواتر ... رددتُ عليها بالدموع البوادر
فلم يعلم الواشون ما دار بيننا ... وقد قُضيت حاجاتنا بالضمائر

وقال ابن المعتز أو غيره :

تفقد مساقط لحظ المريب ... فإن العيون وجوه القلوب
وطالع بوادره فى الكلام ... فإنك تجنى ثمار الغيوب

---

(١) القطامى ، بضم القاف وفتحها : الصقر .

وقال بعض الأعراب :

وليــــل لم يقصِّره رقاد ... وقصَّر طوله وصلُ الحبيب
نعيم الحب أورق فيه حتى ... تناولنا جناه من قريب
بمجلس لذة لم نقو فيه ... على شكوى ولا عدٍّ الذنوب
بخلنــا أن نقطعه بلفظ ... فترجمت العيون عن القلوب

وقال :

تكلم منا فى الوجوه عيوننا ... فنحن سكوت والهوى يتكلم
ونغضب أحيانا ونرضى بطرفنا ... وذلك فيما بيننـا ليس يُعلَم

وقال آخر :

إذا نحن خفنا الكاشحين فلم نطق ... كلاما تكلمنا بأعيننا شزرا
نصد إذا ما كاشح مال طرفُه ... إلينا ، ونبدى ظاهرا بيننا هجرا
فإن غفلوا عنا رأيت خدودنا ... تصافح ، أو ثغرا قرعنا به ثغرا

وقال آخر :

جعلنا علامات المودة بيننا ... دقائقَ لحظهن أمضى من السحر
فأعرف منها الوصل فى لين لحظها ... وأعرف منها الهجر فى النظر الشزر

وقال إسحق الموصلى :

ولما رأينا البين قد جد جدُّه ... ولم يبق إلا أن تبين الركائب
دعونا فسلمنا سلاما مخالسا ... فردت علينا أعين وحواجب

وقال الناشىء :

فلما تلاقينا كتبن بأعين ... لنا كتبا أعجمنها بالحواجب
فلما قرأناهن سرا طوينها ... حذار الأعادى بازورار المناكب[1]

---

(١) كتاب التشبيه ، ج ١ ص ٥ .

المقامة المكفوفية[1]

ومن مقامات الإسكندرى إنشاء البديع : حدثنا عيسى بن هشام قال :

كنت أجتاز ، فى بلاد الأهواز ، وقصاراى لفظة شرود أصيدها ، أو كلمة بليغة أستفيدها ، فأدّانى السير إلى رقعة فسيحة ، وإذا هناك قوم مجتمعون على رجل يستمعون إليه ، وهو يخبط الأرض بعصا على إيقاع لا يختلف ، وعلمت أن مع الإيقاع لحنا ، ولم أبعد لأنال من السماع حظاً ، أو أسمع من البليغ لفظاً ، فما زلت بالنظارة ، أزحم هذا وأدفع ذلك ، حتى وصلت إلى الرجل ، وسرحت الطرف فيه ؛ فإذا رجل مكفوف ، فى شملة من صوف ، يدور كالخُذْروف ، متبرنساً بأطول منه ، معتمداً على عصا فيها جلاجل ، يضرب الأرض بها ، على إيقاع غَنِج ، ولفظ هَزِج ، من صدر حَرِج ؛ وهو يقول :

يا قوم قد أثقل دَيْنى ظهرى　　وطالبتنى طلتى بالمهر
أصبحت من بعد غنىً ووفر　　ساكنَ قفر وحليفَ فقر
يا قوم هل بينكمُ من حر　　يعيننى على صروف الدهر؟
يا قوم قد عيل بفقرى صبرى　　وانكشفت عنى ذيول الستر
وفضَّ ذا الدهر بأيدى النثر　　ما كان لى من فضة وتبر
آوى إلى بيت كقيد الشبر　　خاملَ قدْر ، وصغيرِ قِدْر
لو ختم الله بخير أمرى　　أعقبنى من عسرتى بيسر
هل من فتى فيكم كريم النَّجر　　محتسبٍ فىَّ عظيمَ الأجر
إن لم يكن مغتنما للشكر ؟

قال عيسى بن هشام : فرقّ له — والله — قلبى ، واغرورقت عينى ، وما لبثت أن أعطيته ديناراً كان معى ، فأنشأ يقول :

(١) انظر كتاب زهر الآداب، ج ٤ ص ٢٠٦ . الطبعة الثانية .

يا حسنها ، فاقعةٌ صفراء ممشوقة منقوشة قوراء
يكاد أن يقطر منها الماء قد أثمرتها همة علياء
نفس فتىً يملكه السخاء يصرفها فيه كما يشاء
يا ذا الذى يعنيه ذا الثناء ما يتقصى قدرَك الإطراء

فامض على الله لك الجزاء !

ورحم الله من شدها فى قرَن مثلها ، وآنسها بأختها ! .

فأناله الناس ما أنالوه ، ثم فارقهم وتبعته ، وعلمت أنه متعامٍ لسرعة ماعرف الدينار ، فلما نظمتنا خلوة مددت يمناى إلى يسرى عضديه ، وقلت : والله لترينىَّ سرك ، أو لأكشفن سترك .

فكشف عن توأمتى لوز (كناية عن حدة عينيه) ، وحدر لثامه ؛ فإذا هو والله شيخنا أبو الفتح الإسكندرى ، فقلت : أنت أبو الفتح ؟ فقال : لا :

أنا أبو قلمونْ فى كل لون أكون
اخترمن الكسب دُونا فإن دهرك دون
زجّ الزمان بحمق إن الزمان زبون
لا تخدعنّ بعقل ما العقل إلا الجنون !

ندوة عن كتاب « فى عالم المكفوفين »

فى مساء يوم الأحد ٢٨ إبريل سنة ١٩٥٧ أقيمت بدار جمعية الرابطة الإسلامية بالقاهرة ندوة للحديث عن كتاب (فى عالم المكفوفين) اشترك فيها طائفة من الباحثين والأدباء ، وقد ألقى الدكتور عبد المنعم نور فيها كلمة لم يتيسر الحصول عليها ، كما ارتجل المؤلف كلمة لم تقيد ، ونثبت فيما يلى ماتيسر الحصول عليه من الكلمات التى ألقيت فى هذه الندوة ، ولا شك أن العناية بكتاب (فى عالم المكفوفين) تدل على العناية بموضوعه ، وهو موضوع هؤلاء الأشقاء الذين حرمتهم الأقدار نعمة الإبصار ، كما أن هذه الكلمات قدجاء أثناءهاحديث ومعلومات عن المكفوفين ، ولذلك نستجيز إثبات كلمات التقدير فى هذا المجال .

١ — كلمة الدكتور عدلى أباظة رئيس الرابطة

بسم الله الرحمن الرحيم . لقد نالنى شرف افتتاح هذه الندوة المباركة التى تضم هؤلاء الأعلام ، من العلماء والأدباء والشعراء ، وأنا أقول لنفسى : لو أنى تطفلت وأدليت بدلوى لضاع دلوى بينهم ، أو لالتقمه الحوت صاحب هذه المؤلفات التى نعيش فى بحرها الزاخر ، وهو الأستاذ الجليل أحمد الشرباصى مؤلف كتاب (فى عالم المكفوفين) .

وعلى ذلك سأقنع بأن أفتح لكم باب هذه الندوة ، وسأقف عنده مستمعاً لكم ، ثم متعلماً فشاكراً ... وصاحب كتاب (فى عالم المكفوفين) صديق قديم أعتز بصداقته كل الاعتزاز ، عرفته قبل أن يعرفنى بشهور كثيرة ، عرفته خطيباً فى مسجد المنيرة ، فأعجبت به كل الإعجاب ، واستبشرت به للإسلام خيراً ، وكان يخطب فى سبيل الله ، ولا يخشى إلا الله ، ولا يخاف حاكما ولا ملكا ، مهما تجبر هذا الحاكم ، أو طغى هذا الملك .

ثم تعرفت به فى هذه الدار ، وكان الفضل لمؤسس هذه الجمعية الأستاذ شاهين حمزة . وإننى لأذكر أن الأستاذ الشرباصى هاجم مرة من فوق منبره

فى مسجد المنيرة أحد الطغاة من رؤساء الوزارات الماضية ، وكانت الخطبة من نار ، قال فيها الشرباصى كلمة الحق التى لم يجرؤ أى عالم فى هذا الوقت أن ينطق بها ، وانطلقت قوة من البوليس تحاصر المسجد وعلى رأسها المأمور ، وكان الشرباصى فى داخل المسجد لم يبرحه ، وسألنى المأمور عن مكان الشرباصى ، فأجبته : ولم تسألنى ؟... وظن المأمور أن الأستاذ قد انصرف فانصرف .

وأثارتنى هذه التصرفات الجائرة ، فكتبت فى جريدة منبر الشرق كلمة أدافع بها عن المساجد ، وأنتقد انتهاك حرماتها ، والتحرش بالخطباء ، ولم أكن أدافع عن الشرباصى الثائر ، لأن الله يدافع عن الذين آمنوا ، ولكنى كنت أدافع عن كرامة الإسلام ... وظل الشرباصى يقول مايعتقد أنه الحق ، بلا مواربة أو خشية ، حتى نال جزاءه على الجهر بكلمة الحق فاعتقلوه !!.

وللشرباصى علىَّ دين لا يمكن أن يوفَّى فى أيام ولافى شهور ، فقد غمرنى بمؤلفاته من أولها إلى آخرها ، من (صلوات على الشاطىء) إلى (فى عالم المكفوفين) ، ولعل الشرباصى قد زهد فى عالم المبصرين — ولا أقول يئس ، لأننى أعرفه مكافحا صادقاً ، يؤمن بالكفاح والجهاد — أقول لعله زهد فى عالم المبصرين ، فلجأ إلى عالم المكفوفين لأنه أكثر استماعا واستجابة ؛ وإنه لشعور نبيل حقاً يفيض بكريم الإحساس والعطف نحو هؤلاء الذين حرموا من نعمة البصر ، فعوضهم الله البصيرة ... ومن أهم الأسباب التى يتعزى بها المكفوفون أن الأكثرية الساحقة فى هذا العالم المبصر لا يبصرون ولا يعقلون ، كما يقول الله سبحانه : « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » .

ولو تعرضت لشخصية الشرباصى التى تغرى بالحديث لطال الكلام ، ولكننى سأقاوم هذا الإغراء ، وأترك لكم المجال الذى أنتم أهله وفرسانه ، والسلام عليكم ورحمة الله .

٢ — قصيدة الشاعر الأستاذ محمد مصطفى الماحى

«تحية كتاب (فى عالم المكفوفين)

للأستاذ الكبير أحمد الشرباصى »

يا باعثَ النورِ يمحو داجىَ الظُّلَمِ ... ورافعاً حجَّةَ الإسلامِ كالعَلَمِ

وراعياً حُرمَةَ المكفوفِ فى زمنٍ ... لم يَرْعَ أهلوهُ ما للْحقِّ من حُرَمِ

دعوتَ دعوةَ بَرٍّ حازمٍ يقظٍ ... وصُلتَ صولةَ حُرٍّ صادقِ الهِمَمِ

ناديتَ قومكَ تَستَرعى انتباهَهمُ ... لعالَمٍ فاضَ بالحرمانِ والسَّأَمِ

وصحتَ فيهمْ وقد أبصرتَ كثرتَهمْ ... لا تَستَجيب لصرَعى الهَمِّ والأَلَمِ

يا قومُ رفقاً بإخوانٍ لنا حُرِموا ... أَجَلَّ ما وُهِبَ الإنسانُ من نِعَمِ

هم قوةٌ عُطِّلتْ، لو أنها لَقِيتْ ... عونَ الأُساةِ لأَحيوها مِن العدمِ

أَما كفاهمْ من الأَيَّام ما صنَعتْ ... وما يُلَقَّوْنَ مِن رَوْعٍ ومن نِقَمِ؟

قستْ عليهمْ فعاشوا فى شدائدِها ... كأنَّهم من سعيرِ البؤْسِ فى ضَرَمِ

يا قوم حسبُهمُ ما فى قلوبِهِمُ ... من الأَسَى وهمُ منكمْ ذوو رَحِمِ

فراقبوا اللهَ فيهمْ، واعملوا لهمُ ... مَن نامَ عنهمْ فعينُ اللهِ لم تنمِ

* * *

وتلكَ دعوةُ إخلاصٍ قَبستَ بها ... نوراً لمن عاش فى دُنياهُ وهو عَمِ

أنفقتَ عمركَ للمكفوفِ تُنصِفُهُ ... من دهرهِ، وتَقيهِ عثرَةَ القَدمِ

وكم سهرْتَ، وكم أَبلغتَ حاجتَهُ ... فبات يسمعُها مَن كان فى صممِ

للهِ ما سطَّرتْ يُمناكَ مِن عِبَرٍ ... أعظمْ بها فى بِناءِ الحقِّ مِن دَعَمِ

سِفْرٌ من النَّسَقِ العالى يَفيضُ هدًى ... ورحمةً نَقَعتْ بالرِّىِّ كلَّ ظَمِ

ومَضٌ من النورِ قد أرسلتَه كلِماً ... أبلغْ به فى مجالِ الصدقِ من كَلِمِ

حتى إذا وجمَ المحزونُ سُقتَ له … دُعابةً رفّهتْ عن قلبه الوجِم

أريتَنا كيف حلّ العلمُ مشكلةً … وكيف زال به ما اشتد من غُمَم

وكيف أحيا نفوساً من مهانتها … لولاه ظلّتْ ضحايا اليأْسِ والسّقم

فباتَ يسبقُ مكفوفٌ بأَنْمُلِهِ … من مَدّهُ بصرٌ فى دولةِ القلَم

وعُدتَ للسّلفِ الماضين تَنْشرهمْ … فى قوةٍ عصفَتْ بالشّكِ والتهم

جلّيت فضْلَ رسولِ اللهِ حين أَتتْ … آى الكتابِ بعتبٍ غيرِ مُكْتَتَم

ما كادَ يُقْبلُ (عبدُاللهِ)[1] فى حذرٍ … حتى تلقاهُ منهُ وجْهُ مُبْتَسم

وقال: أهلاً بمن ربّى يعاتِبُنى … مِنْ أَجلهِ، وعتابُ اللهِ مُغْتَنمى

أَنعمْ به خُلقاً جاء النّبىُّ بهِ … برهانَ صدقٍ على ما حاز من عصم

وقد عرضْتَ (لبَشّار)[2]، ودقّتُهُ … فى الذوق والحس أمرٌ بالغُ العظم

ولم تدعْ لأبى العيناء[3] من طُرفٍ … إلا أتيْتَ بها فى خفّةِ النّغم

وكم تقصّيت فى صبرٍ وفى ثِقةٍ … (أبا العلاء)[4] وما أَغْلى من القيم

ورُحتَ (للزين)[5] تجلو من بدائعه … ماساقَ من مَثلٍ أَوصاغَ من حِكَمَ

ولم تزَلْ تضربُ الأمثالَ فى نَسقٍ … كاللحنِ مُنسجمٍ، كالدُّرِّ منتظمِ

صحائفٌ فى كتابِ المجدِ سطرها … بنو العروبة بَزّت سائرَ الأمم

للهِ درُّكَ كم كشّفتَ مِن ظُلمٍ … عن بائسينَ، وكم وفيتَ مِن نعم

جمعتَ أمرين عزّ الجمعُ بينهما: … علم الهداةِ وسعىُ الحاذقِ الفهِم

جزاكَ ربكَ عما جئتَ صالحةً … وعشتَ للبرِّ محموداً بكلِّ فم!

---

(١) انظر المجلد الأول من هذا الكتاب، ص ٢٨ — ٣٣.

(٢) انظر المرجع السابق، ص ١١٨ و ١٢٨ و ١٣٦ و ١٤٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٣٧. (٤) المرجع السابق، ص ٣٣٨.

(٥) المرجع السابق، ص ٢٠٢.

٣ — كلمة الأستاذ طاهر الطناحى رئيس تحرير « الهلال »

كنت أتمنى أن أكون فى هذا الحفل الكريم خطيباً رسم من قبل خطابته، أو كاتبا أعد كتابته، أو شاعرا نظم قصيدته، لا أن أكون مرتجلا فى هذه الساعة التى لا أظننى أفى فيها صديقى الأستاذ الكبير أحمد الشرباصى حقه من التقدير والتكريم.

ولكن يؤسفنى أن أدعى على غِرّة لحضور هذا الحفل، وأن يتجاوزنى الحظ، فلا أستعد بكلمة أو قصيدة من قبل، فإن لصديقى الكبير مكانة كبيرة فى نفسى ونفوس أصدقائه وعارفيه والمعجبين به، ممن سعدوا بمعرفته عالما إسلامياً، وخطيباً مفوها، ومؤلفاً قديراً . . .

ولكن نفسى دعتنى للكلام، بل دعانى واجبى نحو نبوغه، وتقديرى لمقدرته، وإعجابى بفصاحته، أن أسهم فى هذا التكريم، بما يسمح به ضيق الوقت والمقام.

ولعل وقوفى بينكم على غِرّة من أمرى وأمركم من أبلغ الأدلة على ما للأستاذ أحمد الشرباصى من عظيم التقدير فى نفوس الجميع، سواء منهم من دُعى، ومن لم يدع إلى هذا المكان، فإن الباعث لى نفسانى بحت، بل إن البصيرة لا البصر، والفكر لا النظر، هما اللذان دفعانى إلى هذه المساهمة المشرّفة! . . .

وقد قال لقمان: « إن العالم الحكيم يدعو الناس إلى تقديره بالصمت والوقار ». والأستاذ الشرباصى لم يدعنى كما لم يدع غيرى إلى تكريمه، فإنه رجل وقور صامت، لا يحب الدعاية لنفسه، وإن كانت مناقبه تتحدث بنبوغه، وآثاره تدعو إلى الإعجاب به وتقديره.

ومناقب العلم والأدب — كما قال ابن المقفع — مناقب باقية تستحق التكريم،

وتبقى بها الكرامة على الدوام . . . أما المال والجاه والسلطان فإن تكريمها تزلف ومداهنة ، والكرامة بها تزول بزوالها . . .

وقد حظى الأستاذ الشرباصى بالكثير الجم من مناقب العلم ، ومناقب الأدب ، ومناقب التأليف ، وله المؤلفات التى أربت على العشرين مؤلفاً ، عدا خطبه ودروسه ومحاضراته النفيسة التى تستحق التكريم ، وتبقى بها الكرامة طول السنين ! ! . . .

***

ولقد رأيت فى مؤلَّفه الأخير : (فى عالم المكفوفين) ما أضاء نفسى وفكرى ، وكشف الكثير من معميات الحياة أمامى . . .

ولا أكتمكم أننى حين تناولت هذا المؤلف ، وأخذت فى تصفحه ، خلتنى سأقرأ فى الجلسة الأولى فصلا منه أو فصلين ، ثم أطويه لأقرأ الباقى على فترات أو أجزاء ، ولكنى ما كدت أنتهى من الفصل الأول حتى وجدتنى أنساق فى قراءة فصول الكتاب كلها ، فى متعة وشوق نفسى وفكرى ، حتى أتممت قراءته فى ساعات ! . .

وقد رأيت فى فصوله التى بلغت اثنى عشر فصلا من علمه ، وسعة اطلاعه ، وبراعته فى حسن العرض ، وقدرته على الإحاطة بموضوعه ، مازادنى إعجابا بالتأليف والمؤلف . . ولقد أطلعنا كتاب (فى عالم المكفوفين) على الشائق العجيب من ذكائهم ، وأخلاقهم ، ومواقفهم الفذة ، وفكاهاتهم الطريفة ، ومواهبهم النادرة ، كما بين لنا ما أستطيع أن أقول معه : إن هذا الكتاب النفيس يغرى الإنسان بالعمى ، والانضواء فى عالم المكفوفين ، خصوصاً وقد أثبت ببلاغة وبراعة أننا « كلنا مكفوفون » [1] ! ! . . .

---

(١) انظر كتاب (فى عالم المكفوفين) ، المجلد الأول ، ص ٩ - ١٥ .

ولقد كنت أحفظ للشاعر المصرى ابن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ هـ بيتين فى مدح العمى نظمهما فى محبوبة له كُفّ بصرها وهما :

إن الكمال أصاب فى محبوبتى ... لما أصاب بغينه عينيها
زادت محاسنُها فصرتُ تخالها ... وَسنى وقد أسر الكرى جفنيها

كنت أحفظ هذين البيتين ، وأرى أن هـذا الشاعر أراد بهما الطرافة والإبداع ، لا تحسين العمى ، و بيان ما فيه من محاسن وجمال ، ولكنى بعد أن اطلعت على كتاب : (فى عالم المكفوفين) وجـدت أنه قد كشف فى هذا العالم مالم يكشفه ابن سناء الملك من سعادة وجمال ، وحسن وإحسان ، ووقفنا على الكثير مما نجهله عن هذا العالم العظيم بمواهبه ، العظيم بالنعم الكبرى التى عوضه الله بها عن نعمة النظر ، حتى إنى لأخشى من هذا الكتاب النفيس الذى فتح هذه الآفاق النيرة (فى عالم المكفوفين) أن يكون باعثا على حب العمى والغرام به ، فيزيد عدد المكفوفين فى العالم إلى الملايين ! ! . . .

وقد كشف لنا المؤلف فى كثير من أبوابه ما جاء به القرآن الكريم، وما جاءت به الحكم والآثار ، من أن العمى هو عمى البصيرة لا البصر (١) ، وروى فيما روى الجواب البليغ الذى أجاب به عبد الله بن عباس، معاوية بن أبى سفيان، وكان ابن عباس قد كف بصره فى آخر أيامه ، كما حدث لأبيه العباس بن عبد المطلب ، فقال له معاوية : ما بالكم تصابون فى أبصاركم يابنى هاشم ؟ ! . . .

فأجابه ابن عباس :

كما تصابون فى بصائركم يابنى أمية ! . . .

و إنى لأذكر بيتين لأبى معاذ بشار بن برد تأييداً لما جاء فى هذا الكتاب ، من أن العمى الحق هو عمى البصيرة ، وعمى الجهل ، لا عمى البصر .

---

(١) انظر كتاب (فى عالم المكفوفين) المجلد الأول ، ص ٢٢ .

فقد قال بشار :

شفاء العمى طول السؤال ، وإنما
تمام العمى طول السكوت على الجهل

فكن سائلا عما عناك ، فإنه
دُعيت أخا عقل لتبحث بالعقل !

ولا أستطيع فى هذا الوقت القصير أن أذكر كل ما جاء فى هذا الكتاب من معلومات ودراسات شائقة ، وأبواب مبتكرة فى عالم التأليف ! . . .

* * *

ولقد كنت من قبل — أو على الأصح — من عدة سنوات قرأت كتابا باسم : (الأعمى فى عالم المبصرين) للكاتب الفرنسى بيير ليفى ، وقد كف بصر هذا الكاتب وهو فى سن الرابعة ، وتناول فى كتابه العمى والعميان قديما وحديثا ، وروى كيف كان المكفوفون يعاملون فى بعض الأمم القديمة معاملة سيئة ، حتى إن طائفة المانوية ، وهى طائفة مجوسية فى بلاد الفرس ، كانت تعتبر المكفوفين أنجاسا ، وكانت بعض الأمم القديمة الأخرى تعتبرهم ذوى أرواح شريرة ، إلى غير ذلك . وعلى الرغم مما جاء فى هذا الكتاب من دراسات وبيانات تاريخية ، فإنى أقرر أن كتاب الأستاذ أحمد الشرباصى أوسع بيانات ، وأبلغ دراسات من كتاب بيير ليفى ، بل إنه قد صور عالم المكفوفين بصورة مضيئة ، وأطلعنا على أرجاء هذا العالم الواسع ، وأتاح لنا أن نشهد أحداثا عجيبة وشخصيات عبقرية درسها دراسة قيمة ، كما أتاح لنا أن نلم من هذا العالم بجوانبه المجهولة ، فأهدى إلينا بذلك علما غزيرا ، وأدبا نفيسا ، وفنا ممتعا ، على الرغم من تواضعه ، واعترافه اللطيف بأن هذا الكتاب تجربة أولى ، وقطرة من يراع ، وأنه سوف يتبعه بغيره ، وليس ذلك عليه بعزيز ، فإنه كالمطر الذى يروى الجدب ، أو كالنهر الذى يفيض بالماء العذب .

ولقد أرانا الأستاذ المتواضع من قدرته فى عالم التأليف مايطمعنا فى أن نستزيده تأليفا ، وإن كانت مؤلفاته قد أربت على العشرين مؤلفا ، فإننا وإن كنا قد عرفناه خطيبا بليغا مغذيا للفكر ، مرويا للقلب ، مطربا للوجدان ، فقد شاهدنا من موهبته فى التأليف وقدرته فى التصنيف مايجعلنا نتزاحم على مورده العذب ، وقد قيل : « المورد العذب كثير الزحام » .

٤ — كلمة الأستاذ محمد شاهين حمزة

« كل ذى عاهة جبار » ..

بهذا المثل السائر ، وبما ينبثق من قشرته من معان سطحية ، استقبلت فى شبابى زاوية من زوايا حياتى الخاصة ، وكنت إذا أجريت هذا المثل على لسانى ضخّمت كلمة (جبار) وضغطت عليها ... ومضيت فى شبابى أخشى الكفيف ، وأتقى الأعرج وأنفر من الكسيح لأنهم (جبابرة) ! ... وعلمت فى عهد الشباب أيضاً أن نسبة الجبروت إلى هؤلاء لها صلة وثيقة بحالة نفسية تستولى عليهم نتيجة الشعور بأنهم سُلبوا حقا لهم ، أو حرموا من نعمة إلهية مشتركة ...

ومضت الأيام ، ثم ما لبثت يداها أن تناولت جفنىّ تفتحهما رويدا رويداً ، حتى إذا رأيت بعض الحقائق علمت أنى أنا الذى كنت كفيفاً ، أو كنت فى إدراكى أعرج أو كسيحاً ، وأيقنت أنى كنت ظالما لأولئك القوم ، وذابت المعانى الأولى فى نفسى ، وحلت محلها معان جديدة . . حلّ صبح مكان غسق ، وزهر مكان أشواك ، وأخذت أدنو من هؤلاء الكرام ، وأتقرب إليهم بفكرى ومشاعرى وآمالى ، حتى كأننى أحدهم ، أحس بأنهم إن فقدوا شيئاً فقد أكون فاقداً لأشياء .

ومن نافلة القول أن أتحدث عن التعويض الذى يمنحه الله للمكفوف وغيره ،

ولـكن لا بأس فى التحدث عن أنواع هذا التعويض وصوره ، فمن التعويض ما يرقى إلى الدرجات العلا ، حتى ليبدو فى أحد جوانبه جباراً ، لا بالمعنى الخاطىء القديم ، لـكن بمعنى القدرة على النفوذ بقوة قاهرة جبارة ، ونحن إذا قلنا إن (الرادار) قوة جبارة أردنا أنه قوة خارقة .

مثلا هذا شعر يصف به صاحبه الشيب الذى تسلل إلى رأسه فيقول :

قال لى من رأى صباح مشيبى عن شمال من لمتى ويمين :

أى شىء هذا ؟ فقلت مجيباً : ليل شك محاه صبح يقين !

واسمعوا هذا التصوير لموقعة حربية :

كأن مُثار النقع فوق رءوسنا وأسيافَنا ليل تهاوى كواكبه !

واسمعوا وصفا لنجم من نجوم السماء يدعى (سهيل) له لون يميل إلى الاحمرار، وله ذبذبة واضطراب دائمان :

وسهيل كوجنة الحِبِّ فى اللو ن ، وقلب المحب فى الخفقان !

من يظن ياسادة أن هذا الشعر لمـكفوفين ؟. فالأول لشافع بن على العسقلانى ، والثانى لبشار ، والثالث للمعرى !! .. إن الإنسان يشك فى نسبة هذا الشعر إلى مبصرين عاديين ، ولا يرضى به إلا لمبصرين بصرهم حديد ، فى يد كل منهم ريشة فنان ، يغمسها فى مثل الصبح إذا تنفسِ ، أو الأصيل إذا نَعس ، أو جو الزهر إذا تبسم ، أو العود إذا غمغم ونغَّم...

لـكن أولئك المـكفوفين الشعراء فاقوا المبصرين من هذا النوع بسبب ذاك التعويض الذى أفاض عليهم إشراقا فى النفس ، وجلاء فى الحس .

وهذا إبراهيم بن الحسن القضاعى المـكفوف يقول :

قدك والغصن ليس بينهما إذا تثنيت وانثنى فرقُ

والوجه والفرع يا معذبتى ذا مغرب ، وذا شرق !

ويقول أبو الحسن الحصرى المكفوف :

صاحِ والخمر جنى فمه سكران اللحظ ، معربده
يامن سفكت عيناه دمى وعلى خديه تورده !
خدّاك قد اعترفا بدمى فعلام جفونك تجحده ؟

وهذا شاعر حديث مكفوف ؛ هو أحمد الزين ، يقول :

سحرية الفم لو مست بقبلتها فمَ العيي لحلّت كلّ معقودِ
تكاد من رقة تغرى مقبِّلها أن يحتسيها رحيقا غير مورود
قد صاغها الله لما أشركت أمم به، وقال اشهدوا برهان توحيدى!

بم بلغ هؤلاء المكفوفون هذا المبلغ من النبوغ ؟ بلغوه بذلك التعويض الذى أغدقه الله عليهم . . . وهبهم عينا ثانية براقة ، قامت على مس إلهى من الرقة والرهافة والقوة ، ترى ما تراه العين الطبيعية وما لا تراه ، هذه العين الثانية لا تقف آثارها عند حدود الشعر والتصوير الفنى فيه ، لكنها تتدخل فى كثير من نواحى الحياة فى العلوم والفنون .

سادتى . لقد علمتم صورا من العبقرية والنبوغ فى عالم المكفوفين ، وهذا يقتضينا السعى والتكاتف لإبراز كل دفين من كنوز هذا العالم ، ونحمد الله على أن عاملين يعملون فى هذا الحقل مجدين من أجل هذه الغاية التى تزيد الحياة ثروة . . . إن بعض العلماء يعملون لتحويل النور المعكوس عن الحروف المختلفة من كتاب أو مجلة إلى أصوات ، وبذلك يستطيع الكفيف أن يقرأ عن طريق الأذنين ؛ وإن آخرين يعملون على صنع (رادار) صغير يتصل بسماعات موضوعة فى أذنى الكفيف ، يمتد شعاعه إلى الأمام فيستطيع الكفيف تجنب العوائق التى

تعترض طريقه ؛ ونحن نستطيع أن نعمل كثيرا لهؤلاء . . .

سادتى . هذا كله من وحى كتاب (فى عالم المكفوفين) للأستاذ الشرباصى ، وإن ما يوحى به هذا الكتاب ويفيض به لكثير ورائع وجليل . . . إنه ليس كتابا عاديا ، ولكنه نور يهدى إلى نور ، وخير يدعو إلى خير ، وإنه لتحية محمولة على أجنحة من الحب الصافى والوفاء المقيم للمكفوفين والمبصرين على السواء . . . وإنها لدعوة إنسانية جديرة بالحفاوة والإكبار ؛ ومن دواعى السرور ذلك التقدير الكبير الذى لقيه الكتاب ، إذ قررت جامعة الدول العربية منحه جائزة الكتاب العربى ، وهى جائزة رمزية قدرها مئة جنيه ، تقديرا للجهد العلمى الذى بذله مؤلفه ، وكذلك تقرر طبع هذا الكتاب بالأحرف النافرة بطريقة برايل ، ليطالعه المكفوفون بأنفسهم ، وليس أجمل من هذا ولا أحسن وقعا فى النفس .

٥ — قصيدة الأستاذ الصاوى شعلان

إذا أردتَ ثمار البحث أنوارا ... أو التمست ربيع الفكر نوَّارا

فاقرأ (لأحمد) سِفْراً صاغه دررا ... من المعانى ، وصاغ الشمس أفكارا

أهدى البصائر عرفانا يكاد به ... يُهدى الكفيف — ولو فى الليل — إبصاراً

كأنما طاف بالتاريخ فاحتشدت ... له المواكب أبطالا وآثارا

فما رأى فيه مكفوفا أضرَّ به ... ريب الزمان ملماتٍ وأكدارا

إلا وقدَّم منه للهدى علما ... من روحه يكسب الأرواح أنظارا

رسالة يلمس المكفوف آيتها ... كما يلامس عند الشدو أوتارا

تجدد النور فى إيمانه أملا ... يثير نحو العلا فى عزمه النارا

خطَّت يد (الشرباصى) فى صحائفه ... سحرا من النثر فيه الشعر قد حارا

كالصبح مؤتلقا ، والزهر منبثقا ... والعطر منطلقا ، والسيل هدارا

إلى العـروبة والإسلام همته تغزو الحوادث أقدارا وأخطارا
تعبيره كعبير الروض فى كلم يود لو حازهن الروض أزهارا
أو أنْ للبلبل الصداح منطقها كيما يساجل فوق الغصن أطيارا
كتاب (أحمد) فاق الصبح أنوارا لو لم يـكن للربى عطرا ونوارا
أهدى البصائر عرفانا يكاد به يهدى لمن فقد الإبصارَ إبصارا
أبان عن قدرة الله التى حرمت فعوضت فى مكان النور أنوارا
وربما فاق (زرقاء اليمامة) مكفو ف تخطّى بضوء العقل أستارا
أجيد تـكريمَه لو كنتُ بينكمُ (أبا العلاء) هنا أو كنت (بشارا)
قميص يوسف يايعقوب جدّدَه كتابُ (أحمد) للمكفوف منظارا !

٦ — كلمة الأستاذ على عبد العظيم وكيل الرابطة

أيها السادة . . .

أحمد الشرباصى شخصيةٌ فسيحة الأرجاء ممتدة الآفاق ، أو هى على الأصح شخصياتٌ متعدّدة الجوانب كثيرة الأنحاء ، فإذا أردنا أن نتعرف إليه وجب علينا أن نتعرف أولاً إلى شخصياته العديدة ، ثم نتعرف إليه كُلاًّ مجتمعاً ، وبهذا نطمئن إلى الإحاطة به أتم الاطمئنان .

أولا : شخصية العالم الدينى ، الذى يفقه شعائر دينه فقها صحيحا قائما على الدراسة العميقة والبصر النافذ والأفق الواسع الفسيح ؛ لا على مجرد متون تعيها الذاكرة ، وشروح تستوعبها الحافظة ، وحواش يصحبها الاستظهار ؛ وكم رأينا أشخاصا من العلماء يدفعهم حبهم للتجديد إلى مزالق خطيرة ، قد تندقُّ فيها أعناقهم وتنطمس فيها بصائرهم ؛ ولـكن الأستاذ الشرباصى يأخذ بأطراف الجديد

فى رفق ويسر، ويتناول العلوم الحديثة فى دقة وتبصر، فيسخرها فى سبيل عقيدته القوية وإيمانه المتين .

ثانيا : شخصية الأديب البارع المتقن، الذى درس فنون الآداب قديمها وحديثها، سواء منها ما أشعت به الفكرة أو شعشعه الوجدان ؛ ثم هضم مادرس، وتمثله خير تمثيل، فجرى على لسانه سحرا رائعاً، وعلى سنان قلمه آيات بينات .

ثالثاً : شخصية الخطيب الموهوب، وقد ساعد على بروز هذه الشخصية فيه مظهره الوسيم، ولسانه الطلق، وصوته الموسيقى النغم، وعبارته السلسة المنتقاة، وبديهته اللمّاحة المشتعلة التى تسعفه فى مآزق الكلام ؛ وكم فى الخطابة من مآزق ومزالق لا يستطيع تفاديها إلا كلُّ ثبت الجنان .

رابعا : شخصية المؤلف الذى يفرغ لموضوعه، ويتعمق فهمه ويجمع أصوله ومصادره، ويوازن بين الغث منها والسمين، فيقدم ويؤخر، وينفى ويقرر، ويمحو ويثبت، ثم ينسق وينظم، ويبسط ويدلل، فيخرج بهذا على الناس بما يبهر منهم البصائر والأبصار .

خامساً : شخصية الإنسان الشاعر الذى ينفعل ويتأثر، ويحس ويشعر بأدق العواطف الإنسانية والنزعات الوجدانية، فيتألم مع المتألمين، ويبكى مع الباكين، ويثور مع الثائرين، فى مشاركة وجدانية عميقة تأسو كلومهم، وتداوى جروحهم، وتدعوهم إلى العزاء والسلوان .

ونستطيع أن نقول : الشخصية السادسة، والسابعة، والثامنة، إلى ما شاء الله من هذه الشخصيات العديدة التى تتكاثر على الزمن، وتتعدد بتعدد الأحداث .

ولكننا نكتفى الآن بما ذكرناه، ونسارع إلى دفع شبهة قد تطيف ببعض

الأذهان ، موهمة أن هذه الشخصيات الكثيرة متنافرة متدابرة لا يجمعها كيان ، ولا يربطها اتصال ، فينطبق عليها ما يسميه علماء النفس بالشخصيات المزدوجة أو المتفككة أو المنهارة ؛ ومعاذ الحق فإن صديقنا الشر باصى على تعدد شخصياته متماسك البنيان ، متحد المواهب ، مترابط النواحى .

وهو يمتاز إلى هذا بطابعه المتميز الذى لا يشاركه فيه كثيرون ، فهو حركة دائبة ؛ قلما تهدأ فى ليلٍ أو نهار ؛ فهو دائب التفكير ، دائب الحركة ، دائب النشاط ؛ بينما تراه فى الشبان المسلمين يحاضر ، إذا به فى الرابطة الإسلامية يخطب ، أو فى الأزهر يدرس ، أو فى الصحافة يكتب ، فهو لا يرحم شخصياته العديدة ، ولا هى له من الراحمين .

ومن يدرى فلعله يكون كأهل الخطوة ، الذين تنطوى لهم الأرض كما يقال وتتجمد المياه ؛ فهو يطوى الأرض و يمشى على الماء .

وهو إلى هذا منبسط الشخصيات ، ممن يطلق عليهم علماء النفس Extroverts فإنه يفسح صدره للعلماء من متزمتين ومتحررين ، و يوسِّعُ قلبه للأدباء من جامدين وتقدميين ، ويتعامل مع أنماط من الناس عديدين ؛ فيجد الجميعُ فى قلبه مكانا رحباً ومجالا فسيحاً ، على الرغم من تعدد ميولهم وأهوائهم ومشاربهم .

وأحسب أنه لو تقدم به الزمن لكان كتابه الذى بين أيدينا الآن يحمل اسم « الصبح المبين فى عالم المكفوفين تأليف العلامة البحر الفهامة الحبر الجليل الفقيه الكبير الشيخ أحمد الشر باصى عفا الله عنه بمنه وكرمه آمين » .

وكنا نحن جديرين أن نتلقى كتابه مؤمنين بهذه النعوت أصدق الإيمان .

والآن وقد صوَّرْتُ بعض جوانبه أُحِبُّ أن أَعرِضَ لما يأخذه عليه

الآخذون ممن يعيبون الوَرْدَ بحمرة خدّيه ، والغصن بلين عِطْفيْه ، والهواء برقّته ، والبدر بلمحته ، أو ممن لا يعجبهم العجب ، ولا الصيام فى رجب كما يقولون .

بعض هؤلاء يرون إعجاب السامعين بتدفقه فى خطابته ، وتأثيره فى حديثه ، فيقولون إنه يعد كلامه ، ثم يلقيه فى لهجة خطابية مؤثرة .

ونستطيع أن نقول لهم : هبْ ما تزعمونه صحيحاً فإنه يضيف إلى مواهبه موهبة جديدة أو مواهب عديدة ، منها أنه لا يلقى الكلام على عواهنه ، ومنها أنه يدرس موضوعاته دراسة عميقة تستحق منا الثقة بها ،والاعتماد عليها ،والركون إليها فى صدق واطمئنان .

ثم يعيبون عليه أنه يبالغ فى الاعتزاز بشخصيته والسمو بنفسه ، وهو عيب أقرب إلى الكمال منه إلى النقصان ، فلا يضير الإنسان أن يعرف لنفسه قدرها ولمواهبه حقها ، ورحم الله الشاعر الذى يقول :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هوانا بها كانت على الناس أهونا

ثم يعيبون عليه أنه مولع بالزعامة فى ميادين الأدب والاجتماع ،ونسوا أنه من الروّاد الدينيين والمدرسين الموهوبين والمصلحين الاجتماعيين ،وهؤلاء لا يستطيعون أن يؤدوا رسالتهم إلا إذا كانوا قُوَّاداً موجهين .

ولقد أعجبنى فيه أنه يرعى طائفةً من طلابه أصحاب المواهب الشعرية الغضّة ، فيشجعهم و يوجههم ،و يفتح أمامهم مغاليق الأبواب، هذا فى الوقت الذى نرى فيه كثيرين من كبار الأدباء يضيقون بالأدباء الناشئين،فيوصدون فى وجوههم السبل ، و يقيمون أمامهم العقبات ، و يحاولون أن يمزقوهم شرّ تمزيق .

ولهذا أستطيع أن أضيف هذه العيوب إلى ماله من حسنات عديدات .

و بعد ، فلا أدرى أأغضبتُ الصديق الكريم أم أرضيتُه ؟ . ولكننى واثق أننى أرضيت الحقيقة، وأعتقد أنه من طلابها، الحريصين عليها ، المؤمنين بها ، الداعين إليها فى كل سبيل و بكل لسان .

٧ — قصيدة الأستاذ محمد بدر الدين

أمل يعز الشرقُ منه و يشرفُ ... وهدى لمن عرفوا ومن لم يعرفوا

عَلَم كما تهوى العلا ، لا ينثنى ... يسعى إليه مجدُه المتشوفُ

ومهنَّد فى أرض يثرب قينُه ... وسنان حقٍّ فى الشدائد ترهف

كم رقةٍ سالت عليه ضراوةً ... كالنصل رقته أحدُّ وأرهف

وعلى ظُباه الخالدية ينطوى ... أجلُ الظلام وجيشه المتكثف

وعلى سبيل الله شقَّ طريقه ... وإلى الهدى يدعو الورى و يؤلف

وإلى محجته المضيئة أقبلت ... زُمَرُ السراة على هداها تزحف

نور النبوة هديها وضياؤها ... يسعى إليها الواجف المتلهف

ميراث خير المرسلين حياته ... وإلى هداه فى البرية يهدف

كم سطرت يدُه وفاض لسانه ... وانهال صيِّبُ فكره لاينزف

وجنانه الإلهام ينسج أفقه ... وعلى خواطره يفيض و يسعف

كم درة بعدت مكامنها دنت ... لدؤوب كفٍّ للشوارد تلقف

فخر لمفخرة الزمان ، وحسبنا ... فى الفخر أزهرنا المجيد الأشرف

وإذا تباهى الروض عاد فخاره ... ليد تنسق حوضه وتزخرف

يا (أحمدا) حمدته روحُ محمد ... ورضا السماء على المحيا يُعرف

أنا ما مدحتك والقوافى شاهدى فعن المدائح همتى تتعفف
لكنّ من يصف النجومَ بنورها أتراه يمدحها ؟ وهل هو مسرف ؟
هذى تحية من أحبَّك منصفا وإذا أحب المرء قد لا ينصف
لو كنتَ فى مُلْك لما أهديتُها كيلا يقال : تملق وتزلف
حُيِّيتَ باسم الله واسم محمد .. واسم الكتاب ومن لقدرك يعرف!

٨ — كلمة الأستاذ فتحى الرملى

تعودنا فى الصحافة أن نقرظ الكتب التافهة والمؤلفات الهزيلة بطريقة خبيثة ... نوفق فيها بين اعتبارات المجاملة أو التشجيع ، وبين الهروب من مسئولية الإشادة بمجهود لا يستحق الذكر ... ومن نماذج ذلك التقريظ التقليدى أن تقول الصحيفة : « والكتاب الفلانى جميل الطبع ، صقيل الورق ، جذاب الغلاف ، حسن التبويب » ! .

وقد تعودنا فى الصحافة أيضاً أن ننقد الكتاب القيم ونشن عليه الهجوم ... وذلك لأن المؤلف العظيم وحده هو الذى يستحق التعليق والهجوم ، والذى يرتفع إلى مستوى المناقشة ... والأخذ والرد ! .

ولهذا أرى أن كتاب الأستاذ أحمد الشرباصى (فى عالم المكفوفين) يستحق منا النقد والهجوم !! ... فمن تحصيل الحاصل هنا أن ننوه بمدى ما بذله المؤلف من الجهد الظاهر فى وضع هذه الدراسة الجديدة الممتعة ... ومن تحصيل الحاصل أن نتكلم عن هذه الدوافع الإنسانية التى أوحت إليه بموضوعه ، فهذا الجانب الإنسانى فى تفكير الشرباصى وفى أهدافه كان يكفى وحده لأن تؤلف القصائد الطويلة فى مدح الأستاذ الشرباصى ... لكننا فى هذه الندوة لا نجتمع فى الواقع من أجل الشرباصى ... بل من أجل المناقشة فى هذا الكتاب الذى صدر منذ أكثر من عام ، وهو مع ذلك لا يزال يستحق التعليق والمناقشة ! .

وأنا ألاحظ أن هناك مسألة تركها الأستاذ الشرباصي فى كتابه ، وهى التحليل العلمى لظاهرة التفوق الفنى والأدبى عند المكفوفين .. صحيح أنه قال فى صفحة ١٣٥ بالحرف : « ولسنا نريد هنا تقصى الأسباب التى تؤدى إلى هذا عند المكفوف » كما قال فى نفس الصفحة : «وهناك نظرية التعويض بين الحواس»

صحيح أن الشرباصى قال هذا ، لكن الصحيح أيضاً أنه وقف عند هذا الحد ولم يزد ، وهنا يكون الذنب أكبر، فهو يتجاهل ولا يجهل ... وهو يهمل عن عمد وتدبير .

* * *

لقد ترك الشرباصى ما كان ينبغى أن يكتمل به هذا البحث القيم فعلا ... ولا عذر له بأن يقول إنه لم يتخصص لهذا النوع من الدراسات النفسية ، فلا أقل من أن يدرس هذا الجانب وحده ، المتصل بمؤلفه عن المكفوفين ...

فالنقص الجسمانى وما يؤدى إليه من عقد ومركبات كان ولا يزال مادة واسعة للعلماء والمفكرين .. وجدير بالتأمل ولا شك هذه الظاهرة العجيبة عن قانون التعويض ، ذلك الذى جعل من بيتهوفن الأصم الذى لا يسمع أكبر مؤلفى الموسيقى والألحان ! ! والذى جعل من أبى العلاء المعرى الكفيف أبرع الأدباء والشعراء فى الوصف والقصص ! والذى جعل من روزفلت الكسيح المشلول بطلا عالمياً ! وقدم للإنسانية عشرات العبقريات الخالدة فى كل علم وفن ... ملتون ، و بيرون ، وبودلير ، وهنا فى مصر أيضاً ... طه حسين ، ومحمود أبو الوفا ... ذلك الشاعر الكبير الذى قال فيه شوقى :

سباق آيات البيان جرى بلا ساق ، فكيف إذا استرد الساقا !

يقول (أدلر) صاحب نظرية قانون التعويض المعروفة فى علم النفس : إن النقص يؤدى إلى نوعين من التعويض ... أحدهما سلبى ، والثانى إيجابى ! .

والتعويض الإيجابى ينقسم بدوره إلى أنواع ، منها التعويض التفوقى الذى يؤدى بالإنسان إلى التعويض عما فيه من نقص بالتفوق العام الذى يغطى ذلك النقص ... ومنها التعويض العضوى الذى يحاول فيه صاحب الذراع المقطوعة أن يأتى بأعمال خارقة بذراعه الأخرى ... ومنها التعويض التعادلى الذى تحاول به الفتاة الدميمة مثلا أن تعادل هذه الدمامة بمزيد من الخفة أو الخلاعة !... ومنها التعويض الادعائى الذى يدفع الرجل العنين إلى الحديث عن غزواته الغرامية وفتوحاته الجنسية ! .

أما التعويض السلبى فينقسم كذلك إلى أنواع ... منها التعويض العزائى الذى يحارب فيه الإنسان الضعيف نقصه حرباً سلبية فى دنيا الخيال ، كأن يعيش الكسيح فى أوهام تصور له أن الملائكة قد فرشت له بساط الريح ليحلق به على عباد الله ! ... ومنها التعويض الهروبى الذى لا يجد فيه الإنسان شجاعة كافية لمواجهة نقصه ، فيهرب منه إلى الموت بالانتحار ، حيث يجد فى ذلك راحة لنفسه ، أو انتقاما ممن أساءوا إليه عند ما يتصور ضمائرهم — بعد موته — وهى تؤرقهم وتؤنبهم على ما اقترفوا فى حقه ! ... ومنها التعويض الاستغلالى ... عند ما يبالغ الأعرج مثلا فى تصوير نقصه ، بأن يتعمد الوقوع أمام الناس استثارة لعطفهم وشفقتهم ! ومنها التعويض الهجومى الذى يعمد فيه الشاعر بنقص فيه إلى اتهام غيره بهذا النقص ، وهو بهذا لا يريد أن يخفى عيبه عن الناس فحسب ، بل يطمع دون وعى فى أن ينسى هو نفسه ذلك النقص الذى يؤرقه فى غمرة اتهامه للآخرين .

هذه هى المسألة التى كنت أود من الأستاذ الشرباصى أن يتوسع فى الحديث عنها ، ومع هذا فكتابه بلا شك دراسة جديدة ممتعة ، وهو يستحق كما ذكرت الكثير من التقدير والتكريم .

٩ — كلمة الأستاذ محمد عبد الله السمان

حين أهدى إلىَّ العالم الأديب الأستاذ الشرباصى كتابه الجديد ، وسفره الضخم (فى عالم المكفوفين) كان ذهنى فى مسيس الحاجة إلى رحلة شيقة ممتعة . كنت بدون أعصابى التى سطت عليها ظروف قاسية مريرة ، كانت أقسى من أن تصمد أمامها أعصاب من فولاذ ...

وتلقفت هذا الكتاب بشغف ، وبدأت فيه رحلتى الذهنية بنهم ، وتعمقت بين أحضانه بضعة أيام ، فردَّ علىَّ خلالها أعصابى ، وصفاء ذهنى ، ومتعة روحى ، ورفاهية نفسى ، ظللت أنتقل فيه من باب إلى باب ، فإذا انتهيت من بحث لغوى شيق ممتع عن لفظة (أعمى) وأخواتها ، طرقت بابا إنسانيا يظهر من خلال أضوائه الواجب الإنسانى فى ظل الإسلام نحو المكفوفين ، فإذا ما انتهيت منه طرقت بابا ثالثا يعرض أخلاق المكفوفين ، فى رحاب الوفاء والشجاعة الأدبية والمروءة والعفة ، وما إليها من القيم الأخلاقية النبيلة ، فإذا ما انتهيت طرقت بابا رابعا يستعرض ذكاء المكفوفين ، ويحلل التصوير الحسى والمعنوى عندهم ، فإذا ما انتهيت طرقت بابا خامسا ، يجلى بوضوح مواقف خالدة مجيدة المكفوفين فى السيرة الإسلامية خلدت حياتهم ، فإذا ما انتهيت طرقت بابا سادسا يكشف عن فن الفكاهة عند المكفوفين ، وكيف أن بعضهم ارتقى بفن الفكاهة إلى مرتبة الأدب الرفيع ، فإذا ما انتهيت طرقت بابا سابعا ، هو عرض موجز مركز لأسباب كف البصر ، وأعمار المكفوفين . وعندما ما انتهيت من هذه الأبواب جميعها وجدت نفسى أمام أثر فنى شامل متكامل جمع روائع الأدب ، وروائع التاريخ ، وروائع اللغة ، وروائع الشعر ، وروائع الفكاهة ، وروائع التحليل النفسى العميق ، ولم يعترنى بعد ذلك ذرة من الريب فى أن الكاتب الموفق قد أقام للمكفوفين بين صفحات سفره الضخم دولة ، أثبتت وجودهم ، وخلدت

كيانهم ، ورفعت قيمهم ، وأعلت منازلهم فى ساحة الأدب والفن ، هؤلاء الذين ظلوا مشردين هنا وهناك فى كتب التاريخ والأدب ، لا يجمع شملهم سفر ، ولا يقيم دولتهم كتاب ، حتى إذا جاء الأستاذ الشرباصى بذل جهدا ذهنيا ضخماً ، ليقيم للمكفوفين دولة ذات عمد وأركان ، فأدى لهم ضريبة الإنسانية ، وأدى للانسانية نفسها واجب الوفاء . .

لا أقول إن الكتاب سد فراغاً فى المكتبة العربية فحسب ، ولكنه سد فراغاً فى المكتبة الإنسانية أيضاً ، فالمكفوفون ضحايا الطبيعة ، وفلذات كبد الإنسانية ، وقد تركوا أثراً أدبياً وعلمياً لا زال يؤدى رسالته فى عالم الأدب والعلم ، وإذا كان الله عز وجل قد أفقدهم نعمة البصر ، فإنما ترك للناس أن يعوضوهم بدلا منها مزيجاً من العاطفة الرقيقة ، والإنسانية الرفيعة ... ومن التعاون مع الطبيعة فى قسوتها ، ومن العقوق للانسانية أيضا ، أن يظل هؤلاء الضحايا غفلا من التقدير والإنصاف ، وهم أحق أجناس البشر بالتقدير والإنصاف .

وإذا كنا فى هذه الآونة نحتفى بكتاب (فى عالم المكفوفين) ونكرم مؤلفه ، فإن خير حفاوة بالكتاب ، وتكريم لمؤلفه ، هو أن نوقظ الوعى لقضية المكفوفين فى بلادنا ، حتى يكون لهم كيانهم الأصيل فى الوطن ، وأن تمتزج إحساساتنا ومشاعرنا نحوهم باحترام إحساساتهم ومشاعرهم ، وهذان هما فيما يبدو هدف المؤلف من إخراج سفره الأدبى الضخم .

إن الأستاذ الشرباصى حين بدأ كتابة مؤلفه ، لم يكن ينتظر أن يقدر الجمهور جهده وأدبه ، وهو على ثقة من أن الأدب الذى يقدره الجمهور اليوم هو أدب إثارة الغرائز ، وأدب الانحلال الخلقى ، وأدب التحلل الدينى ، وبعد ذلك أدب التزلف والنفاق والمراهقة . ولذلك أود أن أقول للباحث العالم الأديب :

حسبك أنك أديت للانسانية واجب الوفاء ، ولا عليك إذا لم يقدر أدبك بلد لا يكاد يشعر إلا بأدب لا يمت إلى الأدب الحقيقى بصلة . . والسلام .

من كلمات التقدير

حينما صدر الجزء الأول من كتاب (فى عالم المكفوفين) تلقته الصحف والمجلات المختلفة فى مصر والعالم العربى بكلمات التقدير والتنويه من الباحثين والنقاد، مما يعد بالعشرات، ولا يتسع المجال لإثبات كل ما كتبوه، فنكتفى بجانب منه، شاكرين مع هذا ما كتبه الأساتذة: محمد رجب البيومى ومحب الدين الخطيب وعبد المنعم النمر ومحمد الطيب النجار ومحمد شاهين حمزة وعبد المنعم خلاف ومحمد أحمد العزب وفتحى عبد المنعم ومحمد عبد المنعم خفاجى ومحمود يوسف وعبد المنعم نور وغيرهم:

١ — من القصصى الكبير الأستاذ محمود تيمور (١)

عزيزى صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصى ..

كان من فضلك علىّ فيما سلف أن أهديت إلىّ بعض ماتؤلف، فأتحت لى متعة كريمة باستطلاع تلك النزعة الإصلاحية الرشيدة التى تملى عليك ما تكتب فى إيمان قوى وإخلاص عميق.

وما وردنى كتابك الجديد الذى أسميته (فى عالم المكفوفين) حتى وجدتنى مسرعاً إلى أن أخلى نفسى لصحبتك فيه، وأنا قرير العين بهذه الخلوة، واثق أنى سأحمد معك تلك الصحبة. ولا أكتم عنك أنى ما كدت أمضى فى تصفح هذا الكتاب حتى امتلأت نفسى روعة بما يتضوأ فى صفحاته من روح إنسانية رفيعة، تثير العاطفة أبلغ إثارة، وتهز المشاعر أقوى هزة، وتجلو للبصائر أفقاً نيِّراً تستبين فيه من الحياة سرائر وطوايا.

كنتَ بارعاً حين عرضتَ لنا عالم المكفوفين هذا العرض الزاخر، فاستوفيت الحديث عن أولئك الذين استبدلوا بالبصر رهافة حس، وحدة فطنة،

---

(١) عن مجلة الصباح — ١٢ إبريل سنة ١٩٥٦.

ومتانة خلق ، وكنت بارعاً كذلك حين صورت لنا ما يمتازون به من قوة استجابة للحياة ، بما فيها من جد نافع ، ومن لهو أنيس .

أجل ، لقد واتتك البراعة ، حتى كدت تحبب إلى البصراء أن ينفسوا على المكفوفين ما يسعدون به فى عالمهم الجياش بالحيوية والألمعية وصفاء الإلهام .

وأعجب أمرك فى هذا الكتاب ماتهديت إليه فى شأن أعمار المكفوفين خلال التاريخ ، إذ لاحظت أن كثرتهم من المعمَّرين ، وحاولت أن ترد ذلك إلى الراحة من شواغل النظر والمشاهدة ، ولست أحسب أن ثمة سلوى لنفس المكفوف أجل أثراً من أن يتاح له طول البقاء بديلا من الإبصار ، بل لست أحسب أن ثمة أمنية لنفس المبصر أعز من أن يطول بقاؤه على ظهر الأرض وإن عاش فى عالم المكفوفين .

وأكبر ظنى أيها الصديق أنك ستشق بكتابك هذا على من يريدون إلحاقَه بفن من فنون التأليف ، فإنهم يحارون فيه ... إن ألحقوه بالعلم فهو ذاك ، لما حوى من دراسة وتحقيق ؛ وإن وصلوه بالتاريخ فله منه نصيب موفور ، وإن درجوه فى الاجتماع فما ظلموه.. وإن عدوه كتاباً فى الأخلاق ، فليس هو منها ببعيد .

ما أنت بحاجة إلى من يشيد بما بذلت من جهد فى تأليف هذا الكتاب . . فى تجميع مواده . . فى لم شتاته .. فى البحث هنا وهناك عن الشوارد والأوابد . فإن قارئك لا يعيا بإدراك ذلك حين يطالع هذا الحشد الحاشد من الطرائف واللقطات ، بين شرقى وغربى ، قديم وحديث .

حسبك منى أن أحييك ، أحيي فيك ذلك الدأبَ فى خدمة العلم والأدب ، وأحيي فيك — على وجه خاص — هذا الغرض النبيل الذى حداك على أن تجعل عالم المكفوفين مراداً لبحثك ودراستك ، لكى تستنهض العزائم والهمم ، حتى تؤدى الواجب نحو (أولئك الذين حرمتهم الأقدار نعمة الإبصار) .

وهكذا أنت — كما عرفناك — حامل رسالة ، هى رسالة بر وخير ، وصاحب دعوة ، هى دعوة حق وإصلاح . . .

بارك الله سعيك ، وزادك من توفيق ؟

محمود تيمور

٢ — كلمة الدكتورة بنت الشاطىء (١)

« وهذا الكتاب أيضا لرجل من رجال الأزهر عرف له المجتمع نشاطه الجم الوفير ، وقرأتُ له من قبل أكثر مؤلفاته التى بلغت العشرين عدا ، أذكر منها : « صلوات على الشاطىء ، عائد من الباكستان ، مذكرات واعظ أسير ، النيل فى ضوء القرآن ، غربة الإسلام ، أيام الكويت ، القصاص فى الإسلام » . وهى موضوعات تعطى القارئ فكرة عن المجال الرحب الذى يجول فيه فضيلة الشيخ أحمد الشرباصى .

وكتابه الجديد يبدو استجابة لما ظهر فى مجتمعنا حديثا من عناية بالمكفوفين ، لكن صلة الأستاذ الشرباصى بشئون المكفوفين ترجع فى الواقع إلى سنوات مضت ، ففى عام ١٩٥٠ ألقى فى دار المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين بالقاهرة ، أربع محاضرات عن المكفوفين ، كان لها من حسن الأثر و بعيد الصدى ، ما جعل (المركز النموذجى لتدريب المكفوفين بالزيتون) يدعو فضيلته فى العام الماضى لإلقاء سلسلة من المحاضرات على مبعوثى البلاد العربية للتدرب على هذه الخدمة الإنسانية النبيلة .

ومحاضراته هذه هى نواة الكتاب الذى نقدمه اليوم ، وقد ضم إليها من دراساته ومطالعاته ، حتى استكملها سفرا ... والكتاب تاريخ ، وأدب ، ودعوة :

(١) مجلة الأدب ، عدد يونيه سنة ١٩٥٦ .

فهو من الناحية التاريخية ، قد جمع ماورد فى القرآن الكريم عن المكفوفين ، وما تناثر فى كتب الحديث والفقه والتاريخ الإسلامى من أخبارهم ، ثم عرضها منسقة فى فصول عن (المكفوف فى نظر الإسلام) ، (من أخلاق المكفوفين) ، (مواقف فى السيرة للمكفوفين) . . .

وأما الناحية الأدبية ، فتستأثر بها الفصول التى تحدثت عن : (أبى العلاء المعرى) ، الشاعر المكفوف (أحمد الزين) ، التصوير الحسى والمعنوى فى شعر المكفوفين ، قصائد فى المكفوفين .

وأما من ناحية الدعوة ، فقد حرص الكاتب على أن يضع بين أيدى المكفوفين ما وعى التاريخ من عبقريات مكفوفة ، وأن يملأ أسماعهم بنوادر عن ذكاء المكفوفين ومليح فكاهتهم ، ليكون لهم من ذلك كله أسوة حسنة تغريهم بالكفاح ، وتذود عنهم اليأس والكآبة والجمود ، كما حرص فى الوقت نفسه على أن يستثير أكرم مافى النفوس الخيرة ، لتبذل أقصى ماتستطيع من أجل هؤلاء الذين كتب عليهم الحرمان من نور العين » .

٣ — من الأمين العام لجامعة الدول العربية (١)

فضيلة الأستاذ أحمد الشرباصى .

السلام عليكم ورحمة الله . تلقيت بالشكر كتابكم القيم : (فى عالم المكفوفين) ، وقد قرأته فوجدته جديرا بالدراسة ، ولذلك أحلناه إلى إدارة الشئون الاجتماعية بالأمانة العامة ، وإني إذ أكرر شكرى أقدر فيكم المجهود الكبير الذى بذلتموه فى سبيل إخراج هذا الكتاب إلى حيز الوجود ، متمنيا لكم دوام التوفيق ، وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

الأمين العام : عبد الخالق حسونة

القاهرة فى ١ فبراير ١٩٥٦

(١) مجلة الشبان المسلمين ، عدد مايو سنة ١٩٥٦ .

٤ — من المشرف العام على الشئون الاجتماعية[1]

بجامعة الدول العربية

القاهرة فى أول فبراير سنة ١٩٥٦ .

أخى الأستاذ الفاضل أحمد الشرباصى .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد فقد تسلمت شاكرا النسخة التى تفضلتم بإهدائها إلى من مؤلفكم القيم : (فى عالم المكفوفين) . ولا شك أن اهتمامكم بهذه الفئة — علاوة على نشاطكم ودراساتكم فى شتى الميادين الاجتماعية والثقافية والدينية — ليدل دلالة ساطعة على ما تتحلون به من رقة العاطفة ، ونبل المقصد ، وكريم الشعور .

ولا شك فى أن كتابكم القيم سيلقى مايستحقه من انتشار وتقدير ، خصوصا وهو يعتبر الأول من نوعه باللغة العربية ، زادكم الله توفيقا ، مع خالص شكرى وفائق احترامى .

المخلص : محمد العشماوى

٥ — من الأمين العام المساعد لجامعة الدول العربية[2]

« أرسل الأستاذ الكبير الدكتور رئيف أبو اللمع الأمين العام المساعد لجامعة الدول العربية الخطاب التالى إلى صاحب الفضيلة الشيخ أحمد الشرباصى الأستاذ بالأزهر ، ورائد جمعيات الشبان المسلمين ، عن كتاب فضيلته الجديد : (فى عالم المكفوفين) » :

---

(١) مجلة الشبان المسلمين ، عدد مايو سنة ١٩٥٦ .

(٢) هذا منقول عن مجلة الحج المكية ، عدد ديسمبر سنة ١٩٥٦ .

«أستاذى المحترم ، رجل الدين والمروءة والأدب — الشيخ أحمد الشرباصى ، حفظه الله لنا .

تأخرت عن إرسال كلمة فى كتابك الجديد : (فى عالم المكفوفين) الذى تفضلت — كعادتك — بإهــداً ئى نسخة منه ، ولكنك أنت المسئول عن هذا التأخير ..

ولا أسألك الاعتذار ، ولكنى ألتمس العفو ، وأرجو قبول العذر ..

إن موضوع المكفوفين هو موضوع يسترعى فى فكرى وفى قلبى كل اهتمام ، فقد كنت قبلا عضواً فى جمعية حماية المكفوفين فى لبنان ، وكم كتبت ، وكم خطبت فى هذا الموضوع الإنسانى المحزن الحزين . .

فأنت إذن تضرب على (نقطة ضعف) فى ، وتنقر على وتر دقيق حساس ..

والكاتب أيضاً هو أنت ... وليس بوسعى أن أتناول كتابا أملاه قلبك الكبير ، وخطه قلمك البليغ ، فأمر به من الكرام ، وأكتفى منه بإرسال بطاقة شكر . .

ودفعتنى زحمة الأعمال التى تعرفها إلى التأجيل ، حتى من الله على بثلاثة أيام كنت فيها طريح الفراش ، وكان كتابك سلواى ، فآمنت — مستغفرا الله — بنبوءة أبى الطيب المتنبى القائل : « كفى بك داء أن ترى الموت شافيا » !!. . .

لم أقرأ كتابا فى اللغة العربية يعالج قضية المكفوفين من جميع نواحيها الجسدية والروحية والإنسانية ككتابك الأخير ، فأنا مؤمن بما قلت : « إن المجتمع قد ظلم المكفوفين ظلماً واضحاً ، حتى أصبحت كلمة المكفوف لفظاً مرادفا لكلمة العاجز ، وإن الأوان قد آن لنعيد إلى المكفوف ثقته بنفسه ، ولنهيىء له السبيل ليعيش عيشة حرة مطمئنة كريمة» ..

وفى العالم اليوم — كما قلتَ — كثير من الذين لا يبصرون وهم غير مكفوفين ،

فالذين يبصرون ببصائرهم — كما قال المنفلوطى — أقل من الذين يبصرون بأبصارهم . .

ولما كنا نسعى سعياً متواصلا لتأسيس مطبعة عربية للمكفوفين ، تطبع لهم الكتب بالأحرف النافرة ، وأصبح المشروع فى طريق التحقيق ، لذلك سأقترح على اللجنة المختصة أن تضع كتابك هذا فى أول الكتب التى تختارها ، ففيه نور لبصائرهم ، وعلم لعقولهم ، وتعزية لقلوبهم المنكسرة . .

كما وأنى أرجوك أن تتكرم بإرسال خمس وعشرين نسخة من الكتاب إلى الأمانة العامة ، مع كشف بالثمن ، لنوزعها على المكتبات العامة ، ودور المكفوفين فى الأقطار العربية جمعاء .

أدامك الله يا شيخى الجليل ، و ياصديقى الكريم ، رجل دين و إصلاح ، ورجل مروءة نبيلة وشعور حساس . ولك من المكفوفين جزيل الشكر ، ومناجميل الثناء ، ومن الله حسن الجزاء .

صديقك المخلص

رئيف أبو اللمع

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهــــداء	٣
تقديم	٤
لماذا أكتب عن المكفوفين ؟	١٢
الرسول والمكفوفون	١٧
أحكام المكفوف	٣١
أمثال المكفوفين	٥٩
معجم العين	٧٧
عين فى سبيل الله	٩٩
عمر بن عبد العزيز والمكفوفون	١٠٥
مكفوفة تتحدى العجز (هيلين كيلر)	١١١
مع المكفوفين المعاصرين:	١٣٠

الدكتور طه حسين ص١٣٢ — الدكتور محمد غلاب ص١٤١ الدكتور محمد مصطفى حلمى ص ١٥٤ — الدكتور عبد الحميد يونس ص ١٦٣ الشيخ الصاوى شعلان ص ١٧٢ — الدكتور صلاح مخيمر ص ١٨٠ الأستاذ فتحى عبد المنعم ص ١٨٩ — الدكتور محمد العلائى ص ١٩٨ الشيخ رمضان السيد ص ٢١١ — الدكتور صلاح العقاد ص ٢١٨ الشيخ حسين المرصفى ص ٢٢٧ — الشيخ يوسف الدجوى ص ٢٣٨ الشيخ محمد رفعت ص ٢٥١ — الشيخة منيرة عبده ص ٢٦٤

معهد النور للمكفوفين فى الكويت	٢٦٦
مكفوف من الكويت (الأستاذ عبد الرزاق البصير)	٢٧٦

الموضوع	الصفحة
المسيح والمكفوف	٢٨٠
فى دنيا المكفوفين :	٢٨٣

خلاصة كلمة المؤلف ص ٢٨٣ — كلمة الدكتور فتحى عبد المنعم ص ٢٨٥ كلمة الدكتور عبد الحميد يونس ص ٢٩٠ — كلمة الدكتور عبد المنعم نور ص ٢٩٤

قصص عن المكفوفين :	٢٩٧

العاشق المكفوف ص ٢٩٧ — مشاهدات عمياء ص ٣٠٢
انطفأ النور ثمات الحب ص ٣٠٨ — الأعمى ص ٣١٢

قصائد فى المكفوفين :	٣١٦

العميان لإيليا أبى ماضى ص ٣١٦ — إلى عازف أعمى للشابى ص ٣١٩ قيمة البصر للأسمر ص ٣٢١ — الشاعر الأعمى للعقاد ص ٣٢٤ صوت المكفوفين للصاوى شعلان ص ٣٣٣ — المكفوف لحسن جاد ص ٣٣٥ — الضريرة لكامل أمين ص٣٣٧ — تحية المكفوف لخليل جرجس خليل ص ٣٣٨ — خواطر مكفوف لمحمد أحمد العزب ص ٣٤٠ — لاقيت مكفوفا لشعلان ص ٣٤٣ — طريد المجتمع لعبد الله أبو عيد ص٣٤٤ — الضرير للدكتور بيضا ص ٣٤٧ — الليل والضحايا لكمال عمار ص٣٥١ — خواطر مكفوف لعبد الغفار الدلاش ص ٣٥٢ — العين الزجاجية لوايلد والبيومى ص٣٥٥ — خواطر بكماء للعزب ص ٣٥٧ — اليتيم المكفوف الضائع لعبد الله سنان ص ٣٥٩ — المكفوفون لبودلير وناجى ص ٣٦١ — قطع أخرى (٣٦٢ — ٣٦٧) — المقامة المكفوفية ص٣٦٨

ندوة عن كتاب فى عالم المكفوفين	٣٧٠
من كلمات التقدير	٣٩٢